

# جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

## وحده الوقت يكشف الحقيقة

ONLY TIME WILL TELL

مذكرات آل كليفتون

على لائحة أكثر  
الكتب مبيعا  
بيع منه أكثر من  
280 مليون  
نسخة



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.

# وحده الوقت يكشف الحقيقة مذكرات آل كليفتون

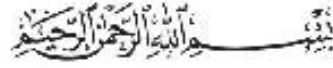
الجزء الأول

## جيفري أرشير

ترجمة  
جميل قاسم

مراجعة وتحرير  
مركز التعريب والبرمجة

مكتبة الكندل العربية  
مكتبة الرمحي أحمد



ينضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

## Only Time Will Tell

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

PAN BOOKS

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2011 by Jeffrey Archer

All rights reserved

Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2016 م - 1438 هـ

978-614-02-2877-1

ردمك

### جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

عمين التينة، شارع أممّتي توفيق خالد، بناية التريم  
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروعة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون.

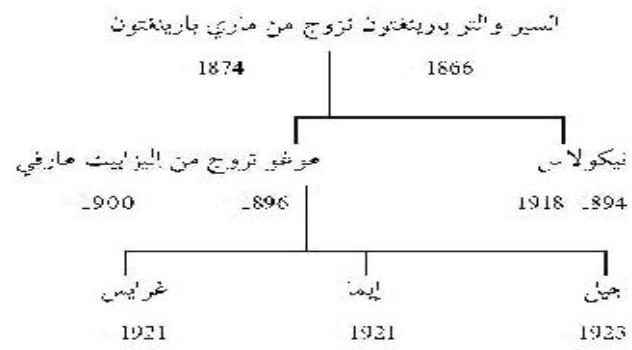
تصميم الغلاف: علي الفهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أيجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

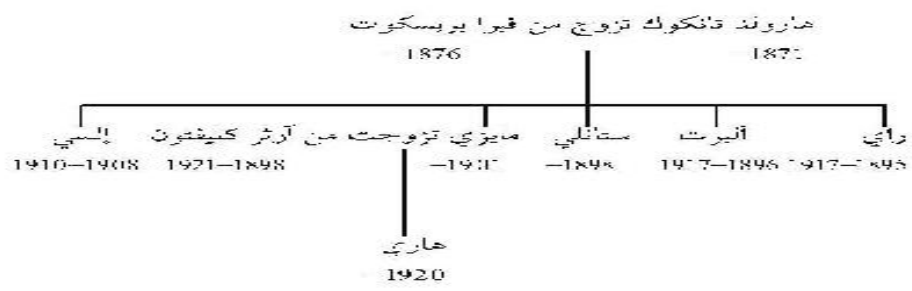
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

ألان كويلتر  
1998-1927

## آل بارينغتون



## آل كليفتون



مايزي كليفتون

1919

ما كانت هذه القصة لتكتب لو لم أصبح حاملاً. وللتذكير، لطالما أردتُ فقدان عذريتي في رحلات العمل إلى ويستون- سوبر- ماري، ولكن ليس تحديداً مع ذلك الرجل.

ولد آرثر كليفتون في ستيل هاوس لاين؛ تماماً مثلي. حتى إننا ذهبنا إلى المدرسة نفسها؛ ابتدائية ميريوود، ولكنني كنت أصغر منه بعامين فلم يعرف حتى بوجودي. كل الفتيات في صفي أغرمن به، وليس السبب فقط أنه «كابتن» فريق كرة القدم في المدرسة.

ورغم أن آرثر لم يظهر قط أي اهتمام بي حين كنت في المدرسة، إلا أن الأمر تبدل سريعاً بعد أن عاد من الجبهة الغربية (ويسترن فرونت). ولست واثقة من أنه عرف فعلاً من أكون حين طلب مني الرقص معه ليلة السبت تلك في «القصر». ولكن، لأكون عادلة، توجب عليّ النظر إليه مرتين للتعرف إليه؛ لأنه امتلك شاربين رفيعين وأرجع شعره إلى الخلف مثل رونالد كولمان. لم ينظر إلى أية فتاة أخرى تلك الليلة، وبعدها رقصنا رقصة الفالز الأخيرة، عرفتُ أنها مسألة وقت فقط قبل أن يطلبني للزواج.

أمسك آرثر بيدي فيما عدنا إلى المنزل، وعندما وصلنا إلى الباب الأمامي لمنزلي حاول تقبيلي، فاستدرتُ بعيداً. ففي النهاية، أخبرني رجل الدين واتس غالباً أنه يجدر بي البقاء طاهرة إلى يوم زواجي، كما حذرتني الأنسة مانداي- مدرّبة الجوقة- من أن الرجال يريدون شيئاً



واحدًا فقط، وعندما يحصلون عليه يفقدون الاهتمام بسرعة. وتساءلت غالباً عما إذا كانت الأنسة مانداي تتحدث عن خبرة.

يوم السبت التالي، دعاني آرثر إلى السينما لمشاهدة ليليان جيش في فيلم براعم مكسورة. ورغم أنني سمحتُ له بأن يضع ذراعاً حول كتفي، إلا أنني لم أسمح له بتقبيلي. لم ينزعج كثيراً. في الحقيقة، كان آرثر خجولاً.

يوم السبت التالي سمحتُ له بتقبيلي، ولكنه عندما حاول وضع يده تحت قميصي دفعته بعيداً. في الواقع، لم أسمح له بأن يفعل ذلك إلا حين طلبني للزواج، واشترى لي خاتماً.

أخبرني أخي ستان أنني آخر عذراء معروفة في جهتنا من نهر أيفون؛ رغم اعتقادي أن معظم مغامراته كانت محصورة في عقله. إلا أنني قررت أن الوقت قد حان، فهل من وقت أفضل من رحلة العمل إلى ويستون- سوبر-ماري مع الرجل الذي سأتزوجه خلال أسابيع قليلة؟

لكن، ما إن نزل آرثر وستان من الحافلة حتى توجهها مباشرة إلى أقرب مقهى. إلا أنني كنت قد أمضيت الشهر الفائت كله وأنا أخطط لهذه اللحظة، ولذلك عندما نزلت من الحافلة مثل فتاة كشافة جيدة كنت مستعدة.

كنت متوجهة صوب الرصيف وأنا أشعر بغضب شديد حين أدركتُ أن أحداً ما يلحق بي. نظرتُ حولي، وتفاجأت حين رأيت من يكون. لحق بي وسألني عما إذا كنت وحدي.

أجبت «نعم»؛ لأنني أدركت أن آرثر قد بدأ بتناول كأسه الثالثة حينها.

عندما وضع يده على مؤخرتي، كان يجدر بي صفعه على وجهه، ولكنني لم أفعل ذلك لأسباب عدة. ففي البداية، فكرت في إيجابيات العلاقة الحميمة مع شخص لا يحتمل أن أصادفه مجدداً؛ وعليّ الاعتراف بأنني أحببت تصرفاته.

وفي الوقت الذي كان فيه آرثر وستان يشربان الكأس الثامنة، حجز لنا غرفة في فندق صغير قبالة شاطئ البحر. بدأ أنهم يقدمون أسعاراً خاصة للزوار الذين لا ينوون قضاء الليل. بدأ يقبلني حتى قبل أن نصل إلى منبسط درج الطابق الأول. وحين أغلق باب غرفة النوم خلفنا، باشر في فك أزرار قميصي بسرعة. بدا جلياً أنها ليست المرة الأولى بالنسبة إليه. في الواقع، أنا واثقة من أنني لست الفتاة الأولى التي يقوم بعلاقة حميمة معها عند لقائها في رحلات العمل، وإلا فكيف عرف بشأن الأسعار الخاصة في الفندق؟

عليّ الاعتراف بأنني لم أتوقع قط أن تنتهي الأمور بتلك السرعة. وبعد أن ابتعد عني، دخلت الحمام فيما جلس على طرف السرير وأشعل سيجارة. قلت لنفسني إن الأمور قد تكون أفضل في المرة الثانية، لكنني عندما خرجت من الحمام، لم أره في أي مكان. عليّ الاعتراف بأن أمني قد خاب فعلاً.

كنت سأشعر بذنب أكبر لأنني خنت آرثر لو لم يتقياً عليّ خلال رحلة العودة إلى بريستول.

وفي اليوم التالي، أخبرت أمي بما حصل، من دون أن أفصح عن هوية الرجل. ففي النهاية، لم تلتقه حتى ذلك الحين، ولا يحتمل أن تفعل ذلك أبداً. عندها، طلبت مني أمي إبقاء فمي مغلقاً لأنها لا تريد إلغاء

الزفاف. وحتى لو تبين أنني حامل، فلا يمكن لأحد أن يعرف ذلك لأنني سأتزوج من آرثر قبل أن يلاحظ أي شخص.

# هاري كليفتون 1920-1933

قيل لي إن والدي قتل في الحرب.

وكلما سألت أمي عن موته، كانت تكتفي بالقول إنه خدم مع فوج غلوسيسترشاير الملكي وقُتل أثناء المعارك على الجبهة الغربية قبل أيام فقط من توقيع اتفاق الهدنة. قالت لي جدي إن والدي كان رجلاً شجاعاً، وذات مرة عرضت عليّ ميدالياته حين كنا وحدنا في المنزل. نادراً ما أبدى جدي رأيه في أي شيء، ولكنه حينها كان أصم، حيث لم يسمع السؤال أساساً.

الرجل الآخر الوحيد الذي أذكره هو عمي ستان الذي اعتاد الجلوس عند رأس المائدة في موعد الفطور. وكلما غادر صباحاً، كنت ألحق به غالباً إلى أرصفة الميناء حيث يعمل. وكل يوم أمضيته في موقع بناء السفن كان مغامرة حقيقية بالنسبة إليّ. كانت سفن الشحن تأتي من أصقاع بعيدة لتفرغ حمولتها: الأرز، السكر، الموز، القنب والعديد من الأشياء الأخرى التي لم أسمع بها قط من قبل. وبعد إفراغ عنابر السفن، كان العمال يحمّلونها بالملح، والتفاح، والقصدير، وحتى الفحم (غير المفضل لديّ لأنه كان يشير بوضوح إلى ما كنت أفعله طوال اليوم؛ مما يزعج أمي)، قبل أن تنطلق السفن مجدداً إلى حيث لا أدري. لطالما أردت مساعدة الخال ستان في إفراغ حمولة السفينة التي تصل كل صباح، ولكنه كان يضحك ويقول: «كل شيء حلو في وقته يا صغيري». كنت مستعجلاً جداً، ولكن المدرسة اعترضت الطريق من دون سابق إنذار.

تم إرسالني إلى مدرسة ميريوود الابتدائية حين كنت في السادسة، ووجدتُ الأمر مضيعة كاملة للوقت. فما الجدوى من المدرسة فيما أنا قادر على تعلم كل ما أحتاج إليه على أرصفة الميناء؟ ما كنت لأزعج نفسي بالعودة في اليوم التالي لو لم تجرّني أُمي إلى البوابة الأمامية وتتركني هناك، ثم تعود عند الرابعة من بعد الظهر لاصطحابي إلى المنزل.

لم أدرك أن أُمي لديها مشاريع أخرى لمستقبلي؛ لا تشمل الانضمام إلى الخال ستان في حوض السفن.

بعدها كانت أُمي توصلني إلى المدرسة كل صباح، كنت أتجول في الملعب إلى أن تصبح بعيدة عن الأنظار، ثم أتسلل إلى المرفأ. كنت أحرص دوماً على العودة إلى بوابة المدرسة قبل أن تعود لاصطحابي بعد الظهر. وفي طريق العودة إلى المنزل، كنت أخبرها عن كل ما فعلته في المدرسة في ذلك اليوم. كنت بارعاً في اختلاق القصص، لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تكتشف أنها كانت كلها مجرد حكايات.

ثمّة صبي آخر أو اثنان من مدرستي اعتادا أيضاً الذهاب إلى أحواض السفن، لكنني كنت أبقى بعيداً عنهما. كانا أكبر مني سناً وحجماً، واعتادا ضربني إذا صادفتهما. كما توجّب عليّ أيضاً توخي الحذر من السيد هاسكينز\_المسؤول عن العمال\_ لأنه إذا اكتشف أنني أتسكع، مثلما كان يحب أن يقول، كان يطردني مع ركلة على الظهر والتهديد: «إذا رأيتك تتسكع هنا مجدداً يا صغيري فسأخبر مدير المدرسة».

بين الحين والآخر، كان هاسكينز يراني فيبلغ عني مدير المدرسة الذي يجلدني قبل أن يرسلني إلى صفي. ولم يكن أستاذي السابق، السيد هولكومب، يفشي أمر غيابي إذا لم أحضر صفه، فقد كان متساهلاً قليلاً حينها. حين اكتشفت أُمي أنني أهرب من المدرسة لم تستطع إخفاء

غضبها، ومنعت عني مصروف الجيب البالغ نصف بنس أسبوعياً. لكن بالرغم من تعرضي للضرب بين الحين والآخر على يد الصبي الأكبر، وتعرضي المنتظم للجلد من قبل مدير المدرسة، وخسارتي مصروف الجيب، لم يكن بوسعي مقاومة انجذابي إلى أحواض المرفأ.

كان لدي صديق واحد حقيقي أثناء «تسكعي» في المرفأ، واسمه العجوز جاك تار. كان السيد تار يعيش في مقطورة قطار مهجورة في طرف المرفأ. وقد طلب مني الخال ستان البقاء بعيداً عن العجوز جاك لأنه عجوز غبي وقذر. غير أنه لم يبد لي قدراً إلى تلك الدرجة الفادحة؛ إذ لم يكن حتماً قدراً بقدر ستان، ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفت أنه ليس غيباً أيضاً.

بعد تناول الغداء مع الخال ستان، امؤلف من قزمة من شطيرة الجبن، وما تبقى من التفاحة التي رماها، وجرعة من الشراب كنت أعود إلى المدرسة في الوقت لحضور مباراة كرة القدم؛ وهو النشاط الوحيد الذي اعتبره جديراً بالحضور. في النهاية، حين أترك المدرسة سأذهب إلى نادي بريستول أو أشيّد سفينة أجوب فيها العالم. لو بقي السيد هولكومب صامتاً ولم يخبر مدير المدرسة بهروبي، لاستطعت الاستمرار لأيام طويلة من دون أن يكتشفني أحد؛ طالما أنني أتفادي حمولة الفحم وأقف عند بوابة المدرسة في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم؛ لأن أمي ما كانت لتكتشف الأمر وحدها.

يوم السبت من كل أسبوعين، كان الخال ستان يأخذني لمشاهدة مباريات نادي بريستول سيتي في آشتون غايت. وصباح يوم الأحد، كانت أمي تصطحبني إلى دار العبادة، ولم أجد طريقة للتهرب من ذلك. لكن

بعد أن ينهي رجل الدين واتس طقوسه، كنت أركض إلى أرض الملعب وأنضم إلى رفاقي للمشاركة في لعبة كرة القدم قبل أن أعود إلى المنزل في الوقت المناسب لتناول العشاء.

عندما أصبحت في السابعة، بدا جلياً لكل من يفهم في كرة القدم أنني لن أنضم يوماً إلى فريق المدرسة، فكيف بالقول فريق بريستول سيتي. لكن في تلك المرحلة، اكتشفت أن الله منحني موهبة صغيرة، ولم تكن في قدمي.

في البداية، لم ألاحظ أن كل من جلس قربي في دار العبادة صباح يوم الأحد كان يتوقف عن الإنشاد كلما فتحت فمي. لم أفكر في الأمر كثيراً لو لم تقترح عليّ أمي الانضمام إلى جوقة الإنشاد. ضحكت بسخرية. ففي النهاية، يعرف الجميع، أن جوقة الإنشاد هي فقط للبنات والمخنثين. كنت سأتخلى من دون شك عن الفكرة لو لم يخبرني رجل الدين واتس أن الصبيان المشاركين في الجوقة يحصلون على بنس في الجنازات، وبنسين في مراسم الزواج. كانت تلك تجربتي الأولى في الرشوة. لكن، حتى بعد أن وافقت على مضمض على الخضوع لاختبار صوتي، شاء القدر وضع عقبة في طريقي؛ على شكل الأنسة إيونور إ. مانداي.

ما كنت لأصادف قط الأنسة مانداي لو لم تكن المسؤولة عن الجوقة في دار العبادة. ورغم أن طولها لا يتعدى خمس أقدام، وتبدو كما لو أن رياحاً خفيفة كفيفة بحملها بعيداً، لم يحاول أحد أن يسخر منها. أشعر أن الجميع يخاف من الأنسة مانداي.

وافقتُ على الخضوع لاختبار صوتي، ولكن ليس قبل أن تعطيني أمي مصروف جيبى لشهر كامل مسبقاً. يوم الأحد التالي، وقفتُ في الصف مع مجموعة من الأولاد الآخرين وانتظرت ريثما يُنادى اسمي.



أعلنت الآنسة مانداي وهي تنظر إليّ بعينين ثاقبتين: «عليكم الوصول دوماً في الوقت المحدد للمشاركة في تمارين الجوقة. لن نتحدثوا أبداً إلا إذا طلب منكم ذلك». نظرتُ إليها بتحدٍّ، ونجحتُ نوعاً ما في البقاء صامتاً. «وخلال الاحتفال الديني، عليكم التركيز طوال الوقت». أومأت برأسي على مضمض، ثم سمحتُ لنا بالانصراف بعيداً، الحمد لله. غير أنها أضافت وقد وضعت يديها على وركيها: «لكن الأهم هو أنه بعد اثني عشر أسبوعاً، يفترض بكم الخضوع لاختبار في القراءة والكتابة، لتأكد من أنكم تستطيعون التعامل مع أنشودة جديدة أو غير مألوفة». سررتُ لأنني واجهت أول عقبة، لكنني اكتشفت أن الآنسة إليونور مانداي لا تستسلم بسهولة.

سألتني عندما وصلت إلى مقدمة الرتل: «ما هي الأنشودة التي قررت إسماعنا إياها أيها الولد؟». فأجبتها: «لم أختَر أي شيء».

فتحتُ دفتر الأناشيد وأعطتني إياه وجلست أمام البيانو، فابتسمتُ لفكرة أنني قد أتمكن من مشاهدة النصف الثاني من مباراة كرة القدم صباح الأحد. بدأت تعزف لحناً مألوفاً، وعندما رأيتُ أمي تحديق إليّ بغضب من الصف الأمامي للمقاعد الخشبية، قررتُ أنه من الأفضل لي أن أنشد؛ فقط لجعلها سعيدة.

«كل الأشياء مشرقة وجميلة، كل الكائنات رائعة وصغيرة، كل الأشياء حكيمة ومذهلة...» ارتسمت ابتسامة على وجه الآنسة مانداي قبل أن أصل إلى عبارة «الله خلقها كلها».

سألتني: «ما اسمك أيها الصغير؟».

«هاري كليفتون، أنستي».

«هاري كليفتون، عليك أن تحضر تمارين الجوقة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة في تمام الساعة السادسة». ثم استدارت صوب الصبي الواقف خلفي وقالت: «التالي!».

وعدتُ أمي بأن أكون موجوداً في الوقت المحدد للمشاركة في التمرين الأول للجوقة؛ على الرغم من معرفتي بأنه سيكون تمريني الأخير، لأن الأنسة مانداي ستدرك سريعاً أنني لا أستطيع القراءة أو الكتابة. كان سيكون تمريني الأخير لو لم يبدُ جلياً لكل شخص سمع صوتي في الإنشاد بأنه ذو طبقة مختلفة عن تلك الموجودة عند أي صبي آخر في الجوقة. في الواقع، ما إن فتحتُ فمي حتى صمت الجميع، وظهرت في دار العبادة علامات التعجب، لا بل الدهشة التي كنت أتوق إليها في ملعب كرة القدم. إلا أن الأنسة مانداي زعمت أنها لم تنتبه.

وبعد أن صرفتنا لم أذهب إلى المنزل، وإنما ركضت إلى أحواض السفن كي أسأل السيد تار عما يجدر بي فعله لأنني لا أجيد القراءة والكتابة. أصغيت بانتباه إلى نصيحة الرجل العجوز، وفي اليوم التالي عدت إلى المدرسة وأخذت مكاني في صف السيد هولكومب. لم يخفِ المدرّس دهشته عندما رأي جالساً في الصف الأمامي، وتفاجأ أكثر عندما انتبعت إلى الدرس الصباحي للمرة الأولى.

بدأ السيد هولكومب بتعليمي الأبجدية، وخلال أيام قليلة، باتت باستطاعتي كتابة أحرف الأبجدية كلها، وإن لم أكن أفعل ذلك دوماً بالتسلسل الصحيح. لا بد أن أمي كانت ترغب في مساعدتي حين أعود إلى المنزل بعد الظهر، ولكنها - مثل بقية أفراد العائلة - لا تستطيع أيضاً القراءة أو الكتابة.

يستطيع الخال ستان كتابة توقيعه فقط، ورغم قدرته على التمييز بين علبة دخان «ويلز ستار» و«ووايلد وودباينز»، كنت واثقاً تماماً من أنه لا يستطيع قراءة اللصائق. وعلى الرغم من دمدماته غير المفيدة، رحبْتُ أكتب أحرف الأبجدية على أية قصاصة ورقية أجدها. يبدو أن الخال ستان لم يلاحظ أن الجريدة الممزقة في حجرة المرحاض كانت دوماً مغطاة بالأحرف.

بعد أن حفظت أحرف الأبجدية، علّمني السيد هولكومب بعض الكلمات البسيطة: «كلب»، «هرة»، «ماما» و«بابا». كانت تلك هي المرة الأولى التي أسأله فيها عن أبي، على أمل أن يستطيع إخباري شيئاً عنه. ففي النهاية، يبدو أنه يعرف كل شيء. لكنه بدا مرتبكاً لأنني أعرف القليل جداً عن أبي. بعد أسبوع، كتبت أول كلمة من أربعة أحرف على اللوح الأسود، «كتاب»، ومن ثم خمسة أحرف، «مدرسة». وفي نهاية الشهر، استطعتُ كتابة جملتي الأولى، «الثعلب البني السريع يقفز فوق الكلب الكسول»، وقد قال السيد هولكومب إن هذه الجملة تحتوي على معظم أحرف الأبجدية. وعندما تحققت مما قاله، وجدت أنه محق.

في نهاية الفصل، بات بوسعي قراءة الأناشيد، لكن السيد هولكومب ظلّ يذكرني بأنني لا أزال أبتلع الحروف حين أتكلم. ثم حل موعد الإجازة، وبدأت أخشى عدم تمكني من اجتياز امتحان الأنسة مانداي الصعب من دون مساعدة السيد هولكومب. وكان ذلك سيحصل ربما لولا تدخل العجوز جاك.

وصلت قبل نصف ساعة من موعد تمارين الجوقة مساء الجمعة، وعلمتُ حينها أنه عليّ اجتياز امتحان ثانٍ إذا أردت الاستمرار كعضو في

الجوقة. جلست بصمت على المقعد الخشبي؛ على أمل أن تختار الأنسة مانداي شخصاً آخر قبل أن تناديني.

كنت قد نجحت في الامتحان الأول بامتياز وتفوق حسب قول الأنسة مانداي؛ إذ طلب منا جميعاً إنشاد إحدى الأناشيد، ولم يكن القيام بذلك مشكلة بالنسبة إليّ؛ لأن أمي لطالما رددتها قرب سريري كل ليلة وكررت الكلمات المألوفة قبل أن تغطيني. لكن تبين أن الامتحان التالي للأنسة مانداي أكثر تطلباً.

في هذه المرحلة، أي في نهاية الشهر الثاني، كان يفترض بنا قراءة صفحة من كتاب بصوت عالٍ أمام بقية أفراد الجوقة، فاخترتُ الصفحة 121 التي كنت أعرفها عن ظهر قلب لأنني رددتها كثيراً في الماضي. أملت فعلاً ألا أخطئ. ورغم أنني استطعت فتح الصفحة المناسبة في الكتاب لأنني أصبحت الآن أعرف كيفية العدّ من واحد وحتى مئة، إلا أنني خشيتُ أن تدرك الأنسة مانداي أنني عاجز عن تتبع الكلمات في السطور. ولو لاحظت ذلك لما كانت قد سمحت لي بالمتابعة، والدليل على ذلك أنني بقيت في صفوف الجوقة لشهر إضافي، فيما تم إرسال الفاشلين على حد قولها- ولم أعرف معنى الكلمة إلا عندما سألت السيد هولكومب في اليوم التالي- إلى منازلهم.

وعندما حان الوقت لأخضع للامتحان الثالث والأخير، كنت مستعداً له.

في أول أحد من شهر ديسمبر، أعلنت الأنسة مانداي أنها اختارت ثلاثة أصوات جديدة عالية الطبقة للانضمام إلى جوقتها؛ علماً أنه تم طرد الباقين بسبب ارتكابهم أخطاء لا تغتفر مثل الثثرة خلال الدرس،

وتناول السكاكر، وفي حالة صبيين اللعب بالكستناء أثناء الاحتفال الديني.

يوم الأحد التالي، ارتديتُ رداءً أزرق طويلاً ذا ياقة بيضاء مكشكشة. كنت الوحيد الذي سُمح له بوضع ميدالية برونزية حول عنقه، وقد فعلت ذلك لأظهر أنه تم اختياري لأكون سوبرانو الجوقة. كنت أرغب في وضع الميدالية في طريق العودة إلى المنزل، وحتى عند ذهابي إلى المدرسة في صباح اليوم التالي؛ وذلك لأتفاخر أمام بقية الأولاد، لكن الأنسة مانداي كانت تستعيدها بعد انتهاء كل احتفال ديني.

أيام الآحاد، كنت أنتقل إلى عالم آخر، لكنني خشيت ألا تدوم هذه الحالة من الهديان إلى الأبد.

عندما استيقظ الخال ستان في الصباح، نجح نوعاً ما في إيقاظ المنزل كله. لم يتذمر أحد لأنه معيل العائلة، وفي أية حال، كان أفضل من أي منبه وموثوقاً فيه أكثر.

كان أول صوت يسمعه هاري هو صوت باب غرفة النوم وهو يغلق بقوة، يليه صوت خطوات الخال ستان على منبسط الدرج الخشبي المتصدع، ومن ثم نزوله السلام وخروجه من المنزل. بعد ذلك، يُغلق باب آخر بقوة، فيما يدخل الحمام. وإذا بقي أحد نائماً في المنزل، فإن صوت تدفق الماء عندما يشدّ الخال ستان السلسلة المعدنية، يليه صوت إغلاق بابين بقوة قبل أن يعود إلى غرفة النوم، يكونان بمثابة تذكير بأن ستان يتوقع وجود فطوره على المائدة عند دخوله المطبخ. كان يغتسل ويحلق لحيته فقط ليلة السبت قبل الخروج إلى «الباليه» أو «الأوديون». فهو يستحم أربع مرات سنوياً فقط، في بداية كل فصل. لذا، لا يستطيع أحد أن يتهم الخال ستان بتبذير أمواله على الصابون.

مايزي، والدة هاري، هي الشخص الثاني الذي يستيقظ في المنزل، إذ تنهض من السرير بعد لحظات من إغلاق أول باب بقوة. وتكون قد وضعت وعاء العصيدة في الفرن عند خروج الخال ستان من الحمام. وتستيقظ الجدة بعد فترة قصيرة، وتنضم إلى ابنتها في المطبخ قبل أن يأخذ ستان مكانه عند رأس الطاولة. يتوجب على ستان أن يكون في المطبخ بعد خمس دقائق من إغلاقه أول باب إذا أراد الحصول على فطور. أما آخر شخص يصل إلى المطبخ فهو جدي الذي كان أصم، وهكذا

كان ينجح في البقاء نائماً خلال طقوس ستان في الصباح الباكر. واللافت أن هذا الروتين اليومي في منزل آل كليفتون لا يتغير أبداً. فعند وجود حمام خارجي واحد فقط، ومغسلة واحدة ومنشفة واحدة، يصبح الروتين ضرورياً.

وفي الوقت الذي يغسل فيه هاري وجهه برذاذ الماء البارد، تقدم أمه الفطور في المطبخ، وهو عبارة عن شريحتين سميكتين من الخبز مدهونتين بالسمن لستان، وأربع شرائح رقيقة لبقية أفراد العائلة تقوم بتحميمها إذا بقي فحم في الكيس المرمرى أمام الباب الخارجي كل يوم اثنين. وحين يُنهي الخال ستان عصيدته، يُسمح لهاري بلعق الوعاء.

ثمّة إبريق بني كبير من الشاي يغلي دوماً على الموقد، تسكب الجدة محتواه في مجموعة من الأكواب عبر مصفاة شاي فيكتورية الطراز مطلية بالفضة ورثتها عن أمها. وفيما يستمتع جميع أفراد العائلة بكوب من الشاي غير المحلى - لأن السكر مخصص فقط للمناسبات الخاصة والاحتفالات - يفتح ستان أول قنينة شراب، ويبتلع محتواها عادة دفعة واحدة، ثم ينهض عن الطاولة ويتجشأ بصوت عالٍ قبل أن يحمل علبة الغداء الذي حضرته له الجدة أثناء تناوله الفطور؛ وهو عبارة عن شطيرتين من الجبن، ونقانق، وتفاحة، وقنيتين من الشراب، وعلبة تحتوي على خمس سجائر. وبعد أن يغادر الخال ستان ويتوجه إلى أحواض السفن، يبدأ الجميع بالثرثرة في الوقت نفسه.

لطالما أرادت الجدة أن تعرف من زار المقهى حيث تعمل ابنتها نادلة، وكانت تطرح الأسئلة: ماذا أكلوا؟ ماذا كانوا يرتدون؟ أين جلسوا؟ كما تحاول معرفة تفاصيل عن الوجبات التي تطهى في فرن داخل غرفة مضاءة بمصابيح كهربائية لا تترك أية مادة شمعية، من دون أن ننسى

الزبائن الذين يتركون أحياناً بقشيشاً مهماً تضطر مايزي إلى تقاسمه مع الطاهي.

أما مايزي فكانت أكثر اهتماماً بمعرفة ما فعله هاري في المدرسة في اليوم السابق. وتطلب منه تقريراً مفصلاً؛ الأمر الذي تهتم به الجدة على ما يبدو، لأنها لم تذهب إلى المدرسة قط. وإذا فكرنا جيداً، نجد أنها لم تذهب إلى أي مقهى أيضاً.

في حين أن الجدّ نادراً ما يقول أي شيء؛ لأنه بعد أربعة أعوام من تحميل سلاح المدفعية وإفراغه، صباحاً وظهراً ومساءً، أصبح أصم حيث يضطر إلى الاكتفاء بمراقبة تحرك الشفاه والإيماء برأسه بين الحين والآخر. قد يوحي ذلك للغرباء بأنه أحمق، فيما يعرف بقية أفراد العائلة جيداً أنه ليس كذلك.

لا يتغير الروتين الصباحي للعائلة إلا في عطلات نهاية الأسبوع. ففي أيام السبت، يلحق هاري بخاله إلى خارج المطبخ، ويبقى دوماً خلفه أثناء توجهه إلى أحواض السفن. أما يوم الأحد، فكانت والدته هاري ترافق الصبي إلى دار العبادة، حيث تتمتع بعظمة صوت السوبرانو في الجوقة من حيث تجلس على أحد المقاعد الخشبية في الصف الثالث.

لكن اليوم هو السبت. وخلال الرحلة إلى أحواض السفن التي تستغرق خمساً وعشرين دقيقة، لا يفتح هاري فمه أبداً إلا إذا تحدث خاله. وإذا فعل، يتضح أنه الحديث نفسه الذي أجرياه يوم السبت الماضي.

«متى ستترك المدرسة وتبدأ بالعمل أيها الصبي الصغير؟» ... تلك كانت الافتتاحية الدائمة لحديث الخال ستان.



فيذكره هاري: «لا يسمح لي بمغادرة المدرسة إلا عند بلوغي الرابعة عشرة من العمر. إنه القانون».

فيقول ستان: «إنه قانون غبي برأيي. أنا تركت المدرسة وبدأت بالعمل في أحواض السفن حين كنت في الثانية عشرة». كما لو أن هاري لم يسمع قط هذه الملاحظة المهمة من قبل. غير أن هاري لم يزعج نفسه في الإجابة، لأنه يعرف أصلاً الجملة التالية التي سيقولها الخال ستان. «والأفضل من ذلك أنني تقدمت بطلب للانضمام إلى جيش كيتشنير قبل ذكرى ميلادي السابعة عشرة».

قال هاري: «أخبرني عن الحرب أيها الخال ستان». مدركاً أن هذا سيبقيه مشغولاً لمسافة مئات الياردات.

قال ستان: «انضمنا أنا وأبوك إلى فوج غلوسيوستراير الملكي في اليوم نفسه». ولمس قبعته القماشية كما لو أنه يقدم التحية لذكرى بعيدة. «وبعد اثني عشر أسبوعاً من التدريبات الأساسية في ثكنة تونتون، تم نقلنا إلى وايرز لمحاربة البوش. عندما وصلنا إلى هناك، أمضينا معظم وقتنا محبوسين في خنادق موبوءة ونحن ننتظر أن يخبرنا ضابط متعجرف أننا عند سماعنا نفخ البوق يجب أن نصعد إلى الأعلى، ونثبت الحربات، ونطلق النار من البنادق فيما نتقدم صوب خطوط العدو». يلي ذلك صمت طويل، ثم يضيف ستان: «كنت واحداً من المحظوظين؛ فقد عدت سالمًا». كان باستطاعة هاري توقع الجملة التالية كلمة كلمة، لكنه بقي صامتاً. «لا تعرف كم أنت محظوظ أيها الصغير. لقد خسرت شقيقين؛ عمك راي وعمك بيرت، ووالدك لم يخسر شقيقاً فقط، وإنما خسروا والده أيضاً؛ جدك الآخر الذي لم تلتقه قط. كان رجلاً

محترماً يستطيع احتساء الشراب بسرعة أكبر من أي رجل آخر صادفته في حياتي».

لو نظر ستان إلى الأسفل لشاهد الصبي وهو يتمتم بكلماته، لكن ما أدهش هاري اليوم هو أن الخال ستان أضاف جملة لم يتفوه بها من قبل قط: «ولكان والدك قد بقي على قيد الحياة اليوم لو أن الإدارة أصغت إلي».

فجأة، أصبح هاري يقظاً. فلطالما كان أمر موت والده موضوع محادثات هامسة وأصوات خافتة. لكن الخال ستان صمت فجأة؛ كما لو أنه أدرك مبالغته في الكلام. قال هاري لنفسه إنه قد يلحق بالخال هاري في الأسبوع المقبل ويمشي بالقرب منه كما لو أنهما جنديان في حلبة الاستعراض.

سأل ستان: «مع من سيلعب فريق سيتي بعد ظهر اليوم؟».

فأجاب هاري: «مع نادي تشارلتون الرياضي».

«إنهم مجموعة من اللاعبين غير البارعين».

«لقد هزمونا في الموسم الماضي». ذكّر هاري خاله.

فقال ستان: «برأيي، حصل ذلك بمحض الصدفة». ولم يفتح فمه مجدداً. عندما وصلا إلى مدخل أحواض السفن، سجّل ستان ساعة وصوله قبل أن يتوجه إلى الحوض حيث يعمل مع مجموعة من العمال الآخرين، ولم يكن بإمكان أي منهم التأخر في الوصول ولو دقيقة واحدة. فالطرد من الوظيفة ممكن في أي وقت، وثمة عدد كبير من الرجال الشباب الذين يقفون خارج البوابات في انتظار أن يأخذوا مكانهم.

لم يلحق هاري بخاله؛ لأنه عرف أنه إذا ملحه السيد هاسكينز يتسكع فسوف يقرص أذنه، ثم سيركله خاله بحذائه لأنه أزعج المسؤول عن العمال. لذا، عوضاً عن ذلك، انطلق في الاتجاه المعاكس.

أول محطة لهاري صباح كل سبت تكون عند العجوز جاك تار الذي عاش في مقطورة القطار المهجورة في الجهة الأخرى من المرفأ. لم يخبر هاري ستان قط عن زيارته المنتظمة للعجوز جاك؛ لأن خاله حذره وقال له إنه من الضروري تفادي الرجل العجوز مهما كلف الأمر.

قال رجل يستحم مرة واحدة فقط في بداية كل فصل بعد أن تتذمر والدة هاري من الرائحة الكريهة: «إنه لم يستحم ربما منذ أعوام».

لكن الفضول سيطر على هاري قبل زمن بعيد، فزحف ذات صباح على يديه وركبتيه صوب محطة القطار، ورفع نفسه إلى الأعلى، ونظر عبر النافذة. كان الرجل العجوز جالساً في مقصورة الدرجة الأولى وهو يقرأ كتاباً.

استدار العجوز جاك صوبه وقال: «ادخل أيها الصغير». فقفز هاري إلى الأسفل، ولم يتوقف عن الركض إلا عندما وصل إلى باب منزله.

يوم السبت التالي، زحف هاري مجدداً صوب مقطورة القطار ونظر إلى الداخل. بدا العجوز جاك نائماً، لكن هاري سمعه يقول: «لماذا لا تدخل يا صغيري؟ لن أعضك».

فأدار هاري المقبض النحاسي الثقيل وفتح باب المقطورة بتردد، ولكنه لم يدخل، بل حدّق فقط إلى الرجل الجالس وسط المقطورة. تصعب معرفة عمر الرجل لأن وجهه مغطى بلحية غزاها الشيب جعلته

يبدو مثل البحار على علبة سجائر «بلايرز بليز». لكنه نظر إلى هاري بحنان في عينيه لم يره قط لدى الخال ستان.

سأله هاري: «هل أنت العجوز جاك تار؟».

أجاب الرجل: «هكذا ينادونني».

فسأله هاري وهو ينظر في أرجاء المقطورة: «وهل تعيش هنا؟». فيما استقرت عيناه على كومة من الجرائد القديمة المكدسة فوق بعضها على المقعد المقابل.

أجاب العجوز: «نعم. كانت هذه المقطورة منزلي خلال الأعوام العشرين الماضية. لماذا لا تغلق الباب وتجلس أيها الشاب الصغير؟». ففكر هاري في العرض لبعض الوقت قبل أن يقفز مجدداً إلى خارج المقطورة ويركض بعيداً.

يوم السبت التالي، أغلق هاري الباب، ولكنه بقي ممسكاً بالمقبض، مستعداً للهروب إذا تحرك الرجل العجوز. حدّقا إلى بعضهما بعضاً قليلاً قبل أن يسأل جاك العجوز: «ما اسمك؟».

«هاري».

«وإلى أية مدرسة تذهب؟».

«لا أذهب إلى المدرسة».

«إذاً، ما الذي تنوي فعله في حياتك أيها الشاب الصغير؟».

فأجاب هاري: «أنوي الانضمام إلى خالي في أحواض السفن طبعاً».

سأل الرجل العجوز: «لماذا ترغب في ذلك؟».

انتصب هاري: «ولمّ لا؟ ألا تعتقد أنني جيد بما فيه الكفاية؟».

أجاب العجوز جاك: «أنت جيد جداً. حين كنت في مثل عمرك، أردت الانضمام إلى الجيش، وما من شيء قاله أو فعله الرجل العجوز كان قادراً على تبديل رأيي». وطوال الساعة التالية، وقف هاري مسمراً، فيما العجوز جاك يتحدث عن الأرصفة، ومدينة بريستول، والأراضي الموجودة خلف البحر والتي لم يستطع التعرف إليها في دروس الجغرافيا. وفي يوم السبت التالي، وطوال أيام سبت عديدة لاحقة، استمر هاري في زيارة العجوز جاك تار. ولكنه لم يخبر خاله أو أمه بذلك إطلاقاً؛ خوفاً من أن يمنعه من رؤية أول صديق حقيقي له.

عندما طرق هاري على باب مقطورة القطار صباح يوم السبت، بدا جلياً أن العجوز جاك كان في انتظاره؛ لأنه وضع تفاحته الاعتيادية على المقعد المقابل، فرفعها هاري وقضمها ثم جلس.

قال هاري وهو يمسح بعض العصير الذي سال على ذقنه: «شكراً لك سيد تار». لم يسأل قط من أين يأتي التفاح؛ إذ أضاف هذا الأمر المزيد من الغموض إلى الرجل المذهل.

كم هو مختلف عن الخال ستان الذي يكرر القليل الذي يعرفه مراراً وتكراراً، فيما العجوز جاك يعرف هاري بكلمات جديدة، وتجارب جديدة، وحتى عوالم جديدة كل أسبوع. لطالما تساءل هاري عن سبب عدم عمل السيد تار كأستاذ مدرسة؛ إذ بدا أنه يعرف أكثر من الأنسة مانداي، وبقدر السيد هولكومب تقريباً. كان هاري مقتنعاً أن السيد هولكومب يعرف كل شيء؛ لأنه لا يخفق أبداً في الإجابة عن أي سؤال

يوجهه إليه هاري. ابتسم له العجوز جاك، ولكنه لم يتكلم إلا بعدما أنهى هاري تفاحته ورمى النواة خارج النافذة.

سأل الرجل العجوز: «ما الذي تعلمته في المدرسة خلال هذا الأسبوع وكنت تجهله سابقاً؟».

«أخبرني السيد هولكومب أن هناك بلاداً أخرى خلف البحر، وهي جزء من الإمبراطورية البريطانية، وتخضع كلها لحكم الملك».

قال العجوز جاك: «إنه محق. هل بإمكانك أن تسمّي لي بعض تلك البلاد؟».

«أستراليا، كندا، الهند». ثم تردد وأضاف: «أميركا».

قال العجوز جاك: «لا، ليس أميركا. كانت هذه هي الحال قبلاً، لكن الوضع تبدل الآن بفضل رئيس وزراء ضعيف وملك مريض».

سأل هاري بغضب: «من هو الملك؟ ومن هو رئيس الوزراء؟».

فأجاب العجوز جاك: «الملك جورج الثالث كان على العرش عام 1776. ولكنه كان رجلاً مريضاً، فيما اللورد نورث - رئيس مجلس الوزراء - تجاهل ببساطة ما كان يحصل في المستعمرات. ولسوء الحظ، حمل أقرباؤنا السلاح ضدنا في نهاية المطاف».

سأل هاري: «لكن، لا شك في أننا تغلبنا عليهم، أليس كذلك؟».

أجاب العجوز جاك: «لا، لم نفعل. فهم لم يكونوا فقط على حق... لأن هذا ليس مطلباً أساسياً للنصر...»

«ما الذي تعنيه بقولك مطلباً أساسياً؟».

أجاب العجوز جاك: «أعني أنه ضروري كشرط مسبق». ثم صمت قليلاً، وبعد ذلك تابع الكلام كما لو أنه لم تتم مقاطعته قط: «لكنهم كانوا أيضاً تحت قيادة جنرال لامع».

«ما كان اسمه؟».

«جورج واشنطن».

«أخبرتني في الأسبوع الماضي أن واشنطن عاصمة أميركا. هل سُمِّي تيمناً بالمدينة؟».

«لا، جرت تسمية المدينة تيمناً به. تم تشييدها فوق أرض سبخة تعرف باسم كولومبيا، يتدفق عبرها نهر البوتوماك».

«وهل جرت تسمية مدينة بريستول تيمناً برجل أيضاً؟».

قهقه العجوز جاك مسروراً بسرعة بديهية هاري وانتقاله من موضوع إلى آخر: «لا. مدينة بريستول كان اسمها أساساً بريدجستو، أي مكان الجسر».

«ومتى أصبح اسمها بريستول؟».

قال العجوز جاك: «يختلف المؤرخون في آرائهم؛ رغم أنه تم تشييد قلعة بريستول عام 1109 على يد روبرت دو غلوسستر، عندما رأى فرصة التجارة بالصوف مع الإيرلنديين. بعد ذلك، تطورت المدينة وتحولت إلى مرفأً تجاري. ومنذ ذلك الحين، أصبحت مركزاً لتشييد السفن طوال مئات السنين، وتطورت بسرعة أكبر عندما احتاج الأسطول البحري إلى التوسع عام 1914».

قال هاري بفخر: «شارك والدي في الحرب الكبرى، وأنت؟».

للمرة الأولى، تردد العجوز جاك قبل أن يجيب عن أحد أسئلة هاري. فقد جلس هناك صامتاً من دون التفوه بكلمة. قال هاري: «آسف يا سيد تار. لم أقصد التطفل».

فقال العجوز جاك: «لا. لا. لكن لم يُطرح عليّ هذا السؤال منذ أعوام عدة». ومن دون كلمة إضافية، بسط كفه كاشفاً عن نصف شلن. أخذ هاري القطعة النقدية الفضية الصغيرة وقضمها، لأنه رأى خاله يفعل ذلك دوماً، ثم قال «شكراً»، قبل أن يضعها في جيبه.

«أذهب واشترِ لنفسك بعض السمك ورقاقات البطاطا المقلية من مقهى المرفأ. لكن لا تخبر خالك؛ لأنه سيسألك عن مصدر المال».

في الحقيقة، لم يخبر هاري خاله قط عن العجوز تار. فقد سمع ذات مرة ستان يقول لأمه: «ذلك المجنون يجب أن يسجن، ذلك الأحمق». عندها، سأل الأنسة مانداي عما تعنيه كلمة أحمق؛ لأنه لم يستطع إيجاد الكلمة في القاموس. وعندما أخبرته بمعناها، أدرك للمرة الأولى كم أن خاله ستان غبي.

قالت الأنسة مانداي: «ليس بالضرورة غيباً، وإنما غير مطلع على المعلومات الصحيحة؛ مما يلحق الإجحاف به. أنا واثقة يا هاري من أنك ستصادف الكثير من أمثال هؤلاء الأشخاص في حياتك، وسيكون بعضهم في مناصب مهمة أكثر من خالك».



انتظرت مايزي حتى سمعت الباب الأمامي يغلق وتأكدت من أن ستان قد انطلق إلى عمله قبل أن تقول: «تلقيت عرضاً للعمل كنادلة في فندق رويال».

لم يجب أحد من الجالسين حول الطاولة، إذ يفترض بالمحادثات التي يتم تبادلها خلال الفطور أن تتخذ نمطاً معيناً وألا تفاجئ أحداً. كانت لدى هاري دزينة من الأسئلة التي يودّ طرحها، ولكنه انتظر كي تتحدث جدته أولاً، غير أنها شغلت نفسها ببساطة بسكب كوب آخر من الشاي، كما لو أنها لم تسمع ابنتها أساساً.

قالت مايزي: «هلاً يقول أحدكم شيئاً من فضلكم».

قال هاري: «لم أكن أعرف أنك تبحثين عن عمل آخر».

فردت مايزي: «لم أكن أبحث، لكن السيد فرامبتون، مدير فندق رويال، جاء في الأسبوع الماضي إلى مقهى تيلي لشرب القهوة، ثم عاد مرات عدة، وبعد ذلك عرض عليّ الوظيفة!».

قالت الجدة أخيراً: «ظننتُ أنك سعيدة في المقهى. ففي النهاية، تدفع لك الآنسة تيلي جيداً، وساعات العمل تناسبك».

أجابت والدة هاري: «أنا سعيدة هناك، لكن السيد فرامبتون عرض عليّ إعطائي خمسة باوندات في الأسبوع، ونصف البقشيش. أستطيع أن أحضر إلى المنزل ستة باوندات تقريباً يوم الجمعة». فجلست الجدة هناك وفمها مفتوح.

سأل هاري بعد أن أنهى لعق وعاء عصيدة الخال ستان: «هل ستضطرين إلى العمل ليلاً؟».

فأجابت مايزي فيما داعبت شعر ابنها: «لا، لن أعمل. والأفضل من ذلك أنني سأحصل على يوم إجازة كل أسبوعين».

سألت الجدة: «وهل ملابسك مرتبة بما يكفي لتناسب فندقاً كبيراً كذاك؟».

«سأحصل على بزة، ومئزر أبيض جديد كل صباح. يملك الفندق مصبغته الخاصة به».

فقالت الجدة: «لا أشك في ذلك، لكنني أفكر في مشكلة واحدة سنضطر جميعاً إلى مواجهتها».

سألت مايزي: «وما هي يا أمي؟».

«من الممكن أن تجني مالاً أكثر من ستان، ولن يحب ذلك على الإطلاق».

عندها، قال الجد مبدياً رأيه للمرة الأولى منذ أسابيع: «عليه أن يتعلم التعايش مع الأمر، أليس كذلك؟».

المال الإضافي الذي سيأتي سيكون مفيداً، لاسيما بعد ما حصل في دار العبادة. فقد كانت مايزي على وشك المغادرة بعد انتهاء الاحتفال الديني عندما جاءت إليها الأنسة مانداي وسألتها:

«هل أستطيع التكلّم معك على حدة، سيّدة كليفتون؟». قبل أن تستدير وتعود صوب إحدى الغرف في دار العبادة. فلحقت بها مايزي

مثل طفل صغير يركض خلف عازف البوق وقد خشيت الأسوأ. ماذا فعل هاري هذه المرة؟!

لحقت مايزي بمدربة الجوقة إلى الغرفة، وشعرت أن ساقها على وشك الانهيار عندما رأت رجل الدين واتس والسيد هولكومب ورجالاً آخرين يقفون هناك. وفيما أغلقت الأنسة مانداي الباب برفق وراءها، بدأت مايزي ترتجف بطريقة غير إرادية.

وضع رجل الدين واتس ذراعه حول كتفها، وطمأنها قائلاً: «لا داعي للقلق من أي شيء يا عزيزتي، بل على العكس، أتمنى أن تشعرني أننا نحمل لك أخباراً جيدة». ثم عرض عليها كرسيًا، فجلست من دون أن تستطيع التوقف عن الارتجاف.

وبعدما جلس الجميع، بدأت الأنسة مانداي كلامها بالقول: «أردنا التحدث معك بشأن هاري يا سيدة كليفتون». فزمت مايزي شفيتها. ما الذي فعله الصبي حتى يجتمع كل هؤلاء الأشخاص المهمين مع بعضهم؟!

تابعت مدربة الجوقة كلامها: «لن أطيل الكلام. اتصل بي أستاذ الموسيقى في سانت بيد وسألني إذا كان هاري يقبل بتسجيل اسمه لنيل إحدى المنح المدرسية المخصصة لجوقة الإنشاد عندهم».

فقالت مايزي: «لكنه سعيد جداً هنا! على أية حال، أين تقع سانت بيد؟ لم أسمع بها قط».

فأجابت الأنسة مانداي: «سانت بيد ليست دار عبادة، بل إنها مدرسة تخرج المنشدين لدار عبادة سانت ماري ريدكليف التي وصفتها الملكة إليزابيث بأنها الأكثر روعة في كل البلاد».

عندها، سألت مايزي غير مصدقة: «إذاً، سيضطر إلى ترك مدرسته ودار العبادة هذه، أليس كذلك؟».

فقال السيد هولكومب متكلماً للمرة الأولى: «حاولي اعتبار الأمر بمثابة فرصة يمكنها أن تبدل كل حياته يا سيدة كليفتون».

«لكن، ألن يضطر إلى الاختلاط مع أولاد أذكفاء؟».

فأجاب السيد هولكومب: «أشك في أن يكون هناك العديد من الأولاد في سانت بيد أذكي من هاري. إنه أذكي صبي علّمته في حياتي. صحيح أنه يتم أحياناً قبول أحد تلامذتنا في المدارس الثانوية، لكنّ أياً من تلامذتنا لم يحصل بعد على فرصة الانضمام إلى سانت بيد».

قال رجل الدين واتس: «ثمّة شيء آخر يجدر بك معرفته قبل أن تحسمي أمرك». فبدت مايزي أكثر قلقاً وهو يتابع: «سيضطر هاري إلى الابتعاد عن المنزل لوقت طويل؛ لأن سانت بيد مدرسة داخلية».

أجابت مايزي: «إذاً، الأمر مستحيل. لا أستطيع تحمل التكاليف».

فقالت الأنسة مانداي: «لا يفترض بهذا الأمر أن يكون مشكلة. فإذا حصل هاري على منحة، فهذا يعني أن المدرسة ستدفع كل التكاليف، وستعطيه أيضاً مبلغ عشرة باوندات في الفصل».

سألت مايزي: «لكنها واحدة من المدارس التي يرتدي فيها الآباء بذلات رسمية ويضعون ربطات عنق، فيما الأمهات لا يعملن، أليس كذلك؟».

فأجابت الأنسة مانداي محاولة المزاح: «بل أسوأ من ذلك. إذ يرتدي الأساتذة أثواباً سوداء طويلة ويضعون قلنسوات على رؤوسهم».

قال رجل الدين واتس: «على الأقل، لن يتعرض هاري للضرب بالسوط بعد الآن. فهم أكثر رقيماً في سانت بيد، ويكتفون بضرب الصبيان بالعصا».

وحدها مايزي لم تضحك، وإنما سألت: «ولكن، لماذا سيترك منزله؟ إنه مرتاح في مدرسة ميريوود الابتدائية، ولن يرغب في التخلي عن حلمه بأن يصبح السوبرانو الرئيس في الجوقة هنا».

فقالت الأنسة مانداي: «عليّ الاعتراف بأن خسارتي ستكون أكبر من خسارته. لكنني واثقة في أن الله لا يريدني أن أقف في طريق مثل هذا الولد الموهوب بسبب رغباتي الأنانية».

عندها، قالت مايزي في آخر محاولة لها: «حتى لو وافقتُ، هذا لا يعني أن هاري سيوافق».

اعترف السيد هولكومب: «لقد تكلمت مع الصبي في الأسبوع الماضي، وكان مستوعباً تماماً لهذا التحدي الكبير. وأنا أذكر كلماته بالضبط: أرغب في الذهاب يا سيدي، لكن فقط إذا كنتم تعتقدون أنني جيد بما فيه الكفاية». وقبل أن تجيب مايزي، أضاف: «لكنه أوضح أيضاً أنه لن يفكر في الأمر إذا لم توافق أمه».

كان هاري مذعوراً ومتحمساً في الوقت نفسه لفكرة الخضوع لامتحان الدخول، ولكنه خاف أيضاً من الرسوب وخذلان العديد من الأشخاص بشأن فكرة نجاحه ومغادرته المنزل.

خلال الفصل التالي، لم يفوت أي درس في ميريوود. وعندما كان يعود إلى المنزل كل مساء، كان يتوجه مباشرة إلى غرفة النوم التي يتشاركها مع

الخال ستان، ويدرس لساعات طويلة على ضوء الشمعة. وفي بعض الأحيان، وجدته أمه نائماً على الأرض، فيما الكتب المفتوحة مبعثرة حوله.

صباح كل سبت، استمر في زيارة العجوز جاك الذي بدا أنه يعرف الكثير عن سانت بيد، واستمر في تعليم هاري العديد من الأشياء الأخرى، كما لو أنه عرف ما الذي فات السيد هولكومب.

بعد ظهر أيام السبت، لم يعد هاري يرافق الخال ستان إلى آشتون غايت لمشاهدة نادي بريستول سيتي، وإنما كان يعود إلى ميريوود، حيث كان السيد هولكومب يعطيه دروساً إضافية. مرّت سنوات عديدة قبل أن يكتشف هاري أن السيد هولكومب كان يلغي أيضاً زيارته المنتظمة لدعم فريق روبينز بهدف تعليمه.

كلما اقترب يوم الامتحان أكثر، بات هاري خائفاً من الفشل أكثر.

في اليوم المحدد، رافق السيد هولكومب تلميذه النجم إلى كولستون هال، حيث سيخضع للامتحان على مدى ساعتين. ترك هاري أمام مدخل المبنى، وقال له: «لا تنسَ أن تقرأ كل سؤال مرتين قبل أن ترفع قلمك». وكان قد كرّر له هذه النصيحة مراراً خلال الأسبوع الماضي، فابتسم هاري بعصبية، وصافح السيد هولكومب كما لو أنهما صديقان قديمان.

وحين دخل قاعة الامتحان، وجد نحو ستين ولداً آخر واقفين في مجموعات صغيرة، يتحدثون مع بعضهم بعضاً. بدا جلياً لهاري أن العديد منهم يعرفون بعضهم بعضاً، فيما لا يعرف أحداً. ورغم ذلك، توقّف ولد أو اثنان عن الكلام، ونظرا إليه وهو يشقّ طريقه إلى الجهة الأمامية من القاعة، محاولاً أن يبدو واثقاً من نفسه.

«أبوت، بارينغتون، كابوت، كليفتون، ديكينز، فراي...»

جلس هاري إلى طاولة في الصف الأمامي. وقبل لحظات من الساعة العاشرة، دخل عدة رجال يرتدون أثواباً سوداء طويلة ويضعون قلمسوات على رؤوسهم ووضعوا أوراق الامتحان على الطاولات أمام كل مرشح.

قال رجل كان يقف في أول القاعة، ولم يشارك في توزيع الأوراق: «أيها السادة، اسمي السيد فروبيشر، وأنا المشرف عليكم. لديكم ساعتان للإجابة عن مئة سؤال. حظاً موفقاً».

رنّت الساعة في مكان لم يره هاري معلنة أن الوقت هو العاشرة، فبدأت الأقلام المغموسة في المحابر حوله بالتحرك بعصبية فوق الأوراق، لكن هاري شبك ذراعيه وانحنى فوق الطاولة، وقرأ كل سؤال ببطء. كان آخر ولد يحمل قلمه.

لم يعرف هاري أن السيد هولكومب كان يذرع الرصيف في الخارج ذهاباً وإياباً، ويشعر بتوتر أكثر مما يشعر به تلميذه، ولم يعرف أن أمه كانت تنظر إلى الساعة في ردهة فندق رويال كل بضع دقائق فيما هي تقدم القهوة الصباحية، كما لم يعرف أن الأنسة مانداي كانت تتضرع بصمت في دار العبادة وهي تدعو له.

بعد لحظات من رنين الساعة معلنة أن الوقت هو الثانية عشرة ظهراً، تم جمع أوراق الامتحان، وسُمح للصبيان بمغادرة القاعة. كان بعضهم يضحك، وبعضهم مقطّب الجبين، وبعضهم الآخر يفكر بصمت.

عندما رأى السيد هولكومب تلميذه هاري انفطر قلبه، وسأله: «هل كان الأمر بهذا السوء؟».

لم يجب هاري إلا حين تأكد من أنه ما من صبي آخر يستطيع سماع كلماته، وقال: «لم يكن قط مثلما توقعت».

فسأله السيد هولكومب بقلق: «ماذا تقصد؟».

أجاب هاري: «كانت الأسئلة سهلة جداً».

أحسّ السيد هولكومب أنه لم يحظَ قطّ بإطراء أفضل في حياته.

سيدتي، إليك بذلتين رماديتي اللون، سترة واحدة كحلية اللون، خمسة قمصان بيضاء اللون، خمس ياقات قاسية بيضاء اللون، ستة أزواج من الجوارب الرمادية التي تصل إلى ربلة الساق، ستة أطقم من الملابس الداخلية بيضاء اللون، وربطة عنق واحدة خاصة بسانت بيد». تحقق موظف المتجر من اللائحة بعناية، ثم أضاف: «أعتقد أن هذا يشمل كل شيء. أوه، لا. سيحتاج الصبي أيضاً إلى قبعة المدرسة». وانحنى تحت الرف الخشبي، ثم فتح درجاً وأخرج قبعة حمراء وسوداء ووضعها على رأس هاري قائلاً: «قياس مثالي». فابتسمت مايزي لابنها بفخر كبير. بدا هاري فعلاً تلميذاً في سانت بيد. «يبلغ ثمنها ثلاثة باوندات وعشرة شلنات وستة بنسات سيدتي».

حاولت مايزي ألا تبدو خائبة الأمل كثيراً، وهمست قائلة: «ألا يمكن شراء أي من هذه الأغراض مستعملاً؟».

فأجاب الموظف: «لا، سيدتي. ليس هذا متجرّاً للبضائع المستعملة». وكان قد قرر أصلاً أنه لن يسمح لهذه الزبونة بأن تفتح حساباً.

عندها، فتحت مايزي محفظة نقودها، وأعطت الموظف خمسة باوندات، وانتظرت ريثما يردّ لها ما تبقى. شعرت بالارتياح لأن مدرسة سانت بيد دفعت منحة الفصل الأول مسبقاً؛ وخصوصاً لأنها لا تزال بحاجة إلى شراء زوجين من الأحذية الجلدية سوداء اللون ذات الأشرطة،



وزوجين من الأحذية الرياضية بيضاء اللون ذات الأشرطة، وزوج من أخفاف النوم لغرفة النوم.

سعل الموظف مضيفاً: «سيحتاج الصبي أيضاً إلى زوجين من المنامات ورداء للنوم».

فقالت مايزي: «نعم، طبعاً». على أمل أن تكون قد تركت مالاً كافياً في محفظة نقودها لتغطية التكاليف.

سأل الموظف وهو ينظر إلى اللائحة عن كذب: «هل أفهم أن الصبي قد انضم إلى الجوقة؟».

فأجابت مايزي بفخر: «نعم، هذا صحيح».

«إذاً، سيحتاج إلى رداء أحمر طويل، وميدالية سانت بيد». عندها، شعرت مايزي بالرغبة في الهرب من المتجر، غير أن المساعد أضاف قبل أن يردّ لمايزي ما تبقى من المال: «ستوفر له المدرسة هذه الأغراض عندما يحضر أول تمرين للجوقة. هل تحتاجين إلى أي شيء آخر سيدتي؟».

فأجاب هاري: «لا، شكراً». ثم حمل الكيسين، وأمسك بذراع أمه، وخرجا بسرعة من متجر تي سي مارش، الخياطون المميزون.

أمضى هاري صباح يوم السبت السابق لمغادرته إلى مدرسة سانت بيد مع العجوز جاك.

سأله العجوز جاك: «هل أنت متوتر من فكرة الذهاب إلى مدرسة جديدة؟».

فأجاب هاري بتحدُّ: «لا، لست متوتراً». عندها ابتسم العجوز جاك، فأضاف هاري: «بل أنا مذعور».

«هذه حال أي متحمس جديد؛ مثلما سيقال عنك. حاول أن تنظر إلى المسألة كلها كما لو أنك تبدأ مغامرة جديدة في عالم جديد؛ حيث الجميع متساوون».

«لكنهم حين يسمعونني وأنا أتكلم سيدركون فوراً أنني لست مساوياً لهم».

«ربما. لكنهم حين يسمعونك وأنت تغني سيدركون فوراً أنهم ليسوا مساوئين لك».

«معظمهم آتون من عائلات غنية، فيها خدم».

فقال العجوز جاك: «سيكون هذا مجرد عزاء للأغبياء».

«وبعضهم لديهم إخوة في المدرسة، وربما آباء وأجداد جاءوا إليها قبلهم».

عندها، قال العجوز جاك: «كان والدك رجلاً محترماً، ولا يملك أي منهم أمماً أفضل من أمك. أوكد لك ذلك».

فسأله هاري عاجزاً عن إخفاء دهشته: «هل عرفت والدي؟».

أجاب العجوز جاك: «قد تكون في كلامي مبالغة إذا قلت إنني عرفت. لكنني راقبته من بعيد، مثلما راقبت العديد من الأشخاص الآخرين الذين عملوا في أحواض السفن. كان رجلاً محترماً وشجاعاً ويخاف الله».

سأل هاري وهو ينظر إلى عيني العجوز جاك مباشرة: «لكن، هل تعرف كيف مات؟». وكان يأمل في الحصول أخيراً على جواب صادق عن السؤال الذي حيّره لفترة طويلة.

غير أن العجوز جاك سأله بحذر: «ماذا قيل لك؟».

«قيل لي إنه قتل في الحرب العظمى. لكنني ولدت عام 1920، ولذلك أعتقد أن هذا الأمر غير ممكن».

لم يتحدث العجوز جاك لبعض الوقت، وبقي هاري جالساً على حافة مقعده.

«لا شك في أنه أصيب بجروح بالغة خلال الحرب، لكنك محق، فليس هذا سبب موته».

فسأله هاري: «إذاً، كيف مات؟».

أجاب العجوز جاك: «لو كنت أعرف لأخبرتك. لكن سرت الكثير من الشائعات في تلك الفترة، حيث لم أعد أعرف من أصدق. لكن، هناك بعض الرجال الذين يعرفون من دون شك حقيقة ما حصل في تلك الليلة؛ وهم ثلاثة تحديداً».

قال هاري: «لا شك في أن الخال ستان واحد منهم. لكن، من هما الرجلان الآخران؟».

تردد العجوز جاك قبل أن يجيب: «فيل هاسكينز والسيد هوغو».

قال هاري: «السيد هاسكينز! أتعني المسؤول عن العمال؟ لن يعطيني شيئاً من وقته. ومن هو السيد هوغو؟».

«هوغو بارينغتون، ابن السير والتر بارينغتون».

«أهي العائلة التي تملك شركة السفن؟».

أجاب العجوز جاك: «نعم، صحيح». وخشي من أن يكون قد أفرط في الكلام.

«وهل هم أيضاً رجال محترمون وشجعان ويخافون الله؟».

«السير والتر واحد من أفضل الرجال الذين عرفتهم».

«لكن، ماذا عن ابنه السيد هوغو؟».

فأجاب العجوز جاك: «أخشى ألا يكون من الطينة نفسها». ولم يضيف المزيد.

جلس الصبي الذي ارتدى ملابس جميلة قرب أمه على المقعد الخلفي في الترامواي.

وحين توقف الترامواي قالت الأم: «هذه محطتنا». نزلاً، وبدأ يصعدان الهضبة ببطء متجهين إلى المدرسة، وتباطأت خطواتهما أكثر فأكثر كلما تقدما.

تشبّت هاري بأمه بإحدى يديه، فيما أمسك بحقيبة باليد الأخرى. لم يتفوّه أي منهما بكلمة وهما يراقبان عدة عربات ذات عجلتين، وأحياناً سيارة يقودها سائق، تتوقف أمام البوابة الأمامية للمدرسة.

كان الآباء يصفحون أبناءهم، فيما الأمهات المكسوات بالفرو يعانقن فلذات أكبادهن قبل أن يقبلنهم على وجناتهم؛ مثل العصفورة التي أدركت أخيراً أن صغارها على وشك الطيران ومغادرة العش.

لم يشأ هاري أن تقبله أمه أمام بقية الأولاد، فأفلت يدها حين كانا لا يزالان على مسافة خمسين ياردة من البوابة. أحست مايزي بانزعاجه، فانحنت وقبّلته بسرعة على جبينه قائلة له: «حظاً موفقاً يا هاري. اجعلنا جميعاً فخورين بك».

فقال لها وهو يحبس دموعه: «وداعاً أُمي».

عندها، استدارت مايزي وبدأت تنزل الهضبة، فيما الدموع تتدفق على وجنتيها.

تابع هاري سيره متذكراً وصف خاله لتسلق هضبة إيبرس قبل الهجوم على خطوط العدو. لا تنظر إلى الخلف أبداً وإلا فستموت. أراد هاري النظر إلى الخلف، ولكنه عرف أنه إذا فعل ذلك، فلن يتوقف عن الركض إلا حين يصبح في الترامواي بأمان. لذا، أطبق فكّيه وتابع السير.

كان أحد الأولاد يسأل صديقاً له: «هل أمضيت عطلة جيدة يا صديقي؟».

فأجابه صديقه: «كانت ممتازة. أخذني والدي لحضور مباراة فارسيّتي».

عندها، تساءل هاري عن تلك المباراة. غير أنه تقدّم بعزم صوب بوابة المدرسة، وما لبث أن توقف فجأة عندما تعرف إلى رجل يقف قرب الباب الأمامي للمدرسة وهو يحمل لوحاً مشبكياً.

سأله الرجل وهو يوجّه له ابتسامة ترحيب: «من أنت أيها الشاب؟».

فأجاب: «هاري كليفتون سيدي». ورفع قبعته مثلما طلب منه السيد هولكومب أن يفعل كلما تحدث إليه أستاذ أو سيدة.

قال الرجل: «كليفتون». ومرّر إصبعاً فوق لائحة طويلة من الأسماء. «أوه، نعم». ثم وضع خطأً صغيراً قرب اسم هاري. «الجيل الأول، تلميذ كورس. ألف مبروك، وأهلاً بك في سانت بيد. أنا السيد فروبيشر المسؤول عن المكان، وهذه دار فروبيشر. إذا تركت حقيبتك في الردهة، فسيرافقك تلميذ مفوّض إلى حجرة الطعام حيث سأتكلم مع كل الصبيان الجدد قبل العشاء».

لم يتناول هاري العشاء من قبل قط. فالشاي كان دوماً الوجبة الأخيرة في منزل آل كليفتون قبل الخلود إلى النوم لحظة تحلّ العتمة. إذ لم تصل الكهرباء بعد إلى منطقة ستيل هاوس لاين، ونادراً ما يوجد مال كافٍ لإنفاقه على الشموع.

قال هاري: «شكراً سيدي». قبل أن يشق طريقه عبر الباب الأمامي ويدخل ردهة كبيرة مكسوة بألواح الخشب المصقولة. وضع حقيبته أرضاً، وحدّق إلى لوحة لرجل عجوز ذي شعر أشيب وشاربين جانبيين كثيفين أبيض اللون، ويرتدي رداء أسود طويلاً، مع قلنسوة حمراء.

«ما اسمك؟». صدح صوت من خلفه.

فأجاب هاري: «كليفتون، سيدي». واستدار فرأى صبياً طويلاً يرتدي سروالاً طويلاً.

«لا تنادني سيدي يا كليفتون، نادني فيشر. أنا تلميذ مفوض ولست أستاذاً».

قال هاري: «عذراً سيدي».

«اترك حقيبتك هناك واتبعني».

وضع هاري حقيبته المستعملة والبالية قرب مجموعة من الحقائق الجلدية. كانت حقيبته هي الوحيدة التي لم يُدمغ عليها أول حرفين من اسمه. لحق بالتلميذ المفوض في رواق طويل ومليء بصور فوتوغرافية لفرق مدرسية قديمة وخزائن عرض مليئة بالكؤوس الفضية؛ لتذكير الجيل الجديد بأمجاد الماضي. وعندما وصلا إلى قاعة الطعام، قال فيشر: «يمكنك الجلوس حيث تشاء كليفتون. لكن، احرص على التوقف عن الكلام لحظة يدخل السيد فروبيشر القاعة».

تردد هاري لبعض الوقت قبل أن يقرر إلى أي من الطاولات الأربعة الطويلة سيجلس. كان عدد من الصبيان المحتشدين في مجموعات يتحدثون بهدوء. مشى هاري ببطء صوب الزاوية البعيدة من القاعة، وجلس إلى طرف إحدى الطاولات. وحين نظر إلى الأمام، رأى عدداً من الصبيان يدخلون القاعة، ويبدون مرتبكين مثله تماماً. جاء أحدهم وجلس قربه، فيما جلس ولد آخر قبالة، وتابعا الكلام مع بعضهما كما لو أنه غير موجود.

ومن دون أي إنذار، رنّ الجرس فتوقف الجميع عن الكلام، فيما دخل السيد فروبيشر قاعة الطعام. أخذ مكانه وراء مقراً لم يلاحظه هاري سابقاً، وسوّى ياقة رداؤه.

بدأ كلامه وهو ينزع قلنسوته عن رأسه: «أهلاً بكم في هذا اليوم الأول من الفصل الأول في مدرسة سانت بيد. بعد لحظات قليلة، سوف تستمتعون بأول وجبة مدرسية، وأعدكم بأنها من أفضل ما يكون.» ضحك واحد أو اثنان من الصبيان بعصبية. «وبعدما تنتهون من تناول العشاء، سيتم اصطحابكم إلى غرف النوم، حيث يمكنكم إفراغ الحقائب. في تمام الساعة الثامنة سوف تسمعون جرساً آخر. في الواقع، إنه الجرس نفسه ولكنه يرنّ في وقت مختلف.» ابتسم هاري، رغم أن العديد من الصبيان لم يفهموا دعابة السيد فروبيشر.

«بعد ثلاثين دقيقة، سيرنّ الجرس نفسه مجدداً، وعليكم حينها الخلود إلى أسرتكم، ولكن ليس قبل أن تغتسلوا وتنظفوا أسنانكم. بعد ذلك، لديكم ثلاثون دقيقة للقراءة قبل أن تطفأ الأنوار، وعليكم حينها الخلود إلى النوم. وسوف تتم معاقبة أي ولد يتكلم بعد إطفاء الأنوار من قبل التلميذ المفوض.» صمت السيد فروبيشر قليلاً، ثم تابع قائلاً:



«لن تسمعوا جرساً آخر إلا عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي. حينها، يجب أن تنهضوا وتغتسلوا وترتدوا ملابسكم وتعودوا مجدداً إلى قاعة الطعام قبل الساعة السابعة. وأي ولد يتأخر عن هذا الموعد سيحرم من فطوره.

سيعقد الاجتماع الصباحي في تمام الساعة الثامنة في القاعة الكبيرة، حيث سيلقي المدير كلمته. تلي ذلك أول حصة دراسية عند الساعة الثامنة والنصف. ستكون هناك ثلاث حصص خلال الصباح، الواحدة منها تمتد ستين دقيقة، مع استراحات لمدة عشر دقائق بين الحصة والأخرى؛ مما سيتيح لكم الوقت الكافي لتبديل الصفوف. وستلي ذلك وجبة الغداء عند الساعة الثانية عشرة.

بعد الظهر، ستكون هناك حصتان فقط قبل فترة الألعاب، حيث ستلعبون كرة القدم». ابتسم هاري للمرة الثانية. «هذا إجباري لكل شخص ليس عضواً في جوقة الإنشاد». قطّب هاري جبينه، إذ لم يخبره أحد أن المنشدين في الجوقة لا يلعبون كرة القدم. «وبعد المباريات أو تمارين الجوقة، ستعودون إلى دار فروبيشر لتناول العشاء، الذي تليه ساعة من التحضيرات قبل الخلود إلى النوم، حيث يمكنكم القراءة مجدداً إلى حين إطفاء الأنوار؛ شرط أن يكون الموظف المسؤول قد وافق على الكتاب. لا شك في أن كل هذا يبدو مربكاً بالنسبة إليكم». سجّل هاري ملاحظة في عقله تقضي بالبحث عن معنى الكلمة في القاموس الذي قدّمه له السيد هولكومب، فيما سوّى السيد فروبيشر ياقة رداثه مجدداً قبل أن يتابع الكلام: «لكن، لا تقلقوا. سوف تعتادون سريعاً على تقاليدنا في سانت بيد. هذا كل ما أريد قوله في الوقت الحاضر. سأترككم الآن لتستمتعوا بالعشاء. عمتم مساء أيها الأولاد».

«طاب مساؤك سيدي». قال بعض الأولاد الذين تحلوا بالشجاعة للإجابة فيما غادر السيد فروبيشر الغرفة.

لم يتزحزح هاري من مكانه قط فيما تحركت عدة نساء بين الطاولات لوضع طبق من الحساء أمام كل صبي. راقب هاري بانتباه فيما قام الصبي الجالس قبالة برفع ملعقة غريبة الشكل وتغميسها في طبق الحساء، ومن ثم دفعها بعيداً عنه قبل أن يضعها في فمه. حاول هاري تقليد الحركة، ولكن انتهى به الأمر بإراقة بضع قطرات من الحساء على الطاولة. وعندما نجح فعلاً في نقل ما بقي من الحساء إلى فمه، تقطر معظمه على ذقنه، فمسح فمه بكمه. لم يلفت هذا الأمر الكثير من الانتباه، ولكنه عندما ابتلع كل ملعقة حساء بصوت عالٍ جداً، توقف عدد من الأولاد عن تناول حسائهم للتحديق إليه، فأحس هاري بالإحراج، وأعاد الملعقة إلى الطاولة، وترك حساءه ليبرد.

كان الطبق الثاني عبارة عن فطيرة السمك، ولم يتحرك هاري إلا عندما رأى الشوكة التي رفعها الصبي الجالس قبالة. تفاعلاً عندما لاحظ أن الصبي وضع السكين والشوكة على الطبق أمامه بين كل لقمة وأخرى، فيما تشبث هاري بهما بإحكام كما لو أنهما مذرatan.

بدأ الصبي الجالس قبالة والصبي الذي يجلس قربته بالحديث عن امتطاء الأحصنة، فلم يشارك هاري في الحديث، لأن كل ما استطاع فعله هو امتطاء حمار لقاء نصف بنس بعد ظهر أحد الأيام خلال رحلة إلى ويستون سوبر ماري.

وبعد رفع أطباق الطعام عن الطاولة، تم استبدالها بأطباق بودينغ، أو ما تسميها أمه حلوى ممتعة؛ لأنه لا يحظى بها غالباً. لكن ملعقة أخرى، ومذاقاً آخر، وخطأ آخر. لم يدرك هاري أن الموزة ليست مثل

التفاحة، ولذلك حاول أكل الموزة مع قشرتها؛ مما أثار ذهول جميع من حوله. بالنسبة إلى الأولاد الآخرين، كان أول درس سيبدأ غداً في تمام الساعة الثامنة والنصف، لكن درس هاري كان قد بدأ فعلاً.

بعد انتهاء العشاء عاد فيشر، ومثلما وعد، رافق التلاميذ عبر سلم خشبي عريض إلى غرف النوم في الطابق الأول. دخل هاري غرفة تحتوي على ثلاثين سريراً مرصوفة في ثلاثة صفوف، في كل صف عشرة أسرة. وُضعت على كل سرير وسادة، وملاءتان، وبطانيتان. ولم يكن قد سبق لهاري أن امتلك يوماً اثنين من أي شيء.

قال فيشر بازدراء: «هذه غرفة النوم الجديدة، وسوف تبقون هنا إلى أن تصبحوا متحضرين. سوف تجدون أسماءكم عند قاعدة كل سرير، مرتبة بالترتيب الأبجدي».

تفاجأ هاري لدى رؤيته حقيبته على السرير، وتساءل عمّن وضعها هناك. بدأ الصبي قربه بإفراغ حقيبته، وقال: «أنا ديكنز». فيما رفع نظارته على أنفه ليتمكن من النظر إلى هاري عن كثب.

«أنا هاري. جلست قربك خلال الامتحانات في الصيف الماضي. لا أصدق أنك أجبت عن كل الأسئلة خلال ساعة واحدة تقريباً».

تورد ديكنز خجلاً، فقال الصبي الموجود في الجهة الأخرى من هاري: «لهذا السبب حصل على منحة».

عندها، استدار هاري صوبه وسأله: «هل حصلت أنت أيضاً على منحة؟».

فأجاب الصبي: «لا». وتابع إفراغ حقائبه وهو يقول: «السبب الوحيد الذي أحضرني إلى سانت بيد هو أن أبي وجدي جاءا إلى هنا قبلي. أنا ثالث جيل يأتي إلى هذه المدرسة. هل جاء والداكما إلى هنا أيضاً؟». فأجاب هاري وديكنز معاً: «لا».

صرخ فيشر: «توقفوا عن التثرثرة وتابعوا إفراغ حقائبكم». فتح هاري حقيبته، وبدأ بإخراج ملابسه ووضعها بترتيب في الدرجين الموجودين قرب سريره. وضعت له أمه لوحاً من الشوكولاته بين قمصانه، فأخفاه تحت الوسادة.

رنّ جرس، فقال فيشر: «حان الوقت لخلع ملابسكم». لم يكن قد سبق لهاري أن خلع ملابسه مطلقاً أمام ولد آخر، فكيف سيفعل ذلك في غرفة مليئة بالأولاد؟! استدار صوب الحائط، وخلع ملابسه ببطء، وارتدى ملابس النوم بسرعة وربط الحبل، ثم لحق بالأولاد الآخرين إلى قاعة الحمامات. ومجدداً، راقبهم بعناية فيما غسلوا وجوههم وجففوها بالفوط الناعمة قبل أن ينظفوا أسنانهم. لم يكن يملك فوطة ناعمة أو فرشاة أسنان. ولكنّ الصبي الذي سينام على السرير المجاور لسريه فتش في كيس أغراضه وأعطاه فرشاة أسنان جديدة ومعجون أسنان. لم يقبل هاري أن يأخذهما إلا بعد أن قال له الصبي: «تضع لي أمي دوماً زوجاً من كل شيء».

فقال هاري: «شكراً لك». ورغم أنه نظف أسنانه بسرعة، إلا أنه كان من بين آخر الأولاد الذين عادوا إلى غرفة النوم. صعد إلى السرير حيث توجد بطانيتان ووسادة ناعمة، ونظر إلى الجهة الأخرى فرأى أن ديكنز

قد بدأ بقراءة الكتاب التمهيدي اللاتيني لكينيدي، فيما قال الولد الآخر:  
«هذه الوسادة قاسية مثل الصخر».

سأله هاري: «هل تريد استبدال وسادتي بها؟».

فأجاب الصبي مبتسماً ابتسامة عريضة: «أعتقد أنها كلها متشابهة.  
لكن، شكراً لك».

أخرج هاري لوح الشوكولاته من تحت الوسادة وقسمه إلى ثلاثة  
أقسام. أعطى ديكنز قطعة، وقدم أخرى إلى الصبي الذي أعطاه فرشاة  
الأسنان ومعجون الأسنان.

فقال له الولد بعد أن تناول قزمة: «أرى أن أمك أكثر انتباهاً من  
أمي». رن جرس آخر. «بالمناسبة، اسمي جيل بارينغتون. ما اسمك؟».  
«كليفتون، هاري كليفتون».

لم ينم هاري لأكثر من بضع دقائق متتالية، ولم يكن ذلك لأن سريره  
غير مريح فقط، إذ كان هناك الكثير من التساؤلات التي تدور في ذهنه:  
هل يحتمل أن يكون جيل على صلة بأحد الرجال الثلاثة الذين عرفوا  
الحقيقة بشأن كيفية موت والده؟ وإذا كان الجواب نعم، فهل هو من  
طينة والده أو جده؟

فجأة، شعر هاري بوحدة كبيرة، ففتح غطاء معجون الأسنان الذي  
أعطاه إياه بارينغتون، وبدأ يمسه إلى أن شعر بالنعاس.

عندما رنّ الجرس الذي بات مألوفاً الآن في تمام الساعة السادسة  
والنصف من صباح اليوم التالي، نزل هاري عن سريره ببطء وهو يشعر

بالغثيان، ولحق بديكنز إلى قاعة الحمامات حيث وجد جيل يختبر الماء، وما إن رآه جيل حتى سأله: «هل تعتقد أن هذا المكان قد سمع يوماً بالماء الساخن؟».

كان هاري على وشك الإجابة عندما صرخ التلميذ المفوض: «ممنوع الكلام في الحمامات».

فقال بارينغتون وهو ينقر بقدميه على الأرض: «إنه أسوأ من جنرال بروسي!». فانفجر هاري ضاحكاً.

عندها، قال فيشر محدقاً إلى الصبيين: «من فعل هذا؟».

فأجاب هاري فوراً: «أنا».

«ما اسمك؟».

«كليفتون».

«افتح فمك مجدداً يا كليفتون وسترى».

لم يعرف هاري ما قصده بقوله ذلك، ولكنه أحس أن كلامه يتضمن تهديداً. وبعد أن أنهى تنظيف أسنانه، عاد بسرعة إلى غرفة النوم، وارتدى ملابسه من دون التفوه بأي كلمة أخرى. وحين سوّى ربطة عنقه - وهذا أمر آخر لا يعرفه جيداً - لحق ببارينغتون وديكنز اللذين كانا ينزلان السلام للذهاب إلى قاعة الطعام.

لم يتفوه أحد بكلمة لأنهم كانوا غير واثقين مما إذا كان يُسمح لهم بالكلام أثناء وجودهم على السلام. وعندما جلسوا لتناول الفطور في قاعة الطعام، حشر هاري نفسه بين صديقيه الجديدين، وراقب فيما تم

وضع أطباق العصيدة أمام كل صبي، وشعر بالارتياح عندما لاحظ وجود ملعقة واحدة أمامه، حيث لن يرتكب خطأ هذه المرة.

ابتلع هاري عصيدته بسرعة كبيرة كما لو أنه خشي أن يظهر الخال ستان ويأخذها منه. كان أول من أنهى طبقه. ومن دون التفكير في الأمر، وضع ملعقته على الطاولة، ورفع طبقه وراح يلعبه، فحدّق إليه عدد من الأولاد بذهول، وأشار إليه البعض، فيما ضحك آخرون ضحكة مكبوتة. عندها، أصبح وجهه باللون الأحمر القرمزي وهو يعيد الوعاء إلى الطاولة. كاد ينفجر في البكاء لو لم يرفع بارينغتون وعاءه ويبدأ بلعبه أيضاً.

وقف الدكتور سامويل أوكشوت (أوكسون) في وسط المنصة متباعد القدمين، ونظر إلى مجموعة الأولاد برقة؛ إذ هكذا يجدر بالمسؤول عن سانت بيد أن ينظر إلى التلاميذ.

حدّق هاري الجالس في الصف الأمامي إلى القامة المخيفة للشخص الواقف أمامه. كان طول الدكتور أوكشوت أكثر من ست أقدام، وكان ذا شعر أشيب كثيف، مع شاربين جانبيين طويلين وكثيفين جعلاه يبدو أكثر ترهيماً. وكانت عيناه الزرقاوان تخترقان من ينظر إليه عميقاً ومن دون استئذان، ويبدو أنهما لا تطرفان أبداً، فيما التجاعيد على جبينه تشير إلى حكمة كبيرة. تنحني قليلاً قبل التوجه إلى الأولاد بالقول:

«أيها الأحباء، ها نحن نجتمع مجدداً في بداية عام مدرسي جديد، ونحن مستعدون بلا شك لمواجهة كل التحديات التي يمكن أن تصادفنا. بالنسبة إلى الأولاد القدامى»، وحوّل انتباهه إلى الجهة الخلفية من القاعة قبل أن يتابع: «أنتم لا تملكون أي وقت لإضاعته إذا كنتم تأملون في الحصول على مكان لكم في المدرسة التي تريدونها. لذا، لا تقبلوا أبداً بالحلول الثانية. مكتبة الرمحي أحمد

أما بالنسبة إلى تلامذة المدرسة المتوسطة»، وهنا نقل نظراته إلى وسط القاعة متابعاً: «سيكون هذا هو الوقت المناسب لنكتشف من منكم المخوّل للقيام بأشياء عظيمة. وهكذا، عندما تعودون في السنة المقبلة يمكن تحديد مهماتكم وفقاً لذلك. فهل ستكونون تلاميذ مفوضين، أو مراقبين، أو مسؤولين عن الدار، أو مسؤولين عن الرياضة؟ أو هل



ستكونون ببساطة من بين الراسبين؟». فأحنى العديد من الأولاد رؤوسهم.

«تقضي مهمتنا الترحيب بالأولاد الجدد، وفعل كل ما بوسعنا لجعلهم يشعرون بالارتياح. إنهم يأتون إلى هنا للمرة الأولى، ويبدأون سباق الحياة الطويل. قد يكون المشوار صعباً جداً، وقد يخفق واحد أو اثنان منكم»، وهنا حدق إلى الصفوف الثلاثة الأمامية، ثم تابع: «سأنت بيد ليست مدرسة للجبناء. لذا، احرصوا دوماً على عدم نسيان كلمات العظيم سيسيل رودوس: إذا كنت محظوظاً بما فيه الكفاية ووُلدت رجلاً إنكليزياً، فستكون قد ربحت الجائزة الأولى في الحياة».

عندها، انفجرت القاعة في تصفيق عفوي، فيما غادر المدير المنصة، ولحقت به مجموعة من الأساتذة؛ حيث مشوا جميعاً في رواق طويل، وخرجوا من القاعة الكبيرة إلى نور الشمس الصباحي.

صمّم هاري- الذي ارتفعت معنوياته- على عدم خذلان المدير، ولحق بالأولاد الكبار إلى خارج القاعة. لكن، ما إن خرج إلى الساحة حتى أثبتت عزمته. إذ كانت مجموعة من الأولاد الأكبر سناً يحتشدون في الزاوية، وهم يضعون أيديهم في جيوبهم للإشارة إلى أنهم تلاميذ مفوضون.

قال أحدهم مشيراً إلى هاري: «ها هو».

وقال آخر: «إذاً، هكذا يبدو طفل الشوارع».

وأضاف ولد ثالث عرفه هاري بأنه فيشر؛ التلميذ المفوض الذي كان مراقباً في الليلة الماضية: «إنه حيوان، ويجدر بنا العمل على إعادته إلى موطنه الطبيعي بأسرع ما يمكن».

ركض جيل بارينغتون خلف هاري قائلاً له: «إذا تجاهلتهم فسوف  
يضجرون سريعاً ويبدأون بانتقاد ولد آخر». لكن هاري لم يقتنع، وركض  
إلى الصف حيث انتظر أن ينضم إليه بارينغتون وديكنز.

بعد قليل، دخل السيد فروبيشر الغرفة، وأول ما خطر في بال هاري  
هو أن يسأله إن كان يعتبره أيضاً طفلاً شوارع، وغير جدير بالتواجد في  
سانت بيد.

قال السيد فروبيشر: «صباح الخير أيها الأولاد».

فأجاب الأولاد فيما أخذ المعلم مكانه أمام اللوح الأسود: «صباح  
الخير سيدي». فقال السيد فروبيشر: «درسكم الأول لهذا الصباح سيكون  
في التاريخ. وبما أنني متحمس للتعرف إليكم، فسوف نبدأ باختبار بسيط  
لمعرفة ما تعلمتموه لغاية الآن. ما هو عدد زوجات هنري الثامن؟».

ارتفعت عدة أيدي، فقال الأستاذ: «أبوت». فيما نظر إلى جدول على  
مكتبه، وأشار إلى صبي جالس في الصف الأمامي.  
جاء الجواب فوراً: «ست زوجات يا سيدي».

«جيد. لكن، هل يستطيع أي منكم ذكر أسمائهن؟». لم يرتفع الكثير  
من الأيدي. «كليفتون».

فأجاب هاري: «كاثرين من أراغون، آن بولين، جاين سامور، ومن  
ثم آن أخرى حسب ما أعتقد»، ثم صمت فجأة.

«آن أوف كليفس. هل يستطيع أي منكم ذكر الاسمين الباقين؟».  
وهنا ارتفعت يدان فقط في الهواء، فقال فروبيشر بعد التحقق من  
جدوله: «ديكنز».

«كأثرين هوارء وكأثرين بار. آن أوف كليفس وكأثرين بار بقيتا على قيد الحياة بعد موت هنري».

«جيد جداً يا ديكنز. والآن، لنتقدم بالزمن بضعة قرون إلى الأمام. من كان أمر أسطولنا في معركة ترافالغار؟». ارتفعت كل الأيدي في الصف، فقال: «ماثيوز». وأشار إلى يد مصرّة.  
«نيلسون، سيدي».

«صحيح. ومن كان رئيس الوزراء آنذاك؟».

فقال ماثيوز بنبرة غير واثقة جداً: «دوق ويلينغتون سيدي».  
عندها، قال السيد فروبيشر: «لا، لم يكن ويلينغتون؛ رغم أنه عاش في حقبة نيلسون». ونظر في أرجاء الصف، فلاحظ أن يدي كليفتون وديكنز فقط بقيتا مرتفعتين. «ديكنز».

«بيت الأصغر، 1783 إلى 1801، و1804 إلى 1806».

«هذا صحيح يا ديكنز. ومتى كان الدوق الحديدي رئيساً للوزراء؟».

فأجاب ديكنز: «1828 إلى 1830، ومجدداً في عام 1834».

«وهل يستطيع أي منكم أن يقول لي ما هو أشهر انتصار له؟».

ارتفعت يد بارينغتون للمرة الأولى وصرخ: «واترلو يا سيدي». وذلك قبل أن يتسنى للسيد فروبيشر الوقت لاختيار أحد.

«نعم يا بارينغتون. ومن هزم ويلينغتون في واترلو؟».

بقي بارينغتون صامتاً.

فهمس هاري: «نابوليون».

عندها، قال بارينغتون بثقة: «نابوليون، سيدي».

قال فروبيشر مبتسماً: «صحيح كليفتون. وهل كان نابوليون دوقاً أيضاً؟».

«لا، سيدي». قال ديكنز حين لم يحاول أحد الإجابة عن السؤال.  
«أسس أول إمبراطورية فرنسية، وعين نفسه إمبراطوراً».

لم يتفاجأ السيد فروبيشر بجواب ديكنز؛ لأنه نال منحة بسبب تفوقه، ولكنه تأثر بمعلومات كليفتون. ففي النهاية، حصل على منحة لدراسة الإنشاد! وعلى مرّ الأعوام، عرف أن المنشدين الموهوبين - مثل الرياضيين الموهوبين - نادراً ما يبرعون خارج مجالهم. ولكن، يبدو أن كليفتون استثناء لتلك القاعدة. وأراد السيد فروبيشر أن يعرف من علم الصبي.

وعندما رنّ الجرس معلناً انتهاء الحصة الدراسية، قال السيد فروبيشر: «درسكم التالي سيكون في الجغرافيا مع السيد هندرسون، وهو ليس أستاذاً يحب الانتظار. أوصيكم بأن تحاولوا خلال الاستراحة معرفة المكان الذي يقع فيه صفه، والجلوس على مقاعدكم قبل دخوله الصف».

التصق هاري بجيل الذي بدا أنه يعرف مكان كل شيء. وفيما عبرا الساحة الداخلية معاً، أدرك هاري أن بعض الأولاد قد أخفضوا أصواتهم عندما مرّ، وحدّق واحد أو اثنان منهما إليه.

بفضل صباحات أيام السبت العديدة التي أمضاها برفقة العجوز جاك، تميّز هاري في درس الجغرافيا. ولكن في الرياضيات - الصف الأخير في الفترة الصباحية - لم يستطع أحد منافسة ديكنز؛ حتى إن الأستاذ اضطر إلى توخي الحذر منه.

وعندما جلس الثلاثة لتناول الغداء، أحسّ هاري أن مئات العيون تراقب كل حركة من حركاته. ادعى عدم ملاحظته ذلك، وقام بمحاكاة كل ما فعله جيل، فقال جيل وهو يقشّر تفاحة بسكينه: «من الجميل أن أعرف أنني أستطيع تعليمك شيئاً ما».

استمتع هاري بأول درس كيمياء له بعد ظهر ذلك اليوم، وخصوصاً عندما سمح له الأستاذ بإشعال موقد بونسن. لكنه لم يبرع في دروس العلوم الطبيعية، آخر درس لذلك اليوم؛ وذلك لأن هاري كان الصبي الوحيد الذي لا يشتمل منزله على حديقة.

عندما رنّ جرس الحصة الأخيرة، خرج كل التلاميذ للعب، فيما توجه هاري إلى دار العبادة لحضور أول تمرين له في جوقة الإنشاد. ومجدداً، لاحظ أن الجميع يحدقون إليه، وإنما هذه المرة لسبب جيد.

لكن، ما إن خرج من دار العبادة حتى تعرض للألفاظ النابية نفسها من أولاد كانوا عائدين من الملاعب.

قال أحدهم: «أليس هذا طفل الشوارع؟».

وقال آخر: «المسكين، إنه لا يملك فرشاة أسنان».

وقال ثالث: «قيل لي إنه كان ينام في أحواض السفن ليلاً».

لم يكن ديكنز وبارينغتون في مكان قريب، فأسرع هاري متفادياً كل مجموعات الأولاد في طريقه.

خلال العشاء، كانت العيون المحدقة إليه أقل عدداً؛ لأن جيل أوضح علناً للجميع أن هاري صديقه. لكن جيل لم يستطع مساعدته عندما

عادوا جميعاً إلى غرفة النوم، ووجدوا فيشر واقفاً قرب الباب بانتظار هاري.

وفيما بدأ الأولاد يخلعون ملابسهم، أعلن فيشر بصوت عالٍ: «آسف بشأن الرائحة أيها السادة، لكن أحدكم يأتي من منزل لا يوجد فيه حمام». ضحك ولد أو اثنان على أمل الفوز بحظوة فيشر، أما هاري فتجاهله، فتابع فيشر كلامه قائلاً: «وذلك الأحمق لا يفتقد إلى الحمام فقط، وإنما لا يملك أباً أيضاً».

عندها، قال هاري بفخر: «كان والدي رجلاً صالحاً، وقد قاتل من أجل بلاده في الحرب».

فقال فيشر: «ما الذي يجعلك تظن أنني أتكلم عنك يا كليفتون؟ إلا إذا كنت طبعاً الولد الذي تعمل أمه نادلة فندق».

فصح له هاري قائلاً: «نادلة في فندق».

عندها، أمسك فيشر بخف، وقال بغضب: «لا تتجرأ على التحدث معي كليفتون. انحنِ واملس طرف سريرك». أطاع هاري الأمر، فضربه فيشر ست ضربات قوية جداً، حيث اضطر جيل إلى إدارة وجهه والنظر جانباً. بعد ذلك، زحف هاري إلى سريرته، وكافح لحبس دموعه.

وقبل أن يطفئ فيشر الأنوار، أضاف: «أتطلع إلى رؤيتكم جميعاً ليلة غد لأتابع معكم حكاية آل كليفتون من ستيل هاوس لاين. انتظروا حتى تسمعوا أخبار الخال ستان».

وفي الليلة التالية، عرف هاري للمرة الأولى أن خاله قد أمضى ثمانية عشر شهراً في السجن بسبب السرقة. وكانت هذه الحقيقة أسوأ من الضرب بالخف. في تلك الليلة، زحف هاري إلى سريرته متسائلاً عما إذا

كان والده لا يزال على قيد الحياة وإنما في السجن، ولهذا السبب لا يتكلم عنه أحد في المنزل.

بالكاد نام هاري في الليلة الثالثة على التوالي، ولم يستطع تفوقه في الصف، والإعجاب الذي حظي به في دار العبادة أن يمنعه من التفكير باستمرار في اللقاء التالي المحتمل مع فيشر. فقد كان أقل عذر- مثل قطرة ماء تسيل على أرض الحمام، أو وسادة غير مستقيمة، أو جارب نازل حتى كاحله- كفيلاً بجعل هاري يتوقع أسوأ العقاب من التلميذ المفوض. عقاب يتلقاه أمام بقية الأولاد في غرفة النوم، ولكن ليس قبل أن يسرد فيشر فصلاً آخر من يوميات آل كليفتون. في الليلة الخامسة، طفح كيل هاري، ولم يفلح جيل وديكنز في مواساته.

وخلال فترة الاستراحة في ليلة الجمعة، فيما كان بقية الأولاد يقربون صفحات الكتاب التمهيدي اللاتيني لكينيدي، تجاهل هاري قيصر والمغول، وفكر في خطة تحول دون تعرضه للإزعاج مجدداً من قبل فيشر. وعندما استلقى على السرير تلك الليلة، بعد أن اكتشف فيشر ورقة شوكولاته قرب سريره وضربه بالخف مجدداً، كانت خطة هاري جاهزة. بقي مستلقياً لفترة طويلة بعد إطفاء كل الأنوار، ولم يتحرك إلا بعد أن تأكد من أن الجميع قد ناموا.

لم يعرف هاري كم الساعة عندما نزل من السرير، وارتدى ملابسه من دون إحداث أي صوت، ثم زحف بين الأسرة إلى أن وصل إلى الطرف البعيد من الغرفة. فتح النافذة، فأدى تدفق الهواء البارد منها إلى جعل الصبي النائم على السرير المجاور يتحرك قليلاً. تسلق هاري إلى مخرج الحريق، وأغلق النافذة وراءه قبل أن ينزل إلى الأرض. مشى على حافة

المرج، مستفيداً من الظلال الموجودة لتفادي ضوء القمر الذي بدا وكأنه يسطع عليه مثل مصباح ضوئي.

ذعر هاري حين اكتشف أن بوابة المدرسة كانت مقفلة، فزحف قرب الجدار باحثاً عن أي شق فيه يتيح له التسلق إلى الأعلى والهروب إلى الحرية. وفي النهاية، ملح حجراً ناقصاً، واستطاع رفع نفسه إلى الأعلى إلى أن تسلق الجدار، ثم أخفض نفسه من الجهة الأخرى، متشبثاً بالجدار بأطراف أصابعه، وردّد دعاء قصيراً قبل أن يفلت أصابعه، فهبط على الأرض بقوة، ولكنه لم يكسر أي شيء على ما يبدو.

وبعد أن استعاد عافيته، بدأ يركض على الطريق؛ ببطء في البداية، ثم أسرع في خطواته. ولم يتوقف عن الركض إلا عندما وصل إلى أحواض السفن. كان الموظفون الليليون قد أنهوا دوامهم للتو، وارتاح هاري لأن خاله لم يكن بينهم.

وبعد أن اختفى آخر عامل، مشى ببطء على الرصيف، ومرّ أمام مجموعة من المراكب المرصوفة قرب بعضها بعضاً. لاحظ أن أحد المراكب يكشف عن الحرف «ب»، وفكّر في صديقه النائم الآن. هل يمكن أن... ثم انقطع حبل أفكاره فجأة عندما وصل إلى أمام مقطورة العجوز جاك.

تساءل عما إذا كان الرجل العجوز نائماً أيضاً. لكن سؤاله حظي فوراً بجواب عندما قال صوت: «لا تقف هناك يا هاري. ادخل قبل أن تموت من شدة البرد». فتح هاري باب المقطورة، فوجد العجوز جاك يمسك بعود كبريت ويحاول إشعال شمعة. جلس هاري على المقعد قبالة، فسأله العجوز جاك: «هل هربت؟».



تفاجأ هاري كثيراً بسؤاله الصريح، فلم يجب على الفور. وأخيراً،  
تمتم: «نعم، هربت».

«ولا شك في أنك جئت لتخبرني عن سبب اتخاذك لهذا القرار».

قال هاري: «لست أنا من اتخذ هذا القرار، بل تم اتخاذه نيابة  
عني».

«من قبل من؟».

«اسمه فيشر».

«أهو أستاذ أم تلميذ؟».

أجاب هاري: «إنه التلميذ المفوض في غرف النوم». ثم أخبر العجوز  
جاك بكل ما حصل معه خلال أسبوعه الأول في سانت بيد.

مجدداً، فاجأه العجوز بكلامه. فعندما أنهى هاري حكايته، قال له  
جاك: «أنا ألوم نفسي على ما تعرضت له».

فسأله هاري: «لماذا؟ لم يكن بوسعك مساعدتي أكثر».

فأجاب العجوز جاك: «بلى. كان يجدر بي تحضيرك لهذا النوع من  
السلوك التعجرفي غير الموجود في أي مكان آخر على الأرض. كان يجدر  
بي تخصيص المزيد من الوقت للتشديد على أهمية الرابط المدرسي  
القديم، والتقليل من أهمية الجغرافيا والتاريخ. كنت آمل أن تكون  
الأمر قد تغيرت بعد الحرب، لكن يتضح جلياً أنها لم تتغير في سانت  
بيد». ثم سكت لوقت طويل قبل أن يقول أخيراً: «والآن، ماذا ستفعل  
أيها الصغير؟».

قال هاري: «الهروب إلى البحر. سأستقل أي مركب يستقبلني». وحاول أن يبدو متحمساً.

فقال العجوز جاك: «يا لها من فكرة جيدة! لماذا لا تقدم الهدية إلى فيشر مباشرة؟».

«ماذا تقصد؟».

«ما من شيء سيرضي فيشر أكثر من تمكنه من إخبار أصدقائه أن طفل الشوارع لم يملك الشجاعة. وماذا تتوقعون أصلاً من ابن أحواض سفن تعمل أمه نادلة؟».

«لكن فيشر محق. لست من طبقته».

«لا، هاري. المشكلة هي أن فيشر يدرك أنه ليس من فئتكم، ولن يكون أبداً».

قال هاري: «هل تقول إنه يجدر بي العودة إلى ذلك المكان المرعب؟».

فقال العجوز جاك: «في النهاية، وحدك من بإمكانه أن يتخذ القرار. لكن، إذا هربت كلما صادفت واحداً مثل فيشر في هذا العالم، فسوف تصبح مثلي، وستعيش حياة التشرذم».

قال هاري: «ولكنك رجل عظيم».

قال العجوز جاك: «هكذا كنت سأكون لو لم أهرب لحظة قابلت فيشر الخاص بي. لقد اخترت الطريق السهل وفكرت في نفسي فقط».

«وومن يجدر بي التفكير؟».

قال العجوز جاك: «في أمك في البداية. فلا تنسَ كل التضحيات التي بذلتها من أجل إعطائك فرصة أفضل في حياة لم تحلم أنها ممكنة. وهناك أيضاً السيد هولكومب الذي سيلوم نفسه حين يكتشف أنك هربت. ولا تنسَ الآنسة مانداي التي طلبت المساندة، وأمضت ساعات عديدة للتأكد من أنك جيد بما فيه الكفاية للفوز بتلك المنحة. وعندما تقارن الإيجابيات مع السلبيات يا هاري، أقترح عليك أن تضع فيشر في جهة من الميزان، وبارينغتون وديكنز في الجهة الأخرى؛ لأنني أعتقد أن فيشر سيصبح سريعاً غير مهم، فيما سيتحول بارينغتون وديكنز إلى صديقين مقربين لك لبقية حياتك. أما إذا هربت، فسيجبران على الاستماع إلى فيشر باستمرار وهو يذكرهما بأنك لم تكن الشخص الذي اعتقدها».

بقي هاري صامتاً لبعض الوقت. وأخيراً، وقف على قدميه قائلاً: «شكراً لك سيدي». ومن دون التفوه بأي كلمة أخرى، فتح باب المقطورة وخرج.

مشى على الرصيف ببطء، وحدث مجدداً إلى سفن الشحن الكبيرة التي ستنتقل كلها عما قريب إلى مرافئ بعيدة. استمر في المشي إلى أن وصل إلى بوابات أحواض السفن، حيث بدأ بالركض متجهاً صوب المدينة. وعندما وصل إلى بوابة المدرسة كانت مفتوحة أصلاً، وكانت الساعة على الجدار الكبير على وشك أن ترن ثماني مرات.

بالإضافة إلى الاتصال الهاتفي، سيتوجب على السيد فروبيشر التوجه إلى منزل المدير وإبلاغه عن فقدان أحد الأولاد. ولكن، فيما كان السيد فروبيشر ينظر من نافذة مكتبه، لمح هاري يتسلل من بين الأشجار ويشق طريقه بحذر صوب المنزل. حاول هاري فتح الباب الأمامي فيما

رنت الساعة لآخر مرة، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع السيد فروبيشر  
الذي قال له:

«من الأفضل أن تسرع يا كليفتون، وإلا فستفوت وجبة الفطور».

فقال هاري: «نعم سيدي». ثم ركض في الرواق، ووصل إلى غرفة  
الطعام مباشرة قبل إغلاق الباب، وجلس بين بارينغتون وديكنز.

قال بارينغتون: «ظننتُ للحظة أنني سأكون الوحيد الذي سيلحق  
الوعاء هذا الصباح». فانفجر هاري ضاحكاً.

لم يصادف هاري فيشر في ذلك اليوم، وتفاجأ حين أدرك أن تلميذاً  
مفوضاً آخر حلّ مكانه في تلك الليلة. وللمرة الأولى خلال ذلك الأسبوع،  
تمكن هاري من النوم.

دخلت سيارة الرولز رويس عبر بوابة القصر الكبير، وتقدمت في ممشى طويل ومرصوف بأشجار السنديان الطويلة المنتصبة مثل الحرس. استطاع هاري إحصاء ستة بستانيين قبل أن تقع عيناه على المنزل. خلال إقامتهما في سانت بيد، تعرف هاري نوعاً ما إلى طريقة عيش جيل عندما يعود إلى المنزل في العطلات، لكن ما من شيء جعله يتوقع هذا. لذا، عندما رأى المنزل للمرة الأولى، فتح فمه مندهشاً وتركه مفتوحاً.

قال ديكنز: «أعتقد أنه تم تشييده في بداية القرن الثامن عشر». فأجاب جيل: «لا بأس. تم تشييده في العام 1722 من قبل فانبورغ. لكنني أراهن أنك لن تعرف من صمم الحديقة. سأعطيك تلميحاً، تم تصميمها بعد تشييد المنزل».

فقال هاري وهو لا يزال يحدق إلى المنزل: «لم أسمع إلا بمهندس مناظر واحد؛ إنه كابابيليتي براون».

قال جيل: «ولهذا السبب تحديداً اخترناه، ليعرفه أصدقائي بعد مئتي عام».

ضحك هاري وديكنز فيما توقفت السيارة أمام قصر من ثلاثة طوابق مشيد من حجر كوستوول الذهبي. خرج جيل من السيارة قبل أن تتاح للسائق فرصة فتح الباب الخلفي، وصعد الدرج مسرعاً فيما لحق به صديقه بثقة أقل.

فُتِحَ البابُ الأمامي قبل وقت من وصول جيل إلى الدرجة العلوية، وظهر رجل طويل يرتدي معطفًا أسود طويلًا وسروالًا مخططًا ويضع ربطة عنق سوداء، وانحنى قليلاً حين مرَّ أمامه الولد الصغير بسرعة، ثم قال: «أتمنى لك ذكرى ميلاد سعيدة سيد جيل».

فصرخ جيل فيما اختفى في المنزل: «شكراً لك جنكينز. هيا أيها الرفيقان». عندها، فتح كبير الخدم الباب للسماح لهاري وديكنز باللحاق به.

ما إن وصل هاري إلى ردهة المنزل حتى وجد نفسه مسمراً أمام لوحة لرجل عجوز بدا وكأنه يحدق إليه مباشرة. ورث جيل الأنف الذي على شكل منقار من الرجل، وكذلك العينين الزرقاوين والفك المربع. نظر هاري إلى بقية اللوحات التي تزين الجدران متأملاً، إذ كانت اللوحات الزيتية الوحيدة التي رأى صورها من قبل في الكتب تخص الموناليزا، والفارس الضاحك، وحارس الليل. كان ينظر إلى مشهد طبيعي رسمه فنان يدعى كونستابل عندما دخلت الردهة امرأة ترتدي ما يستطيع هاري وصفه بأنه فستان سهرة.

قالت: «ذكرى ميلاد سعيدة يا حبيبي».

فقال جيل: «شكراً أمي». فيما انحنى المرأة لتقبيله. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها هاري صديقه محرراً. «إنهما أفضل صديقين لي، هاري وديكنز». صافح هاري امرأة ليست أطول منه بكثير، فوجهت له ابتسامة دافئة جعلته يشعر فوراً بالارتياح.

اقترح عليهم: «لماذا لا تذهبون إلى غرفة الرسم وتشربون بعض الشاي؟». ورافقت الأولاد عبر الردهة إلى قاعة كبيرة مظلة على الفناء الأمامي.

عندما دخل هاري الغرفة لم يشأ الجلوس، وإنما أراد تأمل اللوحات المعلقة على كل الجدران. لكن السيدة بارينغتون ألحت عليه للجلوس على الأريكة، فغرق بين الوسادات المترفة، ولم يستطع منع نفسه من التحديق إلى خارج النافذة الكبيرة لرؤية المرح المرتب والكبير بما فيه الكفاية للعب مباراة كريكت عليه. ووراء المرح، استطاع هاري رؤية بحيرة تسبح فيها طيور البط البري، وهي تبدو بشكل جلي غير قلقة البتة بشأن مصدر وجبتها التالية. جلس ديكنز على الأريكة قرب هاري.

لم يتفوه أي منهما بكلمة، فيما دخل الغرفة رجل آخر يرتدي سترة سوداء قصيرة، تلتها امرأة شابة ترتدي بذلة زرقاء شبيهة بتلك التي ترتديها أمه في الفندق. حملت الخادمة صينية فضية كبيرة وضعتها على طاولة بيضاوية أمام السيدة بارينغتون.

سألت السيدة بارينغتون وهي تنظر إلى هاري: «أفضل الهندي أو الصيني؟».

لم يفهم هاري ما تقصده.

غير أن جيل سارع بالإجابة: «سنشرب جميعاً الهندي. شكراً لك أمي».

اعتقد هاري أن جيل قد علّمه كل ما هو ممكن بشأن آداب المعاشرة في المجتمع الراقى، لكن السيدة بارينغتون رفعت فجأة المستوى بشكل جذري.

بعدما سكب الخادم ثلاثة أكواب من الشاي، وضعتها الخادمة أمام الصبيان، بالإضافة إلى طبق جانبي مليء بالشطائر. حدّق هاري إلى كومة الشطائر، ولكنه لم يجرؤ على لمسها. عندها، أخذ جيل واحدة منها ووضعها في طبقه، فقطّبت أمه جبينها. «كم مرّة طلبت منك يا جيل أن تنتظر ريثما يقرر ضيوفك ما يرغبون فيه قبل أن تختار بنفسك؟».

أراد هاري أن يقول للسيدة بارينغتون إن جيل يأخذ دوماً زمام المبادرة؛ لكي يعرف هاري ما يجدر به فعله، والأهم من ذلك، ما لا يجدر به فعله. اختار ديكنز شطيرة ووضعها في طبقه، ففعل هاري الشيء نفسه. انتظر هاري بصبر حتى رفع ديكنز الشطيرة إلى فمه وتناول قضمة.

قالت السيدة بارينغتون: «أتمنى أن تحبوا السلمون المدخن».

فقال جيل: «إنه رائع». قبل أن تتاح لصديقيه فرصة الاعتراف بأنهما لم يتذوقا السلمون المدخن من قبل، ثم أضاف: «نحن نتناول فقط شطائر السمك في المدرسة».

قالت السيدة بارينغتون: «أخبروني الآن، كيف حالكم جميعاً في المدرسة».

قال جيل فيما تناول شطيرة أخرى: «ثمة مجال للتحسن. هكذا يصف فروب جهودي حسب ما أعتقد. لكن ديكنز متفوق في كل شيء».

فقال ديكنز متحدثاً للمرة الأولى: «باستثناء اللغة الإنكليزية. فقد تفوّق عليّ هاري في هذا المجال بنسبة مئتين في المئة».

عندها، سألت السيدة بارينغتون ابنها: «وهل تفوّقت على أحد في أية مادة يا جيل؟».



فقال هاري محاولاً إنقاذ جيل: «حلّ الثاني في الرياضيات يا سيدة بارينغتون. لديه موهبة كبيرة في الأرقام».

عندها، قالت السيدة بارينغتون: «تماماً مثل جدّه».

قال ديكنز: «ثمة صورة جميلة لك فوق الموقد يا سيدة بارينغتون».

فابتسمت قائلة: «ليست أنا يا ديكنز، بل إنها أُمي العزيزة».

أحنى ديكنز رأسه قبل أن تضيف السيدة بارينغتون بسرعة: «لكن، يا له من إطراء جميل! كانت تعتبر ملكة جمال في أيامها».

في تلك اللحظة، سأل هاري محاولاً إنقاذ ديكنز: «من رسمها؟».

فأجابت السيدة بارينغتون: «لازلو. لماذا تسأل؟».

«لأنني كنت أتساءل عما إذا كان الرسام نفسه من رسم لوحة الرجل في الردهة».

فقالت السيدة بارينغتون: «يا لدقة ملاحظتك يا هاري! اللوحة التي رأيته في الردهة لوالدي، وقد رسمها بالفعل الفنان لازلو».

سأل هاري: «ما الذي يفعله والدك؟».

قال جيل: «إنه لا يكف هاري عن طرح الأسئلة. عليك الاعتياد على ذلك».

فابتسمت السيدة بارينغتون مجيبة: «إنه يستورد الشراب إلى هذه البلاد، وتحديدًا الشراب الإسباني».

عندها، قال ديكنز وفمه مليء بالخيار: «تماماً مثل هارفي».

فكرت السيدة بارينغتون: «تماماً مثل هارفي». ابتسم جيل ابتسامة عريضة، وقالت السيدة بارينغتون: «تناول شطيرة أخرى يا هارفي». وذلك بعد أن لاحظت أن عينيه مسمرتان على الطبق.

فقال هارفي: «شكراً لك». وعجز عن الاختيار بين السلمون المدخن أو الخيار، أو البيض والبندورة. وأخيراً، اختار السلمون متسائلاً عن طعمه.

«وماذا عنك يا ديكنز؟».

فأجاب: «شكراً لك يا سيدة بارينغتون». وتناول شطيرة أخرى بالخيار.

قالت والدة جيل: «لا أحب مناداتك ديكنز، فذلك يجعلك تبدو وكأنك واحد من الخدم». عندها، أحنى ديكنز رأسه مجدداً وقال: «ولكنني أفضل مناداتي ديكنز».

فانفجر جيل ضاحكاً.

فجأة فُتح باب الغرفة، ودخل رجل بدا جلياً أنه ليس خادماً، حاملاً رزمة كبيرة. نظر هارفي إلى رجل لا يمكن إلا أن يكون السيد هوغو. عندها، قفز جيل من مكانه، وركض صوب والده الذي أعطاه الرزمة التي يحملها وهو يقول له: «ذكرى ميلاد سعيدة يا صغيري».

فقال جيل: «شكراً بابا». وبدأ يفك الرباط فوراً.

عندها قالت أمه: «قبل أن تفتح هديتك يا جيل، يجدر بك أولاً تعريف ضيفك إلى والدك».

فقال جيل: «عفواً بابا. إنهما أفضل صديقين عندي؛ ديكنز وهاري». ووضع الهدية على الطاولة. لاحظ هاري أن والد جيل يملك البنية العضلية والطاقة الكبيرة اللتين لا يملكهما أحد غيره سوى ابنه.

قال السيد بارينغتون فيما صافح ديكنز: «سررت بلقائك يا ديكنز». ثم استدار صوب هاري قائلاً: «طاب مساؤك يا كليفتون». وذلك قبل أن يجلس على الكرسي الفارغ قرب زوجته، فتساءل هاري عن سبب عدم مصافحة السيد بارينغتون له، وعن كيفية معرفته أن اسمه كليفتون؟

بعد أن قدم الخادم كوب شاي للسيد بارينغتون، نزع جيل الورقة عن هديته، وأطلق صرخة فرح عندما رأى مذياع روبرتس. وضع القابس في مقبس جداري، وبدأ يضبط المذياع على مختلف الإذاعات. صفق الأولاد وضحكوا مع كل صوت جديد يصدر من العلبة الخشبية الكبيرة.

قالت السيدة بارينغتون فيما استدارت صوب زوجها: «قال لي جيل إنه حلّ في المرتبة الثانية في الرياضيات في هذا الفصل».

فأجاب الأب: «لكنّ هذا لا يعوّض عن رسوبه في كل المواد الأخرى تقريباً». وحاول جيل ألا يبدو محرجاً، فيما استمر في البحث عن محطة أخرى في المذياع.

قال هاري: «لكن، كان يجدر بك رؤية الهدف الذي سجله في مرمى أفونهورست. نتوقع جميعاً أن يصبح «الكابتن» خلال السنوات الإحدى عشرة المقبلة».

فقال السيد بارينغتون من دون أن ينظر إلى هاري: «الأهداف لن توصله إلى إيتون. حان الوقت ليعمل الصبي بكدّ أكبر».

لم يتحدث أحد لبعض الوقت، إلى أن كسرت السيدة بارينغتون جدار الصمت: «هل أنت كليفتون الذي ينشد في جوقة الإنشاد؟».

فقال جيل: «هاري أفضل سوبرانو. في الواقع، لقد حصل على منحة في الإنشاد».

في تلك اللحظة، أدرك هاري أن والد جيل بات الآن يحدق إليه. وقالت السيدة بارينغتون: «أعتقد أنني عرفتكَ. حضرنا أنا وجدّ جيل حفلاً في سانت ماري عندما اجتمعت جوقة إنشاد سانت بيد مع جوقة مدرسة القواعد في بريستول. وكان إنشادك مذهلاً يا هاري».

فقال هاري متورداً بخجل: «شكراً لك سيدة بارينغتون».

سأل السيد بارينغتون: «وهل تنوي الذهاب إلى مدرسة القواعد في بريستول بعد أن تغادر سانت بيد يا كليفتون؟».

كليفتون مرة أخرى، فكر هاري في سره، غير أنه أجاب: «فقط إذا حصلت على منحة دراسية».

سألت السيدة بارينغتون: «لكن، لمَ هذا الأمر مهم؟ لا شك في أنك ستحصل على مكان في المدرسة مثل أي صبي آخر».

«لأن أُمِّي لن تتمكن من دفع التكاليف يا سيدة بارينغتون. إنها نادلة في فندق رويال».

«لكن، ألا يستطيع والدك...»

فقال هاري: «لقد مات. قُتِل في الحرب». وراقب عن كثب ردة فعل السيد بارينغتون، غير أن هذا الأخير لم يكشف عن أي شيء؛ تماماً مثل أي لاعب بارع.

قالت السيدة بارينغتون: «أنا آسفة، لم أكن أعرف».

فُتح الباب خلف هاري، ودخل الخادم حاملاً قالب حلوى من طبقتين على صينية فضية وضعها في وسط الطاولة. وبعد أن نجح جيل في إطفاء الشمعات الاثنتي عشرة دفعة واحدة، صفق الجميع.

سأل السيد بارينغتون: «متى ذكرى ميلادك يا كليفتون؟».

أجاب هاري: «كانت في الشهر الماضي يا سيدي».

فنظر السيد بارينغتون بعيداً.

نزع الخادم الشموع قبل إعطاء السيد الصغير سكيناً لقطع الحلوى. قطع جيل قالب الحلوى، ووضع خمس قطع غير متساوية الأحجام في الأطباق التي وضعتها الخادمة على الطاولة.

التهم ديكنز الكتل البيضاء التي وقعت على طبقه قبل أن يتناول قطعة الحلوى. أما هاري فحذا حذو السيدة بارينغتون، ورفع الشوكة الفضية الصغيرة الموجودة إلى جانب الطبق، واستعملها لتناول قطعة صغيرة من الحلوى قبل إعادتها إلى الطبق.

وحده السيد بارينغتون لم يلمس الحلوى. وفجأة، ومن دون إنذار، نهض عن كرسيه وغادر من دون قول أي كلمة أخرى.

لم تبذل والدة جيل أي جهد لإخفاء دهشتها من تصرف زوجها، ولكنها لم تقل شيئاً. ولم يرفع هاري عينيه قط عن السيد هوغو فيما غادر الغرفة، فيما أنهى ديكنز طبقه وحوّل انتباهه مجدداً إلى شطائر السلمون المدخن، وبدا جلياً أنه غافل عما يحصل حوله.

وبعد أن أغلق الباب، تابعت السيدة بارينغتون الكلام كما لو أنه لم يحصل أي شيء غير اعتيادي. «أنا واثقة من أنك ستحصل على منحة في مدرسة القواعد في بريستول يا هاري، ولاسيما بعد كل ما أخبرني به جيل عنك. إذ يبدو جلياً أنك ولد ذكي جداً، كما أنك منشد موهوب».

فقال هاري: «يميل جيل إلى المبالغة يا سيدة بارينغتون. أوكد لك أن ديكنز وحده من يستطيع التأكد من حصوله على منحة».

فسألته: «لكن، ألا تعطي مدرسة بريستول منحةً لتلاميذ الموسيقى؟».

فأجاب هاري: «ليس للمنشدين. إنهم لا يجازفون بذلك».

عندها قالت السيدة بارينغتون: «لا أعتقد أنني فهمت. ما من شيء يستطيع أن يبدد السنوات التي خصتها للتدرب على الإنشاد».

«صحيح. لكن لسوء الحظ، ما من أحد يستطيع أن يتوقع ما سيحدث حين يضعف الصوت. فبعض المنشدين يصبحون منشدي جهير أو جهير أول، فيما يصبح المحظوظون منشدي سوبرانو. ولا مجال أبداً لمعرفة الأمر مسبقاً».

سأل ديكنز بعد أن اهتم بمضمون الحديث للمرة الأولى: «ولم لا؟».

«هناك الكثير من المنشدين الذين لا يحظون أساساً بمكان في جوقة الإنشاد المحلية بعد أن تضعف أصواتهم. اسأل المعلم إرنست لوف، فكل منزل في إنكلترا سمعه وهو ينشد «أوه جناح الحمامة»، لكن بعد أن ضعف صوته، لم يسمع به أحد مجدداً».

فقال ديكنز أثناء التهامه الطعام: «عليك فقط أن تكد في العمل أكثر. لا تنسَ أن مدرسة القواعد تهب اثنتي عشرة منحة كل سنة، وأستطيع الفوز بواحدة منها فقط.»

فقال هاري: «لكن، هذه هي المشكلة. فإذا أردت العمل بكد أكبر فسأضطر إلى ترك جوقة الإنشاد. ومن دون المنحة، سأضطر إلى ترك سانت بيد، وبالتالي...»

قال ديكنز: «أنت أمام معضلة كبيرة.»

لم يكن هاري قد سمع بهذا التعبير من قبل، وقرر سؤال ديكنز لاحقاً عن معناه.

قالت السيدة بارينغتون: «حسناً، ثمة أمر أكيد، وهو أن جيل لن يفوز بأية منحة في أية مدرسة.»

فقال هاري: «ربما لا. لكن مدرسة بريستول لن تتخلى عن لاعب بايسبول مميز مثله.»

قالت السيدة بارينغتون: «إذاً، علينا أن نأمل أن تفكر إيتون بالطريقة نفسها؛ لأن والده يريد إرساله إلى هناك.»

عندها، قال جيل بعد أن وضع شوكتة: «لا أريد الذهاب إلى إيتون. أريد الذهاب إلى مدرسة بريستول والبقاء مع صديقي.»

فقالت أمه: «أنا واثقة من أنك ستتعرف إلى الكثير من الأصدقاء الجدد في إيتون. وسيخيب أمل والدك كثيراً إذا لم تحدُ حذوه.»

سعل الخادم، فنظرت السيدة بارينغتون إلى خارج النافذة ورأت سيارة تتوقف أمام الدرج فقالت: «أعتقد أن الوقت قد حان لتعودوا إلى المدرسة. لا أريد أن أكون مسؤولة عن تأخر أي منكم».

نظر هاري بتوق إلى طبق الشطائر الكبير، ونصف قالب الحلوى المتبقي، ولكنه نهض من مكانه على مضض وبدأ يسير نحو الباب. نظر إلى الخلف مرة واحدة، وكان واثقاً من أن ديكنز قد وضع شطيرة في جيبه. نظر للمرة الأخيرة إلى خارج النافذة، وتفاجأ لدى رؤيته شابة جميلة ذات ضفيرتين طويلتين متفوقعة في الزاوية وتقرأ كتاباً.

قال جيل: «هذه أختي المزعجة إيما. إنها لا تتوقف عن القراءة أبداً. تجاهلها». ابتسم هاري لإيما، ولكنها لم تنظر إليهم، فيما لم ينظر إليها ديكنز قط.

رافقت السيدة بارينغتون الأولاد الثلاثة إلى الباب الأمامي، حيث صافحت هاري وديكنز وهي تقول لهما: «أتمنى أن تعودا قريباً. لديكما تأثير كبير في جيل».

قال هاري: «شكراً جزيلاً لك على دعوتنا لتناول الشاي يا سيدة بارينغتون». أما ديكنز فأوماً برأسه فقط. نظر كلا الولدين بعيداً عندما عانقت ابنا وقبّلته.

وفيما انطلق السائق في الممشى الطويل متجهاً إلى البوابة الحديدية، نظر هاري عبر النافذة الخلفية إلى المنزل، ولم يلاحظ إيما التي كانت تحديق عبر النافذة إلى السيارة المبتعدة.



يفتح دكان الحلواني في المدرسة بين الساعة الرابعة والسادسة من بعد ظهر كل ثلاثاء وخميس.

نادراً ما يزور هاري «المركز التجاري»- مثلما يسميه الأولاد- لأنه يملك فقط شلنين للفصل بكامله، وعرف أن أمه لن تحبذ ظهور أي نفقات إضافية في حسابه في نهاية الفصل. لكن اليوم ذكرى ميلاد ديكنز، لذا قرر هاري خرق القاعدة لأنه أراد شراء لوح فدج بنس واحد لصديقه.

رغم زيارات هاري النادرة إلى دكان الحلواني، كان يعثر على لوح شوكولاته على مكتبه مساء كل ثلاثاء وخميس. ورغم أن قاعدة المدرسة تقضي بعدم السماح لأي ولد بإنفاق أكثر من ستة بنسات في الأسبوع في دكان الحلواني، إلا أن جيل كان يترك أيضاً علبة من حلوى السوس لديكنز؛ موضحاً لصديقيه أنه لا يريد أي شيء في المقابل.

عندما وصل هاري إلى دكان الحلواني في ذلك الثلاثاء، انضم إلى رتل طويل من الأولاد الذين ينتظرون أدوارهم. سال اللعاب من فمه فيما كان يحدق إلى صفوف الشوكولاته، والفدج، والهلام، والسوس، ورقاقات البطاطا المقلية التي تعتبر آخر صيحة. فكّر في شراء علبة لنفسه، ولكنه بعد أن تكلم مع السيد ويلكينز ميكابور، أدرك من دون ريب قيمة البنسات الستة.

فيما تأمل هاري ثروات المركز التجاري، سمع صوت جيل، ولاحظ أنه يقف أمامه في الرتل على بعد بضع خطوات. كان على وشك مناداة صديقه عندما رأى جيل يرفع لوح شوكولاته عن الرف ويضعه في جيب سرواله. وبعد بضع لحظات، لحقته علبة من العلكة. وعندما وصل جيل إلى مقدمة الرتل، وضع على الرف علبة من السوس وكيساً من رقائق البطاطا المقلية، فسجلها السيد سويفالز- المسؤول عن الدكان- باسم بارينغتون في دفتره، فيما بقي الغرضان الآخران في جيب جيل من دون أن يدفع ثمنهما.

ذعر هاري، وقبل أن يستدير جيل، غادر هاري المتجر؛ إذ لم يشأ أن يلحقه صديقه. مشى ببطء حول ملعب المدرسة محاولاً معرفة السبب الذي يدفع جيل إلى سرقة أي شيء فيما يستطيع جلياً دفع ثمنه. وافترض أن هناك تفسيراً ما؛ رغم أنه لم يعرف قط ما يكون.

عاد هاري إلى غرفته مباشرة قبل وقت الاستراحة، ليجد لوح الشوكولاته على مكتبه، فيما ديكنز يلتهم علبة سكاكر السوس. وجد صعوبة في التركيز على أسباب الثورة الصناعية فيما حاول معرفة ما يجدر به فعله بشأن اكتشافه.

وعند انتهاء وقت الاستراحة حسم أمره، فوضع لوح الشوكولاته غير المفتوح في الدرج العلوي من طاولة مكتبه، وقرر أن يعيده إلى دكان الحلواني يوم الخميس من دون إخبار جيل.

لم ينم هاري تلك الليلة. وبعد أن تناول الفطور، أخذ ديكنز جانباً، وشرح له سبب عدم تمكنه من تقديم هدية له في ذكرى ميلاده، فلم يستطع ديكنز إخفاء دهشته.

قال ديكنز: «كان أبي يواجه المشكلة نفسها في متجره. يعرف ذلك باسم سرقة المتاجر. تقول صحيفة الدايلي مايل إن هذا السلوك يعزى إلى الاكتئاب».

قال هاري: «لا أعتقد أن عائلة هاري مصابة بالاكتئاب كثيراً».

أوما ديكنز برأسه دليل الموافقة ثم قال: «يجدر بك ربما إخبار فروب».

قال هاري: «أأشي بأفضل صديق لي؟! أبدأ».

فقال ديكنز: «لكن، إذا تم إلقاء القبض على جيل فمن الممكن أن يطرد. أقل ما يمكنك فعله هو تحذيره بأنك اكتشفت ما يفعله».

قال هاري: «سأفكر في الأمر. لكن في غضون ذلك، سأعيد كل ما يعطيني إياه جيل إلى دكان الحلواني من دون أن أدعه يعرف».

انحنى ديكنز إلى الأمام وهمس: «هل يمكنك إعادة أغراضي أيضاً؟ لم أذهب إلى دكان الحلواني قط، لذا لن أعرف ما يجدر بي فعله».

وافق هاري على تحمل المسؤولية. وبعد ذلك، صار يذهب إلى دكان الحلواني مرتين أسبوعياً، ويعيد هدايا جيل غير المرغوب فيها إلى الرفوف. استنتج أن ديكنز محق، وأن عليه مواجهة صديقه قبل أن يلقي القبض عليه، ولكنه قرر تأجيل المسألة حتى نهاية الفصل.

قال السيد فروبشير فيما اجتازت الكرة الحدود: «ضربة جيدة يا بارينغتون». علا التصفيق في أرجاء الملعب. «تذكر كلماتي أيها المدير، سوف يلعب بارينغتون مع إيتون ضد هارو في مباريات لوردس».

فهمس هاري لديكنز: «ليس إذا قرر جيل غير ذلك».

سأل ديكنز: «ماذا ستفعل خلال العطلة الصيفية يا هاري». وبدأ جلياً أنه غافل عن كل ما يجري حوله.

فأجاب هاري مبتسماً ابتسامة عريضة: «لا أنوي زيارة توسكانة هذه السنة، إذا كان هذا ما تسألني عنه».

قال ديكنز: «لا أعتقد أن جيل يريد الذهاب إلى هناك أيضاً. ففي النهاية، لا يفهم الإيطاليون لعبة الكريكت أبداً».

قال هاري: «حسناً، أنا مستعد للتبادل معه. لا يزعجني أن مايكل أنجيلو، ودافينشي، وكارافاجيو لم يتعرفوا قط إلى أصول لعب البولينغ، من دون أن ننسى كل المعكرونة التي يفترض به تناولها».

سأل ديكنز: «إذاً، إلى أين ستذهب؟».

فقال هاري بتبجح: «سأمضي أسبوعاً على الريفيرا الغربية. الرصيف الكبير الممتد في البحر في ويستون سوبر ماري يكون مقصدي الرئيس عادة، يليه تناول السمك ورقاقات البطاطا المقلية في مقهى كوفينز. هل تريد الانضمام إليّ؟».

قال ديكنز: «لا أملك الوقت». وذلك بعد أن اعتقد جلياً أن هاري جدي في كلامه.

سأل هاري: «لم؟».

«لديّ الكثير من العمل الواجب إنجازه».

سأل هاري غير مصدق: «هل تنوي الذهاب إلى العمل خلال العطلة الصيفية؟».

قال ديكنز: «العمل بمثابة عطلّة بالنسبة إليّ. أستمتع به كثيراً بقدر ما يستمتع جيل بالكريكيت، وتستمتع أنت بالإنشاد». «لكن، أين تعمل؟».

«في المكتبة العامة. يوجد هناك كل ما أحتاج إليه».

سأل هاري بجديّة: «هل أستطيع الانضمام إليك؟ أحتاج إلى كل المساعدة الممكنة إذا أردت الفوز بمنحة إلى مدرسة بريستول».

قال ديكنز: «فقط إذا وافقتَ على البقاء صامتاً طوال الوقت». أراد هاري الضحك، ولكنه عرف أن صديقه لا يعتبر أن العمل مسألة مضحكة.

قال هاري: «لكنني أحتاج كثيراً إلى بعض المساعدة في القواعد اللغوية اللاتينية. ما زلت لا أفهم الجملة المتعاقبة، والصيغة الشرطية، وإذا لم أنجح في الحصول على علامة جيدة في اللاتينية فتلك كارثة؛ حتى لو أبلتُ حسناً في بقية المواد الأخرى».

قال ديكنز: «أنا مستعد لمساعدتك في اللغة اللاتينية إذا أسديتَ لي خدمة في المقابل».

قال هاري: «قل لي ما هي؛ رغم أنني لا أعتقد أنك ترغب في الإنشاد منفرداً في حفلة هذه السنة».

فقال السيد فروبيشر مجدداً: «ضربة موفقة يا بارينغتون». شارك هاري في التصفيق. «هذه هي النقطة الثلاثئة له هذا الموسم أيها المدير».

قال ديكنز: «لا تكن سخيماً يا هاري. في الحقيقة، يحتاج أبي إلى شخص لتوزيع الجريدة الصباحية خلال العطلة الصيفية، وقد اقترحتُ اسمك. إنه يدفع مبلغ شلن واحد في الأسبوع، وطالما أنك تستطيع الوصول إلى المتجر في تمام الساعة السادسة من كل صباح، فإن الوظيفة لك».

قال هاري باستهزاء: «السادسة صباحاً! إذا كان لديك خال يوقظ المنزل بأكمله عند الساعة الخامسة، فلن تكون هذه مشكلة».

«إذاً، هل أنت مستعد لاستلام الوظيفة؟».

قال هاري: «نعم طبعاً. لكن، لماذا لا تريدها أنت؟ فشلن واحد في الأسبوع ليس جديراً بالرفض».

قال ديكنز: «لا تذكرني. لكنني لا أستطيع ركوب دراجة».

قال هاري: «أوه اللعنة. أنا لا أملك دراجة».

فتنهده ديكنز قائلاً: «لم أقل إنني لا أملك دراجة، بل قلت إنني لا أستطيع ركوبها».

قال السيد فروبيشر بعدما غادر كل اللاعبين أرض الملعب وذهبوا لتناول الشاي: «كليفتون، أودّ رؤيتك في مكثبي بعد فترة الاستراحة».

لطالما أحبّ هاري السيد فروبيشر، لأنه من بين عدد قليل من الأساتذة الذين يعاملونه باحترام. ويبدو أيضاً أنه لا يفضل أحداً من التلاميذ عن غيره، فيما يوضح له عدد من الأساتذة الآخرين أنه لم يكن

يجدر به السماح لابن أحواض السفن بالدخول عبر بوابات سانت بيد  
مهما كان صوته جيداً.

عندما رنّ الجرس في نهاية فترة الاستراحة، وضع هاري قلمه ومشى  
في الرواق متوجهاً إلى مكتب السيد فروبيشر. لم يكن يعرف إطلاقاً سبب  
رغبة المسؤول في رؤيته، ولم يفكر كثيراً في الأمر.

طرق هاري على باب المكتب، فقال صوت رجل لا يبدد الكلمات  
أبدأ: «تفضّل». فتح هاري الباب، وتفاجأ لعدم رؤيته ابتسامة فروب  
الاعتيادية.

حدّق السيد فروبيشر إلى هاري عندما توقف أمام مكتبه، ثم قال  
له: «تم لفت انتباهي يا كليفتون إلى أنك تسرق الأغراض من دكان  
الحلواني». صُدم عقل هاري فيما حاول التفكير في جواب لا يُدين جيل،  
فيما تابع فروبيشر بالنبرة الصارمة نفسها: «رأك تلميذ مفوّض وأنت  
تأخذ الأغراض من الرفوف، ومن ثم تخرج من الدكان قبل أن تصل إلى  
مقدمة الرتل».

أراد هاري القول: «لا آخذ يا سيدي، بل أعيد». ولكنه لم يقل إلا: «لم  
أخذ قط أي شيء من دكان الحلواني يا سيدي». ورغم قوله الحقيقة،  
أحسّ بتورّد شديد في وجنتيه.

«إذاً، كيف تبرر زيارتك مرتين أسبوعياً إلى الدكان، فيما لا توجد أية  
فاتورة باسمك في سجل السيد سويفالز؟».

انتظر السيد فروبيشر بصبر، لكن هاري عرف أنه إذا قال الحقيقة  
فلا شك في أنه سيتم طرد جيل.

«وتم العثور على هذا اللوح من الشوكولاته وهذه العلبة من سكاكر السوس في الدرج العلوي من مكتبك بعد فترة وجيزة من إغلاق دكان الحلواني».

نظر هاري إلى الحلوى، ولكنه لم يقل أي شيء.

قال السيد فروبيشر: «أنتظر منك شرحاً يا كليفتون». وبعد صمت طويل، أضاف: «أدرك طبعاً أنك تملك من المال أقل مما يملكه أي صبي آخر في صفك، لكن هذا ليس عذراً للسرقة».

فقال هاري: «لم أسرق في حياتي أي شيء قط».

جاء الآن دور السيد فروبيشر ليبدو مرتبكاً، ونهض من وراء طاولة مكتبه قائلاً: «إذا كانت هذه هي الحقيقة يا كليفتون - وأنا أريد أن أصدقك - فعليك أن تعود إليّ بعد تمارين الجوقة مع شرح كامل لكيفية حصولك على أغراض من دكان الحلواني لم تدفع ثمنها. وإذا لم تنجح في إقناعي، فعلينا زيارة المدير معاً، ولا أشك أبداً في قراره».

غادر هاري الغرفة. وما إن أغلق الباب خلفه حتى أحسّ بالغثيان. توجه إلى غرفته على أمل ألا يكون جيل هناك. وعندما فتح الباب، كان أول ما رآه لوحاً آخر من الشوكولاته على طاولة مكتبه.

نظر جيل إليه، وسأله بعد أن رأى وجهه المتورّد: «هل أنت بخير؟». ولكن هاري لم يجب، بل وضع لوح الشوكولاته في الدرج، وغادر إلى التمارين من دون التفوه بكلمة لأيّ من صديقيه. لم تفارقه عينا جيل قط، وبعد أن أغلق الباب، استدار جيل صوب ديكنز وسأله بعفوية: «ما مشكلته؟». إلا أن ديكنز تابع الكتابة كما لو أنه لم يسمع السؤال. فقال جيل: «ألم تسمعني؟ لماذا هاري منزعج؟».



«كل ما أعرفه هو أنه كان على موعد مع فروب».

سأل جيل: «لماذا؟». وبدا أكثر اهتماماً.

فأجاب ديكنز من دون أن يتوقف عن الكتابة: «لا أعرف».

وقف جيل وتوجّه إلى مكان ديكنز، وسأله: «لماذا لا تخبرني؟». فيما أمسكه من أذنه.

عندها، أخفض ديكنز قلمه، ولمس حافة نظارته بعصبية لدفعها إلى أعلى منخره، قبل أن يقول في النهاية: «إنه واقع في ورطة».

سأل جيل مجدداً وهو يشد على أذن صديقه: «أية ورطة؟».

فأجاب ديكنز: «أعتقد أنه قد يُطرد».

عندها، أفلت جيل أذن ديكنز وانفجر ضاحكاً وقال: «هاري، يطرد! إن احتمال طرده ضرب من المستحيل». وكان على وشك العودة إلى مكتبه لو لم يلاحظ قطرات العرق المتلألئة على جبين ديكنز، فسأله بهدوء أكبر: «وما السبب؟».

أجاب ديكنز: «يعتقد فروب أنه يسرق من دكان الحلواني».

لو نظر ديكنز إلى الأعلى، لرأى وجه جيل وقد أصبح شاحباً جداً. بعد قليل، سمع الباب يغلق، فرفع قلمه وحاول التركيز على عمله مجدداً، ولكنه للمرة الأولى في حياته لم ينه فرضه.

عندما أنهى هاري التمارين بعد ساعة، لمح فيشر متكئاً على الجدار، وعاجزاً عن قمع ابتسامته، فعرف حينها من وشى به. تجاهل فيشر،

وتوجّه إلى مسكنه كما لو أنه غير مبالي بالبتة، فيما شعر في الواقع كما لو أنه يحمل هموم العالم كله، وأدرك أنه إذا لم يفضح أمر صديقه المقرب فلن يتمكن من البقاء هنا. تردد قبل الطرق على باب المسؤول.

كانت كلمة «تفضل» هذه المرة أكثر لطفاً من تلك التي سمعها بعد الظهر، ولكن عندما دخل هاري الغرفة، رأى النظرة غير المريحة نفسها، فأحنى رأسه.

قال فروبيشر وهو ينهض عن كرسيه: «أدين لك باعتذار صادق يا كليفتون. أدرك الآن أنك لست المذنب».

كان قلب هاري لا يزال يخفق بسرعة، ولكنه الآن شعر بالقلق على جيل، فقال ورأسه لا يزال منحنيًا: «شكراً لك يا سيدي». كان هناك الكثير من الأسئلة التي أراد طرحها على فروب، ولكنه عرف أنه لن يحصل على جواب عن أي منها.

نهض السيد فروبيشر عن كرسيه وصافح هاري؛ وهذا أمر لم يفعله من قبل قط، ثم قال له: «من الأفضل أن تسرع يا كليفتون إذا أردت تناول العشاء».

وعندما خرج هاري من مكتب فروب، مشى ببطء صوب قاعة الطعام. كان فيشر واقفاً قرب الباب والدهشة بادية على وجهه. مرّ هاري أمامه، وجلس في مكانه على طرف المقعد الخشبي قرب ديكنز، فيما كان المقعد قبالة فارغاً.

لم يتناول جيل العشاء، ولم ينم على سريريه في تلك الليلة. وبرأي هاري، لو لم تخسر سانت بيد المهرجان الرياضي السنوي مع أفونهورست بإحدى وثلاثين جولة، لما كان العديد من الأولاد- أو حتى الأساتذة- قد لاحظوا غياب جيل.

لكن لسوء حظ جيل كانت المباراة محلية، وبالتالي كان لكل شخص رأي حول سبب عدم قيام ضارب الكرة الأساسي في المدرسة بأخذ مكانه على الخط في أرض الملعب، ولاسيما فيشر الذي أخبر جميع من يهمه الأمر بأنه تم طرد الشخص الخطأ من المدرسة.

لم يكن هاري يتطلع إلى العطلات بلهفة. ليس فقط لأنه تساءل عما إذا كان سيرى جيل مجدداً، وإنما أيضاً لأن ذلك يعني العودة إلى الرقم 27 في ستيل هاوس لاين، وتشارك الغرفة مجدداً مع خاله ستان الذي يعود إلى المنزل فاقداً توازنه في أغلب الأحيان.

بعد قضاء فترة المساء في مراجعة أوراق الامتحانات القديمة، كان هاري يستلقي على سريريه قرابة الساعة العاشرة، وينام بسرعة ليستيقظ في أغلب الأحيان بعد منتصف الليل بسبب خاله العاجز عن إيجاد سريريه. إن صوت ستان وهو يحاول التبول في مبولة صغيرة، وعدم إصابته الهدف دوماً، سيبقى محفوراً في ذاكرة هاري لبقية حياته.

وبعد أن ينام ستان على سريريه- ونادراً ما كان يزعج نفسه بخلع ملابسه- كان هاري يحاول الخلود إلى النوم مجدداً، ليستيقظ بعد دقائق قليلة بسبب صوت شخير خاله العالي.

أراد العودة إلى سانت بيد، ومشاركة غرفة النوم مع تسعة وعشرين ولداً آخر.

ما زال هاري يأمل في أن يفشي ستان عن غير قصد المزيد من التفاصيل بشأن موت والده، ولكن خاله كان في أغلب الأحيان غير واعي كفاية للإجابة حتى عن أبسط الأسئلة. وفي إحدى المناسبات النادرة التي كان فيها رزيناً بما فيه الكفاية ليتكلم، طلب من هاري الابتعاد عن وجهه، وحذره من أنه سيحطمه إذا تطرق إلى الموضوع مجدداً.

الشيء الوحيد الجيد في تشاركه الغرفة مع ستان هو عدم تأخره عن جولته الصباحية لتوزيع الجرائد.

تتسم أيام هاري في ستيل هاوس لاين بالروتين المنظم؛ إذ ينهض في تمام الخامسة، ويتناول شريحة واحدة من التوست للفتور- لم يعد يلحق طبق خاله- ثم يتوجه إلى السيد ديكنز في وكالة الجرائد عند الساعة السادسة، ويكدس الجرائد بالترتيب الصحيح، ثم يسلمها. تحتاج العملية كلها إلى ساعتين؛ مما يتيح له العودة إلى المنزل في الوقت المناسب لشرب كوب من الشاي مع أمه قبل أن تذهب إلى العمل. وقرابة الساعة الثامنة والنصف، يتوجه هاري إلى المكتبة، حيث يقابل ديكنز الجالس دوماً على الدرجة العلوية في انتظار أن يفتح أحدهم الأبواب.

أما بعد الظهر، فكان هاري يذهب إلى تمارين الإنشاد في سانت ماري ريدكليف كجزء من واجباته في سانت بيد. لم يعتبر الأمر يوماً

بمثابة واجب لأنه يحب الإنشاد كثيراً. وفي الواقع، همس أكثر من مرة: «أرجوك يا ربي، حين يضعف صوتي، دعني أصبح سوبرانو، ولن أطلب أبداً أي شيء آخر».

وبعد عودته إلى المنزل لتناول الشاي في المساء، كان هاري يعمل وهو جالس إلى طاولة المطبخ لساعتين قبل خلوده إلى النوم، وكان يخشى عودة خاله تماماً مثلما كان يخشى عودة فيشر في أسبوعه الأول في سانت بيد. على الأقل، ذهب فيشر إلى مدرسة القواعد في كولستون، ولذلك افترض هاري أنهما لن يلتقيا أبداً مجدداً.

كان هاري يتطلع إلى سنته الأخيرة في سانت بيد، رغم أنه لم يشك قط في مدى تغير حياته إذا اختار هو وصديقه طريقاً منفصلة: جيل إلى حيث لا يدري، وديكنز إلى مدرسة بريستول، أما هو- إذا أخفق في الحصول على منحة تمكنه من الالتحاق بالمدرسة التي سيقصدها ديكنز- فقد يضطر للعودة إلى مدرسة ميريوود الابتدائية، وحين يبلغ الرابعة عشرة من عمره، سيتترك المدرسة ويبحث عن وظيفة. حاول ألا يفكر في عواقب الفشل؛ رغم أن ستان لم يفوت قط أية فرصة لتذكيره بإمكانية عمله في أحواض السفن.

وكان دوماً يقول لمايزي كلما وضعت وعاء العصيدة أمامه: «لم يكن يجدر بك أساساً السماح لهذا الصبي بالذهاب إلى تلك المدرسة؛ فقد أعطته أفكاراً تتخطى مستواه». كما لو أن هاري ليس بالمستوى المطلوب. ورأى هاري أن فيشر كان بلا شك سيوافق على قول خاله بفرح، لاسيما وأنه استنتج قبل وقت طويل أن الخال ستان وفيشر لديهما الكثير من الأمور المشتركة.

أجابت مايزي: «لكن، لا شك في أن هاري يستحق فرصة لتحسين وضعه!».«

فقال ستان بنبرة صارمة لا تترك مجالاً لأي نقاش: «لماذا؟ إذا كانت أحواض السفن جيدة بما فيه الكفاية لي ولرجله العجوز، فلم لا تكون جيدة له بما يكفي؟».

عندها، اقترحت مايزي: «قد يكون الصبي أذكى منا».

سكت ستان هنيهة، ولكنه بعد أن تناول ملعقة إضافية من العصيدة قال: «يرتبط الأمر بما تعنيه بكلمة ذكي. ففي النهاية، هناك ذكي وذكي». ثم تناول ملعقة أخرى من العصيدة، ولم يصف بعدها أي شيء إلى ملاحظاته السابقة.

قطع هاري شريحة التوست إلى أربعة أقسام فيما أصغى إلى خاله الذي كان يردد الكلام نفسه مراراً وتكراراً كل صباح. لم يدافع هاري عن نفسه يوماً، إذ بدا جلياً أن ستان قد حسم أمره بشأن مستقبله، ولن يبدل أي شيء رأيه. لكن ستان لم يدرك أن انتقاداته المستمرة ألهمت هاري وجعلته يكد في العمل أكثر.

«لا يمكنك التسكع هنا طوال اليوم». وكان هذا تعليق ستان الأخير؛ لاسيما حين يشعر أنه يخسر الجدل. ثم أضاف وهو ينهض عن المائدة: «بعضنا لديه مهمة يجب إنجازها». لم يجرؤ أحد على مناقشته. وأضاف فيما فتح باب المطبخ: «ثمة أمر آخر، لم يلاحظ أي منكم أن الولد أصبح لطيفاً، ولم يعد يلحق وعاء العصيدة. الله يعلم ما الذي يعلمونه إياه في تلك المدرسة». ثم أغلق الباب وراءه بقوة.

قالت والدة هاري: «لا تكثر لخالك. إنه غيور فقط لأننا جميعاً فخورون بك. وعليه أن يغيّر نبرته عندما تفوز بالمنحة مثل صديقك ديكنز».

فقال هاري: «لكن، هذه هي المشكلة يا ماما. أنا لست مثل ديكنز، وبدأت أتساءل عما إذا كان الأمر يستحق كل هذا العناء».

عندها، حدّق إليه أفراد العائلة بصمت وذهول، إلى أن تحدث الجد للمرة الأولى منذ أيام: «ليتني حصلتُ على فرصة الذهاب إلى مدرسة بريستول».

فصرخ هاري: «وما النفع يا جدي؟».

«لأنني لو ذهبت، لما اضطررنا إلى العيش مع خالك ستان كل هذه الأعوام».

استمتع هاري بجولته الصباحية لتوزيع الجرائد، ولا يرجع سبب ذلك فقط إلى أنها تتيح له الخروج من المنزل. فمع مرور الأسابيع، بات يعرف العديد من زبائن السيد ديكنز المنتظمين، وقد سمعه بعضهم ينشد في دار عبادة سانت ماري، لذا كانوا يلوّحون له عندما يسلمهم الجريدة، فيما يعرض عليه آخرون كوباً من الشاي، أو حتى تفاحة. حدّره السيد ديكنز من وجود كلبين عليه تفاديهما أثناء جولته. ولكن خلال أسبوعين، باتا كلاهما يلوحان بذيليهما كلما نزل عن دراجته.

فرح هاري عندما علم أن السيد هولكومب واحد من الزبائن المنتظمين للسيد ديكنز، وكانا يتحدثان غالباً كلما أوصل له نسخته من جريدة التايمز كل صباح. أيقن هاري تماماً أن أستاذه الأول لا يريد له أن

يعود إلى ميريوود، وقد قال له إنه إذا احتاج إلى أي دروس إضافية، فإن لديه متسعاً من الوقت في معظم فترات المساء.

كلما عاد هاري إلى وكيل الجرائد بعد انتهاء جولته، كان السيد ديكنز يضع له لوحاً من الشوكولاته في حقيبته قبل إرساله في طريقه. وذكّره ذلك بجيل، فتساءل عما حلّ بصديقه. إذ لم يسمع - لا هو ولا ديكنز - أي خبر عن جيل منذ اليوم الذي طلب فيه السيد فروبيشر رؤية هاري بعد فترة الاستراحة. وكان بعد إنهائه عمله، وقبل مغادرته المتجر للعودة إلى المنزل يتوقف دوماً أمام نافذة العرض لتأمل ساعة عرف أنه لن يتمكن من شرائها أبداً. حتى إنه لم يجرؤ على سؤال السيد ديكنز عن سعرها.

كانت هناك استراحتان منتظمتان فقط في روتين هاري الأسبوعي. إذ كان يحاول دوماً قضاء صباح السبت مع العجوز جاك، وكان يأخذ معه نسخاً عن كل أعداد جريدة التايمز الخاصة بالأسبوع السابق. ومساءً أيام الأحد، بعد إنجازه مهماته في دار العبادة، كان يجتاز المدينة مسرعاً للتواجد أثناء إنشاد الجوقة.

كانت الأنسة مانداي تبتسم بفخر خلال إنشاده المنفرد، وأملت فقط أن تعيش لوقت كافٍ يسمح لها برؤية هاري وهو يذهب إلى كامبريدج. كانت لديها مشاريع لإخباره عن جوقة الإنشاد في كلية كينغ، ولكن ليس قبل أن يحظى بمكان في مدرسة بريستول.

سأله العجوز جاك قبل أن يجلس على مقعده الاعتيادي في الجهة المقابلة من المقطورة: «هل سيجعلك السيد فروبيشر تلميذاً مفوضاً؟».



فأجاب هاري: «لا أعرف. لكن، أريد أن أذكرك بأن فروب يقول دوماً: يا كليفتون، تحصل دوماً في هذه الحياة على ما تستحقه، لا أكثر ولا أقل».

فقهقه العجوز جاك بصوت عالٍ، ومنع نفسه من القول: «لا بأس بهذا الكلام يا فروب». واكتفى بالقول: «إذاً، أراهن على أنك ستصبح تلميذاً مفوضاً».

قال هاري: «أفضل الفوز بمنحة إلى مدرسة بريستول». وبدا فجأة أكبر من عمره.

سأله جاك محاولاً تبديل موضوع الحديث: «ماذا عن صديقك بارينغتون وديكنز؟ هل يطمحان أيضاً إلى تحقيق أشياء كبيرة؟».

فأجاب هاري: «لن يعينوا ديكنز تلميذاً مفوضاً أبداً؛ فهو لا يستطيع حتى الاهتمام بنفسه، فكيف يمكنه الاهتمام بالآخرين؟ على أية حال، إنه يأمل أن يصبح مراقب المكتبة، وما من تلميذ آخر يريد هذه الوظيفة. لذا، يفترض بالسيد فروبيشر ألا يتردد كثيراً في هذا التعيين».

«وماذا عن بارينغتون؟».

فأجاب هاري بحزن: «لا أعرف إن كان سيعود في الفصل التالي. وحتى لو فعل، فأنا واثق تماماً من أنهم لن يعينوه تلميذاً مفوضاً».

قال العجوز جاك: «لا تقلل من أهمية والده. فلا بد أن ذلك الرجل قد وجد من دون شك طريقة لضمان عودة ابنه في أول يوم من الفصل الجديد. ولا أستبعد كثيراً أن يتم تعيينه تلميذاً مفوضاً».

عندها قال هاري: «فلنأمل أن تكون محقاً».

«وإذا كنت محققاً، فأنا أفترض أنه سيذهب إلى إيتون مثل والده». «ليس إذا أتيحت له فرصة إبداء رأيه. إذ يفضل جيل الذهاب إلى مدرسة بريستول معي ومع ديكنز».

«إذا لم يذهب إلى إيتون، فمن المستبعد أن يتم قبوله في مدرسة القواعد؛ لأن امتحان الدخول من أصعب الامتحانات في البلاد». «لقد أخبرني أنه حضر خطة».

«من الأفضل أن تكون خطة جيدة إذا أراد خداع والده والمسؤولين عن الامتحان».

فلم يعلق هاري.

بعد قليل، سأله العجوز جاك بهدف تغيير الموضوع: «كيف حال أمك؟». إذ بدا له جلياً أن الصبي لا يريد التعمق أكثر في ذلك الموضوع.

«تمت ترقيتها للتو. باتت الآن مسؤولة عن كل النادلات في قاعة «بالم كورت»، وهي تتعامل مباشرة مع السيد فرامبتون، مدير الفندق».

فقال العجوز جاك: «لا بد أنك فخور بها كثيراً».

«نعم سيدي، وسوف أثبت ذلك».

«ما الذي تنوي فعله؟».

أخبره هاري بسرّه، فأصغى الرجل العجوز بانتباه، وأوماً برأسه موافقاً بين الحين والآخر. لاحظ أن هناك مشكلة صغيرة، ولكنه أدرك أنه من الممكن تجاوزها.

وعندما عاد هاري إلى المتجر بعدما أنجز جولته الصباحية الأخيرة في توزيع الجرائد قبل العودة إلى المدرسة، أعطاه السيد ديكنز علاوة قدرها شلن واحد، وقال له: «أنت أفضل موزع جرائد عرفته».

فقال هاري وهو يضع المال في جيبه: «شكراً سيدي. هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً يا سيد ديكنز؟».

«طبعاً يا هاري».

توجه هاري إلى نافذة العرض حيث توجد ساعتان قرب بعضهما على الرف العلوي وسأل: «كم سعر هذه؟». فيما أشار إلى ساعة إنغرسول.

عندها، ابتسم السيد ديكنز؛ إذ كان ينتظر أن يطرح هاري هذا السؤال منذ بضعة أسابيع، وكان قد حضر جوابه مسبقاً فأجاب: «سته شلنات».

لم يصدق هاري الأمر، إذ كان واثقاً من أن هذه الساعة الرائعة سعرها أكثر من ضعف ذلك. لكن، رغم أنه ادّخر أكثر من نصف مدخوله كل أسبوع، بالإضافة إلى علاوة السيد ديكنز، فما زال ينقصه المال.

قال السيد ديكنز: «هل تعرف يا هاري أنها ساعة للنساء؟».

فأجاب هاري: «نعم سيدي. كنت آمل أن أتمكن من تقديمها إلى أمي».

«إذاً، يمكنك الحصول عليها مقابل خمسة شلنات».

لم يصدق هاري حظه، وقال: «شكراً لك سيدي». وأعطاه أربعة شلنات، وقطعة ستة بنسات، وقطعة ثلاثة بنسات، وثلاثة سنتات، فبقيت جيوبه فارغة.

أخرج السيد ديكنز الساعة من نافذة العرض، ونزع عنها سراً لصيقة السعر البالغ ستة عشر شلناً، ثم وضعها في علبة هدايا.

غادر هاري المتجر وهو سعيد جداً، فيما ابتسم السيد ديكنز ووضع ورقة عشرة شلنات في درج النقود وهو مسرور لأنه أدى دوره في الصفقة.

رنّ الجرس.

قال التلميذ المفوض في غرفة نوم الأولاد في أول ليلة من الفصل الجديد: «حان الوقت لخلع الملابس». بدوا جميعاً صغاراً وعاجزين جداً برأي هاري. وبدا له جلياً أن واحداً أو اثنين منهم حاولا حبس دموعهما، فيما نظر الآخرون حولهم غير واثقين مما يجدر بهم فعله الآن. ثمّة ولد وقف أمام الحائط مرتجفاً، فذهب هاري إليه بسرعة وسأله برفق:

«ما اسمك؟».

«ستيفنسون».

«حسناً، أنا كليفتون. أهلاً بك في سانت بيد».

فقال صبي واقف في الجهة الأخرى من سرير ستيفنسون: «وأنا

توكسبوري».

«أهلاً بك في سانت بيد يا توكسبوري».

«شكراً يا كليفتون. في الواقع، جاء أبي وجدي إلى هنا سابقاً، ثم ذهبنا

إلى إيتون».

فقال هاري: «لا أشك في ذلك. وأراهن على أنهما كانا يشغلان مركز

«كابتن» في فريق إيتون ضد فريق هارو في مباراة لوردس». لكنه ندم

على كلامه فوراً.

غير أن توكسبوري قال من دون أي تأثير: «لا. كان والدي «كابتن» مائياً وليس «كابتن» برياً».

فقال هاري مستغرباً: «كابتن مائي!».

«كان «كابتن» فريق أوكسفورد ضد كامبريدج في سباق المراكب».

فجأة، أجهش ستيفنسون بالبكاء.

فسأله هاري: «ما المسألة؟». فيما جلس على السرير قربته.

«والدي سائق ترامواي».

توقف الجميع عن توبيخ أغراضهم، وهدقوا إلى ستيفنسون.

فقال هاري بصوت عالٍ بما يكفي لكي يسمع كل ولد آخر في غرفة

النوم كلماته: «حقاً! إذًا، من الأفضل أن أخبرك سرًا. أنا ابن عامل في

أحواض السفن. ولن أتفاجأ إن اكتشفت أنك نلت المنحة الجديدة في

الإنشاد».

فقال ستيفنسون: «لا، حصلت على منحة دراسية».

قال هاري: «أهنئك كثيراً». فيما صافح الصبي بقوة وهو يتابع:

«أنت تتبع تقليدًا طويلًا ونبيلًا».

فهمس الصبي: «شكرًا لك. لكن، لدي مشكلة أخرى».

«وما هي يا ستيفنسون؟».

«لا أملك معجون أسنان».

فقال توكسبوري: «لا تقلق بشأن ذلك يا صديقي. تضع لي أمي دومًا

واحدًا احتياطيًا».

ابتسم هاري فيما رنّ الجرس مجدداً، ثم قال بصرامة وهو يجتاز غرفة النوم متجهاً صوب الباب: «فليستلقِ الجميع على أسرّتهم».

سمع صوتاً يهمس: «شكراً على معجون الأسنان».

«إنه لا شيء يا صديقي».

فقال هاري وهو يطفئ الأنوار: «والآن، لا أريد سماع أية كلمة أخرى منكم قبل أن يرنّ الجرس عند الساعة السادسة والنصف من صباح الغد». وانتظر بضع لحظات قبل أن يسمع أحدهم يهمس، فقال: «كنت أقصد ذلك فعلاً. لا أريد سماع أية كلمة». ثم ابتسم وهو ينزل السلام للانضمام إلى ديكنز وبارينغتون في قاعة تلاميذ السنة الأخيرة.

تفاجأ هاري بأمرين عندما عاد إلى سانت بيد في أول يوم من الفصل الجديد. فما إن دخل عبر الباب الأمامي حتى أخذه السيد فروبيشر جانباً، وقال له بهدوء: «تهانينا يا كليفتون. لن يتم إعلان الخبر إلا في اجتماع صباح الغد، ولكنك ستكون «الكابتن» الجديد للمدرسة».

فقال هاري من دون تفكير: «لكن، يفترض أن يكون جيل

«الكابتن»».

«سيكون بارينغتون «كابتن» المباريات، و...»

قفز هاري في الهواء ما إن عرف أن صديقه سيعود إلى سانت بيد. لقد كان العجوز جاك محقاً عندما قال إن السيد هوغو سيجد طريقة لضمان عودة ابنه في أول يوم من الفصل الجديد.

وعندما دخل جيل الردهة الأمامية بعد لحظات قليلة، تصافح الولدان، ولم يتطرق هاري إلى الموضوع الذي كان من دون ريب يشغل تفكيرهما معاً.

سأل جيل حين دخل هاري القاعة: «كيف حال الأولاد الجدد؟».

فأجاب هاري: «ذكري أحدهم بك».

«إنه توكسبوري من دون شك».

«هل تعرفه؟».

«لا، لكن أبي كان في إيتون مع والده».

قال هاري وهو يجلس على الكرسي الوحيد المريح في الغرفة:

«أخبرته أنني كنت ابن عامل في أحواض السفن».

فقال جيل: «هل فعلت ذلك الآن؟! وهل أخبرك أحدهم أنه ابن

وزير؟».

لم يقل هاري أي شيء.

فسأل جيل: «هل هناك تلاميذ آخرون يجدر بي الانتباه إليهم؟».

أجاب هاري: «ستيفنسون. إنه مزيج مني ومن ديكنز».

«إذاً، من الأفضل أن نقفل باب الطوارئ قبل أن يستخدمه».

لطالما فكر هاري في ما كان سيحصل له الآن لو لم يقنعه العجوز

جاك بالعودة إلى سانت بيد في تلك الليلة.

سأل هاري وهو يتحقق من جدول مواعيده: «ما هو أول درس لنا

غداً؟».



فأجاب ديكنز: «المادة اللاتينية. ولهذا السبب، أنا أشرح لجيل عن الحرب البونية الأولى».

قال جيل: «264 إلى 241 قبل الميلاد».

فقال هاري: «أراهن أنك تستمتع بذلك».

قال جيل: «نعم، صحيح. وأتحرق شوقاً للاطلاع على الحرب البونية الثانية».

فقال هاري: «218 إلى 201 قبل الميلاد».

ثم قال ديكنز: «وأخيراً، علينا مراجعة الحرب البونية الثالثة، من 149 إلى 146 قبل الميلاد».

سأل جيل: «هل نحتاج فعلاً إلى معرفة كل شيء عن الحروب الثلاث؟».

كانت دار عبادة سانت ماري ريدكليف مكتظة بالناس المحليين والغرباء الذين جاءوا لمشاهدة الاحتفال الديني. دخلت جوقة الإنشاد عبر الممر الرئيس، وتقدمت ببطء وهي تنشد، ثم جلس أفرادها على المقاعد المخصصة لهم.

قرأ مدير المدرسة الرسالة الأولى، ثم تلت ذلك أنشودة. وأشار برنامج الاحتفال الديني إلى أن هاري كليفتون سيكون المنشد المنفرد في الأنشودة الثالثة.

جلست والدة هاري بفخر في الصف الثالث، فيما أرادت السيدة العجوز الجالسة قربها أن تخبر جميع من في دار العبادة أنهم يصغون

الآن إلى حفيدها. لم يكن بإمكان الرجل الجالس في الجهة الأخرى قرب مايزي سماع أية كلمة، غير أنه لم يكن من الممكن إدراك ذلك بسبب ابتسامة الرضى التي ارتسمت على وجهه. أما الخال ستان فلم يظهر في أي مكان.

قرأ «كابتن» المباريات الرسالة الثانية، وعندما عاد جيل إلى مكانه، لاحظ هاري أنه جلس قرب رجل مميز المظهر، ذي شعر فضي، وافترض أنه السير والتر بارينغتون. فقد أخبره جيل ذات مرة أن جده يعيش في منزل أكبر من منزله، لكن هاري لا يظن أن ذلك ممكن. وفي الجهة الأخرى قرب جيل، جلس أبوه وأمه. ابتسمت له السيدة بارينغتون، لكن السيد بارينغتون لم ينظر في اتجاهه ولو مرة واحدة.

عندما عزف الأورغن، وقف المحتشدون في القاعة وبدأوا ينشدون بحيوية. قرأ السيد فروبيشر الرسالة التالية، وبعد ذلك حان دور ما توقعت الأنسة مانداي أن يكون الحدث الأهم في الاحتفال. لم تتحرك الحشود قيد أملة عندما أنشد هاري ليلة صامته بوضوح وثقة جعلها مدير المدرسة يبتسم.

قرأ مراقب المكتبة الرسالة التالية. وكان هاري قد علمه كلمات سانت مارك مرات عدة. حاول ديكنز التملص من المهمة - مثلما وصفها لجيل - لكن السيد فروبيشر أصرّ على ذلك؛ فالرسالة الرابعة يقرأها دوماً المسؤول عن المكتبة. صحيح أن ديكنز لم يكن مثل جيل، ولكنه لم يكن سيئاً. غمزه هاري عندما عاد إلى مقعده قرب أهله.

بعدها، وقفت الجوقة لتتشد بفرح عظيم، فيما بقي الأشخاص المحتشدون في القاعة جالسين على مقاعدهم. اعتبر هاري هذه الأنشودة من أصعب الأناشيد؛ بسبب نغماتها غير التقليدية.

أغمض السيد هولكومب عينيه كي يتمكن من سماع المنشد الفردي بوضوح أكبر. كان هاري ينشد فلتفرح الآن كل القلوب عندما ظن السيد هولكومب أنه سمع نشازاً خفيفاً في الصوت. افترض أن هاري يعاني من الزكام، لكن الأنسة مانداي عرفت الحقيقة بصورة أفضل؛ فقد سمعت هذه الإشارات المبكرة مرات عدة من قبل. دعت كي تكون مخطئة، لكنها عرفت أن الاحتمال شبه معدوم. سوف يتابع هاري تمارينه بشكل عادي، فيما سيدرك عدد قليل فقط من الأشخاص حقيقة ما حصل. قد يتمكن ربما من الاستمرار لبضعة أسابيع إضافية، أو حتى لشهور، ولكن بحلول احتفال الربيع، سينشد ولد آخر الأنشودة الرئيسة.

ثمة رجل عجوز وصل بعد لحظات فقط من بدء الاحتفال الديني، وكان من بين أولئك الذين عرفوا حقيقة ما حصل. غادر العجوز جاك قبل أن ينهي رجل الدين طقوس الاحتفال. عرف أن هاري لن يتمكن من زيارته قبل يوم السبت التالي، مما سيمنحه الوقت الكافي لاستنباط جواب عن السؤال المحتمل طرحه.

قال السيد فروبيشر عندما رنّ الجرس معلناً انتهاء فترة الاستراحة: «هل أستطيع التكلم معك على حدة يا كليفتون؟ يمكنك الذهاب إلى مكتبي». لن ينسى هاري أبداً آخر مرة سمع فيها هذه الكلمات.

عندما أغلق هاري باب المكتب، أشار إليه معلمه للجلوس على مقعد قرب الموقد، وهذا أمر لم يفعله من قبل قط. «أريد أن أطمئنك يا هاري بأن عدم تمكنك من الإنشاد في الجوقة لن يؤثر أبداً في منحتك. فنحن في سانت بيد ندرك تماماً أن الإسهام الذي حققته في الحياة المدرسية يمتد أبعد من دار العبادة».

قال هاري: «شكراً لك يا سيدي».

«لكن، علينا الآن التفكير في مستقبلك. أخبرني أستاذ الموسيقى أنه قد يمرّ بعض الوقت قبل أن يتعافى صوتك بشكل تام، وأعتقد أنه علينا التحلي بالواقعية في ما يتعلق بفرص حصولك على منحة في الإنشاد إلى مدرسة بريستول للقواعد».

فقال هاري بهدوء: «لا توجد أية فرصة».

قال فروبيشر مؤكداً: «أوافقك الرأي. أنا مرتاح لأنك تفهم حقيقة الوضع، ولكنني سأفرح بتسجيل اسمك لفرصة الحصول على منحة مدرسية مفتوحة في مدرسة القواعد في بريستول. لكن...»، وصمت قليلاً، ثم أضاف قبل أن يملك هاري الوقت للإجابة: «في الوقت الحالي، عليك التفكير في إمكانية حصولك على منحة من مدرسة كولستون أو كلية غلاوسستر الملكية، لاسيما وأن امتحانات الدخول أقل صعوبة فيهما».

فردّ هاري: «لا، شكراً لك سيدي. تبقى مدرسة بريستول خياراً الأول». وكان قد قال الشيء نفسه للعجوز جاك يوم السبت الماضي، عندما تمت معلمه شيئاً عن عدم حرق كل الخيارات.

عندها، قال السيد فروبيشر الذي لم يتوقع أي جواب، وإنما شعر أن من واجبه إيجاد بديل: «حسناً، مثلما تريد. فلنحوّل إذاً هذه العقبة لصالحنا».

«ماذا تقترح عليّ سيدي؟».

«حسناً، بعد أن تم إعفاؤك الآن من تمارين الإنشاد اليومية، سيكون لديك المزيد من الوقت للتحضير لامتحان الدخول».

«نعم سيدي، لكن تبقى واجباتي ك...»

«وسأفعل كل ما بوسعي لأضمن أن تكون واجباتك «ككابتن»  
المدرسة أقل إرهاقاً في المستقبل.»

«شكراً لك سيدي.»

قال فروبيشر فيما نهض عن كرسيه: «بالمناسبة يا هاري، قرأت للتو مقالك عن جاين أوستن، وأذهلني قولك إنه لو استطاعت الأنسة أوستن الذهاب إلى الجامعة، لما كتبت أبداً رواية. وحتى لو فعلت ذلك، لما كان عملها ربما نافذ البصيرة إلى هذا الحد.»

فقال هاري: «من الجيد أحياناً أن تكون هناك عقبة.»

عندها قال السيد فروبيشر: «لا تبدو هذه العبارة لجاين أوستن.»

أجاب هاري: «هذا صحيح. لقد قالها شخص آخر لم يذهب إلى الجامعة.» ولم يقدم أي شرح إضافي.

نظرت مايزي إلى ساعتها الجديدة وابتسمت قائلة: «عليّ المغادرة الآن يا هاري، وإلا فسأتأخر على العمل.»

فأجاب هاري فيما قفز عن الطاولة: «طبعاً ماما. سأرافقك إلى محطة الترامواي.»

قالت أمه: «هاري، هل فكرت في ما ستفعله إذا لم تفز بالمنحة؟»  
ها قد طرحنا أخيراً السؤال الذي كانت تتفادى طرحه منذ أسابيع.

فأجاب هاري وهو يفتح لها الباب: «باستمرار. لكنني لا أملك خياراً كبيراً في هذه المسألة. عليّ فقط العودة إلى ميريوود، وعندما أصبح في الرابعة عشرة سأغادر المدرسة وأبحث عن وظيفة».

سأل العجوز جاك: «هل تشعر أنك مستعد لمواجهة الامتحانات يا صغيري؟».

فأجاب هاري: «أنا مستعد أفضل استعداد. بالمناسبة، أخذتُ بنصيحتك وتحققت من أوراق الامتحانات العائدة للأعوام العشرة الماضية. كنت محقاً؛ إذ ثمة نمط محدد، مع تكرار بعض الأسئلة خلال فترات منتظمة».

«جيد. وكيف حال المادة اللاتينية معك؟ لا يمكننا الرسوب في هذه المادة، مهما أبلينا حسناً في بقية المواد».

ابتسم هاري عندما استعمل العجوز جاك صيغة المتكلم الجمع، وأجاب: «بفضل ديكنز أجبت عن 69 في المئة من الأسئلة في الأسبوع الماضي بشكل صحيح؛ رغم أنني جعلتُ هنيئيل يجتاز جبال الأنديس».

فقهقه العجوز جاك: «بفارق ستة آلاف ميل تقريباً. برأيك، ماذا ستكون مشكلتك الكبرى؟».

«مشكلتي هي الأربعون ولداً من سانت بيد الذين سيخضعون للامتحان أيضاً، من دون أن ننسى المئتين والخمسين الآخرين من المدارس الأخرى».

فقال العجوز جاك: «انسَ أمرهم. فإذا بذلت أقصى جهودك، لن تكون هناك مشكلة».

غير أنّ هاري بقي صامتاً.

عندها، سأل العجوز جاك الذي كان يبذل الموضوع دوماً كلما صمت هاري: «كيف حال صوتك؟».

فأجاب هاري: «ما من شيء جديد. قد تمرّ أسابيع قبل أن أعرف إن كان صوتي سيصبح صادحاً أو جهيراً أو «جهير أول». وحتى حينها، ما من ضمانة بأنني سأكون جيداً. لكن، ثمة أمر أكيد؛ وهو أن مدرسة القواعد في بريستول لن تقدم لي أية منحة دراسية في الإنشاد فيما أنا مثل الحصان ذي الرجل المكسورة».

قال العجوز جاك: «انسَ هذه الفكرة؛ فالأمر ليس بهذا السوء».

عندها قال هاري: «لا، بل أسوأ. فلو كنت حصاناً لقتلوني وأراحوني من تعاستي».

فضحك العجوز جاك وسأله: «متى موعد الامتحانات؟». رغم أنه يعرف الجواب.

«يوم الخميس. سنبدأ بامتحان في المعلومات العامة في تمام التاسعة صباحاً، وهناك خمسة امتحانات أخرى خلال النهار، لنهي اليوم بامتحان اللغة الإنكليزية في تمام الساعة الرابعة».

قال جاك: «من الجيد أن تنهي الامتحانات بالمادة المفضلة لديك».

أجاب هاري: «فلنأمل ذلك. لكن، أتمنى أن يكون هناك سؤال حول ديكنز؛ لأن هذا السؤال لم يطرح خلال الأعوام الثلاثة الماضية، ولهذا السبب كنت أقرأ كتبه بعد إطفاء الأنوار».



قال العجوز جاك: «كتب ويلنغتون في مذكراته أن أسوأ وقت في أية حملة هو انتظار شروق الشمس صباح المعركة».

«أوافق الدوق آيرون الرأي؛ مما يعني أنني لن أنام كثيراً خلال الأسبوعين المقبلين».

«لكنّ هذا ليس سبباً كي لا تأتي لزيارتي يوم السبت المقبل يا هاري. عليك الاستفادة من وقتك بصورة أفضل. على أية حال، في ذلك اليوم ستحل ذكرى ميلادك إذا كنت أذكر جيداً».

«كيف عرفت ذلك؟».

«أعترف أنني لم أقرأ عن ذلك في الصفحة الأولى من جريدة «التايمز». لكن، بما أنها يجب أن تكون في التاريخ نفسه مثل العام الماضي فقد غامرتُ واشتريت لك هدية صغيرة». ورفع رزمة ملفوفة بورقة من جرائد الأسبوع الماضي، وقدمها لهاري.

فقال هاري وهو يفك الشريط الذي يلفها: «شكراً سيدي». نزع ورقة الجريدة، وفتح العلبة الكحلية الصغيرة، وحدّق وهو غير مصدّق إلى ساعة إنغرسول الخاصة بالرجال التي رآها خلف نافذة العرض في متجر السيد ديكنز.

«شكراً لك». كرر هاري فيما وضع الساعة حول معصمه، ولم يستطع رفع عينيه عنها لبعض الوقت وهو يفكر في كيفية تمكن العجوز جاك من تأمين مبلغ ستة شلنات.

كان هاري مستيقظاً قبل وقت طويل من شروق الشمس صباح الامتحانات. ألغى وجبة الفطور من أجل مراجعة بعض الأوراق القديمة الخاصة بالمعلومات العامة، وتحقق من عواصم بعض البلدان بدءاً من ألمانيا ووصولاً إلى البرازيل، وراجع تواريخ رؤساء الوزراء من والبول إلى لويد جورج، وبعض الملوك من الملك ألفريد إلى جورج الخامس. وبعد ساعة من المراجعة، شعر أنه مستعد للامتحان.

مجدداً، كان جالساً في الصف الأمامي بين بارينغتون وديكنز. وتساءل في سره: هل ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي يجلسون فيها هكذا؟ وعندما رنّت الساعة العاشرة، دخل معلّمون عدة، ومشوا بين الطاولات لتوزيع أوراق امتحان المعلومات العامة على أربعين ولداً متوتراً. حسناً، على تسعة وثلاثين ولداً متوتراً وديكنز.

قرأ هاري الأسئلة بروية، وعندما وصل إلى الرقم 100، سمح لابتسامة بالارتسام على وجهه، ثم رفع قلمه وغمس طرفه في علبة الحبر وبدأ بالكتابة. وبعد أربعين دقيقة، عاد مجدداً إلى السؤال رقم 100. ألقى نظرة على ساعته، فأدرك أنه لا تزال لديه عشر دقائق للتحقق من أجوبته مجدداً. توقّف هنيهة أمام السؤال 34، وأعاد النظر في جوابه الأصلي. هل أوليفر كرومويل أم توماس كرومويل من أرسل إلى برج لندن بسبب الخيانة؟ تذكر مصير وولسي، واختار الرجل الذي أخذ مكانه كرئيس للوزراء.

وعندما بدأت الساعة ترنّ مجدداً، كان هاري قد وصل إلى السؤال رقم 92. نظر بسرعة إلى أجوبته الثمانية الأخيرة قبل أن تنتزع الورقة منه، والحبر لا يزال يجف على جوابه الأخير، تشارلز ليندبرغ.

خلال استراحة العشرين دقيقة، مشى هاري وجيل وديكنز ببطء حول ملعب الكريكت، حيث سجّل جيل ضربة قاضية قبل أسبوع واحد فقط.

قال ديكنز: «أنا أحب، أنت تحب، هو يحب». وراجع تصريف الفعل من دون العودة إلى الكتاب التمهيدي اللاتيني لكينيدي.

تابع هاري: «نحن نحب، أنتم تحبون، هم يحبون». فيما عادوا صوب قاعة الامتحانات.

عندما سلّم هاري امتحان اللغة اللاتينية بعد ساعة، كان واثقاً من أنه أجاب بشكل صحيح على أكثر من 60 في المئة من الأسئلة المطلوبة، وحتى جيل بدا راضياً عن نفسه. وفيما توجه الثلاثة صوب حجرة الطعام، وضع هاري ذراعه حول كتف ديكنز وقال له: «شكراً يا صديقي».

بعد أن قرأ هاري امتحان الجغرافيا في وقت لاحق من ذلك الصباح، شكر سراً سلاحه السري. فالعجوز جاك مرر له الكثير من المعلومات على مرّ الأعوام من دون أن يجعله يشعر أنه في صف.

لم يرفع هاري شوكة أو سكيناً خلال الغداء، بينما تناول جيل نصف فطيرة، ولم يتوقف ديكنز عن الأكل.

التاريخ كان أول امتحان في فترة بعد الظهر، ولم يسبب له القلق. هنري الثامن، إليزابيت، درايك، نابوليون، نيلسون، وويلنغتون ذهبوا جميعاً إلى أرض المعركة، وتذكر هاري التواريخ تماماً.

امتحان الرياضيات كان أسهل بكثير مما توقع، وحتى جيل رأى أنه أبدع في الإجابة.

خلال الاستراحة الأخيرة، عاد هاري إلى غرفته، وألقى نظرة على مقالة كتبها حول دايفيد كوبرفيلد وهو على ثقة بأنه سيبرع في موضوعه المفضل، ثم عاد ببطء إلى قاعة الامتحانات مكرراً الكلمة المفضلة عند السيد هولكومب: ركز.

حدّق إلى الامتحان الأخير لذلك اليوم، ليجد أن هذا العام مخصص لتوماس هاردي ولويس كارول. لقد قرأ عمدة كاستربريدج، وأليس في بلاد العجائب، لكن صاحب القبعة المجنون ومايكل هنشارد والقطّ شيشاير ليسوا مألوفين له بقدر بيغوتي والدكتور تشيليب وباركيس. تحرك قلمه ببطء فوق الصفحة، وعندما دقّ الجرس، لم يكن واثقاً من أنه أبلى حسناً. خرج من القاعة ووقف تحت شمس بعد الظهر، وشعر بالقليل من الاكتئاب؛ رغم أنه بدا جلياً على وجوه الجميع أنهم وجدوا الامتحان صعباً. وجعله ذلك يتساءل عما إذا كان لا يزال يملك أملاً.

تلا ذلك ما وصفه السيد هولكومب غالباً بأسوأ مرحلة تعقب أي امتحان؛ أي أيام الانتظار الطويلة قبل تعليق النتائج بصورة رسمية على لوحة الإعلانات في المدرسة. ففي هذا الوقت، يفعل الأولاد أموراً يندمون عليها لاحقاً، كما لو أنهم يريدون الهرب بعيداً بدلاً من معرفة أقدارهم. تم إلقاء القبض على ولد يشرب خل التفاح خلف سقيفة الدراجات الهوائية، وآخر يدخن في غرفة المرحاض، وثالث يخرج من السينما المحلية بعد إطفاء الأنوار.

ذهب جيل للعب الكريكيت يوم السبت التالي، وكانت تلك أول مباراة له هذا الموسم، فيما عاد ديكنز إلى المكتبة، وقام هاري بنزهات

طويلة مراجعاً في عقله كل إجاباته مراراً وتكراراً. لكنّ هذا لم يحسّن الوضع.

بعد ظهر يوم الأحد، لعب جيل الكريكيت. ويوم الاثنين، سلّم ديكنز على مضمّ مسؤولياته إلى مراقب المكتبة الجديد، ويوم الثلاثاء قرأ هاري بعيداً عن الحشود المجنونة وشمّت بصوت عالٍ. أما ليلة الأربعاء، فثرثر جيل وهاري حتى ساعات الصباح الأولى، فيما نام ديكنز بعمق.

قبل وقت طويل من وصول عقارب الساعة إلى العاشرة من صباح ذلك الخميس، كان أربعون ولداً يتجولون في الملعب وهم يضعون أيديهم في جيوبهم، ورؤوسهم منحنية في انتظار ظهور المدير. وعلى الرغم من معرفة كل واحد منهم أن الدكتور أوكشوت لن يبكر أو يتأخر دقيقة واحدة، شخّصت معظم العيون عند العاشرة إلا خمس دقائق بانتظار أن يفتح باب منزل المدير. نظر الآخرون إلى الأعلى صوب الساعة المعلقة على الجدار، وتمنوا لو أن عقرب الدقائق يتحرك أسرع بقليل.

وعندما بدأت الساعة ترن معلنة أنها العاشرة، فتح الدكتور سامويل أوكشوت باب منزله الأمامي وخرج إلى الملعب. كان يحمل كدسة من الأوراق في إحدى يديه، وأربع علب معدنية في اليد الأخرى. لا يترك هذا الرجل أي مجال للصدفة. عندما وصل إلى نهاية الممشى، فتح بوابة صغيرة ودخل أرض الملعب بوتيرته المعهودة، غافلاً عن كل المحيطين به. بسرعة، وقف الأولاد جانباً، وشكّلوا رواقاً كي لا يتعرقل تقدم المدير. توقف الرجل أمام لوح الإعلانات عندما رنت الساعة للمرة العاشرة، وعلّق نتائج الامتحانات على اللوحة، ثم غادر من دون التفوه بكلمة.

عندها، ركض أربعون ولداً، وشكّلوا حلقة حول لوح الإعلانات، ولم يتفاجأ أحد لأن ديكنز تصدر اللائحة بنسبة 92 في المئة، وحصل على منحة بيلوكين إلى مدرسة القواعد في بريستول. وقفز جيل في الهواء، ولم يحاول قط إخفاء ارتياحه عندما رأى نسبة 64 في المئة قرب اسمه.

ثم استدار كلاهما للنظر إلى صديقهما هاري الذي كان واقفاً وحده، بعيداً عن الحشود.

## مايزي كليفتون 1920-1936

عندما تزوجنا أنا وآرثر، لم يتم إنفاق الكثير من المال على الزفاف. لكن في تلك الفترة، لم يكن آل تانكوك ولا آل كليفتون يملكون أي مال أصلاً. كان المبلغ الذي دُفع لجوقة الإنشاد هو الأكبر ضمن مدفوعات الزفاف حينها- نصف كراون- وقد استحقته فعلاً. لطالما أردتُ أن أكون من بين أفراد جوقة الأنسة مانداي. ورغم أنها أخبرتني أن صوتي جيد بما فيه الكفاية، إلا أنه لم يتم أخذي في الحسبان لأنني لا أجيد القراءة أو الكتابة.

أقيم حفل الاستقبال- إذا كان بالإمكان تسميته هكذا- في منزل أهل آرثر في ستيل هاوس لاين. وتضمن تقديم برميل من الشراب، وبعض الشطائر المدهونة بزبدة الفول السوداني، وديزينة من فطائر اللحم. كما أحضر أخي ستان السمك ورقاقات البطاطا المقلية. وبالإضافة إلى كل ذلك، توجب علينا المغادرة باكراً للحاق بآخر حافلة متجهة إلى ويستون سوبر ماري لقضاء شهر العسل. حجز آرثر في فندق على الشاطئ مساء يوم الجمعة، وبما أن المطر انهمر في معظم عطلة نهاية الأسبوع، نادراً ما خرجنا من الغرفة.

بدا لي غريباً أن علاقتي الحميمة الثانية حصلت أيضاً في ويستون سوبر ماري. صدمت عندما رأيت آرثر عارياً للمرة الأولى. إذ ثمة ندبة حمراء عميقة تمتد على طول معدته. اللعنة على الألمان. لم يقل قط إنه أصيب خلال الحرب.



لم أتفاجأ لأن آرثر أُثير لحظة خلعت ملابسني الداخلية، لكن عليّ الاعتراف بأنني توقعت منه أن يخلع حذاءه على الأقل.

غادرنا الفندق بعد ظهر يوم الأحد، وركبنا في آخر حافلة متوجهة إلى بريستول؛ إذ توجب على آرثر التواجد في أحواض السفن عند الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين.

بعد الزفاف، انتقل آرثر للإقامة في منزلنا؛ إلى أن نتمكن من تأمين منزل خاص بنا مثلما قال لأبي، وهذا يعني عادة إلى أن يموت أحد من أهلنا. على أية حال، عاشت عائلتنا في ستيل هاوس لاین لوقت طويل جداً؛ أكثر مما يمكن لأحد تصوره.

فرح آرثر عندما أخبرته أنني حامل؛ لأنه أراد ستة أطفال على الأقل. لا أعرف إذا كان هذا الطفل منه، لكن بما أننا أنا وأمي فقط نعرف الحقيقة، فما من سبب أبداً لكي يشك آرثر بذلك.

بعد ثمانية أشهر أنجبت صبياً. والحمد لله، ما من شيء فيه يوحى بأنه ليس ابن آرثر. سمّيناه هارولد، ففرح والدي لأن هذا يعني استمرار اسمه لجيل آخر.

بعد ذلك، افترضتُ أنني سأبقى عالقة في المنزل - تماماً مثل أمي وجدتي - لأنجب طفلاً كل سنتين. ففي النهاية، يتحدر آرثر من عائلة من ثمانية أفراد، فيما أنا الرابعة بين خمسة أولاد. لكن، تبين أن هاري سيكون طفلي الوحيد.

يعود آرثر عادة إلى المنزل مباشرة بعد العمل كي يمضي بعض الوقت مع الطفل قبل أن أضعه في السرير. وعندما لم يعد مساء الجمعة،

افتترضتُ أنه ذهب إلى المقهى مع أخي. لكن عندما عاد ستان بعد منتصف الليل فاقدًا توازنه وحاملًا رزمة من الأوراق النقدية، لم يكن آرثر معه. في الواقع، أعطاني ستان واحدة من الأوراق النقدية؛ مما جعلني أتساءل عمّا إذا كان قد سرق مصرفًا. لكن، عندما سألته عن مكان آرثر صمت فجأة.

لم أخلد إلى السرير في تلك الليلة، وإنما جلست على الدرجة السفلية أنتظر عودة زوجي إلى المنزل. إذ لم يُضِ آرثر الليل خارج المنزل منذ زواجنا قط.

ورغم أن ستان استعاد رزائمه عندما نزل إلى المطبخ في صباح اليوم التالي، إلا أنه لم يقل أية كلمة خلال الفطور. وعندما سألته مجددًا عن مكان آرثر، زعم أنه لم يره منذ أن أنهيا العمل مساء أمس. لا تصعب معرفة متى يكذب ستان؛ لأنه لا ينظر إلى عيني من يتكلم معه مباشرة. كنت على وشك الإلحاح عليه أكثر عندما سمعت طرقةً قوياً على الباب الأمامي. أول فكرة خطرت في بالي هي أن الطارق هو آرثر، ولذلك أسرعت لفتح الباب.

غير أنني عندما فتحت الباب، دخل شرطيان المنزل، وركضا إلى المطبخ وأمسكا بستان، وكبلا يديه وأخبراه أنه موقوف بتهمة السرقة. وحينها عرفتُ مصدر رزمة الأوراق النقدية.

احتج ستان قائلاً: «لم أسرق أي شيء». أعطاني السيد بارينغتون المال.»

فقال الشرطي الأول: «قصة محتملة، تانكوك».

غير أنه قال وهما يسحبانه إلى خارج المنزل: «لكنها الحقيقة يا سيدي». عرفتُ أن ستان لم يكن يكذب حينها.

تركْتُ هاري مع أمي، وركضت إلى أحواض السفن على أمل إيجاد آرثر بين موظفي الصباح ليخبرني عن سبب توقيف ستان. وحاولت عدم التفكير في احتمال توقيف آرثر أيضاً.

عندها، أخبرني الرجل الواقف عند البوابة أن آرثر لم يظهر طوال الصباح. ولكنه بعد أن تحقّق من الأسماء، بدا محتاراً لأن آرثر لم يسجّل خروجه في الليلة الفائتة. وكل ما استطاع قوله كان: «لا تلقي اللوم عليّ. لم أكن عند البوابة ليلة أمس».

وتساءلت لاحقاً عن سبب استخدامه كلمة «اللوم».

ذهبت إلى حوض السفن، وسألت بعض رفاق آرثر عنه، ولكنهم جميعاً كرروا الجملة نفسها: «لم نره منذ انتهاء عمله ليلة البارحة». ثم اختفوا سريعاً. كنت على وشك الذهاب إلى مركز الشرطة لمعرفة ما إذا كان قد تم اعتقاله أيضاً عندما رأيت رجلاً عجوزاً يمر من أمامي منحني الرأس.

لحقتُ به، وتوقعتُ أن يطردني أو يزعم أنه لا يعرف ما أتكلم عنه. لكنني عندما اقتربتُ منه، توقف ورفع قبعته قائلاً: «صباح الخير». تفاجأت بأسلوبه المهذب، مما منحني الثقة لأسأله إن كان قد رأى آرثر هذا الصباح.

فأجاب: «لا. رأيتُه بعد ظهر البارحة عندما كان في دوام العمل المتأخر مع أخيك. يجدر بك ربما أن تسألني أخاك».

قلتُ: «لا أستطيع، فقد تم توقيفه وأخذه إلى مركز الشرطة».

عندها، سأل العجوز جاك محتاراً: «وما تهمته؟».

أجبتُ: «لا أعرف».

هزّ العجوز جاك رأسه وقال: «لا أستطيع مساعدتك يا سيدة كليفتون. لكنّ هناك شخصين على الأقل يعرفان القصة كلها». وأوماً برأسه في اتجاه المبنى الكبير المسقوف بالقرميد الأحمر الذي يسميه آرثر دوماً «الإدارة».

ارتعدتُ حين رأيت شرطياً يخرج من الباب الأمامي للمبنى. وعندما نظرتُ إلى الخلف، كان العجوز جاك قد اختفى.

فكرت في الذهاب إلى «الإدارة»، أو دار بارينغتون؛ لإعطاء المبنى اسمه الصحيح، لكنني قررت عدم فعل ذلك. ففي النهاية، ماذا سأقول إذا واجهتُ مدير آرثر. لذا، بدأت أمشي صوب المنزل محاولة فهم الأمور.

راقبتُ هوغو بارينغتون عندما أدلى بشهادته. الثقة في الذات نفسها، التكبر نفسه، نصف الحقائق نفسها المنطوقة بشكل مقنع أمام القضاة؛ تماماً مثلما همس بها لي في حميمية غرفة النوم. عندما نزل عن منصة الشهود، عرفتُ أن ستان سيواجه صعوبة كبيرة في الخروج من السجن.

عند إصدار القاضي حكمه، وصف أخي بالسارق المحترف الذي استفاد من موقعه لسرقة مديره. وأضاف قائلاً إنه لا يملك خياراً سوى سجنه ثلاث سنوات.

جلستُ طوال أيام المحاكمة على أمل التقاط شيء من المعلومات التي قد تمنحني تلميحاً بشأن ما حصل لآرثر في ذلك اليوم. لكن، عندما أعلن القاضي أخيراً «إرجاء المحاكمة»، لم أفهم أي شيء؛ رغم أنني لم أشك قط في أن أخي لم يقل القصة كلها. وسيمضي بعض الوقت قبل أن أعرف السبب.

الشخص الوحيد الآخر الذي حضر جلسات المحاكمة كل يوم كان العجوز جاك تار، ولكننا لم نتحدث مع بعضنا. في الواقع، لم أكن لأراه قط مجدداً لولا هاري.

مرّ بعض الوقت قبل أن أستوعب أخيراً أن آرثر لن يعود إلى المنزل. مضى على غياب ستان بضعة أيام فقط قبل أن أكتشف المعنى الحقيقي لكلماته «الاقتصاد في العيش». فمع سجن أحد المعيلين في العائلة، فيما الثاني لا نعرف مكانه، وجدنا أنفسنا سريعاً على خط الفقر. لحسن الحظ، كان هناك عرف غير رسمي معمول به في ستيل هاوس لاين: فإذا غاب أحد «في عطلة»، يبذل الجيران ما بوسعهم للمساعدة في إعالة عائلته.

لذا، زارنا رجل الدين واتس باستمرار، وأعاد بعض النقود المعدنية التي وضعناها في صندوق التبرعات على مرّ الأعوام. كما جاءت الأنسة مانداي بشكل غير منتظم، ووزعت أكثر من نصائح جيدة، وغادرت دوماً مع سلة فارغة. ولكن، ما من شيء استطاع تعويضي عن خسارة الزوج، وسجن الأخ البريء، والولد الذي لم يعد يملك أباً.

خطا هاري مؤخراً خطواته الأولى، لكنني بدأت أخشى سماع كلمته الأولى. هل سيذكر من اعتاد الجلوس إلى رأس المائدة؟ وهل سيسأل عن سبب عدم وجوده معنا؟ توصل الجد إلى حلّ في ما يتعلق بما يجب قوله إذا بدأ هاري بطرح مثل هذه الأسئلة، واتفقنا جميعاً على الالتزام بالقصة نفسها. ففي النهاية، ثمة احتمال بعيد بأن يصادف هاري العجوز جاك.

لكن في ذلك الوقت، أصبحت المشكلة الملحة عند آل تانكوك هي كيفية إبقاء الذئب بعيداً عن ديارنا؛ أو جابي الإيجارات ومأمور التنفيذ. أنفقت ذات مرة الباوندات الخمسة التي أعطاني إياها ستان، ورهنتُ إبريق الشاي المطلي بالفضة الخاص بأمي، وخاتم خطوبتي، وأخيراً خاتم زفاني. خشيت ألا يمرّ وقت طويل قبل أن يتم طردنا من المنزل.

إلا أن بضعة أسابيع مرّت قبل أن نسمع طرّقاً على الباب مجدداً. لم تكن الشرطة هذه المرة، وإنما كان رجلاً يدعى سباركس، أخبرني أنه ممثّل نقابة العمال التي ينتمي إليها آرثر، وأنه جاء ليرى إذا كنت قد تلقيتُ أي تعويض من الشركة.

وبعد أن استقبلت السيد سباركس في المطبخ، وسكبت له كوباً من الشاي، أخبرته: «لا شيء على الإطلاق. قالوا إنه غادر من دون سابق إنذار، وهم بالتالي غير مسؤولين عن أعماله. وما زلت لا أعرف فعلاً ما حصل في ذلك اليوم».

فقال السيد سباركس: «ولا أنا. لقد خرسوا جميعاً. ليس فقط الإدارة، وإنما العمال أيضاً. لم أستطع استخراج أية كلمة منهم. لكن تم دفع مستحقات زوجك بالكامل، وبالتالي يحق لك الحصول على تعويض النقابة».

وقفتُ هناك من دون أن أفهم أبداً ما قصده.

أخرج السيد سباركس مستنداً من حقيبته، ووضعه على طاولة المطبخ، وفتح الصفحة الأخيرة منه قائلاً لي:

«وقَّعي هنا». فيما وضع سبابته على خط منقَّط.

وبعد أن وضعت إشارة × حيث أشار لي، أخرج مغلفاً من جيبه، وقال وهو يعطيني إياه: «آسف لأن المبلغ قليل جداً».

لم أفتح المغلف إلا بعد أن أنهى كوب الشاي وغادر.

سبعة باوندات، وتسعة شلنات وستة بنسات هي قيمة حياة آرثر. جلستُ إلى طاولة المطبخ، وأعتقد أنني أدركتُ في تلك اللحظة أنني لن أرى زوجي أبداً مجدداً.

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت إلى متجر الرهن، واستعدت خاتم زفاني من السيد كوهين. هذا أقل ما يمكنني فعله لذكرى آرثر. وفي صباح اليوم التالي، سدّدت متأخرات الإيجار، وكذلك فاتورة اللحم، والخبّاز، وصانع الشموع. عندها، بقي لديّ ما يكفي فقط لشراء بعض الملابس المستعملة من «بازار» دار العبادة، ومعظمها لهاري.

لكن، كان قد مضى أقل من شهر عندما بدأت الديون تتراكم مجدداً على سجلّ اللحم والخبّاز وصانع الشموع، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن أعود إلى متجر الرهن وأعيد رهن خاتم زفاني عند السيد كوهين.

وعندما جاء جابي الإيجارات وطرق على الباب رقم 27 ولم يحصل على جواب، أعتقد أن لا أحد من أفراد العائلة تفاجأ لأن مأمور المحكمة كان الطارق التالي. عندئذ، قررت أن الوقت قد حان لأبحث عن عمل.





اتضح أن محاولات مايزي لإيجاد وظيفة لم تكن سهلة، خصوصاً وأن الحكومة أصدرت مؤخراً توجيهات لكل أصحاب العمل تنصحهم بتوظيف الرجال الذين خدموا في القوات المسلحة قبل التفكير في أي مرشح آخر. وكان هذا منسجماً مع وعد لويد جورج بأن جنود بريطانيا سيعودون إلى وطن يليق بالأبطال.

ورغم أنه أعطي للنساء اللواتي تجاوزن الثلاثين حق التصويت في الانتخابات الأخيرة بعد إنهائهن خدمتهن في مصانع الذخيرة خلال الحرب، فقد تمت إعادتهن إلى آخر الرتل عندما جاء وقت وظائف السلم. قررت مايزي أن أفضل طريقة لتجد وظيفة هي التقدم إلى الوظائف التي لا يفكر فيها الرجال لأنهم يشعرون أنها حقيرة جداً بالنسبة إليهم، أو لأن الأجر فيها قليل جداً. ولهذا السبب، وقفت مايزي في الرتل خارج و.د و هـ. و، أكبر شركة في المدينة. وعندما وصلت إلى مقدمة الرتل، قالت للمسؤول: «هل صحيح أنكم تبحثون عن موزين في معمل السجائر؟».

فأجابها: «نعم، لكنك صغيرة جداً».

«عمري اثنان وعشرون عاماً».

فكرت: «أنت صغيرة جداً. عودي بعد سنتين أو ثلاث سنوات».

عادت مايزي إلى ستيل هاوس لاين في الوقت المناسب لمشاركة طبق من حساء الدجاج وشريحة خبز من الأسبوع الماضي مع هاري وأمها.

وفي اليوم التالي، انضمت إلى رتل أكبر خارج محلات هارفي لبيع الشراب. وعندما وصلت إلى مقدمة الرتل بعد ثلاث ساعات، أخبرها رجل يرتدي قميصاً أبيض أنيقاً ويضع ربطة عنق سوداء رفيعة أنهم يقبلون فقط أصحاب الخبرة.

فسألته مايزي محاولة ألا تبدو يائسة: «وكيف أحصل على الخبرة؟».

«من خلال الانضمام إلى برنامج التدريب لدينا».

أخبرت الرجل: «إذاً، سأنضم إليه».

«كم عمرك؟».

«اثنان وعشرون».

«أنت كبيرة جداً».

كررت مايزي أمام أمها كل كلمة من كلمات المقابلة التي استمرت ستين ثانية، وذلك أثناء تناولها طبقاً من المرق مع قطعة خبز من الرغيف نفسه.

فاقتربت أمها: «يمكنك تجربة أحواض السفن».

«ما الذي يجول في فكرك يا أمي؟ هل يجدر بي التقدم لوظيفة

محمل السفن؟».

لم تضحك والدة مايزي، لكن مايزي لا تذكر أصلاً متى ضحكت أمها لآخر مرة، وإنما قالت: «هناك دوماً فرصة لعمال التنظيفات. والله يعلم كم أنت بارعة في ذلك».

نهضت مايزي وارتدت ملابسها قبل وقت طويل من شروق الشمس في صباح اليوم التالي. ونظراً لعدم وجود فطور تتناوله، خرجت جائعة ومشت صوب أحواض السفن.

وعندما وصلت، أخبرت مايزي الرجل الواقف عند البوابة أنها تبحث عن عمل في التنظيف.

فقال لها: «توجهي إلى السيدة نيتلز». وأوماً في اتجاه مبنى القرميد الأحمر الكبير الذي كادت تدخله ذات مرة سابقاً. «إنها مسؤولة عن توظيف عمال التنظيفات». وبدا جلياً أنه لم يذكرها من زيارتها السابقة.

مشت مايزي باضطراب صوب المبنى، ولكنها توقفت قبل بضع خطوات من وصولها إلى الباب الأمامي. وقفت وراقبت فيما شقّ رتل من الرجال الذين يرتدون المعاطف ويعتَمرون القبعات ويحملون المظلات طريقهم عبر الأبواب المزدوجة.

بقيت مايزي مسمّرة في مكانها، ومرتجفة في الهواء الصباحي البارد، فيما حاولت إيجاد الشجاعة الكافية للحاق بهم إلى الداخل. كانت على وشك الاستدارة بعيداً عندما لمحت امرأة متقدمة في السن ترتدي بذلة العمل وتدخل عبر باب آخر في جانب المبنى، فلحقت بها.

سألته المرأة بنبرة مشككة بعدما وصلت إليها: «ماذا تريدين؟».

«أنا أبحث عن وظيفة».

قالت: «جيد. يمكننا استقبال بعض النساء الشابات. اذهبي إلى السيدة نيتلز». فيما أشارت صوب باب ضيق قد يبدو مثل خزانة للمكانس. توجهت مايزي صوب الباب بجرأة وطرقت عليه.

فقال صوت متعب: «تفضل».

فتحت مايزي الباب لتجد امرأة في مثل عمر أمها تقريباً تجلس على الكرسي الوحيد، محاطة بالدلاء والمماسح وألواح كبيرة من الصابون.

«طلب مني أن أتحدث معك إذا كنت أبحث عن وظيفة».

«صحيح. إذا كنت ترغبين في العمل طوال الساعات التي يرزقنا بها الله، مقابل أجر ضئيل».

فسألتها مايزي: «ما هو عدد الساعات؟ وكم الأجر؟».

«تبدئين عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، ويفترض بك أن تخرجي من المبنى عند الساعة السابعة؛ أي قبل وصول الموظفين الذين يتوقعون إيجاد مكاتبهم نظيفة ومرتبة. أو يمكنك البدء عند الساعة مساء والعمل حتى منتصف الليل، حسب الدوام الذي يناسبك. الأجر هو نفسه مهما كان الدوام، ستة بنسات في الساعة الواحدة».

فقالت مايزي: «سأعمل في الدوامين».

فقالت المرأة وهي تختار دلواً وممسحة: «جيد. أراك هنا مجدداً عند الساعة مساء، وسأعلمك حينها القواعد. اسمي فيرا نيتلز. ما اسمك؟».

«مايزي كليفتون».

عندها، أوقعت السيدة نيتلز الدلو على الأرض، ورمت الممسحة على الحائط، ثم مشت صوب الباب وفتحته قائلة: «لا عمل لك هنا يا سيدة كليفتون».

خلال الشهر التالي، حاولت مايزي إيجاد وظيفة في متجر للأحذية، لكن المدير لم يشعر أنه يستطيع توظيف امرأة تنتعل حذاءً مليئاً بالثقوب. كما حاولت العمل في متجر يبيع القبعات النسائية، ولكن المقابلة انتهت فور اكتشافهم أنها لا تستطيع الجمع، وفي متجر للأزهار حيث لا يفكرون في توظيف شخص لا يملك حديقة خاصة به. وبدافع اليأس، تقدمت للعمل كنادلة في مقهى محلي، لكن المدير قال: «عذراً يا سيدتي، لا يوجد عمل لك هنا».

ويوم الأحد التالي، ركعت مايزي في دار العبادة، وتضرّعت إلى الله طالبة المساعدة.

وتجلّت تلك المساعدة في الأنسة مانداي التي أخبرت مايزي أن صديقتها تملك مقهى في برود ستريت وتبحث عن نادلة.

فقال مايزي: «لكنني لا أملك أية خبرة».

أجابت الأنسة مانداي: «قد تكون هذه ميزة. فالأنسة تيلي مميزة جداً، وتفضل تدريب موظفاتها على طريققتها».

«قد تظن أنني كبيرة جداً أو صغيرة جداً».

فقال الأنسة مانداي: «لست كبيرة جداً ولا صغيرة جداً. واطمئني، ما كنت لأوصي بك لو لم أعرف أنك جديرة بالوظيفة. لكن عليّ تحذيرك يا مايزي بأن الأنسة تيلي نيّقة جداً بخصوص الوقت. كوني في المقهى قبل الثامنة من صباح الغد. أما إذا تأخرت فلن يكون ذلك أول انطباع تتركينه، وإنما أيضاً الأخير».

كانت مايزي واقفة خارج مقهى تيلي عند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، ولم تتحرك طوال الساعتين التاليتين. وعند الثامنة إلا

خمس دقائق، وصلت امرأة ممتلئة، ومتوسطة العمر، ترتدي ملابس أنيقة، وشعرها مصفف في تسريحة كعكة مرتبة، وتضع نظارة صغيرة على طرف أنفها. برمت لافتة «مغلق» المعلقة على الباب لتصبح «مفتوح» وسمحت لمايزي المتجمدة بالدخول.

«لقد حصلت على الوظيفة يا سيدة كليفتون». كانت تلك أولى كلمات مديرتها الجديدة.

بقي هاري في رعاية جدته كلما ذهبت مايزي إلى العمل. ورغم حصولها على تسعة بنسات فقط في الساعة، إلا أنه سُمح لها بالاحتفاظ بنصف البقشيش، حيث تستطيع أن تعود إلى المنزل في نهاية كل أسبوع ومعها ثلاثة باوندات. وهناك أيضاً علاوة غير متوقعة. وعند قلب لافتة «مفتوح» إلى «مغلق» في تمام الساعة السادسة مساءً، كانت الأنسة تيلي تسمح لمايزي بأن تأخذ معها إلى المنزل كل الطعام المتبقي. فمن غير المسموح أن تُلفظ أي كلمة تدمر من الطعام من قبل أي زبون.

بعد ستة أشهر، صارت الأنسة تيلي مسرورة جداً من تقدم مايزي، حيث سلّمتها مجموعة من ثماني طاولات، وبعد ستة أشهر أخرى، أصرّ العديد من الزبائن المنتظمين على أن تخدمهم مايزي، فحلّت الأنسة تيلي المشكلة من خلال زيادة عدد الطاولات التي تهتم بها مايزي إلى اثنتي عشرة طاولة، ورفعت أجرتها إلى شلن واحد في الساعة. ومع المال المجني كل أسبوع، استطاعت مايزي أن تعيد خاتم الخطوبة وخاتم الزفاف إلى إصبعها مجدداً، فيما عاد إبريق الشاي المطلي بالفضة إلى مكانه.

إذا أرادت مايزي التحلي بالصدق، تم الإفراج عن ستان من السجن بسب سلوكه الجيد بعد ثمانية عشر شهراً فقط، وتبين أن ذلك نعمة مختلطة.

عندها، توجب على هاري الذي صار يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ونصف العام الانتقال إلى غرفة أمه. وحاولت مايزي عدم التفكير في هدوء المنزل أثناء غياب ستان.

تفاجأت مايزي عندما حصل ستان على وظيفته القديمة في أحواض السفن؛ كما لو أنه لم يحصل أي شيء. وأقنعها ذلك أكثر فأكثر بأنه يعرف عن اختفاء آرثر أكثر مما قاله؛ مهما ألحّت عليه. وذات مرة، ألحّت عليه كثيراً فضربها بالحزام. وفي صباح اليوم التالي، رغم أن الأنسة ميلي زعمت عدم انتباهها إلى العين السوداء، فقد انتبه واحد أو اثنان من الزبائن إلى حالتها، ولذلك لم تتطرق مايزي إلى الموضوع مجدداً مع أخيها. لكن، كلما سأله هاري عن والده، كان ستان يلتزم بكذبة العائلة ويقول: «لقد قتل والدك في الحرب. كنت أقف إلى جانبه عندما أصابته الرصاصة».

أمضت مايزي معظم أوقات فراغها مع هاري. وافترضت أنه حين يصبح كبيراً بما فيه الكفاية للذهاب إلى مدرسة ميريوود الابتدائية ستصبح حياتها أكثر سهولة بكثير. لكن اصطحاب هاري إلى المدرسة في الصباح يعني تحمل نفقة إضافية للركوب في الترامواي للحرص على عدم التأخر عن العمل. ثم كانت تأخذ إجازة بعد الظهر لتصطحبه من

المدرسة. وبعد أن تقدم له مايزي الشاي، كانت تتركه برعاية جدته وتعود إلى العمل.

مضى على وجود هاري في المدرسة بضعة أيام فقط عندما لاحظت مايزي آثار ضرب بالعصا على ظهره فيما كانت تساعد في حمامه الأسبوعي.

فسألته: «من فعل هذا؟».

«المدير».

«لماذا؟».

«لا أستطيع إخبارك يا أمي».

وعندما رأت مايزي ستة خطوط حمراء جديدة قبل أن تختفي الخطوط القديمة، سألت هاري عن السبب مجدداً، ولكنه لم يخبرها. وحين ظهرت العلامات للمرة الثالثة، ارتدت معطفها وتوجهت إلى مدرسة ميريوود الابتدائية لتوبيخ أستاذه.

إلا أن السيد هولكومب لم يكن كما توقعته مايزي على الإطلاق. ففي البداية، لم يكن أكبر منها بكثير، ووقف عندما دخلت الغرفة؛ على عكس كل الأساتذة الذين تذكرهم من أيامها في ميريوود.

سألته: «لماذا يضرب المدير ابني بالعصا؟». وذلك قبل أن تتاح للسيد هولكومب الفرصة ليطلب منها الجلوس.

«لأنه يتغيب عن المدرسة من دون إذن. إنه يختفي بعد فترة وجيزة من الاجتماع الصباحي، ويعود في وقت كرة القدم بعد الظهر».

«وأين يمضي يومه؟».



قال السيد هولكومب: «في أحواض السفن حسب ما أعتقد. ربما كان بإمكانك إطلاعي على السبب».

«لأن خاله يعمل هناك، وهو يقول لهاري دوماً إن المدرسة مضيعة للوقت؛ لأنه عاجلاً أو آجلاً سينضم إليه للعمل عند آل بارينغتون».

فقال السيد هولكومب: «أتمنى ألا يحصل ذلك».

فسألته مايزي: «لم قلتَ هذا؟ كان العمل هناك جيداً بالنسبة إلى والده».

«ربما، لكنه ليس جيداً كفاية لهاري».

فسألته مايزي بغضب: «ماذا تقصد؟».

«هاري ذكي يا سيدة كليفتون. إنه ذكي جداً. ليتني فقط أستطيع إقناعه بحضور الصفوف بانتظام أكثر، فعندها سيحقق الكثير حتماً».

فجأة، تساءلت مايزي عما إذا كان بوسعها معرفة أي من الرجلين هو والد هاري.

تابع السيد هولكومب: «بعض الأولاد الأذكاء لا يكتشفون مدى ذكائهم إلا بعد مغادرتهم المدرسة، ويمضون بقية حياتهم وهم نادمون على سنواتهم الضائعة. أريد التأكد من عدم انتماء هاري إلى تلك الفئة».

عندها، سألته مايزي وقد جلست أخيراً: «ماذا تريد مني أن أفعل؟».

«أريد منك تشجيعه على البقاء في المدرسة وعدم الهروب إلى أحواض السفن كل يوم. أخبريه كم ستكونين فخورة به إذا أبلى حسناً في

المدرسة، وليس فقط في ملعب كرة القدم؛ علماً أنه ليس موطن قوته إذا كنت لا تعلمين يا سيدة كليفتون».

«موطن قوته!».

«أعتذر. لكن، لا شك في أن هاري اكتشف الآن أنه لا يستطيع الانضمام إلى منتخب المدرسة، ولا إلى فريق مدينة بريستول طبعاً».

فوعده مايزي: «سأبذل كل ما بوسعي للمساعدة».

قال السيد هولكومب فيما نهضت مايزي للمغادرة: «شكراً لك يا سيدة كليفتون. إذا استطعتِ تشجيعه، فلا أشك أبداً في أن هذا سيكون أكثر فاعلية على المدى البعيد من عصا المدير».

ومنذ ذلك اليوم، بدأت مايزي تهتم أكثر بما تعلمه هاري في المدرسة. واستمتعت بالإصغاء إلى قصصه عن السيد هولكومب وما علمه إياه في ذلك اليوم. وفيما توقفت العلامات الحمراء عن الظهور على جسمه، افترضت أنه توقف عن الهروب من المدرسة. وذات ليلة، مباشرة قبل أن تخلد إلى النوم، تحققت من الولد النائم ووجدت أن العلامات الحمراء قد عاودت الظهور، وكانت هذه المرة أكثر دكنة وعمقاً مما كانت عليه من قبل. ولم تحتج إلى الذهاب لرؤية السيد هولكومب، لأنه اتصل بها في المقهى في اليوم التالي.

قال السيد هولكومب: «لقد نجح في حضور صفي طوال شهر كامل، ثم اختفى مجدداً».

قالت مايزي بتعاسة: «لكنني لا أعرف ما الذي أستطيع فعله. منعت عنه مصروف الجيب، وأخبرته ألا يتوقع مني أي قرش إذا لم يمكث في المدرسة. الحقيقة هي أن خاله ستان يؤثر فيه أكثر مني».

قال السيد هولكومب: «هذا مؤسف فعلاً. لكنني وجدتُ حلاً لمشكلتنا يا سيدة كليفتون، إلا أن الحل لن ينجح من دون تعاونك الكامل».

افترضت مايزي أنه على الرغم من كونها في السادسة والعشرين من عمرها، فهي لن تتزوج أبداً مجدداً. ففي النهاية، لا تعتبر الأرملة التي لديها ولد عروساً مهمة فيما توجد العديد من الفتيات العازبات. وفي الواقع، إن وضعها دوماً خاتمي الخطوبة والزواج خفّض عدد طلبات الزواج التي تتلقاها في المقهى؛ رغم أن واحداً أو اثنين أصراً على المحاولة. ولم تشمل تلك العروض طبعاً العجوز السيد كراديك الذي أحب فقط الإمساك بيدها.

كان السيد أتكينز أحد الزبائن المنتظمين في مقهى الأنسة تيلي، وأحب الجلوس إلى إحدى الطاولات التي تخدمها مايزي. كان يأتي في معظم الصباحات، ويطلب دوماً قهوة مرّة مع قطعة من الحلوى بالفاكهة. لكنّ ما فاجأ مايزي هو أنه دفع حسابه ذات صباح، ودعاها إلى السينما.

قال: «غريتا غاربو في فيلم اللحم والشيطان». محاولاً أن يجعل العرض مغرياً أكثر.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يدعو فيها أحد الزبائن مايزي للخروج معه، ولكنها كانت المرة الأولى التي يُظهر فيها شاب وسيم اهتمامه بها.

في الماضي، نجح جوابها السلبي في صدّ معظم طالبي القرب. «كم هذا لطيف من قبلك يا سيد أتكينز، لكنني أودّ قضاء كل وقت فراغي مع ابني».

فقال لها: «لكن، لا شك في أنك تستطيعين القيام باستثناء لليلة واحدة». وبدا أنه لم يستسلم بسهولة مثل الآخرين.

ألقت مايزي نظرة سريعة إلى يده اليسرى، فلاحظت أنه لا وجود لخاتم زواج. والأسوأ أنه كانت هناك دائرة شاحبة كشفت عن خاتم تمت إزالته.

سمعت نفسها تقول: «كم هذا لطيف من قبلك يا سيد أتكينز». ووافقت على لقائه مساء الخميس بعد أن تضع هاري في السرير. قال لها: «ناديني إيدي». وترك لها بقشيشاً قدره ستة بنسات.

اندهشت مايزي عندما جاء إيدي في سيارة فلاتنوز موريس لاصطحابها إلى السينما، واندهشت أيضاً حين لاحظت أن كل ما فعله حين جلسا معاً في الصف الخلفي هو مشاهدة الفيلم. لم تكن لتتذمر لو وضع ذراعاً حول كتفها. وفي الواقع، كانت تفكر في كم ستسمح له بالتمادي في موعدهما الأول.

وبعد أن أسدل الستار وعزفت الموسيقى، وقفوا جميعاً لإنشاد النشيد الوطني.

سألها إيدي حين خرجا من السينما: «هل ترغبين في تناول الشراب؟».

«أفضل الذهاب إلى المنزل قبل أن يتوقف الترامواي عن العمل ليلاً».

«لا داعي للقلق بشأن الترامواي الأخير مايزي حين تكونين مع إيدي أتكينز».

فقالت: «حسناً إذاً. سأتناول كوباً من العصير».

سألته مايزي: «ما الذي تفعله يا إيدي؟». فيما وضع كوباً كبيراً من عصير البرتقال على الطاولة أمامها.

قال: «أعمل في مجال الفنون». من دون الغوص في أية تفاصيل. وعضواً عن ذلك، أعاد الموضوع إلى مايزي. «لست بحاجة إلى سؤالك عما تفعله».

بعد كوب ثانٍ من عصير البرتقال، نظر إلى ساعته وقال: «لديّ عمل غداً في الصباح الباكر، ولذلك من الأفضل أن أوصلك إلى المنزل».

في طريق العودة إلى ستيل هاوس لاين، تحدثت مايزي عن هاري، وكيف تأمل في أن ينضم إلى جوقة الإنشاد في دار العبادة. بدا إيدي مهتماً بالموضوع فعلاً، وعندما أوقف السيارة أمام المنزل رقم 27، انتظرت منه أن يقبلها، ولكنه خرج من السيارة، وفتح لها الباب، ورافقها إلى الباب الأمامي لمنزلها.

جلست مايزي إلى طاولة المطبخ، وأخبرت أمها بكل ما حصل، أو لم يحصل في تلك الليلة. وكان كل ما قالته والدتها: «ماذا يريد؟».

عندما رأت مايزي السيد هولكومب يدخل دار العبادة برفقة رجل أنيق، افترضت أن هاري في ورطة مجدداً. وكانت متفاجئة لأنها لم تعد ترى أي علامات حمراء على جسمه منذ أكثر من عام.

تمالكت أعصابها فيما توجه السيد هولكومب صوبها. لكنه حين رآها وجه لها ببساطة ابتسامة خجولة قبل أن يجلس مع رفيقه على المقعد الخشبي الثالث في الجهة الأخرى من ممشي دار العبادة.

بين الحين والآخر، ألقت مايزي نظرة عليهما، ولكنها لم تتعرف إلى الرجل الآخر الذي بدا جلياً أنه أكبر سناً من السيد هولكومب، وتساءلت عما إذا كان مدير مدرسة ميريوود الابتدائية.

وعندما وقف أفراد الجوقة للبدء بأول أنشودة، نظرت الأنسة مانداي في اتجاه الرجلين قبل أن تومئ لعازف الأورغن في إشارة إلى أنها جاهزة.

شعرت مايزي أن هاري قد برع كثيراً في ذلك الصباح، ولكنها تفاجأت عندما وقف بعد دقائق قليلة لإنشاد أنشودة منفردة ثانية، وتفاجأت أكثر عندما أنشد واحدة ثالثة. يعرف الجميع أن الأنسة مانداي لا تفعل أي شيء من دون سبب، لكن لم يتضح لمايزي سبب ذلك.

وبعد انتهاء الاحتفال الديني، بقيت مايزي في مكانها، وانتظرت ظهور هاري على أمل أن يطلعها على سبب إنشاده ثلاث أناشيد منفردة.

وفيما تحدثت مع أمها بقلق، لم تترك عينها قط السيد هولكومب الذي كان يعرف الرجل الأكبر سنًا على الأنسة مانداي ورجل الدين واتس.

بعد قليل، رافق رجل الدين واتس الرجلين إلى قاعة الاجتماعات، ومشت الأنسة مانداي في الممشى صوب مايزي، وهناك نظرة عزم واضحة على وجهها، حيث عرف الجميع أنها في مهمة. وحين وصلت إليها سألتها: «هل أستطيع التكلم معك على حدة يا سيدة كليفتون؟». لم تمنح مايزي فرصة للإجابة، وإنما استدارت ببساطة ومشت في الممشى صوب قاعة الاجتماعات.

لم يأتِ إيدي أتكينز إلى مقهى تيلي لأكثر من شهر، ولكنه عاود الظهور ذات صباح، وجلس على مقعده الاعتيادي أمام إحدى طاولات مايزي. وعندما جاءت لخدمته، وجّه إليها ابتسامة كبيرة، كما لو أنه لم يرغب قط.

قالت مايزي فيما فتحت دفترها: «صباح الخير سيد أتكينز. ماذا أحضر لك؟».

فأجاب إيدي: «كالمعتاد».

عندها قالت مايزي: «مضى وقت طويل يا سيد أتكينز، لذا عليك تذكيري».

فقال إيدي: «أسف لأنني لم أتصل بك يا مايزي، ولكن توجب عليّ الذهاب إلى أميركا من دون سابق إنذار، وعدتُ في الليلة الماضية».

أرادت مايزي تصديقه، وكانت قد اعترفت لأمها بأن أملها قد خاب قليلاً عندما لم تسمع أي خبر من إيدي بعد أن اصطحبها إلى السينما. فقد استمتعت برفقته، وأحسّت أن السهرة قد تمّت على ما يرام.

ثمة رجل آخر بدأ بزيارة المقهى بشكل منتظم. وتماماً مثل إيدي، كان يجلس فقط إلى إحدى طاولات مايزي. ورغم ملاحظتها أنه ييدي اهتماماً كبيراً فيها، إلا أنها لم تشجعه إطلاقاً؛ ليس فقط لأنه في خريف العمر، وإنما لأنه يضع أيضاً خاتم زواج. ثمة شيء غريب فيه، مثل المحامي الذي يتأمل زبونا، وكلما تحدث إليها بدا متبجحاً بعض الشيء. استطاعت مايزي سماع أمها تقول: «ماذا يريد؟». لكنها ربما أساءت فهم نواياه، لأنه لم يحاول ولو مرة استهلال حديث معها.

وبعد أسبوع، لم تستطع مايزي قمع ابتسامة عريضة عندما جاء كلا الرجلين إلى المقهى في صباح اليوم نفسه، وسألها كلاهما إذا كانا يستطيعان رؤيتها لاحقاً.

كان إيدي الأول، وطرح السؤال بشكل مباشر: «لم لا أمرّ لاصطحابك بعد العمل هذا المساء يا مايزي؟ ثمة شيء أريد أن أريك إياه».

أرادت مايزي أن تقول له إنها مشغولة أصلاً في موعد آخر، لمجرد جعله يدرك أنها ليست متوافرة كلما أراد ذلك، لكنها عندما عادت إلى طاولته بعد دقائق قليلة مع ورقة الحساب، وجدت نفسها تقول: «إذاً، سأراك بعد العمل يا إيدي».

بقيت الابتسامة مرسومة على وجهها عندما قال لها الزبون الآخر: «أتساءل عما إذا كان بوسعي التكلم معك يا سيدة كليفتون؟».

تساءلت مايزي في سرّها عن كيفية معرفته اسمها.



«ألا تفضل التكلم مع المديرة، يا سيد...؟»

فأجاب: «فرامبتون. لا، شكراً. كنت أريد التحدث معك. هل نستطيع أن نلتقي في فندق رويال خلال استراحة بعد الظهر؟ لا يفترض أن يستغرق الأمر أكثر من خمس عشرة دقيقة من وقتك.»

قالت مايزي للآنسة تيلي: «تحدثي عن الحافلات التي لا تأتي أبداً حين تكونين بحاجة إلى إحداها، ومن ثم تصل اثنتان في الوقت نفسه.»  
عندها، قالت الآنسة تيلي لمايزي إنها تعرفت إلى السيد فرامبتون، ولكنها لا تذكر أين سبق لها رؤيته.

عندما قدّمت مايزي ورقة الحساب للسيد فرامبتون، شددت على أنها تستطيع أن تخصص له من وقتها خمس عشرة دقيقة فقط لأنه عليها العودة لاصطحاب ابنها من المدرسة في تمام الساعة الرابعة. فأوماً برأسه كما لو أنه يفكر في شيء آخر.

هل صحيح أن التقدم بمنحة إلى مدرسة سانت بيد لمصلحة هاري؟  
لم تعرف مايزي مع من تناقش المسألة، فقد رفض ستان الفكرة تماماً، ولم يفكر في المناقشة قط. أما الآنسة تيلي فكانت صديقة مقربة من الآنسة مانداي مما يعني أنه ليس بإمكانها أن تعطي رأياً موضوعياً.  
بدا السيد فروبيشر رجلاً لطيفاً جداً، ولكنه أوضح لها أنها وحدها القادرة على اتخاذ القرار النهائي. في حين أن السيد هولكومب لم يجعلها تشك في موقفه إطلاقاً.

لم تفكر مايزي في السيد فرامبتون إلا بعد أن أنهت خدمة زبونها الأخير، فتخلّصت من المتزر وارتدت معطفها القديم.

راقبتها الآنسة تيلي عبر النافذة فيما انطلقت في اتجاه فندق رويال. شعرت مايزي بالقليل من التوتر، ولكنها لم تعرف السبب.

فرغم أنها لم تذهب قط إلى فندق رويال من قبل، إلا أنها عرفت أنه أحد أفضل الفنادق في منطقة «ويست كاونتري»، وإمكانية رؤيته من الداخل كانت من بين الأسباب التي جعلتها توافق على لقاء السيد فرامبتون.

وقفت على الرصيف المقابل، وراقبت الزبائن وهم يشقون طريقهم عبر الباب الدوار؛ إذ لم يسبق لها أن رأت شيئاً مثله من قبل. وعندما أصبحت واثقة من كيفية عبوره، اجتازت الطريق ودخلت الفندق. دفعت الباب بقوة قليلاً ووجدت نفسها تدخل الردهة بسرعة أكبر مما توقعت.

نظرت مايزي حولها فرأت السيد فرامبتون جالساً وحده في ركن هادئ في زاوية قاعة الاستقبال. مشت صوبه، فنهض من مكانه فوراً وصافحها، وانتظر حتى جلست على الكرسي المقابل قبل أن يعاود الجلوس.

سألها: «هل أستطيع أن أطلب لك القهوة يا سيدة كليفتون؟». وقبل أن تتمكن من الإجابة أضاف: «ولكن، عليّ تحذيرك بأنها ليست مماثلة للقهوة التي تقدم في مقهى تيلي».

فقالت مايزي: «لا، شكراً لك يا سيد فرامبتون». إذ كانت تريد فقط معرفة سبب رغبته في رؤيتها.

أخذ السيد فرامبتون وقته في إشعال سيجارة، ثم سحب منها نفساً عميقاً، وبعد ذلك بدأ كلامه فيما وضع السيجارة على المنفضة: «سيدة

كليفتون، لا شك في أنك لاحظت أنني أصبحت في الفترة الأخيرة زبوناً منتظماً في مقهى تيلي». أومات مايزي برأسها. «وعلي الاعتراف بأن السبب الوحيد لزيارتي للمقهى هو أنت». كانت مايزي قد حضرت جيداً جملتها للفظها فور توقفه عن الكلام، غير أنه تابع كلامه: «طوال الأعوام التي عملت فيها في مجال الفنادق، لم أر قط أي شخص ينجز مهمته بفاعلية أكبر منك. أتمنى فقط لو أن كل نادلة في هذا الفندق تعمل بمستواك».

فقالت مايزي: «تم تدريبي جيداً».

«هذه هي حال النادلات الأربع الأخريات في المقهى، ولكنهن لسن بمستواك».

«هذا إطراء لي يا سيد فرامبتون. لكن، لماذا تقول لي...»

فقاطعها قائلاً: «أنا المدير العام لهذا الفندق، وأريدك أن تستلمي المقهى عندنا المعروف باسم «بالم كورت». ومثلما ترين»- ولوح بيده- «لدينا مئة طاولة تقريباً، لكن أقل من ثلث الطاولات يكون محجوزاً بانتظام. ولا يوفر ذلك الكثير من العائدات في استثمار الشركة. لكن، لا شك في أن هذا الأمر سيتغير إذا استلمت الأمور. أعتقد أنني أستطيع تقديم عرض مغرٍ لك».

لم تقاطعه مايزي.

«لا أرى سبباً يجعل ساعات عملك تختلف كثيراً عن تلك المعتمدة في وظيفتك الحالية، وأرغب في أن أدفع لك خمسة باوندات أسبوعياً، وكل البقشيش الذي تحصل عليه النادلات في مقهى «بالم كورت»

ستحصلين على نصفه. وإذا استطعت زيادة عدد الزبائن، فقد يكون هذا مربحاً جداً. وحينها...»

وهنا قاطعته مايزي: «لكنني لا أستطيع التفكير في ترك الأنسة تيلي. فقد كانت جيدة جداً معي خلال الأعوام الستة الماضية.»

«أقدر تماماً مشاعرك يا سيدة كليفتون. في الواقع، كان أملي سيخيب لو لم يكن هذا جوابك الفوري. فالوفاء صفة تعجبني كثيراً. لكن، عليك التفكير في مستقبلك، وكذلك في مستقبل ابنك، وخصوصاً إذا حصل على منحة إلى مدرسة سانت بيد.»

في تلك اللحظة، عجزت مايزي عن الكلام.

عندما أنهت مايزي عملها في ذلك المساء، وجدت إيدي جالساً في سيارته خارج المقهى في انتظارها. لاحظت أنه لم يخرج ليفتح لها الباب هذه المرة.

سألته بعد أن جلست قربه: «إلى أين ستأخذني؟».

فأجاب إيدي وهو يدير المحرك: «إنها مفاجأة، ولكنني لا أعتقد أن ظنك سيخيب.»

وانطلق بالسيارة متجهاً صوب جزء من المدينة لم تزره مايزي من قبل. وبعد دقائق قليلة، دخل طريقاً جانبياً وتوقف أمام باب سندان كبير فوقه لافتة من النيون كبيرة كتب عليها بحروف حمراء: ملهى إيدي الليلي.

سألت مايزي: «هل هذا لك؟».

فأجاب بفخر: «كل إنش مربع فيه. تعالي إلى الداخل لتريه بنفسك». وقفز من السيارة، ثم فتح الباب الأمامي ودعا مايزي إلى الدخول. وشرح لها فيما أنزلها على سلم خشبي ضيق: «كان هذا مخزناً للقمح، لكن السفن لم تعد تصل الآن إلى هذا العمق من النهر، فاضطرت الشركة إلى الانتقال إلى مكان آخر، واستطعت استئجار المكان مقابل سعر معقول جداً».

دخلت مايزي غرفة كبيرة فيها أضواء خافتة. ومرّ بعض الوقت قبل أن تعتاد عيناها على العتمة وتستوعب كل شيء. إذ ثمة نصف دزينة من الرجال الجالسين على مقاعد جلدية عالية يحتسون الشراب، مع عدد مماثل تقريباً من النادلّات حولهم. أما الجدار خلفهم فكان عبارة عن مرآة كبيرة؛ ما يوحي بأن الغرفة أكبر حجماً من مساحتها الحقيقية. وثمة مرقص في الوسط محاط بمقاعد مخملية سميقة يتسع كل منها لشخصين تقريباً. وفي الطرف البعيد، ثمة منصة صغيرة مع بيانو، وآلة «دابل باس»، ومجموعة طبول، وعدة قواعد لآلات موسيقية.

جلس إيدي أمام المقصف، ونظر في أرجاء الغرفة ثم قال: «لهذا السبب أمضيت الكثير من الوقت في أميركا. فمثل هذه الملاهي تزدهر في كل أرجاء نيويورك وشيكاغو، وتحقق ثروات كبيرة». ثم أشعل سيجاراً، وتابع قائلاً: «وأعدك أنه لن يكون هناك مثل له في بريستول. هذا مؤكّد».

«هذا مؤكّد». كررت مايزي فيما انضمت إليه أمام المقصف، ولكنها لم تحاول الجلوس على أحد الكراسي العالية.

قال إيدي بلكنة أميركية: «ماذا تشربين يا حلوتي؟».

فذكرته مايزي: «لا أشرب سوى العصير».

«هذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى اختيارك».

«اختياري!».

«طبعاً. ستكونين الشخص المثالي للإشراف على نادلات تقديم الكوكتيل. سأدفع لك ستة باوندات أسبوعياً، وإذا ازدهر المكان، فسيكون البقشيش وحده أكثر مما تجنيه في مقهى تيلي».

سألت مايزي: «وهل يجدر بي ارتداء مثل هذه الملابس؟». فيما أشارت إلى إحدى النادلات التي كانت ترتدي كنزة حمراء مكشوفة الكتفين، وتنورة سوداء ضيقة بالكاد غطت ركبتيها. وما لفت نظر مايزي هو أن ألوان ملابس النادلات مماثلة لألوان البذلات في مدرسة سانت بيد.

«ولم لا؟! أنت امرأة رائعة المظهر، وسيدفع الزبائن مبلغاً جيداً لتخدمهم امرأة مثلك. سوف تسمعين اقتراحات غريبة من دون شك، ولكنني واثق من أنك قادرة على تدبر أمرك».

«وما الجدوى من المرقص إذا كان هذا الملهى للرجال فقط؟».

فأجاب إيدي: «إنها فكرة أخرى استوحيتها من الولايات المتحدة. فإن أراد أحد الرجال الرقص مع إحدى النادلات فيمكنه القيام بذلك شرط أن يدفع المال».

«وما الذي تشمله هذه الكلفة أيضاً؟».

فقال إيدي وهو يهز كتفيه: «يعود الأمر إليهم. فطالما أن الأمر لا يحدث في هذا المكان، لا علاقة لي به». ثم ضحك بصوت عالٍ قليلاً، لكن مايزي لم تضحك. سألتها: «إِذَا، ما رأيك؟».

أجابت مايزي: «أعتقد أنه من الأفضل أن أعود إلى المنزل. فأنا لم أبلغ هاري بأنني سأتأخر في العودة».

قال إيدي: «مثلما تريد يا عزيزتي». ووضع ذراعه حول كتفها، ورافقها نحو السلام صعوداً إلى الأعلى.

وحين أوصلها إلى ستيل هاوس لاين، أخبرها عن مشاريعه للمستقبل، فقال بحماسة: «بدأت أحضر لمشروع آخر. السماء هي الحدود».

فكررت مايزي فيما توقفت السيارة أمام المنزل رقم 27: «السماء هي الحدود».

خرجت مايزي من السيارة وتوجهت بسرعة صوب الباب الأمامي. قال إيدي بعد أن لحق بها: «هل تحتاجين إلى بضعة أيام للتفكير في الأمر؟».

فأجابت مايزي من دون تردد: «لا. شكراً لك يا إيدي، لقد حسمتُ أمري أصلاً». فيما أخرجت مفتاحاً من حقيبتها.

عندها، ابتسم إيدي ابتسامة عريضة، ووضع ذراعاً حولها قائلاً: «لم أعتقد أنه سيكون قراراً صعباً بالنسبة إليك».

أبعدت مايزي ذراعه عن كتفها، وابتسمت له بلطف قائلة: «إن تفكيرك في أمر لطيف، لكنني أعتقد أنني سأكتفي بتقديم القهوة». ثم فتحت باب منزلها قبل أن تضيف: «لكن، شكراً لك على سؤالي».

«مثلما تريدان يا حلوتي. لكن إذا بدلت رأيك، فإن بابي مفتوح على الدوام».

أغلقت مايزي الباب خلفها.



وأخيراً، عرفت مايزي من هو الشخص الذي يمكنها أن تطلب منه النصيحة، وقررت التوجه إلى أحواض السفن من دون إنذار مسبق، وأملت أن يكون ذلك الشخص موجوداً عندما تطرق على بابه.

لم تخبر ستان أو هاري أنها ستزور ذلك الشخص؛ إذ سيحاول أحدهما منعها، فيما سيشعر الآخر بأنها خانت ثقته.

انتظرت مايزي حتى يوم عطلتها، وبعد أن أوصلت هاري إلى المدرسة، استقلت الترامواي للذهاب إلى أحواض السفن. اختارت وقتها بعناية؛ في أواخر الصباح، حين يكون على الأرجح لا يزال في مكتبه، فيما ستان مشغول تماماً في تحميل أو إفراغ الحمولة في الطرف الآخر من حوض السفن.

أخبرت مايزي الرجل الواقف عند البوابة أنها جاءت للتقدم بطلب للعمل كعاملة تنظيف، فأشار بعدم مبالاة صوب المبنى القرميدي الأحمر من دون أن يتذكرها.

وفيما مشت صوب بارينغتون هاوس، نظرت مايزي إلى النوافذ في الطابق الخامس، وتساءلت عن المكتب الذي ستجده فيه. تذكرت لقاءها مع السيدة نيتلز، وكيف رافقتها إلى الباب ما إن ذكرت اسمها. الآن، تملك مايزي وظيفة تحبها وتحظى فيها بالاحترام، كما أنها تلقت عرضين في الأيام القليلة الماضية. لم تفكر في السيدة نيتلز مجدداً فيما اجتازت المبنى وتابعت سيرها على الرصيف.

لم تبطئ مايزي خطواتها إلا بعد أن رأت بيته، ووجدت صعوبة في تصديق أنه يمكن لشخص ما أن يعيش في مقطورة قطار، وبدأت تتساءل عما إذا كانت ترتكب خطأ فادحاً. هل كانت حكايات هاري عن غرفة طعام، وغرفة نوم، وحتى مكتبة، مبالغاً فيها؟ غير أنها قالت لنفسها: «لا يمكنك التوقف الآن بعد أن اجتزت كل هذه المسافة يا مايزي كليفتون». ثم طرقت على باب المقطورة بجرأة.

فقال صوت لطيف: «تفضلي يا سيدة كليفتون».

فتحت مايزي الباب لتجد رجلاً عجوزاً جالساً على كرسي مريح، وهناك كتب وأغراض أخرى مبعثرة حوله. تفاجأت حين رأت شدة نظافة المقطورة، وأدركت - بالرغم من ادعاءات ستان - أنها هي التي تعيش في الدرجة الثالثة وليس العجوز جاك. إذ كان ستان قد ثبت في عقلها خرافة ما لبثت أن تجاهلتها عندما نظرت إلى الأمر عبر عيني ولد غير متحيز. نهض العجوز جاك من مكانه فوراً، وأشار إليها للجلوس على المقعد المقابل، ثم قال: «لا شك في أنك جئت لسؤالي عن الصغير هاري». فأجابت: «نعم يا سيد تار».

عندها قال: «دعيني أضمن السبب. لا يمكنك حسم أمرك في ما يتعلق بما إذا كان يجدر بك السماح له بالذهاب إلى سانت بيد أو إبقاؤه في مدرسة ميريوود الابتدائية».

فسألته مايزي: «وكيف عرفت ذلك؟».

أجاب العجوز جاك: «لأنني كنت أفكر في المشكلة نفسها طوال الشهر الماضي».

«ما الذي يجدر بي فعله برأيك؟».

«أعتقد أنه بالرغم من الصعوبات العديدة التي سيواجهها حتماً في سانت بيد، إلا أنه قد يُضي حياته نادماً إذا لم يستفد من هذه الفرصة».

«ربما لن يفوز بالمنحة الدراسية، وعندها لن نضطر إلى اتخاذ قرار في هذا الأمر».

فقال العجوز جاك: «لقد خرج القرار من أيدينا لحظة سمع السيد فروبيشر الصغير هاري وهو ينشد. لكن، لديّ إحساس بأن هذا ليس السبب الوحيد الذي دفعك لزيارتي».

بدأت مايزي تفهم سبب الإعجاب الكبير الذي يكنّه هاري لهذا الرجل، وأجابت: «نعم، أنت محق يا سيد تار. أحتاج إلى نصيحتك في مسألة أخرى».

«يناديني ابنك جاك، إلا حين يتصادم معي، إذ يناديني حينها العجوز جاك».

ابتسمت مايزي وقالت شارحة: «أشعر بالقلق لأنني لا أجنبي ما يكفي من المال، وإن حصل هاري على منحة دراسية، فلن أستطيع أن أوّمن له كل الكماليات الصغيرة التي يعتبرها بقية الأولاد في مدرسة مثل سانت بيد أموراً بدهية. لكن لحسن الحظ، تلقيت عرض عمل لوظيفة أخرى؛ مما يعني جني المزيد من المال».

«وهل أنت قلقة بشأن ردة فعل الأنسة تيلي عندما تخبرينها عن قرارك بالمغادرة؟».

«هل تعرف الأنسة تيلي؟».

«لا. لكن هاري تحدث عنها مرات عدة، ويتضح لي جلياً أن شخصيتها تشبه شخصية الأنسة مانداي، ودعيني أؤكد لك أن هذا الإصدار محدود. لا داعي للقلق».

فقالت مايزي: «لم أفهم».

أجاب العجوز جاك: «دعيني أشرح لك. لقد خصت الأنسة مانداي الكثير من وقتها وخبرتها للتأكد من حصول هاري على منحة في سانت بيد. لكن الأهم من ذلك هو أنها تريد منه أن يثبت أنه جدير فعلاً بتلك المنحة. وأراهن على أنها ناقشت كل الاحتمالات الممكنة مع صديقتها المقربة التي صودف أنها الأنسة تيلي. لذا، عندما تخبرينها عن الوظيفة الجديدة، فقد يتضح لك أن الأمر لن يفاجئها كثيراً».

قالت مايزي: «شكراً لك يا جاك. إن هاري محظوظ جداً لأنك صديقه. أنت الأب الذي لم يعرفه قط».

فأجاب العجوز جاك: «هذا أجمل إطراء سمعته منذ أعوام عديدة. أنا آسف لأنه خسر والده في مثل تلك الظروف المأساوية».

«هل تعرف كيف مات زوجي؟».

أجاب العجوز جاك: «نعم، أعرف». ثم أدرك تماماً أنه ما كان يجدر به التطرق إلى الموضوع، فأضاف بسرعة: «ولكن فقط لأن هاري أخبرني بذلك».

سألته مايزي بقلق: «ماذا أخبرك؟».

«أن والده قد قتل في الحرب».

فقالت مايزي: «لكنك تعرف أن هذا ليس صحيحاً».

أجاب العجوز جاك: «نعم، أعرف. وأعتقد أن هاري أيضاً يعرف أن والده لم يمت في الحرب».

«إذاً، لماذا لا يقول هذا؟».

«إنه يظن ربما أن هناك شيئاً ما لا تريدون إخباره إياه».

اعترفت مايزي: «لكنني شخصياً لا أعرف الحقيقة».

فلم يعلق العجوز جاك.

عادت مايزي إلى المنزل ببطء وقد حصلت على إجابة عن سؤال واحد، فيما بقي السؤال الآخر من دون إجابة. ورغم ذلك، لم تشك قط في أنه يمكن إضافة العجوز جاك إلى لائحة الأشخاص الذين يعرفون الحقيقة بشأن ما حصل مع زوجها.

وتبيّن لاحقاً أن العجوز جاك كان محقاً بشأن الأنسة ميلي؛ فعندما أخبرتها مايزي عن عرض السيد فرامبتون كانت متفهمة للغاية، ودعمتها في قرارها، وقالت لها: «سنشتاق إليك جميعاً، ولا شك في أن فندق رويال محظوظ لعملك فيه».

فقالت مايزي: «كيف أستطيع شكرك على كل ما فعلته لي على مرّ الأعوام؟».

أجابت الأنسة تيلي: «يفترض بهاري أن يشكرك، وأعتقد أنها مسألة وقت فقط قبل أن يدرك ذلك».

بدأت مايزي وظيفتها الجديدة بعد شهر واحد، ولم تحتج إلى وقت طويل لتكتشف سبب عدم امتلاء أكثر من ثلث الطاولات في بلم كورت.

فالنادلات يعتبرن عملهن مجرد وظيفة؛ على عكس الأنسة تيلي التي تعتبره رسالة. وهن لا يزعجن أنفسهن أبداً في تذكر أسماء الزبائن أو طاولاتهم المفضلة. والأسوأ من ذلك أن القهوة تكون في أغلب الأوقات باردة عند تقديمها، وتترك الحلوى لتصبح عديمة النكهة إلى أن يشتريها شخص ما. لم تتفاجأ مايزي من عدم حصولهن على أي بقشيش؛ فهن لا يستحقنه.

وبعد شهر واحد، بدأت تدرك كم علمتها الأنسة تيلي.

ثم بعد مرور ثلاثة أشهر، استبدلت مايزي خمساً من النادلات السبع، من دون أن توظف أي واحدة من مقهى تيلي. كما طلبت أيضاً بذلات جديدة لكل موظفاتهن، بالإضافة إلى أطباق وأكواب وفناجين جديدة، والأهم من ذلك أنها بدّلت مزود القهوة وصانع الحلوى اللذين يتعامل معهما المقهى. وكان هذا شيئاً ترغب في سرقة من الأنسة تيلي.

قال السيد فرامبتون عندما رأى كدسة من الفواتير الجديدة على مكتبه: «أنت تكلفيني الكثير من المال يا مايزي. حاولي ألا تنسي ما قلته بشأن عائدات الاستثمار».

«أعطني ستة أشهر إضافية يا سيد فرامبتون وسوف ترى النتائج».

وعلى الرغم من عمل مايزي ليلاً ونهاراً، فقد وجدت دائماً الوقت الكافي لإيصال هاري إلى المدرسة في الصباح، واصطحابه منها بعد الظهر. ولكنها ذات يوم أخبرت السيد فرامبتون بأنها ستضطر للتأخر عن العمل. وعندما أخبرته بالسبب، منحها إجازة طوال اليوم.

مباشرة قبل مغادرتها المنزل، تحققت مايزي من مظهرها في المرآة. ارتدت ملابس يوم الأحد رغم أنها لم تكن ذاهبة إلى دار العبادة، وابتسمت لابنها الذي بدا وسيماً جداً في بذلته المدرسية الجديدة باللونين الأحمر والأسود. ورغم ذلك، شعرت ببعض القلق فيما انتظرت أمام محطة الترامواي.

قالت لمساعد السائق عندما انطلق الترامواي رقم 11: «نريد بطاقتين إلى بارك ستريت». وعجزت عن إخفاء إحساسها بالفخر عندما لاحظت أنه ينظر إلى هاري عن كثب؛ مما أقنعها بأنها اتخذت القرار الصحيح.

عندما وصلا إلى محطتهما، رفض هاري السماح لأمه بأن تحمل حقيبته. أمسكت مايزي بيده فيما مشيا ببطء صعوداً إلى المدرسة، من دون أن تعرف من منهما أكثر قلقاً. لم تستطع إبعاد عينيها عن سيارات الأجرة الجميلة والسيارات الخاصة التي كانت توصل الأولاد الآخرين في أول يوم دراسي لهم. وأملت فقط أن يتمكن هاري من إيجاد صديق واحد على الأقل بينهم. في النهاية، بعض المربيات ارتدين ملابس أفضل من ملابسها.

بدأ هاري يبطن خطاه عندما اقتربا من بوابة المدرسة، وأحست مايزي بانزعاجه - أم أنه فقط الخوف من المجهول؟ -

فقالت له: «سأتركك الآن». وانحنت لتقبيله، ثم تابعت: «حظاً موفقاً يا هاري. اجعلنا جميعاً فخورين بك».

«إلى اللقاء ماما».

وفيما راقبته وهو يسير بعيداً، لاحظت مايزي أن شخصاً آخر ظهر ليهم بهاري كليفتون.



لن تنسى مايزي أبداً أول مرة اضطرت فيها إلى رفض استقبال زبون.  
«أنا واثقة من أن إحدى الطاولات ستصبح متوافرة خلال دقائق  
معدودة يا سيدي».

وشعرت بالفخر؛ فبعد أن يدفع الزبون حسابه، تستطيع موظفاتنا  
تنظيف الطاولة واستبدال الغطاء استعداداً لاستقبال زبون جديد خلال  
خمس دقائق.

أصبح بام كورت شعبياً جداً، لدرجة أن مايزي اضطرت دوماً إلى  
حجز مجموعة من الطاولات في حال جاء أحد زبائنها المنتظمين بصورة  
غير متوقعة.

وشعرت بالقليل من الإحراج حين بدأ بعض زبائنها القدامى في  
مقهى تيلي بارتياح بام كورت، ولاسيما العزيز السيد كراديك العجوز  
الذي تذكر هاري من أيام توزيع الجرائد. كما شعرت بالإطراء أكثر عندما  
بدأت الأنسة تيلي نفسها تأتي لشرب قهوتها الصباحية.

قالت: «أتحقق من المنافسة فقط. بالمناسبة يا مايزي، القهوة  
مذهلة».

فأجابت مايزي: «يفترض بها أن تكون كذلك. إنها قهوتك».  
ومرّ إيدي أتكينز أيضاً بين الحين والآخر. وإذا تم الأخذ بعين الاعتبار  
حجم سيجاره، من دون ذكر محيط خصره، فلا شك في أن السماء هي

الحدود. ورغم تصرفه الودود، إلا أنه لم يطلب من مايزي الخروج معه مطلقاً، ولكنه ذكّرهما باستمرار أن بابه مفتوح لها دوماً.

لا يعني ذلك أن مايزي لم يكن لديها عدد من المعجبين الذين كانت توافق بين الحين والآخر على الخروج معهم في المساء؛ لتناول العشاء ربما في مطعم راقٍ، وأحياناً لزيارة المدينة القديمة، وأحياناً أخرى ترافقهم إلى السينما؛ ولاسيما في حال عرض فيلم لغريتا غاربو. لكن عند انفصالها عنهم في نهاية السهرة، لم تكن تسمح لأي منهم بأكثر من قبلة على الخد قبل أن تعود إلى المنزل. استمر ذلك إلى أن التقت باتريك كاسي الذي أثبت أن سحر الإيرلنديين ليس مجرد شعار.

عندما دخل باتريك «بالم كورت» للمرة الأولى، لم تكن الوحيدة التي استدارت للنظر إليه عن كثب. إذ تعدى طوله ست أقدام، وكان ذا شعر داكن ومتموج، وبنية بطل رياضي. يفترض أن يكون ذلك كافياً بالنسبة لمعظم النساء، ولكن ابتسامته هي التي أسرتها؛ تماماً مثلما أسرت العديداً غيرها بحسب اعتقادها.

أخبرها باتريك أنه يعمل في قطاع المال، ولكن إيدي قال لها ذات مرة إنه يعمل في مجال الفنون، وإن عمله يحضره إلى بريستول مرة أو مرتين في الشهر. وعندما كانت مايزي تسمح له باصطحابها إلى العشاء أو المسرح أو السينما، كانت تكسر قاعدتها الذهبية بين الحين والآخر، حيث لا تستقل آخر ترامواي عائد إلى ستيل هاوس لاين.

لن تتفاجأ إذا اكتشفت أن باتريك لديه زوجة ونصف دزينة من الأولاد في منزله في كورك؛ رغم أنه أقسم أنه عازب.

عندما يأتي السيد هولكومب إلى بام كورت، كانت مايزي ترشده إلى طاولة في الزاوية البعيدة من الغرفة، محجوبة جزئياً بعمود كبير، لذا يتجنبها زبائنها المنتظمون. لكن الخصوصية التي تتميز بها هذه الطاولة أتاحت لها الفرصة لإبقائه على اطلاع دائم بآخر أخبار هاري.

اليوم، بدا مهتماً بالمستقبل أكثر من الماضي، وسألها: «هل قررت ما الذي سيفعله هاري عندما يغادر مدرسة سانت بيد؟».

فاعترفت مايزي: «لم أفكر في الأمر كثيراً. ففي النهاية، لا يزال هناك بعض الوقت».

قال السيد هولكومب: «الوقت قصير جداً، ولا أصدق أنك تريدين له العودة إلى مدرسة ميريوود الابتدائية».

فأجابت مايزي بصرامة: «لا أرغب في ذلك، لكن ما الخيار المتاح؟».

«يقول هاري إنه يودّ الذهاب إلى مدرسة القواعد في بريستول، لكن إذا لم يحصل على منحة، فهو يخشى ألا تتمكني من تسديد الأقساط».

فطمأنته مايزي: «لن تكون هذه مشكلة. فمع راتبي الحالي، بالإضافة إلى البقشيش، لا داعي لأن يعرف أحد بأن أمه نادلة».

قال السيد هولكومب وهو ينظر في أرجاء الغرفة المزدهمة: «نادلة مميزة. أنا متفاجئ لأنك لم تفتحي مقهاك الخاص بعد».

فضحكت مايزي، ولم تفكر في الأمر مجدداً إلا عندما تلقت زيارة غير متوقعة من الأنسة تيلي.

تحضر مايزي الاحتفال الديني الصباحي في دار عبادة سانت ماري  
ريدكليف كل أحد كي تسمع إنشاد ابنها. وكانت الأنسة مانداي قد  
حذرتها بأنه لن يمرّ وقت طويل قبل أن يضعف صوت هاري، وعليها أن  
تتوقع ألا ينشد ابنها بشكل فردي بعد أسابيع قليلة.

حاولت مايزي التركيز في صباح ذلك الأحد، ولكنها شعرت بأن  
أفكارها تشرّد. ألقت نظرة في أرجاء دار العبادة، فرأت السيد والسيدة  
بارينغتون جالسين مع ابنيهما جيل وفتاتين صغيرتين افترضت أنهما  
ابنتاهما، ولكنها لم تكن تعرف اسميهما. تفاجأت مايزي عندما أخبرها  
هاري أن جيل بارينغتون صديقه المقرب. وحسب قوله، لا شيء سوى  
صدفة الحروف الأبجدية ما جعلهما معاً في المقام الأول. أملت ألا تشعر  
بالحاجة أبداً لإخباره أن جيل ربما يكون أكثر من مجرد صديق جيد.

تمنّت مايزي غالباً لو أن بإمكانها مساعدة هاري أكثر في جهوده  
للفوز بالمنحة الدراسية إلى مدرسة القواعد في بريستول. ورغم أن الأنسة  
تيلي علّمتها كيفية قراءة قائمة الطعام، والجمع والطرح، وحتى كتابة  
بعض الكلمات البسيطة، إلا أنها كانت تشعر بالذعر كلما فكرت في ما  
يمرّ به هاري.

غير أن الأنسة مانداي عززت دوماً ثقة مايزي بنفسها من خلال  
تذكيرها باستمرار أن هاري ما كان ليصل إلى ما هو عليه لو لم تقبل ببذل  
الكثير من التضحيات من أجله، وأضافت: «على أية حال، أنت ذكية  
بقدر هاري، لكنك ببساطة لم تحسلي على الفرص نفسها».

أطلعها السيد هولكومب باستمرار على ما وصفه «بالتوقيت»، ومع اقتراب موعد الامتحان، باتت مايزي متوترة بقدر المرشح نفسه. وأدركت صدق إحدى ملاحظات العجوز جاك؛ وهي أن المشرف يعاني أكثر من المشارك نفسه.

باتت قاعة بالم كورت تزدحم أكثر كل يوم، لكن هذا لم يمنع مايزي من إجراء المزيد من التغييرات في فترة وصفتها الصحافة بحقبة الثلاثينيات التافهة.

ففي الصباح، بدأت تقدم لزبائنها مجموعة متنوعة من البسكويت تناسب القهوة. وخلال بعد الظهر، باتت قائمة الشاي أكثر شعبية، ولاسيما بعد أن أخبرها هاري أن السيدة بارينغتون خيّرت بين الشاي الهندي أو الصيني. لكن السيد فرامبتون رفض اقتراحها بظهور شطائر السلمون على قائمة الطعام.

كل أحد، كانت مايزي تركع على وسادتها الصغيرة، وتتضرع لكي يحصل هاري على منحة دراسية.

وقبل أسبوع واحد من موعد الامتحانات، لم يعد بوسع مايزي النوم، وكانت تظل مستلقية وهي تتساءل عن مصير هاري. طلب منها العديد من الزبائن نقل تمنياتهم بالتوفيق إلى هاري؛ بعضهم سمعوه وهو ينشد في دار العبادة، وبعضهم الآخر عرفوه لأنه كان يسلمهم الجرائد الصباحية، أو ببساطة لأن أولادهم عاشوا أو سيعيشون في وقت ما في المستقبل التجربة نفسها. بدا لمايزي أن نصف بريستول تخضع للامتحان.

صباح يوم الامتحانات، أجلست مايزي العديد من الزبائن المنتظمين إلى طاولات خاطئة، وقدّمت للسيد كراديك القهوة بدلاً من شراب

الشوكولاته الساخن الاعتيادي. حتى إنها أعطت زبونين فاتورة شخص آخر. لكنّ أحداً لم يتذمر.

أخبرها هاري أنه يعتقد أنه أبلى حسناً، ولكنه ليس واثقاً من أنه قد أبدع. تحدّث عن شخص يُدعى توماس هاردي، لكنّ مايزي لم تعرف ما إذا كان صديقاً له أو أحد الأساتذة.

عندما رنّت الساعة الطويلة في قاعة بام كورت معلنة أنها العاشرة من صباح يوم الخميس، عرفت مايزي أن المدير يعلّق الآن نتائج الامتحانات على لوحة الإعلانات في المدرسة. لكنّ عشرين دقيقة أخرى مرّت قبل أن يدخل السيد هولكومب القاعة ويتوجه مباشرة إلى طاولته الاعتيادية خلف العمود. لم تعرف مايزي نتيجة هاري من التعبير المرتسم على وجه الأستاذ في المدرسة، فاجتازت الغرفة بسرعة للانضمام إليه. وللمرة الأولى منذ أربعة أعوام، جلست على الكرسي مقابل زبون؛ رغم أن كلمة «انهارت» قد تكون وصفاً أكثر دقة.

قال السيد هولكومب: «نجح هاري في الامتحان بامتياز. لكنني أخشى أنه فوّت المنحة الدراسية».

فسألته مايزي: «ما الذي يعنيه ذلك؟». فيما حاولت منع يديها من الارتجاف.

«نال أول اثني عشر مرشحاً معدلات تفوق 80 في المئة، وحصلوا جميعاً على منح دراسية. في الواقع، حلّ ديكنز- صديق هاري- في المرتبة الأولى بمعدل 92 في المئة. أما هاري فحصل على معدل 78 في المئة، وحلّ

في المرتبة السابعة عشرة من بين ثلاثئة مرشح. أخبرني السيد فروبيشر أن امتحان اللغة الإنكليزية قد خذله».

«كان يجدر به قراءة هاردي بدلاً من ديكنز». قالت ذلك المرأة التي لم تقرأ كتاباً يوماً.

قال السيد هولكومب: «سيحصل هاري على مكان في مدرسة بريستول للقواعد، ولكنه لن يتلقى المنحة الدراسية السنوية البالغة مئة باوند».

عندها، نهضت مايزي من مكانها قائلة: «إذاً، عليّ العمل ثلاثة دوامات بدلاً من اثنين، أليس كذلك؟ لكنه لن يعود أبداً إلى مدرسة ميريوود الابتدائية يا سيد هولكومب. أؤكد لك ذلك».

خلال الأيام القليلة التالية، تفاجأت مايزي بعدد الزبائن المنتظمين الذين قدموا لها تهانيهم بنتائج هاري المبهرة. واكتشفت أيضاً أن واحداً أو اثنين من زبائنها لديهما أولاد رسبوا في الامتحان بسبب نقطة مئوية واحدة في إحدى الحالات، وتوجب عليهم انتقاء الخيار الثاني. وقد جعل ذلك مايزي أكثر تصميماً على ضرورة عدم السماح لأي شيء بالوقوف في طريق هاري، ومنعه من دخول مدرسة القواعد في بريستول في أول يوم من الفصل الجديد.

وخلال الأسبوع التالي، لاحظت أمراً غريباً؛ وهو تضاعف مبلغ البقشيش الذي تحصل عليه عادة. فقد أعطها العجوز السيد كراديك خمسة باوندات وقال لها: «هذا المبلغ لهاري؛ على أمل أن يكون جديراً بأمه».

وعندما وُضع المغلف الأبيض الرقيق في صندوق البريد في ستيل هاوس لاين- وكان هذا حدثاً بحد ذاته- فتح هاري الرسالة وقرأها لأمه، وأخبرها أنه تم تخصيص مكان له في الفئة الأولى خلال الفصل الجديد الذي سيبدأ في 15 سبتمبر. وعندما وصل إلى الفقرة الأخيرة التي يُطلب فيها من السيدة كليفتون الكتابة والتأكيد على ما إذا كان المرشح يقبل العرض أو يرفضه، نظر إليها بتوتر.

غير أنها قالت له: «عليك أن تكتب فوراً أنك قبلت العرض».

عندها، طوّقها هاري بذراعيه وهمس لها: «أتمنى فقط لو أن أبي على قيد الحياة».

ففكرت مايزي في سرها: ربما كان كذلك.

بعد أيام قليلة، وصلت رسالة أخرى إلى المنزل. وتضمّنت هذه الرسالة لائحة طويلة ومفصلة بالأغراض التي يجب شراؤها قبل أول يوم دراسي. لاحظت مايزي أن هاري بحاجة إلى اثنين من كل شيء، أو حتى ثلاثة، أو أكثر أحياناً، بالإضافة إلى ستة جوارب رمادية تصل إلى الركبة، مع أربطة مثبتة للجوارب.

قالت: «المؤسف هو أنك لا تستطيع استعارة زوج من حمالات جواربي». فتورّد هاري خجلاً.

ثمّة رسالة ثالثة وصلت، وطلب فيها من التلاميذ الجدد اختيار ثلاثة أنشطة غير مدرسية من لائحة تتراوح فيها الخيارات بين نادي السيارات ومنظمة القوة العسكرية المشتركة، وبعضها يستلزم كلفة إضافية تبلغ خمسة باوندات لكل نشاط. اختار هاري جوقة الإنشاد التي لا تستلزم



أية كلفة إضافية، بالإضافة إلى نادي المسرح، وجمعية تقدير الفنون. وتضمن النشاط الأخير تحذيراً بأن أي زيارات إلى معارض خارج بريستول ستطلب دفع كلفة إضافية.

تمنت مايزي لو كان هناك المزيد من الأشخاص مثل السيد كراديك، ولكنها لم تسمح لهاري قط بأن يشعر بالقلق. ورغم تذكير السيد هولكومب لها بأن ابنها سيكون في مدرسة القواعد في بريستول خلال السنوات الخمس المقبلة، إلا أنها أخبرته أنه أول فرد في العائلة لا يغادر المدرسة قبل عمر الرابعة عشرة.

حضرت مايزي نفسها لزيارة أخرى إلى متجر «تي سي مارش، الخياطون المميزون».

وعندما أصبح هاري مستعداً تماماً لأول يوم مدرسي، بدأت مايزي تذهب إلى العمل وتعود منه سيراً على القدمين لتوفر خمسة بنسات أسبوعياً أجرة الترامواي، أو مثلما قالت لأمها: «باوند كامل في السنة، وهو يكفي لشراء بذلة جديدة لهاري».

تعلمت مايزي على مرّ الأعوام أن الأهل قد يكونون حاجة ضرورية لأولادهم، ولكنهم في أغلب الأحيان مصدر إحراج لهم أيضاً.

ففي أول يوم خطابي في سانت بيد، كانت مايزي الأم الوحيدة التي لم تعتمر قبعة. وبعد ذلك، اشترت واحدة من متجر يبيع البضائع المستعملة. ومهما أصبحت القبعة غير متناسبة مع الموضة، كان يفترض بها أن تخدمها حتى يغادر هاري مدرسة القواعد في بريستول.

أصرّ هاري على مرافقة أمه له إلى المدرسة في أول يوم دراسي، لكن مايزي قررت أنه أصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليعود إلى المنزل بمفرده مساءً بواسطة الترامواي. لم يكن همها الأساسي كيفية ذهاب هاري إلى المدرسة وعودته منها بقدر ما كانت تفكر بما ستفعله به في المساء. فبعد أن أصبح الآن تلميذاً نهائياً، لم يعد ينام في المدرسة خلال الفصل الدراسي. وهي لم تشك قطّ في أنه لو عاد لمشاركة الخال ستان الغرفة فستكون النهاية محزنة حتماً. حاولت إبعاد المشكلة عن عقلها فيما استعدت لأول يوم مدرسي لهاري في مدرسته الجديدة.

اعتمرت القبعة، وارتدت معطفها الوحيد الذي نظفته حديثاً، وانتعلت حذاء أسود مرتباً مع الزوج الوحيد من الجوارب الحريرية الذي تملكه، وشعرت أنها مستعدة لمواجهة الأهالي الآخرين. وعندما نزلت السلام، كان هاري ينتظرها أمام الباب. بدا أنيقاً جداً ببذلته الجديدة ذات اللونين الأحمر الداكن والأسود، لدرجة أنها رغبت في استعراضه في كل ستيل هاوس لاين كي يعرف الجيران أن شخصاً من هذا الشارع سيذهب إلى مدرسة القواعد في بريستول.

ومثلما فعلا في أول يوم دراسي له في سانت بيد، ركبا الترامواي. لكن هاري سأل مايزي إذا كان بوسعهما النزول قبل محطة واحدة من الوصول إلى المدرسة. لم يعد يسمح لها بالإمساك بيده؛ رغم أنها سوّت له قبعته وربطة عنقه أكثر من مرة.

وعندما رأت مايزي أول مجموعة من الشبان المحتشدين قرب بوابة المدرسة قالت: «من الأفضل أن أغادر وإلا فسأتاخر على العمل». الأمر الذي حيّر هاري؛ لأنه عرف أن السيد فرامبتون قد أعطاه اليوم بكامله إجازة.

عانقت ابنها بسرعة، وإنما لاحقته عينها فيما كان يصعد الهضبة. أول شخص ألقى عليه التحية كان جيل بارينغتون. تفاجأت مايزي لدى رؤيتها إياه؛ لأن هاري أخبرها أنه على الأرجح سيذهب إلى إيتون. تصافحا مثل رجلين ناضجين عقدا للتو صفقة مهمة.

واستطاعت مايزي رؤية السيد والسيدة بارينغتون واقفين خلف الحشود. هل يحرص على تجنبها؟ بعد دقائق قليلة، انضم السيد والسيدة ديكنز إليهما برفقة التلميذ المتفوق. المزيد من المصافحات؛ باليد اليسرى في حالة السيد ديكنز.

وفيما بدأ الأهل يتعدون عن أولادهم، راقبت مايزي السيد بارينغتون وهو يصافح ابنه أولاً، ومن ثم ديكنز، ولكنه استدار بعيداً عندما مدّ هاري يده. بدت السيدة بارينغتون محرجة، وتساءلت مايزي عما إذا كانت ستسأل هوغو لاحقاً عن سبب تجاهله صديق جيل المقرب. غير أنها كانت واثقة من أنها إذا فعلت ذلك، فلن يخبرها بالسبب الحقيقي. وخشيت مايزي ألا يمضي وقت طويل قبل أن يسأل هاري عن سبب ازدراء السيد بارينغتون الدائم له. ولكن، طالما أن هناك ثلاثة أشخاص فقط يعرفون الحقيقة، فهي لا تعتقد أن هناك سبباً ليكتشفها هاري.

أصبحت الأنسة تيلي زبونة منتظمة في بام كورت، حيث صارت هناك طاولة مخصصة لها.

وكانت تصل عادة قرابة الساعة الرابعة، وتطلب كوباً من الشاي (إيرل غراي) وشطيرة بالخيار. وكانت ترفض دوماً تناول أي شيء من المجموعة الكبيرة من الحلويات القشدية، أو التارت بالمرابي، أو إكلير الشوكولاته، ولكنها تسمح لنفسها بين الحين والآخر بتناول كعكة الزبدة المسطحة. عندما وصلت ذات مرة قرابة الساعة الخامسة، متأخرة على غير عاداتها، شعرت مايزي بالارتياح لأن طاولتها كانت شاغرة.

«أتساءل إذا كان بوسعي الجلوس في مكان أكثر حميمية اليوم يا مايزي. فأنا أريد التحدث معك بهدوء».

فأجابت مايزي: «طبعاً يا آنسة تيلي». ورافقتها إلى الطاولة المفضلة للسيد هولكومب خلف العمود الكبير في الطرف البعيد من القاعة، ثم قالت لها: «لديّ استراحة بعد عشر دقائق، وسأنضم إليك حينها».

وعندما وصلت مساعدتها سوزان لاستلام العمل، شرحت لها مايزي أنها ستحدث مع الأنسة تيلي لبضع دقائق، ولكنها لا تتوقع أن تتم خدمتها.

سألها سوزان: «هل البطة العجوز مزعجة من شيء ما؟».

فأجبتها مايزي مبتسمة ابتسامة عريضة: «البطة العجوز هي التي علّمتني كل ما أعرفه».

وعندما رنّت الساعة الخامسة، اجتازت مايزي الغرفة وجلست على المقعد قبالة الأنسة تيلي. كانت نادراً ما تجلس مع زبون. وفي المناسبات القليلة التي فعلت فيها ذلك لم تشعر بالارتياح قط.

«هل تريدان بعض الشاي يا مايزي؟».

«لا، شكراً آنسة تيلي».

«أفهمك. سأحاول ألا أؤخرك كثيراً، لكن قبل أن أطلعك على هديتي الحقيقي وسبب رغبتني في رؤيتك، هل أستطيع سؤالك عن أحوال هاري؟».

فأجابت مايزي: «أتمنى أن يتوقف عن النمو. أشعر وكأنني أطيل له سرواله كل بضعة أسابيع. ووفق هذا المعدل، سيصبح سرواله الطويل سروالاً قصيراً قبل نهاية العام».

فضحكت الأنسة تيلي، وسألته: «وماذا عن دراسته؟».

«تقول نتائج الامتحان الأخير»- وصمتت مايزي محاولة تذكر الكلمات بالضبط- «إنها بداية جيدة جداً، وواعدة جداً. فقد أحرز نتيجة ممتازة في اللغة الإنكليزية».

عندها، قالت الأنسة تيلي مندهشة: «هذا غريب! فحسبما أذكر، هذه هي المادة التي خذته في امتحان الدخول».

أومأت مايزي برأسها، وحاولت ألا تفكر في النتائج المالية المترتبة عن عدم قراءة هاري ما يكفي من أعمال توماس هاردي.

قالت الأنسة تيلي: «لا بد أنك فخورة به جداً. عندما ذهبت إلى سانت ماري يوم الأحد، فرحتُ كثيراً لرؤيته مجدداً في الجوقة».

«نعم، لكن عليه الآن الاكتفاء بالتواجد في الصف الخلفي مع أصحاب الأصوات الجهيرة، فقد وُلّت أيامه كمنشد منفرد. ولكنه انضم إلى نادي المسرح، ونظراً لعدم وجود فتيات في مدرسة القواعد في بريستول، سوف يؤدي في مسرحية المدرسة دور أورشولا».

قالت الأنسة تيلي: «لا أريد أن أضيّع المزيد من وقتك، ولذلك سأشرح لك فوراً السبب الذي دفعني إلى رؤيتك». ثم ارتشفت القليل من الشاي، كما لو أنها أرادت تمالك أعصابها قبل أن تتكلم مجدداً، وبعد ذلك قالت:

«سأبلغ عامي الستين في الشهر المقبل يا عزيزتي، وأنا أفكر في التقاعد منذ بعض الوقت».

لم يخطر في بال مايزي قط أن الأنسة تيلي لن تستمر في العمل إلى الأبد.

«أنا والآنسة مانداي نفكر في الانتقال إلى كورنوال؛ فقد اخترنا بيتاً صغيراً هناك قرب البحر».

أرادت مايزي أن تقول لها: لا يجدر بكما مغادرة بريستول، فأنا أحبكما كليكما، وإذا ذهبتما، فممن سأطلب النصيحة؟

غير أن الأنسة تيلي تابعت كلامها قائلة: «برزت المسألة في الشهر الماضي؛ عندما جاء رجل أعمال محلي وقدم لي عرضاً يتعلق بالمقهى؛ إذ يبدو أنه يريد إضافته إلى إمبراطوريته النامية. ورغم أنني لا أحبذ أن يصبح مقهى تيلي جزءاً من سلسلة مقاهٍ، إلا أن عرضه كان مغرياً جداً ويصعب رفضه». أرادت مايزي طرح سؤال واحد، ولكنها لم تقاطع الأنسة تيلي وهي تتكلم. «ومنذ ذلك الحين، فكرت كثيراً في المسألة،

وقررتُ أنك إذا استطعتِ أن تدفعي لي المبلغ نفسه الذي عرضه عليّ،  
فأنا أفضل أن تستلمي أنت المقهى بدلاً من أي شخص غريب».

«وكم عرض عليك؟».

«خمسمئة باوند».

عندها تنهدت مايزي، وأخيراً قالت: «يفرحني أنك فكرت بي، لكن  
الحقيقة هي أنني لا أملك خمسمئة فلس باسمي، فكيف الحال  
بخمسمئة باوند».

فقالت الآنسة تيلي: «كنت أخشى قولك هذا. لكن، إذا استطعتِ  
إيجاد كفيل فأنا واثقة من أنه سيعتبر العمل استثماراً جيداً. ففي  
النهاية، حققت ربحاً قدره مئة واثنان عشر باونداً وعشرة شلنات في العام  
الماضي، ما عدا راتبي. كنت سأعطيك المقهى بأقل من خمسمئة باوند،  
ولكننا وجدنا منزلاً صغيراً وجميلاً في سانت ماوس، ولا يقبل المالكون  
بأقل من ثلاثمئة باوند. نستطيع أنا والآنسة مانداي العيش من مدخراتنا  
لمدة سنة أو سنتين، ولكنّ أياً منا لا تملك معاشاً تقاعدياً للاعتماد عليه.  
وبالتالي، إن مبلغ مئتي باوند سيحدث كل الفرق».

كانت مايزي على وشك التعبير للآنسة تيلي عن أسفها لأنها حتماً  
خارج المعادلة عندما دخل باتريك كاسي الغرفة وجلس إلى طاولته  
الاعتيادية.

في تلك الليلة، أخبرت مايزي باتريك عن عرض الآنسة تيلي حين كانا  
بمفردهما، فجلس على السرير، وأشعل سيجارة وسحب نفساً عميقاً منها.

«يفترض ألا يكون تأمين هذا المبلغ من رأس المال صعباً جداً. ففي النهاية، ليس الأمر شبيهاً بمحاولة جامعة برونيل جمع المال لتشييد جسر كليفتون المعلق».

«لا، لكن السيدة كليفتون هذه التي تحاول جمع خمسمئة باوند لا تملك قرشين لفركهما ببعضهما».

«صحيح. لكنك تستطيعين تأمين مداخل مالية بشكل مطرد، من دون أن ننسى السمعة الطيبة للمقهى. وللتنبيه فقط، أريد الاطلاع على دفاتر الحسابات العائدة للأعوام الخمسة الماضية، والتأكد من أنه تم إخبارك بالحقيقة كاملة».

«لا تحاول الأنسة تيلي خداع أي كان أبداً».

فقال باتريك متجاهلاً اعتراضاتها: «عليك أيضاً التحقق من عدم وجود مشروع إيجار في المستقبل القريب، والتأكد جيداً من أن محاسبها لن يفرض عليك شروطاً جزائية لحظة بدئك بجني الأرباح».

قالت مايزي مؤكدة: «لن تفعل الأنسة تيلي شيئاً كهذا».

«أنت تثقين بالآخرين كثيراً يا مايزي. عليك التذكر جيداً أن المقهى لن يكون بين يدي الأنسة تيلي، وإنما مع محامٍ يشعر أن عليه جني أتعابه، ومحاسب سيبحث عن أي طريقة للحصول على المال في حال لم تمنع من تحقيق ذلك».

«يبدو جلياً أنك لم تقابل الأنسة تيلي إطلاقاً».

«تعجبني ثقتك بالسيدة العجوز يا مايزي، لكنّ وظيفتي تقضي بحماية أشخاص مثلك، فضلاً عن أن الربح البالغ مئة واثنى عشر باونداً



وعشرة شلنات سنوياً لن يكفيك لتعتاشي منه؛ لاسيما وأنه عليك تسديد دفعات منتظمة للمستثمر».

«أكدت لي الأنسة تيلي أن الربح لم يشمل راتبها».

«حسناً، قد يكون هذا صحيحاً، لكنك لا تعرفين ما هو راتبها. أنت بحاجة إلى مئتين وخمسين باونداً إضافياً كل سنة على الأقل إذا أردت الصمود، وإلا فلن يكون لديك أي مال، وسيضطر هاري إلى مغادرة مدرسة القواعد».

«أريدك أن تقابل الأنسة تيلي».

50 «وماذا عن البقشيش؟ فأنت في فندق رويال تحصلين على نسبة 50 بالمئة من كل البقشيش، أي ما يعادل مئتي باوند سنوياً على الأقل لا تخضع للضرائب حالياً؛ رغم أنني واثق من أن الحكومة المستقبلية ستبدل هذه السياسة».

«يجدر بي ربما إخبار الأنسة تيلي أن الأمر محفوف بالمخاطر كثيراً. ففي النهاية، مثلما تقول لي الآن، أنا أملك دخلاً مضموناً في فندق رويال، من دون أي مخاطر».

«هذا صحيح. لكن، إذا كانت الأنسة تيلي جيدة بقدر نصف ما تصفينها، فهذه الفرصة قد لا تسنح لك مجدداً».

فقالت مايزي محاولة ألا تبدو يائسة: «احسم أمرك يا باتريك».

«سأفعل ذلك ما إن أطلع على الدفاتر التجارية».

عندها، قالت مايزي: «ستفعل ذلك ما إن تلتقي الأنسة تيلي؛ لأنك ستفهم حينها المعنى الحقيقي للنية الطيبة».

«أتحرق شوقاً للقاء هذه المرأة الفاضلة».

«هل يعني ذلك أنك ستكفلني؟».

فقال: «نعم». ثم أطفأ سيجارته.

«وكم تريد من هذه الأرملة المفلسة يا سيد كاسي؟».

«أطفئي الأنوار».

سأل السيد فرامبتون: «هل أنت واثقة من أن الأمر يستحق  
المجازفة؟ فمن الممكن أن تخسري الكثير؟».

أجابت مايزي: «هذا هو رأي مستشاري المالي. لقد أكد لي أن كل  
الحسابات جيدة، وأني حين أنني تسديد القرض، يفترض أن أبدأ بجني  
الأرباح خلال خمس سنوات».

«لكنها ستكون سنوات هاري في مدرسة بريستول».

«أدرك ذلك جيداً يا سيد فرامبتون، لكن السيد كاسي أمّن لي راتباً  
مهماً كجزء من الصفقة. وبعد أن أتقاسم البقشيش مع موظفي، يفترض  
أن أحصل تقريباً على المبلغ نفسه الذي أجنيه الآن. والأهم من ذلك،  
أني بعد خمس سنوات سأملك عقاراً حقيقياً، وستكون الأرباح كلها لي  
بعد ذلك». وحاولت تذكر كلمات باتريك بالضبط.

فقال السيد فرامبتون: «يتضح جلياً أنك حسمت أمرك. لكن دعيني  
أحذرك يا مايزي بأن هناك فرقاً كبيراً بين أن تكوني موظفة تعرف كم  
ستتقاضى من المال كل أسبوع، وبين أن تكوني صاحبة عمل؛ حيث  
سيتوجب عليك توزيع المال إلى عدة رواتب كل ليلة جمعة. بصراحة يا

مايزي، أنت الفضلى في ما تقومين به، لكن هل أنت واثقة فعلاً من أنك تريدين الانتقال إلى دور المدير؟».

«سيكون السيد كاسي موجوداً لتقديم النصائح لي».

«لا شك في أن كاسي رجل قدير، وأؤكد لك ذلك، لكن عليه أيضاً الاهتمام بزبائن آخرين أكثر أهمية في كل أنحاء البلاد. لذا، أنت من سيتوجب عليها إدارة العمل بشكل يومي. وإذا حصلت أية مشكلة، فلن يكون كاسي موجوداً دوماً للإمساك بيدك».

«لكن قد لا تتاح لي مثل هذه الفرصة مجدداً في حياتي». وهذه عبارة أخرى من عبارات باتريك.

عندها قال السيد فرامبتون: «مثلما تريدين يا مايزي. ولا تشكي أبداً في أننا سنفتقد إليك جميعاً في فندق رويال. الشيء الوحيد الذي سيعوّض عن غيابك هو أنك درّبت مساعدتك جيداً».

«لن تخذلك سوزان يا سيد فرامبتون».

«أنا واثق من ذلك. لكنها لن تكون أبداً مايزي كليفتون. دعيني أكون أول شخص يتمنى لك كل النجاح في مغامرتك الجديدة. وإذا لم تجر الأمور مثلما خططت لها، فسيكون مكانك محفوظاً هنا دوماً في فندق رويال».

ثم نهض السيد فرامبتون من وراء طاولة مكتبه وصافح مايزي؛ تماماً مثلما فعل قبل ستة أعوام.

بعد شهر واحد، وقّعت مايزي على ستة مستندات في حضور السيد برندرغاست، مدير مصرف بروفنسيال الوطني في كورن ستريت. ولكنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن راجع باتريك كل صفحة سطرًا سطرًا، وبات الآن فرحاً بالاعتراف بأنه أخطأ في شكه في الأنسة تيلي. وقال لها إنه لو تصرّف الجميع بشهامة مثلها، لبات هو شخصياً من دون عمل.

سلّمت مايزي الأنسة تيلي «شيك» بقيمة 500 باوند في 19 مارس 1934، وحصلت في المقابل على عناق كبير ومقهى. وبعد أسبوع واحد، غادرت الأنسة تيلي والأنسة مانداي إلى كورنوال.

عندما فتحت مايزي باب المقهى في اليوم التالي، حافظت على اللافتة فوقه التي تحمل الاسم «مقهى تيلي». فقد نصحتها باتريك بعدم التقليل أبداً من أهمية اسم تيلي فوق الباب (تأسس عام 1898)، وأنه لا يجدر بها التفكير أبداً في تغيير الاسم إلا بعد وفاة الأنسة تيلي، وربما لا. «فالزبائن المنتظمون لا يحبون التغييرات، وخصوصاً تلك المفاجئة. ولذلك، لا تتسرع في أي شيء».

إلا أن مايزي أجرت بعض التغييرات من دون إزعاج أي من الزبائن المنتظمين. إذ أحسّت بأنه لن تكون هناك أي مشكلة في شراء طقم جديد من أغطية الطاومات، وتبديل الكراسي وحتى الطاومات التي بدأت تبدو عتيقة الطراز. ألم تلاحظ الأنسة تيلي أيضاً أن السجادة قد بدأت تهترئ قليلاً؟!

«انتبهي إلى وتيرة إنفاقك». حذرها باتريك في إحدى زيارته الشهرية. «وتذكّري أن إنفاق المال أسهل بكثير من جنيهه. ولا تتفاجئي إذا اختفى عدد قليل من الزبائن القدامى ولم تحققي الكثير من الأرباح مثلما توقعت في الأشهر القليلة الأولى».

وتبيّن أن باتريك محق. فقد انخفض عدد الزبائن في الشهر الأول، واستمر بالانخفاض في الشهر الثاني؛ مما أثبت كم كانت الأنسة تيلي شعبية. ولو انخفض العدد مجدداً في الشهر الثالث، لنصح باتريك مايزي بشأن الحد من المصاريف وكيفية الإنفاق. لكنّ انخفاض عدد الزبائن توقف- على حد تعبير باتريك- لا، بل بدأ يتزايد في الشهر التالي، وإن لم يكن ذلك قد حصل بنسبة كبيرة.

وفي نهاية العام الأول، تعادلت نفقات مايزي مع الأرباح، ولكنها لم تجن ما يكفي من المال لتسديد أي مبلغ من قرض المصرف.

قالت لها الأنسة تيلي في إحدى زيارتها النادرة إلى بريستول: «لا تخافي يا عزيزتي. فقد مرّت أعوام عدة قبل أن أحقق الأرباح». لكنّ مايزي لا تملك أعواماً.

بدأ العام الثاني بشكل جيد، وعاد بعض الزبائن المنتظمين في بالم كورت إلى مقهاهم القديم. اكتسب إيدي أتكينز الكثير من الوزن، وبات سيجاره أطول وأكبر، فافترضت مايزي أن عمله مزدهر تماماً. أما السيد كراديك فكان يأتي عند الساعة الحادية عشرة من كل صباح مرتدياً معطفه الواقى من المطر، وحاملاً بيده مظلة، كيفما كان الطقس. وكان السيد هولكومب يمرّ بين الحين والآخر، ويرغب دوماً في سماع آخر أخبار

هاري؛ علماً أنها لم تسمح له قط بدفع الفاتورة. وبالطبع، كانت أول محطة لباتريك كلما عاد إلى بريستول هي مقهى تيلي.

وخلال العام الثاني، توجّب على مايزي تغيير أحد الموردين الذي بدا أنه لا يعرف الفرق بين الطازج والقديم، بالإضافة إلى نادلة لم تكن مقتنعة بأن الزبون على حق دائماً. تقدمت عدة نساء شابات للعمل؛ إذ بات مقبولاً أكثر ذهاب النساء إلى العمل. اختارت مايزي شابة تدعى كارن؛ شعرها أشقر مجعد، وعيناها زرقاوان كبيرتان، أما جسدها فهو ما تصفه مجلات الأزياء بالساعة الرملية. أحسّت مايزي أن كارن بإمكانها أن تجذب بعض الزبائن الجدد الأصغر سناً من معظم زبائنها المنتظمين.

إلا أن اختيار مورّد الحلوى الجديد كان مهمة صعبة. فرغم تقدم شركات عدة للمناقصة، كانت مايزي متطلبة جداً. لكن، عندما جاء بوب بوروز من مخبز بوروز (تأسس عام 1935) إليها وأخبرها أن مقهى تيلي سيكون أول زبون عنده، قررت تجربته لشهر واحد.

تبين لها أن بوب يمكن الوثوق به ويعمل بكّد، والأهم من ذلك أن بضاعته طازجة دوماً ومغرية جداً؛ حيث يقول لها زبائنها غالباً: «حسناً، أرغب في قطعة إضافية». لاقى الكعك المحلّى بالكريما والكعك المسطح بالفاكهة شعبية كبيرة، لكن قطع البراوني بالشوكولاته بدا لها أنها تختفي عن رف الحلويات قبل منتصف النهار. ورغم إلحاح مايزي الدائم، أصرّ بوب على القول لها إنه لا يستطيع صناعة المزيد.

ذات صباح، بعدما أوصل بوب بضاعته، لاحظت مايزي أنه يبدو عابساً قليلاً، فطلبت منه الجلوس، وسكبت له فنجان قهوة. اعترف لها أنه يعاني من الصعوبات المالية نفسها التي شهدتها في عامها الأول،

ولكنه واثق من أن الأمور ستتحسن سريعاً لأنه تعاقد مؤخراً مع متجرين إضافيين، وأكد على امتنانه الشديد لمايزي لأنها منحتة الفرصة الأولى.

ومع مرور الأسابيع، أصبحت هذه الاستراحات الصباحية نوعاً من الروتين. ورغم ذلك، تفاجأت مايزي كثيراً عندما طلب منها بوب الخروج معه؛ لأنها اعتبرت أن العلاقة بينهما مهنية بحتة. اشترى بطاقتين لمسرحية Glamorous night، وهي المسرحية الموسيقية التي تعرض في الهيبودروم؛ المكان الذي أملت مايزي أن يصطحبها باتريك إليه. عندها، شكرت مايزي بوب، وقالت له إنها لا تريد إفساد علاقتهما. وأرادت أن تضيف إنه يوجد حالياً رجلان في حياتها؛ أحدهما ولد في الخامسة عشرة من عمره قلق بشأن حب الشباب الذي بدأ يظهر على بشرته، والثاني رجل إيرلندي يزور بريستول مرة كل شهر، ولا يبدو مدركاً أنها مغرمة به.

إلا أن بوب لم يعتبر رفضها جواباً. وبعد شهر واحد، شعرت مايزي بإحراج أكبر عندما قدّم لها مشبكاً من المركزيت بمناسبة ذكرى ميلادها، فقبلته على وجنته، وتساءلت عن كيفية معرفته بتاريخ ميلادها. وضعت المشبك في أحد الأدراج، وكادت تنسى أمره في ذلك المساء لولا الهدايا الأخرى التي لحقت به في فترات منتظمة خلال النهار.

بدا باتريك مسروراً من إصرار منافسه، وذكّر مايزي ذات ليلة أثناء العشاء بأنها امرأة جميلة جداً.

فلم تضحك مايزي، وإنما قالت: «يجب أن يتوقف هذا الأمر».

«إذاً، لماذا لا تجدين مورداً آخر؟».

«لأنّ الموردین الجیدین یصعب إیجادهم أكثر من العشاق. علی أیة حال، یمکن الوثوق فی بوب، وحلویاته هی الفضلی فی المدینة، فیما أسعاره أقل من أسعار معظم منافسیه».

فقال باتریك: «وهو مغرم بك».

«لا تسخر یا باتریك. یمب أن یتوقف هذا».

عندها قال باتریك: «سأخبرك بشیء أكثر أهمیة یمب أن یتوقف».

وفتح حقیبته.

فقال مایزی: «هل أذكرك بأنه یمفترض بنا تناول عشاء رومنی علی ضوء الشموع من دون مناقشة العمل».

غیر أنه أجابها: «أخشى أن المسألة لا تحتمل الانتظار». ووضع كدسة من الأوراق علی الطاولة متابعا: «هذه حساباتك خلال الأشهر الثلاثة الماضية، وهی لا تبشر بنتائج سعیة».

«لكنك قلت إن الأمور تتحسن».

«هذا صحیح. فقد نجحت فی إبقاء نفقاتك ضمن الحدود التي أوصی بها المصرف، لكن مدخولك انخفض فی الفترة نفسها من دون أي مبرر».

عندها قالت مایزی مندهشة: «وكیف حصل هذا؟! لقد سجلنا رقماً قیاسياً بعدد الطاولات المحجوزة فی الشهر الماضي».

«لهذا السبب قررت التحقق بعنایة من كل الفواتیر والإیصالات الخاصة بالشهر الماضي. ثمة خطأ فیها. وتوصلت إلى الاستنتاج الوحید المؤسف یا مایزی؛ وهو أن إحدى النادلات لديك تسرق المال من درج



النقود. هذا أمر شائع جداً في المطاعم؛ إذ يتضح عادة أن من يقوم بذلك هو المسؤول عن تقديم الشراب أو كبير النادل. لكن حين تبدأ السرقة، فلا مجال أبداً لإيقافها إلا في حال العثور على الشخص المسؤول وتوقيفه. وإذا لم تتمكني من تحديد النادلة المذنبة خلال وقت قريب، فستكون بانتظارك سنة إضافية من دون أرباح، ولن تتمكني من تسديد أي مبلغ من قرض المصرف، وبالتالي لن تتمكني من تخفيض ديونك».

«وبماذا تنصحنني؟».

«عليك الانتباه أكثر إلى كل الموظفين لديك في المستقبل؛ إلى أن ينكشف أمر إحداهن».

«وكيف لي أن أعرف من هي؟».

فقال باتريك: «ثمة إشارات عديدة عليك الانتباه إليها. على سبيل المثال، نادلة تعيش بمستوى أعلى من مدخولها؛ حيث ترتدي ربما معطفاً جديداً، أو تضع قطعة مجوهرات باهظة، أو تأخذ إجازة لا تستطيع عادة تحمل الخسارة المالية المرافقة لها. ستخبرك ربما أن لديها صديقاً جديداً، لكن...»

فقالت مايزي مقاطعة كلامه: «اللجنة. أعتقد أنني أعرف من تكون».

«من؟».

«كارن. إنها تعمل معي منذ أشهر قليلة فقط، وبدأت في الآونة الأخيرة بالذهاب إلى لندن في عطلاتها. جاءت يوم الاثنين الماضي إلى العمل وهي تضع وشاحاً جديداً وتلبس زوجاً من القفازات الجلدية الفاخرة؛ مما جعلني أشعر بالغيرة».

عندها قال باتريك: «لا تتسرع في استنتاجاتك، ولكن راقبها عن كثب. فهي إما تسرق البقشيش، أو تمد يدها إلى درج النقود، أو تفعل الأمرين معاً. وأستطيع أن أوكد لك أن الأمر لن يتوقف. ففي معظم الحالات، يصبح السارق أكثر ثقة بنفسه إلى أن يتم إلقاء القبض عليه أخيراً. عليك أن توقفي الأمر بسرعة، قبل أن تخرجك من العمل.»

لا تحب مايزي فكرة التجسس على موظفيها. ففي النهاية، لقد اختارت أصغر النادلات بنفسها، فيما الأخريات كنّ مع تيلي طوال أعوام. راقبت كارن عن كثب، لكن لم تكن هناك أي إشارات بدهية تدل على أنها تسرق. لكن مثلما حذرها باتريك، يكون السارقون عادة أكثر براعة من الأشخاص الصادقين، ولا مجال أبداً لكي تُبقي مايزي عينها عليها طوال الوقت.

بعد ذلك، حلّت المشكلة نفسها. فقد قدّمت لها كارن إنذاراً تبلغها فيه أنها مخطوبة وتريد الانضمام إلى خطيبها في لندن في نهاية الشهر. وجدت مايزي خاتم خطوبتها رائعاً فعلاً؛ رغم أنها تساءلت عمّن دفع ثمنه. ولكنها لم تشأ التفكير في الأمر، بل شعرت بالارتياح لأن مشاكلها بدأت تحل.

لكن عندما عاد باتريك إلى بريستول بعد بضعة أسابيع، حذر مايزي بأن مدخولها الشهري قد انخفض مجدداً، وبالتالي ليست كارن هي المذنبة.

فسألته مايزي: «هل حان الوقت للاتصال بالشرطة؟».

«ليس الآن. فأخر ما تحتاجين إليه هو الاتهامات الباطلة أو الإشاعات التي ستولد شعوراً بشعاً عند الموظفين لديك. قد تكشف الشرطة السارق، ولكن قبل أن تفعل ذلك، يحتمل أن تخسري بعض أفضل الموظفين لديك الذين لن يحبوا فكرة وضعهم تحت الشبهات. وقد يكتشف الأمر أيضاً بعض زبائنك؛ علماً أنك لست بحاجة إلى ذلك.»

«لكم من الوقت أستطيع الاستمرار هكذا؟».

«فلنمنح نفسينا شهراً إضافياً، وإذا لم نكتشف من هو السارق حتى ذلك الحين، فعليك الاتصال بالشرطة». ووجه لها ابتسامة كبيرة ثم تابع:

«والآن، فلنتوقف عن التحدث في أمور العمل، ولنحاول التذكر أننا هنا للاحتفال بذكرى ميلادك.».

فقالت: «كان هذا قبل شهرين. ولولا بوب لما كنت قد عرفت.».

فتح باتريك حقيبته مجدداً، ولكنه أخرج منها هذه المرة علبة باللون الأزرق الملكي مع شعار إوزة عليها. أعطاها العلبة، فأخذت وقتها لفتحها، ووجدت فيها زوجاً من القفازات الجلدية السوداء، ووشاحاً صوفياً عليه نقش بوروبوري التقليدي.

عندها قالت مايزي وهي تطوقه بذراعيها: «إذاً، أنت من يسرقني.»

لم يجب باتريك.

فسألته: «ما الأمر؟».

«أريد أن أخبرك شيئاً آخر». نظرت مايزي إلى عينيه متسائلة عن الخطب الآخر الذي يمكن أن يكون قد حلّ بمقهى تيلي. «تمت ترقيتي. سأصبح نائب المدير في مكتبتنا الرئيس في دابلن. سأبقى في مكنتي معظم

الوقت، ولذلك سيستلم شخص آخر مكاني هنا. سأتمكن من زيارتك، ولكن ليس غالباً».

في تلك الليلة، استلقت مايزي بين ذراعيه وبكت طوال الليل. ظنت أنها لا تريد الزواج أبداً مجدداً، إلى أن بات الرجل الذي تحبه غير متوافر.

وصلت متأخرة إلى العمل في صباح اليوم التالي لتجد بوب بانتظارها أمام الباب. وحين فتحت الباب الأمامي، بدأ يفرغ الحمولة الصباحية من عربته.

قالت مايزي: «سأوافيك بعد قليل». ثم اختفت في حمام الموظفين.

ودّعت باتريك بعدما ركب القطار في تمبل ميدز، ثم انفجرت في البكاء مجدداً. لا بد أن شكلها مريع، ولا تريد أن يظن الزبائن المنتظمون أن هناك مشكلة معينة. فلطالما قالت الآنسة تيلي لموظفيها: «لا تحضروا أبداً مشاكلكم الشخصية إلى العمل. فالزبائن يملكون ما يكفي من المشاكل الخاصة بهم، ولا حاجة لكي يقلقوا بشأن مشاكلكم».

نظرت مايزي إلى صورتها المنعكسة في المرآة. كانت زينة وجهها تبدو بحالة فوضوية. «اللعنة». قالت بصوت عالٍ عندما أدركت أنها نسيت حقيبتها في الخارج. وحين عادت إلى الصالة لأخذ حقيبتها، أحست فجأة بالغثيان؛ إذ كان بوب واقفاً وظهره لها، ويده في درج النقود. راقبته فيما وضع حفنة من الأوراق النقدية والنقود المعدنية في جيب سرواله وأغلق الدرج بهدوء، ثم عاد إلى عربته لإحضار صينية أخرى من الحلويات.

عرفت مايزي بالضبط ما كان سينصحها به باتريك. دخلت المقهى، ووقفت قرب درج النقود فيما دخل بوب مجدداً عبر الباب. لم يكن

يحمل صينية، وإنما علبة جلدية صغيرة حمراء اللون. وجّه إليها ابتسامة كبيرة، ثم ركع على إحدى ركبتيه.

فقالت له مايزي بنبرة فاجأتها شخصياً: «عليك أن تغادر المكان الآن يا بوب بوروز. وإذا رأيتك مجدداً قرب المقهى فسأتصل بالشرطة».

توقعت سيلاً من الشروحات أو التبريرات، لكن بوب وقف ببساطة، ووضع المال الذي سرقه قرب صندوق النقود، ثم غادر من دون أن يتفوه بأي كلمة. انهارت مايزي على أقرب كرسي، فيما وصلت أولى الموظفين.

«صباح الخير يا سيدة كليفتون. الطقس جميل بالنسبة إلى هذه الفترة من السنة».

كلما وصل مغلف بني رقيق إلى صندوق البريد رقم 27 افترضت مايزي أنه من مدرسة القواعد في بريستول، وهو على الأرجح يتضمن تذكيراً بدفع قسط جديد من أقساط هاري، بالإضافة إلى «النفقات الإضافية»؛ مثلما تصفها جمعيات بريستول الخيرية.

كانت تمرّ بالمصرف دوماً في طريق عودتها إلى المنزل لإيداع مداخيل النهار في حساب العمل، وحصتها من البقشيش في حساب منفصل تعتبره حساب هاري؛ على أمل أن يشتمل في نهاية كل فصل على ما يكفي لتغطية القسط الجديد في مدرسة بريستول للقواعد.

مزقت مايزي المغلف، ورغم أنها لم تستطع قراءة كل كلمة من الرسالة، إلا أنها تعرفت على الإمضاء، وفوقه الرقم 37 باونداً و 10 شلنات. سيكون المبلغ مطابقاً تقريباً، لكن بعد أن قرأ السيد هولكومب نتائج هاري الأخيرة أمامها، وافقته الرأي؛ إذ تبين أنه استثمار جيد.

حذّرها السيد هولكومب: «أريد تذكيرك بأن النفقات لن تكون أقل حين يأتي وقت مغادرته المدرسة».

فسألت مايزي: «لماذا؟ لا ينبغي أن يجد صعوبة في العثور على وظيفة بعد كل ذلك العلم الذي حصله، وسيبدأ حينها بدفع مصاريفه بنفسه».

هز السيد هولكومب رأسه بحزن كما لو أن أحد تلاميذه أخفق في استيعاب أمر معين، ثم قال لها شارحاً: «أتمنى أن يذهب إلى أوكسفورد ويقرأ الإنكليزية بعد مغادرته مدرسة بريستول».

فسألته مايزي: «وكم سيستغرق ذلك من الوقت؟».

«ثلاث سنوات أو أربع سنوات ربما».

«إذاً، يفترض به أن يكون قد قرأ الكثير من الإنكليزية حينها».

«ما يكفي حتماً للحصول على وظيفة».

ضحكت مايزي. «قد يصبح أستاذ مدرسة مثلك».

فقال السيد هولكومب: «لا، ليس مثلي. إذا صدقت ظنوني،

فسيصبح كاتباً».

«وهل يمكن جني المال من مهنة الكاتب؟».

«طبعاً، إذا كان ناجحاً. لكن إذا لم تجرِ الأمور جيداً، فقد تكونين

محقة؛ إذ قد يصبح أستاذاً مثلي».

قالت مايزي: «أودّ ذلك». من دون أن تفهم سخريته.

وضعت المغلف في حقيبتها، وتوجهت إلى المصرف بعد انتهاء العمل

بعد ظهر ذلك اليوم، إذ أرادت التأكد من وجود 37 باونداً و 10 شلنات

على الأقل في حساب هاري قبل أن تكتب «شيك» بالمبلغ الكامل. فقد

أخبرها باتريك أن المصرف يجني المال عندما يُفْرِط الزبون في السحب

من رصيده. كانت المدرسة قد أعطتها سابقاً فترة سماح تمتد من أسبوعين

إلى ثلاثة أسابيع، لكن باتريك شرح لها أنه -تماماً كما تفعل في المقهى-

عليهم أيضاً إغلاق حساباتهم في نهاية كل فصل.

لم تنتظر مايزي طويلاً لتستقل الترامواي. وبعد أن جلست على مقعدها، عادت أفكارها إلى باتريك. لن تعترف لأي كان، ولا حتى لأمها، كم تشتاق إليه.

قاطعت أفكارها سيارة إطفاء حاولت تجاوز الترامواي. حدّق بعض الركاب إلى خارج النافذة للحاق بمسار سيارة الإطفاء. وبعد أن أصبحت السيارة بعيدة عن الأنظار، أعادت مايزي أفكارها إلى مقهى تيلي. فمئذ أن طردت بوب بوروز، أبلغها مدير المصرف أن المقهى بدأ يحقق ربحاً ثابتاً كل شهر، وقد يتخطى الربح في نهاية العام أكبر مبلغ حققته الآنسة تيلي؛ وهو 112 باونداً و10 شلنات، مما سيسمح لمايزي بتسديد شيء من القرض البالغ 500 باوند. وقد يبقى أيضاً بعض المال لشراء حذاء جديد لهاري.

نزلت مايزي من الترامواي في نهاية شارع فيكتوريا. وفيما شقت طريقها عبر جسر بيدمينستر، تحققت من ساعتها، هديته الأولى لها، وفكرت في ابنها مجدداً.

كانت تشير إلى السابعة واثنين وثلاثين دقيقة، مما يعني أنها تملك وقتاً كافياً لفتح المقهى والاستعداد لخدمة أول زبون لها عند الساعة الثامنة. كانت تفرح دوماً حين ترى رتلاً صغيراً ينتظر على الرصيف بينما هي تقلب لافتة «مغلق» إلى «مفتوح».

مباشرة قبل وصولها إلى «هاي ستريت»، مرّت سيارة إطفاء أخرى، واستطاعت رؤية سحابة من الدخان الأسود ترتفع عالياً في السماء. لكن عندما وصلت إلى «برود ستريت»، بدأ قلبها يخفق بسرعة أكبر، فقد كانت هناك ثلاث سيارات إطفاء وسيارة شرطة مركونة على شكل نصف دائرة خارج مقهى تيلي.



بدأت مايزي تركض.

صرخت: «لا، لا، لا يمكن أن يكون مقهى تيلي». ثم ملحت عدداً من موظفاتها يقفن خارجاً ضمن مجموعة في الجهة الأخرى من الطريق. كانت إحداهن تبكي. باتت مايزي على بعد ياردات قليلة مما كان سابقاً الباب الأمامي عندما اعترض شرطي طريقها ومنعها من التقدم أكثر.

اعترضت: «لكنني صاحبة المقهى». فيما حدّقت غير مصدقة إلى الرماد المتصاعد مما كان المقهى الأكثر شعبية في المدينة. دمعت عينها، وبدأت تسعل فيما طوّقها الدخان الأسود الكثيف. حدّقت إلى البقايا المتفحمة لما كان سابقاً رفاً لامعاً، فيما غطت طبقة من الرماد الأرضية حيث كانت الكراسي والطاولات ذات الأغشية البيضاء الناصعة عندما أقفلت المقهى في الليلة الماضية.

قال الشرطي: «آسف يا سيدتي، لكن للحفاظ على سلامتك، عليّ أن أطلب منك الانضمام إلى موظفاتك في الجهة الأخرى من الطريق». أدارت مايزي ظهرها إلى مقهى تيلي، وبدأت تجتاز الطريق على مضض. وقبل أن تصل إلى الجهة الأخرى، رأته واقفاً إلى جانب الحشود. وما إن التقت عيونهما حتى استدار ومشى بعيداً.

فتح التحري بلايكمور دفتره ونظر عبر الطاولة إلى المشتبه بها. «هل يمكنك إخباري أين كنت قرابة الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل يا سيدة كليفتون؟».

فأجابت مايزي: «كنت في المنزل، في السرير».

«هل باستطاعة أي كان تأكيد ذلك؟».

«إذا كنت تسألني، يا حضرة التحري، عمّا إذا كنت مع أحد في السرير في ذلك الوقت، فالجواب هو لا. لماذا تسأل؟».

دوّن الشرطي ملاحظة، مما أعطاه المزيد من الوقت للتفكير، ثم قال: «أحاول أن أعرف إذا كان هناك أي متورط».

سألت مايزي: «متورط في ماذا؟».

فأجاب: «في افتعال الحريق». وراقب ردة فعلها بعناية.

سألت مايزي مستغربة: «لكن، من سيرغب في إحراق مقهى تيلي؟!».

قال بلايكمور: «كنت أمل أن تتمكني من مساعدتي في هذا الموضوع». ثم صمت على أمل أن تضيف السيدة كليفتون شيئاً قد تندم عليه لاحقاً، ولكنها لم تقل أي شيء.

لم يستطع التحري بلايكمور حسم أمره ومعرفة ما إذا كانت السيدة كليفتون امرأة باردة جداً، أو ساذجة ببساطة. وعرف أن هناك شخصاً واحداً يستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

نهض السيد فرامبتون من وراء طاولة مكتبه وصافح مايزي، ثم أشار إليها للجلوس على كرسي.

وقال: «شعرت بالأسف كثيراً حين سمعت خبر الحريق الذي نشب في مقهى تيلي. الحمد لله لأن أحداً لم يصب بأذى». وصمت قليلاً ثم أضاف: «أمل أن يكون المبنى مشمولاً بالتأمين، وكذلك محتوياته».

فقلت مايزي: «أوه نعم. بفضل السيد كايزي تم التأمين على كل شيء. لكن لسوء الحظ، ترفض شركة التأمين دفع قرش واحد قبل أن تؤكد الشرطة أنني لست متورطة في الحريق».

قال فرامبتون: «لا أصدق أن الشرطة تعتقد أنك متورطة!».

فقلت مايزي: «مع مشاكلي المالية، من يستطيع لومهم؟».

«إنها مسألة وقت فقط قبل أن يتضح لهم أنها فكرة سخيفة».

قلت مايزي: «ولكنني لا أملك أي وقت، ولهذا السبب جئت لرؤيتك. فأنا بحاجة إلى وظيفة، وعندما التقينا آخر مرة في هذه الغرفة، أذكر أنك قلت لي إنني إذا أردت العودة إلى فندق رويال...»

فقاطعها السيد فرامبتون: «وأقصد ذلك فعلاً. لكنني لا أستطيع منحك منصبك القديم لأن سوزان تنجز عملاً ممتازاً، وقد وظفت مؤخراً ثلاثاً من نادلات مقهى تيلي، ولذلك لم يعد لدي أي منصب شاغر في بام كورت. المنصب الوحيد المتوافر حالياً ليس جديراً بك...»

قلت مايزي: «أقبل بأي شيء يا سيد فرامبتون، وأعني فعلاً أي

شيء».

فقال السيد فرامبتون: «يقول لنا بعض زبائننا إنهم يرغبون في تناول الطعام بعد أن يقفل مطعم الفندق ليلاً. لذا، كنت أفكر في تقديم القهوة والشطائر بعد العاشرة مساءً، على أن تبقى الخدمة متوافرة حتى تفتح قاعة الفطور عند الساعة السادسة صباحاً. أستطيع منحك ثلاثة باوندات فقط في الأسبوع في البداية، علماً أن كل البقشيش سيكون لك طبعاً. أفهم طبعاً إذا...»

«أقبل بالوظيفة».

«متى يمكنك البدء؟».

«الليلة».

عندما وصل المغليف البني التالي إلى صندوق البريد رقم 27 وضعته مايزي في حقيبتها من دون فتحه، وتساءلت عن الوقت الذي سيمضي قبل أن تستلم مغلفاً ثانياً وربما ثالثاً، وأخيراً مغلفاً أبيض سميكاً يحتوي على رسالة من المدير نفسه، وليس من المحاسب، يطالب فيها السيدة كليفتون بسحب ابنها من المدرسة في نهاية الفصل. وخشيت كثيراً اللحظة التي سيقراً فيها هاري الرسالة أمامها.

في شهر سبتمبر، كان هاري يتوقع دخول المستوى السادس، ولم يستطع إخفاء الحماسة التي كانت تبدو في عينيه كلما تحدث عن الذهاب إلى أوكسفورد وقراءة الإنكليزية تحت إشراف ألان كويلتر؛ أحد أهم المعلمين في تلك الحقبة. ولم تتحمل مايزي فكرة إخبارها إياه أن كل ذلك لم يعد ممكناً.

لياليها الأولى في فندق رويال كانت هادئة جداً، ولم تتحسن الأمور كثيراً خلال الشهر التالي. كرهت أن تكون عاطلة عن العمل، لذا عندما كان عمال التنظيف يصلون عند الساعة الخامسة صباحاً، كانوا غالباً يجدون أنه لا عمل لهم أبداً في قاعة بام كورت. حتى في الليلة الأكثر ازدحاماً عندها، لم تستقبل مايزي أكثر من نصف دزينة من الزبائن، تم إخراج العديدين منهم من مقهى الفندق مباشرة بعد منتصف الليل؛

فقد بدوا مهتمين أكثر بالتقرب منها بدلاً من طلب القهوة وشطيرة اللحم.

كان معظم زبائنها تجاراً مسافرين حجزوا ليلة واحدة في الفندق. وبالتالي، لم تكن فرصة جذب زبائن منتظمين تبدو واعدة؛ فضلاً عن أن البقشيش لن يتكفّل حتماً بتأمين المبلغ المذكور في المغلف البني الذي بقي في حقيبتها غير مفتوح.

عرفت مايزي أنه إذا أراد هاري البقاء في مدرسة القواعد في بريستول والذهاب إلى أوكسفورد، فثمة شخص واحد فقط يمكنها طلب المساعدة منه، وسوف تتوسل إليه إن اضطرت إلى ذلك.

سألها العجوز جاك وهو يتكئ إلى الخلف على كرسيه: «ما الذي يجعلك تظنين أن السيد هوغو سيقبل بالمساعدة؟! فهو لم يظهر قط أي اهتمام بهاري في الماضي. وعلى العكس...»

غير أنها قاطعته قائلة: «لأنه إذا كان هناك شخص واحد على هذه الأرض يفترض به أن يشعر ببعض المسؤولية تجاه مستقبل هاري، فهو ذلك الرجل». وندمت مايزي فوراً ما إن تفوّهت بكلماتها.

بقي العجوز جاك صامتاً هنيهة قبل أن يسأل: «هل هناك شيء ما لم تخبريني إياه يا مايزي؟».

فأجابت بسرعة قليلاً: «لا». كانت تكره الكذب، ولاسيما على العجوز جاك، غير أنها مصممة على أن هذا السر سيذهب معها إلى القبر.

«هل فكرت متى وأين ستواجهين السيد هوغو؟».

«أعرف بالضبط ما سأفعله. فهو نادراً ما يغادر مكتبه قبل السادسة مساءً. وفي ذلك الوقت، يكون معظم الموظفين الآخرين قد غادروا المبنى. أعرف أن مكتبه في الطابق الخامس، وأعرف أنه ثالث باب إلى اليسار. أعرف...»

قاطعها العجوز جاك: «لكن هل تعرفين أي شيء عن الأنسة بوتس؟ حتى لو نجحت في التسلل من أمام موظفة الاستقبال، ونجحت نوعاً ما

في الوصول إلى الطابق الخامس من دون أن يلاحظك أحد، فلا مجال أبداً لتفاديها».

«الآنسة بوتس! لم أسمع بها قط».

«إنها السكرتيرة الخاصة بالسيد هوغو طوال الأعوام الخمسة عشر الماضية. وأؤكد لك انطلاقاً من خبرة شخصية أنك لست بحاجة إلى كلب حراسة إذا كانت لديك الآنسة بوتس كسكرتيرة».

«إذاً، عليّ الانتظار إلى أن تغادر إلى منزلها».

«الآنسة بوتس لا تغادر إلى منزلها أبداً قبل مديرها، وهي تتواجد دوماً في مكتبها قبل ثلاثين دقيقة من وصوله في الصباح».

قالت مايزي: «لكنّ فرص لقائي إياه في قصره ضئيلة جداً، لاسيما وأنهم يملكون كلب حراسة أيضاً يدعى جنكينز».

«إذاً، عليك إيجاد المكان والزمان المناسبين؛ حين يكون السيد هوغو بمفرده ولا يستطيع الفرار، ولا يستطيع الاتكال على الآنسة بوتس أو جنكينز لإنقاذه».

سألت مايزي: «وهل يوجد مثل هذا المكان والزمان؟».

فقال العجوز جاك: «أوه نعم. لكن، عليك اختيار التوقيت

الصحيح».

انتظرت مايزي إلى أن حلّ الظلام قبل أن تخرج من المقطورة القديمة الخاصة بالعجوز جاك. مشت على الطريق المرصوف بالحصى على أطراف أصابعها، وفتحت الباب الخلفي بهدوء ودخلت، ثم أغلقتة

وراءها. عرفت أن انتظارها سيكون طويلاً، فاستقرت على المقعد الجلدي المريح. كان بإمكانها رؤية المبنى بوضوح عبر نافذة جانبية. انتظرت مايزي بصبر إلى أن انطفأت كل الأنوار، وكان العجوز جاك قد أخبرها أن نور مكتبه سيكون الأخير الذي يُطفأ.

استفادت من ذلك الوقت في مراجعة الأسئلة التي تنوي طرحها عليه؛ وهي أسئلة تمرّنت عليها عدة أيام قبل تجربتها أمام العجوز جاك بعد ظهر اليوم. وقد قدّم لها العديد من الاقتراحات التي وافقت عليها بفرح.

مباشرة بعد الساعة السادسة، وصلت سيارة رولز رويس وتوقفت خارج الباب الأمامي للمبنى، وخرج منها السائق ووقف قربها. وبعد لحظات قليلة، خرج السير والتر بارينغتون- رئيس مجلس إدارة الشركة- من الباب الأمامي، وصعد في الجهة الخلفية من السيارة قبل أن تنطلق به.

انطفأ المزيد والمزيد من الأنوار، إلى أن بقي أخيراً ضوء واحد. فجأة، سمعت مايزي صوت أقدام تمشي على الحصى، فانزلقت عن المقعد وجلست القرفصاء على الأرض. استطاعت سماع صوتي رجلين يتحدثان معاً وهما يتجهان صوبها. لم تكن خطتها تنطوي على وجود رجلين، وكانت على وشك القفز إلى الجهة الأخرى ومحاولة الاختفاء في الليل عندما توقف الرجلان فجأة.

قال صوت تعرفت إليه: «... لكن رغم ذلك، سأكون مجبراً إذا بقي تورطي محصوراً بيننا فقط.»



فقال صوت آخر سمعته سابقاً، ولكنها لا تذكر أين: «طبعاً سيدي.  
يمكنك الاعتماد عليّ».

قال الصوت الأول: «إذاً، فلنبقَ على اتصال يا صديقي. لا شك في  
أنني سأعتمد على خدمات المصرف مجدداً».

سمعت مايزي صوت خطوات أحدهم وهي تبتعد، وتجمّدت في  
مكانها عندما فتح باب السيارة.

دخل السيارة، وجلس وراء المقود، وأغلق الباب. لم يكن لديه سائق،  
بل كان يفضّل قيادة سيارة البوغاتي بنفسه، ويدلّل نفسه وراء المقود؛  
كلها معلومات نفيسة زوّدها بها العجوز جاك.

أدار المحرّك، فعادت الحياة إلى السيارة. زاد عدد دورات المحرك  
مرات عدة قبل أن يبدّل السرعة إلى المستوى الأول. ألقى الرجل الواقف  
عند البوابة التحية عليه، فيما خرج السيد بارينغتون إلى الطريق الرئيسة  
وتوجه صوب المدينة مثلما يفعل كل ليلة في طريق عودته إلى «مانور  
هاوس».

نصحها العجوز جاك: «لا تدعيه يعلم أنك في الخلف قبل أن يصل  
إلى وسط المدينة. فهو لن يجازف بالتوقف هناك لأنه سيخشى أن يراكما  
أحد معاً ويتعرف إليه. ولكنه عندما يصل إلى ضواحي المدينة لن يتردد  
في طردك من السيارة. ستكون لديك عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة  
على الأكثر».

فقالت له مايزي: «وهذا كل ما أحتاج إليه».

انتظرت مايزي إلى أن مرّ أمام دار العبادة الكبيرة و«كوليج غرين»  
التي تكون دوماً مزدحمة في هذا الوقت من المساء. لكن فيما كانت على

وشك الجلوس والنقر على كتفه، بدأت السيارة تبطئ ثم توقفت. فتح الباب وخرج من السيارة، ثم أغلق الباب. نظرت مايزي من بين المقعدين الأماميين وأصيبت بالذعر عندما رأت أنه ركن السيارة خارج فندق رويال.

تسارعت دزينة من الأفكار إلى عقلها: هل يجدر بها الخروج من السيارة قبل أن يفوت الأوان؟ لماذا يزور فندق رويال؟ أهي مصادفة أنه يزور الفندق في يوم إجازتها؟ لكم من الوقت ينوي البقاء هناك؟ غير أنها قررت الحفاظ على رباطة جأشها، إذ خشيت أن يلمحها أحدهم إذا خرجت من السيارة في مثل هذا المكان العام. بالإضافة إلى ذلك، قد تكون هذه هي فرصتها الأخيرة لمواجهته وجهاً لوجه قبل أن تُطالب قريباً بدفع القسط.

وتبين أن الجواب عن أحد أسئلتها هو عشرون دقيقة. لكن قبل وقت طويل من جلوسه على مقعد السائق وانطلاقه في السيارة، كانت مايزي تتصبب عرقاً بارداً. لم تكن تعلم أن قلبها يمكنه أن يخفق بهذه السرعة. انتظرت حتى اجتاز مسافة نصف ميل تقريباً قبل أن تجلس وتنقر على كتفه.

بدا مصدوماً حين استدار نحوها، وتلت ذلك نظرة تعرّف، ومن ثم إدراك. سألتها بعد تعافيه من الصدمة قليلاً: «ماذا تريدان؟».

فأجابت مايزي: «لديّ إحساس بأنك تعرف ما أريده بالضبط. همي الوحيد هو هاري، والتأكد من تسديد أقساطه المدرسية خلال السنتين المقبلتين».

«أعطيني سبباً واحداً كي أدفع أقساط ابنك المدرسية».

فأجابت مايزي بهدوء: «لأنك والده».

«وما الذي يجعلك واثقة من ذلك؟».

قالت مايزي: «راقبتك عندما رأيته للمرة الأولى في مدرسة سانت بيد، وكل يوم أحد عندما كان ينشد ضمن الجوقة في دار عبادة سانت ماري. رأيتُ النظرة في عينيك حينها، ورأيته مجدداً عندما رفضت مصافحته في أول يوم مدرسي».

قال بارينغتون وهو يشعر بثقة أكثر قليلاً: «ليس هذا دليلاً. ليس هذا سوى حدس امرأة».

«إذاً، سيكون الوقت قد حان لتعرف امرأة أخرى بما فعلته أثناء رحلة العودة من العمل».

«وما الذي يجعلك تظنين أنها ستصدقك؟».

قالت مايزي: «لا شيء أكثر من حدس امرأة». عندئذ صمت تماماً، مما أعطاها الشجاعة للمتابعة: «قد تكون السيدة بارينغتون مهتمة أيضاً بمعرفة سبب تكبّدك الكثير من العناء لتوقيف أخي في اليوم التالي لاختفاء آرثر».

«صدفة، لا أكثر».

«وهل هي مجرد صدفة أيضاً أن زوجي لم يظهر منذ ذلك الحين؟».

صرخ بارينغتون: «لا علاقة لي أبداً بموت كليفتون». فيما انحرف على الطريق، وكاد يرتطم بعربة قادمة في الاتجاه الآخر.

جلست مايزي منتصبة ومذهولة مما سمعته، وقالت: «إذاً، أنت المسؤول عن موت زوجي».

فقال بنبرة تحدُّ: «أنت لا تملكين دليلاً على ذلك».

«لا أحتاج إلى أي دليل آخر. لكن، بالرغم من كل الأذى الذي ألحقته بعائلي على مرّ السنوات، ما زلت أعطيك وسيلة سهلة للتكفير عن ذنوبك. ستهتم بتعليم هاري فيما لا يزال في مدرسة القواعد في بريستول، ولن أزعجك أبداً مجدداً».

مرّ بعض الوقت قبل أن يجيب بارينغتون أخيراً: «سأحتاج إلى بضعة أيام لمعرفة أفضل طريقة لتسديد الدفعات».

فقالت مايزي: «يستطيع المجلس الخيري في الشركة الاهتمام بسهولة بدفع مثل هذا المبلغ الصغير. ففي النهاية، والدك هو رئيس مجلس الإدارة».

هذه المرة، لم يكن لديه جواب جاهز. هل كان يتساءل عن كيفية حصولها على هذه المعلومة؟ إنه ليس أول شخص يقلل من أهمية العجوز جاك. فتحت مايزي حقيبتها، وأخرجت المغلف البني الرقيق ووضعتة على المقعد قربه.

توجّهت السيارة نحو طريق غير مضاء، ثم قفز بارينغتون من السيارة وفتح الباب الخلفي، فخرجت منها مايزي وهي تشعر بأن المواجهة قد تمت على أفضل ما يرام. وعندما لامست قدمها الأرض، أمسكها من كتفيها وهزّها بعنف،

وقال والغضب يتطاير من عينيه: «والآن، أصغي إليّ يا مايزي كليفتون، وأصغي إليّ جيداً. إذا هدّدتني مجدداً، فلن أحرص فقط على طرد أخيك، وإنما سأحرص أيضاً على عدم السماح له بالعمل مجدداً في هذه المدينة. وإذا كنت حمقاء حيث تلمّحين أمام زوجتي بأنني والد

الصبي فسأعتقلك، ولن ينتهي بك الأمر في السجن، وإنما في مستشفى للمجانين».

أفلتها، ثم أطبق قبضة يده وضربها مباشرة على وجهها. انهارت على الأرض وتقوقعت على شكل كرة، متوقعة أن يركلها مراراً وتكراراً. لكن عند عدم حصول أي شيء، نظرت إلى الأعلى فرأته واقفاً فوقها. مزق المغلف البني الرقيق إلى قطع صغيرة، ثم نثر القطع فوقها كما تُرمى قصاصات الورق الملونة على العروس.

ومن دون أية كلمة أخرى، صعد إلى السيارة وانطلق بسرعة.

عندما وصل المغلف الأبيض إلى صندوق البريد، عرفت مايزي أنها هزمت. عليها إخبار هاري بالحقيقة عندما يعود من المدرسة بعد ظهر اليوم. لكن عليها أولاً المرور بالمصرف لإيداع البقشيش الضئيل الذي حصلت عليه في الليلة الماضية، وإخبار السيد برنדרغاست أنه لن يصل إلى المصرف المزيد من الأقساط الدراسية الخاصة بمدرسة القواعد في بريستول لأن ابنها سيغادرها في نهاية الفصل الحالي.

قررت الذهاب إلى المصرف سيراً على القدمين لتوفير أجرة الترامواي. وفي الطريق، فكرت في كل الأشخاص الذين خذلتهم. هل ستسامحها الأنسة تيلي والأنسة مانداي؟ العديد من موظفاتهما- ولاسيما المتدمات في السن- لم يفلحن في إيجاد وظيفة جديدة. وهناك أيضاً والداها اللذان اهتما بهاري دوماً كي تتمكن من الذهاب إلى العمل، والعجوز جاك الذي ساعد ابنها بكل ما بوسعه. والأهم منهم كلهم، هناك هاري نفسه الذي- حسب كلمات السيد هولكومب- بات على وشك أن يتوجّ بغار النصر.

عندما وصلت إلى المصرف، انضمت إلى الرتل الأطول لأنها لم تكن على عجلة من أمرها.

قال موظف المصرف بهرح عندما وصلت أخيراً إلى مقدمة الرتل: «صباح الخير يا سيدة كليفتون».

فأجابت مايزي: «صباح الخير». ثم وضعت أربعة شلنات وستة بنسات على الرف.

تحقق الموظف من المبلغ بعناية، ثم وضع النقود المعدنية في صوانٍ مختلفة تحت الرف. وبعد ذلك، دوّن على قصاصة ورقية المبلغ الذي أودعته السيدة كليفتون ثم أعطاها الورقة. وقفت مايزي جانباً للسماح للزبون التالي بأن يأخذ مكانها، فيما وضعت القصاصة الورقية في حقيبتها.

قال الموظف: «سيدة كليفتون».

فقالت وهي تنظر إليه: «نعم».

«يريد المدير التحدث إليك».

فقالت: «أفهم ذلك». لم تحتج مايزي إلى إخباره بأنه لا يوجد مال كافٍ في حسابها لتغطية تكاليف القسط الأخير في المدرسة. وفي الواقع، سيكون من الأفضل أن يعرف السيد برندرغاست أنه لن تكون هناك أي أقساط إضافية للنشاطات غير المدرسية.

رافقها الرجل الشاب بصمت عبر ردهة المصرف ومن ثم عبر رواق طويل. وعندما وصل إلى مكتب المدير، طرق على الباب برفق ثم فتحه وقال: «السيدة كليفتون، سيدي».

قال السيد برندرغاست: «أوه أجل. أحتاج إلى التكلم معك يا سيدة كليفتون. أرجوك تفضلي». أين سمعت هذا الصوت من قبل؟

وتابع قائلاً بعد أن جلست: «سيدة كليفتون، أنا آسف جداً لإبلاغك أننا لم نستطع صرف «الشيك» الأخير البالغة قيمته سبعة وثلاثين باونداً وعشرة شلنات والمخصص لجمعيات بريستول الخيرية البلدية. إذا قدمت «الشيك» مجدداً، أخشى ألا تكون هناك اعتمادات كافية في حسابك لتغطية كامل المبلغ. إلا إذا كنت تنوين طبعاً إيداع المزيد من المال في المستقبل القريب؟».

قالت مايزي: «لا». فيما أخرجت المغلف الأبيض من حقيبتها ووضعتة على المكتب أمامه. «يمكنك ربما إبلاغ مدرسة القواعد في بريستول أنني سأدفع مع مرور الوقت كل النفقات الأخرى المترتبة خلال الفصل الأخير لهاري».

قال السيد برندرغاست: «آسف جداً يا سيدة كليفتون. أتمنى فقط لو أنني أستطيع المساعدة بطريقة ما». ورفع المغلف الأبيض، ثم سألها: «هل أستطيع فتح هذا؟».

فأجابت مايزي التي كانت قد حاولت حتى تلك اللحظة تفادي معرفة المبلغ الذي لا تزال تدين به للمدرسة: «نعم، طبعاً».

رفع السيد برندرغاست سكيناً فضياً رفيعاً عن طاولة مكتبه ومزق المغلف، ثم أخرج «شيك» صادراً عن شركة بريستول وغرب إنجلند للتأمين بقيمة ستمئة باوند، يصرف للسيدة مايزي كليفتون.

هوغو بارينغتون 1921-1936



ما كنت لأذكر اسمها لو لم تتهمني لاحقاً بأنني قتلت زوجها.

بدأ كل شيء عندما أصرّ والدي على أن أرافق العمال في نزهتهم السنوية إلى ويستون سوبر ماري وقال: «من الجيد لمعنوياتهم أن يروا ابن المدير العام مهتماً بهم».

لم أكن مقتنعاً بذلك. وبصراحة، اعتبرت المسألة كلها مضيعة للوقت، لكن حين يحسم والدي أمره بشأن أي شيء، فلا مجال لمناقشته أبداً. وكانت النزهة ستكون مضيعة للوقت لو لم تأتِ مايزي- اسم شائع جداً- معنا. حتى إنني تفاجأت لدى ملاحظتي كم كانت تواقّة لإقامة علاقة مع ابن المدير. افترضت أنني بعد عودتنا إلى بريستول لن أسمع بها أبداً مجدداً. وما كان ذلك ليحصل ربما لو لم تتزوج آرثر كليفتون.

كنت جالساً إلى طاولة مكتبي أراجع الوضع الدقيق ملف مابل ليف، وأتحقق من الأرقام مراراً وتكراراً على أمل إيجاد طريقة تُمكن الشركة من توفير بعض المال. لكن مهما حاولت بكّد، فإن النتيجة لم تكن جيدة. والمؤسف أكثر أنني كنت أنا من قرر توقيع العقد.

نجح منافسي في شركة «مايسون» في فرض صفقة صعبة، وبعد عدة تأجيلات لم أسدّد خلالها المبالغ المستحقة، أصبحنا متأخرين عن الجدول المحدد خمسة أشهر، مع بنود جزائية سيتم تنفيذها فوراً في حال تخلفنا عن إنجاز المبنى في 15 ديسمبر.

وما بدا أساساً مثل عقد حلم سيدرّ علينا ربحاً كبيراً تحوّل إلى كابوس مزعج سنستيقظ منه في 15 ديسمبر مع خسائر فادحة.

كان والدي رافضاً فكرة توقيع شركة بارينغتون على العقد في المقام الأول، وقد أوضح وجهة نظره بشكل جلي، وكرر في كل اجتماع لمجلس الإدارة: «علينا الالتزام بما نبرع فيه. فخلال الأعوام المئة الماضية، تولت شركة بارينغتون للشحن نقل البضائع من وإلى أصقاع الأرض البعيدة، تاركة الشركات المنافسة لها في بيلفاست، وليفربول، ونيوكاسل منكبّة على تشييد السفن».

عرفتُ أنني لن أتمكن من تبديل رأيه، ولذلك أمضيت وقتي وأنا أحاول إقناع الأعضاء الشباب في مجلس الإدارة بأننا فوّتنا العديد من الفرص في الأعوام الأخيرة، فيما استفادت شركات أخرى من توقيع عقود مربحة كان بوسعنا الحصول عليها بسهولة. وأقنعتهم أخيراً - بأغلبية ضئيلة - بالموافقة على توقيع عقد مع مايسون لنشيد لهم سفينة شحن تضاف إلى أسطولهم المتنامي.

وقلت لمجلس الإدارة: «إذا أنجزنا عملاً جيداً وسلّمنا سفينة «مابل ليف» في الوقت المحدد، فلا شك في أن المزيد من العقود الأخرى ستأتي لاحقاً».

«فلنأمل ألا نندم على ذلك». كان ذلك هو التعليق الوحيد لوالدي بعدما خسر في تصويت مجلس الإدارة.

بدأت أندم الآن. فعلى الرغم من توقع شركة بارينغتون للشحن تحقيق أرباح قياسية عام 1921، إلا أنه بدا وكأن شركتها الفرعية الجديدة - بارينغتون لصناعة السفن - ستكون الرقم الأحمر الوحيد على

ورقة الموازنة السنوية. وبدأ بعض أعضاء مجلس الإدارة يناون بأنفسهم عن القرار، مع تذكير الجميع بأنهم صوتوا مع والدي ضد القرار.

تمّ تعييني حديثاً المدير التنفيذي في الشركة، وأتخيل مقدار الكلام الذي حُكي من وراء ظهري. لا شك في أن عبارة «هذا الشبل من ذاك الأسد» لم تكن على ألسن الجميع. وقد استقال أحد المديرين، وكانت آراؤه واضحة جداً عند مغادرته؛ إذ حذّر والدي قائلاً: «إنه يفتقد إلى الحكم الجيد. لذا، توخَّ الحذر كي لا يُفلس الشركة».

إلا أنني لم أستسلم، وبقيت مقتنعاً أنه طالما أننا سننهي العمل في الوقت المحدد، فبإمكاننا النجاة بأنفسنا، وربما سنتمكن من تحقيق ربح صغير. غير أن الكثير من الأمور ارتبط بها حصل خلال الأسابيع القليلة الماضية. فقد أعطيتُ الأمر بالعمل على مدار الساعة خلال ثلاثة دوامات عمل، ووعدت العمال ببعض العلاوات إذا نجحوا في إنجاز العقد في الوقت المحدد. ففي النهاية، يوجد الكثير من الرجال المتسكعين خارج البوابات، والتواقين للعمل.

كنت على وشك إخبار سكرتيرتي بأنني مغادر إلى المنزل عندما دخل مكثبي بسرعة ومن دون استئذان.

كان رجلاً قصيراً، ومربوع القامة، ذا كتفين عريضتين وعضلات ناتئة، وبدت بنيته مثل بنية محمّل السفن. أول ما خطر في بالي هو التساؤل عن كيفية نجاحه في تجاوز الأنسة بوتس التي لحقت به على الفور وقد بدت مرتبكة على غير عاداتها وقالت: «لم أستطع إيقافه. هل يجدر بي الاتصال بالحارس؟».

نظرتُ إلى عيني الرجل وقلت: «لا».

بقيت الأنسة بوتس قرب الباب فيما راقبنا بعضنا بعضاً مثل النمس والأفعى، متسائلين عمن منا سيهجم أولاً. ثم رفع الرجل قبعته على مضض وبدأ يثرثر، ومرّ بعض الوقت قبل أن أفهم ما يقوله.

«أفضل صديق لي سيموت! آرثر كليفتون سيموت إذا لم تفعلوا أي شيء».

طلبت منه أن يهدأ ويشرح لي طبيعة المشكلة. وفي تلك اللحظة، دخل مدير العمال الغرفة مسرعاً، وقال بعد أن التقط أنفاسه: «آسف لأن تانكوك قد أزعجك يا سيدي. لكنني أؤكد لك أن الوضع بات تحت السيطرة. لا داعي للقلق من أي شيء».

سألت: «ما هو الذي تحت السيطرة؟».

«يزعم تانكوك أن صديقه كليفتون كان يعمل داخل بدن السفينة عندما تم تبديل العمال، وأن فريق العمل الجديد عمل على حبسه في الداخل نوعاً ما».

فصرخ تانكوك: «اذهب لترى بنفسك. يمكنك سماع صوت طرقاته على الخشب».

فسألت: «هل هذا ممكن يا هاسكينز؟».

«كل شيء ممكن يا سيدي، لكن الاحتمال الأكبر هو أن كليفتون أنهى عمله اليوم وبات الآن في المقهى».

عندها سألت تانكوك: «ولماذا لم يسجل خروجه عند البوابة؟».

فأجاب هاسكينز من دون أن ينظر إليه: «لا شيء غريب في هذا يا سيدي. إذ إن تسجيل الدخول هو المهم وليس تسجيل الخروج».

قال تانكوك: «إذا لم تأتِ الآن لترى بنفسك، فستذهب إلى القبر ويداك ملطختان بدمائه». أدى هذا الكلام إلى صمت الجميع، بمن في ذلك هاسكينز.

قلت: «حضرة الأنسة بوتس، سأنزل إلى حوض السفن رقم واحد، ولا يفترض بي أن أتأخر».

عندها، خرج الرجل القصير مربع القامة من مكثبي من دون التفوه بأية كلمة.

قلت: «هاسكينز، رافقني في سيارتي. يمكننا مناقشة ما يجب فعله في طريقنا إلى هناك».

فأصر على القول: «لا يوجد ما يحتاج إلى المناقشة يا سيدي. هذا كله هراء».

وعندما أصبحنا في السيارة وحدنا، عبّرت عن غضبي بصراحة: «هل هناك أي احتمال بأن يكون كليفتون عالقاً فعلاً في بدن السفينة؟».

فأجاب هاسكينز بصرامة: «لا مجال يا سيدي. آسف لأنني أبدد وقتك».

قلت: «لكن ذلك الرجل يبدو واثقاً تماماً».

«تماماً مثلما يكون واثقاً دوماً بشأن من سيربح في سباق تشيبستو».

لم أضحك.

بعد ذلك، تابع هاسكينز كلامه بنبرة أكثر جدية: «انتهى دوام كليفتون في تمام الساعة السادسة. ولا بدّ أنه عرف أن الحدّادين سيبدأون عملهم فوراً لينهوا العمل قبل بدء الدوام التالي المفترض عند الساعة الثانية فجراً».

«ما الذي كان كليفتون يفعله في بدن السفينة أساساً؟».

«كان يتحقق للمرة الأخيرة ربما قبل أن يبدأ الحدّادون عملهم».

«وهلّ يحتمل أنه لم يعرف أن دوام قد عمله انتهى؟».

فأجاب هاسكينز فيما مررنا أمام تانكوك الذي كان يركض مثل رجل مجنون: «يمكنك سماع بوق نهاية الدوام من وسط بریتسول».

«حتى لو كنت في أعماق بدن السفينة؟».

«أفترض أنه يحتمل ألا يسمعه إذا كان في القعر العميق، لكنني لم أصادف يوماً عاملاً سفن لا يعرف متى ينتهي دوام عمله».

فقلت: «طالما أنه يملك ساعة». ونظرت لأرى إذا كان هاسكينز يضع ساعة ولكنه لم يكن يضع واحدة. «إذا كان كليفتون موجوداً هناك فعلاً، فهل نملك المعدات لإخراجه؟».

«لدينا ما يكفي من مشاعل الأستيلين لحرق جزء من بدن السفينة وإخراج قسم كامل منه. لكن المشكلة هي أن الأمر يحتاج إلى ساعات. وإذا كان كليفتون موجوداً هناك فعلاً، فلن يكون هناك احتمال كبير بأن يبقى على قيد الحياة حين نصل إليه. بالإضافة إلى ذلك، سيحتاج الرجال إلى ليلة إضافية، أو ربما أكثر، لإعادة استبدال القسم كله. ومثلما تذكرني دوماً يا سيدي، لقد أعطيت العلاوات لتوفير الوقت، وليس لتبديده».

كان فريق العمل الليلي في ساعته الثانية عندما أوقفت سيارتي قرب جانب السفينة. لا بد من وجود أكثر من مئة رجل على متنها يعملون على التسطیح، والطرق، والتلحيم، وتثبيت المسامير. وفيما تسلقت الممر الخشبي الموقّت، رأيت تانكوك يركض صوب السفينة. وعندما لحق بي بعد لحظات قليلة، انحنى صوب الأرض واضعاً يديه على فخذه لالتقاط أنفاسه.

سألته بعد أن استعاد أنفاسه: «ماذا تتوقع مني يا تانكوك؟».

«أوقفهم عن العمل جميعاً يا سيدي، وستسمعه يطرق».

فأومأت برأسي موافقاً.

هزّ هاسكينز كتفيه عاجزاً عن تصديق أنني فكرت في إصدار مثل هذا الأمر. واحتاج إلى عدة دقائق للطلب من الجميع ترك أدواتهم، ولجعل العمال يصمتون. وقف جميع الرجال على متن السفينة وكذلك على الرصيف صامتين، وأصغوا بعناية، لكنني لم أسمع أي شيء باستثناء أصوات طيور النورس أو سعال رجل مدخن.

قال هاسكينز: «مثلما قلت لك يا سيدي، كان ذلك مضيعة لوقت الجميع. لا بد أن كليفتون يرتشف الآن كأسه الثالثة في المقهى».

في تلك اللحظة، أوقع أحدهم مطرقة، وتردد صدى الصوت حول أحواض السفن. وبعد ذلك، لهنيهة، فقط لهنيهة، اعتقدت أنني سمعت صوتاً مختلفاً؛ منتظماً وخافتاً.

صرخ تانكوك: «هذا هو».

بعد ذلك، مثلما بدأ كل شيء فجأة، توقف الضجيج.

صرختُ: «هل سمع أحد أي شيء؟».

فقال هاسكينز: «لم أسمع أي شيء». ونظر إلى الرجال كما لو أنه يحذرهم من تحديه.

حدّق إليه بعض الرجال، فيما رفع واحد أو اثنان المطرقة بطريقة مهددة، كما لو أنهما ينتظران من يقودهما إلى الأعلى.

شعرتُ أنني مثل القبطان الذي أُعطي فرصة أخيرة لقمع تمرد. وفي كلتا الحالتين، لن أربح. فإذا طلبت من الرجال العودة إلى العمل، ستسري الشائعات إلى أن يعتقد كل رجل في أحواض السفن أنني شخصياً المسؤول عن موت كليفتون. وستمرّ أسابيع، وأشهر، وربما سنوات قبل أن أستطيع استعادة سلطتي. وفي الوقت نفسه، إذا أعطيت الأمر بكسر بدن السفينة، فإن أي أمل بجني ربح من العقد سيطير في الهواء. وبالترافق مع ذلك، سيتلاشى أمني في أن أصبح رئيس مجلس الإدارة. وقفتُ هناك على أمل أن يقنع الصمت المستمر كل الرجال بأن تانكوك مخطئ. ومع مرور كل ثانية صمت، ازدادت ثقتي في نفسي.

وبعد لحظات قليلة قال هاسكينز: «يبدو أنه ما من أحد قد سمع شيئاً يا سيدي. هل يمكنني الحصول على إذنك لإعادة الرجال إلى العمل؟».

لم يتحركوا قط، وإنما استمروا في التحديق إليّ بتحدٍّ، فحدّق إليهم هاسكينز؛ إلى أن أخفض في النهاية واحد أو اثنان عيونهما.

استدرت صوب الممر الخشبي وأعطيت الأمر بالعودة إلى العمل. وفي لحظة الصمت التي تلت ذلك، أقسم إنني سمعت نقرة. نظرت إلى



تانكوك، لكن الصوت حينها كان قد اختفى وسط ألف صوت آخر، فيما عاد الرجال إلى متابعة عملهم على مضض.

قال هاسكينز: «تانكوك، لماذا لا تذهب إلى المقهى لتلاقي صديقك هناك؟ وعندما تجده، وبّخه لأنه أضاع وقت الجميع».

فقلت: «وإذا لم يكن هناك، اتصل بمنزله واسأل زوجته إن كانت قد رآته». وعندما أدركت خطئي لحظة تكلمت. فأضفت بسرعة: «هذا على افتراض أنه متزوج».

فأجاب تانكوك: «نعم، سيدي. إنه متزوج من أختي».

«وإذا لم تجده، أبلغني مجدداً».

فقال تانكوك فيما استدار ومشى بعيداً وهو مثبط العزيمة: «سيكون الأوان قد فات حينها».

قلت: «سأكون في مكثبي إذا احتجت إليّ يا هاسكينز». ثم مشيت على الممر الخشبي، وعدت بالسيارة إلى مقرّ شركة بارينغتون على أمل ألا أرى تانكوك مجدداً.

جلست إلى طاولة مكثبي، لكنني عجزت عن التركيز على الرسائل التي تركتها الأنسة بوتس لأوقع عليها. إذ ظللت أسمع صوت تلك الطرقات في رأسي، تتكرر مراراً وتكراراً، مثل المعزوفة الشعبية التي تتردد دوماً في عقلك وتمنعك من النوم. وعرفت أنه إذا لم يأتِ كليفتون إلى العمل في صباح اليوم التالي، فلن أتخلص أبداً من ذلك الصوت مجدداً.

خلال الساعة التالية بدأت أشعر بثقة أكبر، وفكرت في أن تانكوك قد وجد صديقه على الأرجح، وأنه نادم الآن لأنه تصرف مثل الأحمق.

كانت تلك المرة من المناسبات النادرة التي تغادر فيها الأنسة بوتس المكتب قبلي، وكنت أقفل الدرج العلوي في مكثبي قبل أن أذهب إلى المنزل عندما سمعت صوت خطوات تركض على السلم. لا بد أنه رجل. نظرت إلى الأعلى، فرأيت الرجل الذي تمنيت ألا أراه أبداً مجدداً يقف عند الباب، ونظراته تقدح شرراً.

قال مطبقاً قبضة يده: «لقد قتلت أفضل صديق لي أيها الحقير. لقد قتلته بيديك».

فقلت: «اهداً الآن يا تانكوك. كل ما نعرفه هو أن كليفتون لا يزال ربما على قيد الحياة».

«لقد ذهب إلى قبره كي تنهي عملك اللعين في الوقت المحدد. ما من رجل سيبحر على متن تلك السفينة عندما يكتشف الحقيقة».

فقلت بضعف: «يموت الرجال في حوادث تشييد السفن كل يوم».

عندها، تقدم تانكوك خطوة نحوي، وكان غاضباً جداً لدرجة أنني ظننتُ لهنيهة أنه سيضربني، ولكنه وقف هناك مُبعداً قدميه عن بعضهما، ومطبقاً قبضتي يديه، ومحدقاً إليّ بغضب وهو يقول: «عندما أخبر الشرطة بما أعرفه، فعليك الاعتراف بأنه كان بوسعك إنقاذ حياته بكلمة واحدة. لكن بما أنك مهتم فقط بمقدار المال الذي تجنيه، فسأحرص على إقناع كل الرجال في أحواض السفن هنا بعدم العمل معك مجدداً».

عرفتُ أنه إذا تورطت الشرطة في الأمر فستظن نصف بريستول أن كليفتون لا يزال عالقاً في بدن السفينة، وسوف تطالب النقابة بفتحه. وإذا حصل ذلك، فلا أشك أبداً في ما سيجدونه.

نهضت عن الكرسيّ ببطء، وتوجهت صوب الخزانة في الطرف البعيد من الغرفة. أدخلت الرمز السري، وأدرت المفتاح وفتحت الباب، ثم أخرجت مغلفاً أبيض سميكاً قبل أن أعود إلى مكتبي. رفعت سكين فتح الرسائل الفضية، ومزقت المغلف وأخرجت ورقة خمسة باوندات منه، وأنا أتساءل عما إذا كان تانكوك قد رأى واحدة مثلها من قبل. وضعت ورقة النقود أمامه، وراقبتُ عينيه الجشعتين وهما تتسعان على الفور.

قلت: «ما من شيء سيُعيد صديقك». بعد ذلك، وضعت ورقة ثانية فوق الورقة الأولى، فلم تفارق عيناه المال. «وعلى أية حال، من يعلم؟ فرما يكون قد غادر في إجازة لبضعة أيام. لا يعتبر ذلك غير اعتيادي بالنسبة إلى طبيعة عمله». وضعت ورقة ثالثة فوق الثانية وأنا أتابع كلامي: «وعندما يعود، لن ينسأك رفيقك أبداً». تلتها الورقة الرابعة فالخامسة. «ولن يتم اتهامك بتبديد وقت الشرطة، أليس كذلك؟ فهذا إزعاج كبير يمكن أن تعاقب عليه بالسجن». ثم أضفتُ ورقتين نقديتين أخريين. «وسوف تخسر وظيفتك أيضاً». عندها، نظر إليّ وقد تحوّل غضبه إلى خوف. أضفت ثلاث أوراق أخرى، وقلت: «إذ لا يمكنني أن أوظّف رجلاً يتهمني بالقتل». أضفتُ آخر ورقتين نقديتين فبات المغلف فارغاً.

استدار تانكوك بعيداً، فأخرجت محفظة نقودي وأضفتُ ورقة خمسة باوندات، وورقة ثلاثة باوندات، وعشرة شلنات. فصار المجموع: 68 باونداً و 10 شلنات. عندها، عادت عيناه إلى الأوراق النقدية، فقلت: «هناك الكثير من حيث أت هذه». على أمل أن أبدو مقنعاً.

مشى تانكوك ببطء متجهاً إلى مكتبي، ومن دون أن ينظر إليّ، جمع الأوراق النقدية ووضعها في جيبه، ثم غادر من دون أن يتفوّه بأية كلمة.

توجّهت إلى النافذة، وراقبته فيما خرج من المبنى واتّجه ببطء  
صوب بوابة أحواض السفن.

تركت الخزانة مفتوحة، وبعثرت بعض محتوياتها على الأرض، ثم  
أوقعت المخلّف الفارغ أرضاً، وغادرت مكّتي من دون إغلاقه. كنت آخر  
شخص غادر المبنى.

قالت الأنسة بوتس: «التحري بلايكمور يا سيدي». ثم وقفت جانباً للسماح للشرطي بالدخول إلى مكتب المدير.

تأمل هوغو بارينغتون التحري جيداً حين دخل الغرفة. لا يتعدى طوله خمس أقدام وتسعة إنشات، وكان وزنه زائداً ببضعة باوندات، ولكنه بدا متمتعاً بلياقة بدنية. كان يحمل معطفاً واقياً من المطر اشتراه ربما حين كان شرطياً عادياً، واعتمر قبعة لبادية بنية اللون أكثر حداثة نوعاً ما؛ مما أشار إلى أنه ليس تحرياً منذ وقت طويل.

تصافحا، وبعد أن جلس بلايكمور، أخرج دفترًا وقلمًا من الجيب الداخلي للسترة، ثم قال: «مثلما تعلم يا سيدي، أنا أجري بعض التحقيقات في ما يتعلق بسرقة يقال إنها حدثت في هذا المكان في الليلة الماضية». لم يحب بارينغتون كلمة «يقال». «هل أستطيع سؤالك عن كيفية اكتشافك أن المال ناقص؟».

فأجاب بارينغتون وهو يحاول أن يبدو متجاوباً قدر الإمكان: «أوه، طبعاً حضرة التحري. وصلت إلى أحواض السفن قرابة الساعة السابعة من هذا الصباح، وذهبت فوراً للتحقق من العمل الذي تم إنجازه في الدوام الليلي».

«وهل هذا أمر تفعله كل صباح؟».

فأجاب هوغو: «لا، بين الحين والآخر فقط». وبدا محتاراً جداً من السؤال.

«وكم من الوقت أمضيت هناك؟».

«أمضيت هناك عشرين أو ربما ثلاثين دقيقة، ثم جئت إلى مكثبي».  
«إذاً، يفترض أنك وصلت إلى مكثبك قرابة السابعة وعشرين دقيقة،  
أو السابعة وثلاثين دقيقة على الأكثر».  
«نعم، هذا صحيح».

«وهل كانت سكرتيرتك هنا؟».

«نعم، كانت موجودة؛ إذ نادراً ما أنجح في الوصول قبلها. إنها سيدة  
مذهلة». أجاب هوغو مبتسماً.

فقال التحري: «جداً. وهل كانت الآنسة بوتس من أخبرك أنه تم  
فتح الخزنة؟».

«نعم. قالت لي إنها عندما وصلت هذا الصباح، وجدت باب الخزنة  
مفتوحاً، وبعض محتوياتها مبعثرة على الأرض، فاتصلت بالشرطة فوراً».  
«ألم تتصل بك أولاً يا سيدي؟».

«لا، حضرة التحري. كنت في سيارتي في طريقي إلى العمل حينها».  
«إذاً، تقول إن سكرتيرتك قد وصلت قبلك هذا الصباح. وهل غادرت  
قبلها في الليلة الماضية يا سيدي؟».

فأجاب بارينغتون: «لا أذكر. لكن من غير المعتاد أن أغادر بعدها».  
قال التحري: «نعم، أكدت الآنسة بوتس على ذلك. لكنها قالت  
أيضاً...»- ونظر إلى دفتره- «غادرتُ قبل السيد بارينغتون في الليلة

الماضية بسبب مشكلة طرأت واستحوذت على انتباهه». ثم نظر  
بلايكمور إلى الأعلى. «هل يمكنك إخباري بطبيعة المشكلة يا سيدي؟»  
فأجاب هوغو: «عندما تدير شركة كبيرة مثل هذه الشركة، تحصل  
المشاكل طوال الوقت».

«إذًا، أنت لا تذكر ما هي المشكلة المحددة التي طرأت مساء  
البارحة».

«لا يا سيدي، لا أذكر».

«عندما وصلت إلى مكتبك في الصباح ووجدت باب الخزانة مفتوحاً،  
ما هو أول شيء فعلته؟».

«تحققت من الخزانة لأرى ما فُقد منها؟».

«وماذا اكتشفت؟».

«تمت سرقة كل المال النقدي».

«وكيف تعرف أنه تمت سرقة كل المال النقدي؟».

فأجاب هوغو: «لأنني وجدت هذا المغلف مفتوحاً على مكتبي».  
وأعطاه للتحري.

«وكم كان يوجد في المغلف يا سيدي؟».

«كان هناك ثمانية وستون باونداً وعشرة شلنات».

«تبدو واثقاً جداً من ذلك».

فقال هوغو: «نعم، سيدي. وما الغريب في ذلك؟».

«لأن الأنسة بوتس أخبرتني ببساطة أنه يوجد ستون باونداً في الخزانة، وكلها أوراق من فئة خمسة باوندات. هل يمكنك إخباري من أين جاءت الباوندات الثمانية والشلنات العشرة الأخرى؟».

لم يجب هوغو على الفور، ثم قال أخيراً: «أحتفظ أحياناً بالقليل من النقود في درج مكتبي يا حضرة التحري».

«هذا مبلغ كبير لوصفه بالقليل من النقود. لكن، اسمح لي الآن بالعودة إلى موضوع الخزانة. عندما دخلت مكتبك هذا الصباح، كان أول شيء لاحظته هو أن باب الخزانة مفتوح».

«هذا صحيح يا حضرة التحري».

«هل تملك مفتاحاً للخزانة؟».

«نعم، بالتأكيد».

«هل أنت الشخص الوحيد الذي يعرف الرمز ويملك المفتاح؟».

«لا. تستطيع الأنسة بوتس أيضاً فتح الخزانة».

«هل تؤكد أن الخزانة كانت مقفلة عندما عدت إلى منزلك في الليلة

الماضية؟». **مكتبة الرمحي أحمد**

«نعم، فهي دوماً كذلك».

«إذاً، علينا أن نفترض أن السرقة قد تمت على يد محترف».

فسأله بارينغتون: «ما الذي يجعلك تقول هذا حضرة التحري؟».

غير أن بلايكمور قال متجاهلاً السؤال: «لكن، إذا كان اللص محترفاً،

فإن ما يحيرني هو سبب تركه باب الخزانة مفتوحاً».



«لا أفهمك يا حضرة التحري».

«سأشرح لك يا سيدي. يميل السارقون المحترفون إلى ترك كل شيء مثلما وجدوه كي لا يتم اكتشاف جريمتهم على الفور. فهذا يمنحهم المزيد من الوقت للتصرف بالأغراض المسروقة».

كرر هوغو: «المزيد من الوقت».

«السارق المحترف يترك باب الخزانة مفتوحاً، ويأخذ المغلف معه، حيث يمرّ بعض الوقت قبل أن تُكتشف سرقة أي شيء. وحسب خبرتي، هناك أشخاص لا يفتحون الخزانة طوال أيام عدة، أو حتى أسابيع. وحده السارق الهاوي يترك مكتبك بحالة الفوضى هذه».

«إذاً، إنه هاوٍ».

«لكن، كيف نجح في فتح الخزانة يا سيدي؟».

«ربما نجح في الحصول على مفتاح الأنسة بوتس؟».

«وهل تمكن من معرفة الرمز السري أيضاً؟! لكن الأنسة بوتس أكّدت لي أنها تأخذ معها مفتاح الخزانة إلى بيتها كل ليلة؛ تماماً مثلما تفعل أنت يا سيدي». لم يقل هوغو أي شيء. «هل أستطيع النظر إلى داخل الخزانة؟».

«نعم، طبعاً».

سأل التحري: «ما هذا؟». فيما أشار إلى علبة من القصدير موضوعة على الرف السفلي في الخزانة.

«إنها علبة تحتوي على نقود معدنية يا حضرة التحري. جمعها هواية مفضلة لدي».

«هل يمكنك فتحها لو سمحت؟».

فسأله هوغو بتململ: «وهل هذا ضروري فعلاً؟».

«نعم، أخشى ذلك يا سيدي».

فتح هوغو العلبة المعدنية على مضض، وكشف عن محتوياتها على مجموعة من النقود المعدنية الذهبية التي جمعها على مرّ الأعوام.

قال التحري: «وها نحن أمام لعز آخر. فقد أخذ سارقنا ستين باونداً من الخزانة، وثمانية باوندات وعشرة شلنات من درج مكتبك، ولكنه ترك وراءه علبة تحتوي على نقود معدنية ذهبية ذات قيمة أكبر. وهناك أيضاً مشكلة المخلّف».

فقال هوغو: «المخلّف!».

«نعم، سيدي. المخلّف الذي قلت إنه كان يحتوي على المال».

«لكنني وجدته على مكتبي هذا الصباح».

«لا أشك في ذلك يا سيدي، ولكن لا بد أنك ستلاحظ أنه تم فتحه

بترتيب».

قال هوغو: «ربما فُتِح بواسطة سكين الرسائل الخاصة بي». ورفعها

إلى الأعلى.

«هذا ممكن يا سيدي. لكن حسب تجربتي، يميل السارقون إلى

تمزيق المخلّفات وعدم فتحها بترتيب بواسطة سكين الرسائل كما لو أنهم يعرفون أصلاً ما يوجد داخلها».

فقال هوغو: «لكن الأنسة بوتس أخبرتني أنكم عثرتم على السارق». وحاول ألا يبدو يائساً جداً.

«لا، سيدي. لقد وجدنا المال، ولكنني لست مقتنعاً بأننا وجدنا المذنب الحقيقي».

«لكنكم وجدتم بعض المال بحوزته، أليس كذلك؟».

«نعم، سيدي».

«ما الذي تريدونه أكثر من ذلك؟».

«التأكد من أننا وجدنا المذنب الحقيقي».

«ومن هو الرجل المتهم؟».

فقال التحري وهو يقلب صفحة في دفتره: «لم أقل إنني اتهمته يا سيدي. اسمه ستانلي تانكوك، وتبين أنه أحد عمال تفريغ السفن لديك. هل يعني لك هذا الاسم أي شيء يا سيدي؟».

قال هوغو: «لا أستطيع القول نعم. لكنه إذا كان يعمل في حوض السفن، فلا شك في أنه يعرف أين يقع مكتبي».

«لا أشك في أن تانكوك يعرف مكان مكتبك، لأنه قال إنه أتى لرؤيتك قرابة الساعة السابعة من مساء البارحة لإخبارك بأن زوج أخته - السيد آرثر كليفتون - قد علق في بدن سفينة يتم تشييدها في حوض السفن، وإنك إذا لم تعطِ الأمر بإخراجه فسيموت».

«آه، نعم. أذكر ذلك الآن. ذهبت إلى حوض السفن بعد ظهر البارحة للتأكد من أقواله مثلما سيؤكد لك العمال، ولكن تبين أنه إنذار

خاطئ ومضيعة لوقت الجميع. فعلى ما يبدو، أراد معرفة مكان الخزنة كي يعود لاحقاً ويسرقني».

قال بلايكمور فيما قلب صفحة أخرى من ملاحظاته: «لقد اعترف أنه عاد إلى مكتبك مجدداً، وقال إنك أعطيته ثمانية وستين باونداً وعشرة شلنات ليُبقي فمه مغلقاً بشأن ما حصل مع كليفتون».

«لم أسمع قط بمثل هذا الاقتراح المقزز».

«إذاً، دعنا نفكر في البديل للحظة يا سيدي. فلنفترض أن تانكوك قد عاد فعلاً إلى مكتبك بنية السرقة في وقت ما بين السابعة والسابعة والنصف من مساء البارحة، وأنه نجح فعلاً في الوصول إلى المبنى من دون أن ينتبه إليه أحد، ووصل إلى الطابق الخامس، وشق طريقه إلى مكتبك، وفتح الخزنة بواسطة مفتاحك أو مفتاح الأنسة بوتس، وأدخل الرمز السري، وأخرج المغلف، وفتحه بترتيب بواسطة سكين فتح الرسائل، وأخرج المال، ولكنه لم يزعج نفسه بأخذ علبة النقود المعدنية الذهبية، وترك باب الخزنة مفتوحاً، وبعثر بعض محتوياتها أرضاً، ثم وضع المغلف على مكتبك، وبعد ذلك اختفى في الهواء».

عندها، قال هوغو بنبرة تحدُّ: «ليس من الضروري أن يكون ذلك قد حصل بين السابعة والسابعة والنصف مساء. إذ يمكن أن تكون السرقة قد حصلت في أي وقت قبل الثامنة من هذا الصباح».

فقال بلايكمور: «لا أعتقد ذلك يا سيدي. لأن تانكوك يملك عذراً مبرئاً من الساعة الثامنة مساء وحتى الحادية عشرة».

قال بارينغتون: «لا شك في أن هذا العذر المبرِّئ قدّمه صديق له».

فقال التحري: «واحد وثلاثون صديقاً حسب الإحصاء الأخير. إذ يبدو أنه بعد أن سرق مالك، ذهب إلى مقهى «بيغ أند ويسل» قرابة الساعة الثامنة، ووزع الشراب على أصدقائه، وسدّد كل ديونه، ودفع ورقة خمسة باوندات، هي الآن معي».

ثم أخرج التحري محفظته، وأخرج منها الورقة النقدية ووضعتها على مكتب بارينغتون.

«أضاف صاحب المقهى أيضاً أن تانكوك قد غادر المكان حوالي الساعة الحادية عشرة، وكان في حالة يرثى لها لدرجة أن اثنين من أصدقائه اضطرا إلى مرافقته إلى منزله في ستيل هاوس لاين، حيث وجدناه هذا الصباح. أستطيع القول يا سيدي إنه إذا كان تانكوك من سرقك فسنكون قد ألقينا القبض على سارق مهم، ولي الشرف بأن أكون الرجل الذي يضعه خلف القضبان. وأعتقد أن هذا ما كان يجول في فكرك يا سيدي». ثم نظر مباشرة إلى بارينغتون وأضاف: «عندما أعطيته المال بنفسك».

عندها، قال هوغو محاولاً إبقاء صوته عادياً: «وَلَمْ سَأفعل ذلك!؟».

«لأنه إذا تم اعتقال ستانلي تانكوك وإرساله إلى السجن، فلن يأخذ أحد على محمل الجد قصته بشأن آرثر كليفتون. والمصادفة هي أن كليفتون لم يظهر منذ بعد ظهر البارحة. لذا، يجدر بي أن أطلب من رؤسائي السماح بفتح بدن السفينة من دون أي تأخير كي نكتشف ما إذا كان الإنذار كاذباً، وإن كان ستانلي يُبدّد وقت الجميع».

نظر هوغو بارينغتون إلى المرأة وسوّى ربطة عنقه. لم يخبر والده بشأن حادثة آرثر كليفتون أو زيارة التحري بلايكمور. فكلما عرف الرجل العجوز معلومات أقل كان ذلك أفضل. وكل ما قاله له هو أنه تمت سرقة بعض المال من مكتبه وتم اعتقال أحد عمال تفريغ السفن.

وبعد أن ارتدى سترته الرسمية، جلس على طرف السرير وانتظر ريثما تنتهي زوجته من ارتداء ملابسها. كان يكره الوصول متأخراً، ولكنه عرف أنه مهما ألحّ وتوسل، فلن تسرع إليزابيت أبداً. تحقق من جيل وأخته الصغيرة إيما اللذين كانا نائمين.

أراد هوغو إنجاب ولدين؛ وريث وبديل له. وقد جاءت إيما بالخطأ؛ مما يعني أنه عليه أن يجرب مجدداً. لقد كان والده ولداً ثانياً، وقد خسر أخاه البكر أثناء محاربة البويرز في جنوب أفريقيا. أما الأخ الأكبر لهوغو فقد قتل في الإيبر مع نصف فرقته. لذا، يتوقع هوغو أن يخلف والده في رئاسة مجلس إدارة الشركة. وعندما يموت والده، يفترض أن يرث المنصب وثروة العائلة.

إذاً، عليهما هو وإليزابيت التجربة مجدداً؛ رغم أن العلاقة الحميمة مع زوجته لم تعد أمراً ممتعاً البتة. في الواقع، لا يذكر أن ذلك كان ممتعاً يوماً. وفي الآونة الأخيرة، بدأ يبحث عن المتعة في مكان آخر.

كانت أمه تقول له: «زواجك نعمة». أما والده فكان عملياً؛ إذ اعتقد أن زواج ابنه البكر من الابنة الوحيدة للورد هارفي اندماج أكثر مما هو زواج. وعندما قتل شقيق هوغو في الجبهة الغربية، تم نقل خطيبته إلى هوغو. لم يعد الأمر اندماجاً، بل أصبح استبدالاً. لم يتفاجأ هوغو حين اكتشف ليلة زواجه أن إليزابيت لا تزال عذراء. إنها عذراؤه الثانية.

خرجت إليزابيت أخيراً من غرفة الملابس، واعتذرت لأنها جعلته ينتظر؛ مثلما تفعل دوماً. لم تكن الرحلة من «مانور هاوس» إلى «قصر بارينغتون» تتجاوز الميلين، وكل الأراضي الواقعة بين المنزلين كانت تخص العائلة. عندما دخل هوغو وإليزابيت منزل والديه بعد دقائق قليلة من الساعة الثامنة، كان اللورد هارفي يشرب كأسه الثانية. نظر هارفي في أرجاء الغرفة إلى الضيوف الآخرين، وكان هناك ثنائي واحد فقط لا يعرفهما.

رافقه والده فوراً، وعرفه إلى الكولونيل دانفيرز؛ مسؤول الشرطة في المنطقة. قرر هوغو ألا يذكر أمام الكولونيل لقاءه مع التحري بلايكمور في الصباح. ولكن مباشرة قبل جلوسهم لتناول العشاء، أخذ والده جانباً لإطلاعهم على آخر ما حصل بشأن السرقة؛ من دون ذكر اسم آرثر كليفتون على الإطلاق.

وأثناء تناول العشاء المؤلف من الحساء، واللحم واللوبياء الخضراء، ومن ثم الكريم بروليه، دار الحديث حول زيارة أمير وايلز إلى كارديف، وملاحظاته غير المفيدة بشأن التعاطف مع عمال المناجم، إلى آخر تعريفات الاستيراد التي فرضها لويد جورج، وتأثير ذلك في صناعة الشحن، ومسرحية «دار القلب المكسور» للمؤلف جورج برنار شو التي بدأ عرضها مؤخراً في مسرح أولد فيك، قبل العودة إلى أمير وايلز مجدداً وطرح السؤال المهم والمتمثل في كيفية إيجاد زوجة مناسبة له.

عندما نظّف الخدم الطاولة بعد تناول الحلوى، انسحبت السيدات إلى قاعة الرسم لشرب القهوة، فيما قدّم كبير الخدم الشراب للرجال. قال السير والتر: «أنا أشحن وأنت تستورد». فيما رفع كأساً للورد هارفي. ودار كبير الخدم حول الطاولة موزعاً السيجار على الضيوف.

وبعد أن تم إشعال سيجار «روميو وجوليات» للورد هارفي، استدار صوب صهره وقال: «أخبرني والدك أن سارقاً ما دخل مكتبك وسرق كمية كبيرة من المال النقدي».

فأجاب هوغو: «نعم، هذا صحيح. لكنني مسرور لأنهم يقولون إنهم ألقوا القبض على السارق. وتبين لسوء الحظ أنه أحد العمال لدينا». عندها، سأل السير والتر: «هل هذا صحيح يا دانفيرز؟ هل ألقيتم القبض على الرجل؟».

فأجاب مسؤول الشرطة: «سمعت شيئاً عن هذا الموضوع، ولكن لم يتم إخباري بأنه تم توجيه التهمة إلى أيّ كان بعد». سأل اللورد هارفي: «ولمّ لا؟».

فتدخل هوغو قائلاً: «لأنّ الرجل يقول إنني من أعطاه المال. في الواقع، عندما استجوبني التحري هذا الصباح، بدأت أتساءل عن المجرم بيننا، وعن الفريق المتضرر».

عندها، قال الكولونيل دانفيرز: «آسف لشعورك بهذه الطريقة. هل أستطيع أن أعرف من هو المسؤول عن التحقيق؟».

فأجاب هوغو: «التحري بلايكمور. جعلني أشعر وكأنه يكره عائلتنا».

قال السير والتر وهو يضع كأسه على الطاولة: «عندما توظف الكثير من الأشخاص - مثلما نفعل نحن - فثمة احتمال كبير بأن يكون هناك شخص يكنّ الحقد».



قال دانفيرز: «عليّ الاعتراف بأن بلايكمور غير مشهور بلباقته، ولكنني سأهتم بالمسألة. وإذا شعرت أنه تخطى حدوده، فسأوكل القضية إلى شخص آخر».

أيام المدرسة هي أسعد أيام حياتك كما قال ر. س. شيريف، ولكن تجربة هوغو بارينغتون لم تكن كذلك. إلا أنه شعر أن تجربة جيل ستكون أفضل؛ على حدّ قول والده.

حاول هوغو نسيان ما حصل في يومه الأول في المدرسة قبل أربعة وعشرين عاماً. فقد تم أخذه إلى سانت بيد في عربة أنيقة برفقة والده وأمه وشقيقه الأكبر نيكولاس الذي تم تعيينه مؤخراً «كابتن» المدرسة. حينها، انفجر هوغو في البكاء عندما سأله ولد آخر ببراءة: «هل صحيح أن جدك كان عاملاً في أحواض السفن؟». كان السير والتر فخوراً بأن والده حقّق نجاحه بنفسه، ولكنّ الانطباعات الأولى تبقى عالقة في الأذهان بالنسبة إلى الأولاد الذين يكونون في الثامنة من العمر. «كان جدي عاملاً في حوض السفن! كان جدي عاملاً في حوض السفن! ابكِ أيها الصغير! ابكِ أيها الصغير». صرخ بقية الأولاد.

سيتم اليوم اصطحاب ابنه جيل إلى مدرسة سانت بيد في سيارة الرولس رويس الخاصة بالسير والتر بارينغتون. أراد هوغو اصطحاب ابنه إلى المدرسة في سيارته الخاصة، ولكن والده لم يسمح بذلك. «ثلاثة أجيال من آل بارينغتون تلقوا تعليمهم في سانت بيد وإيتون، ويجب أن يصل وريثي إلى هناك بطريقة أنيقة».

لم يذكر هوغو أمام والده أن جيل لم يحصل بعد على مكان له في إيتون، وأنه يحتمل أن تكون للصبي آراؤه الخاصة بشأن المكان الذي

يريد تلقي علومه فيه. وسمع والده يقول: «لا سمح الله. يجب قمع كل أفكار التمرد، وكبح جماح المتمردين».

لم ينطق جيل بأية كلمة منذ أن غادروا المنزل؛ رغم أن أمه لم تتوقف عن تدليله خلال الساعة الأخيرة، وهو ابنها الوحيد. بدأت إيما تبكي بشدة حين قيل لها إنها لا تستطيع مرافقتهم، فيما تشبّثت غرايس-فتاة أخرى، لن يزعج نفسه بالمحاولة مجدداً- بيد المرربة ولوحت لهم من الدرجة العلوية فيما انطلقوا بعيداً.

كانت لدى هوغو هموم أخرى غير إنجاب البنات في العائلة. وفيما انطلقت السيارة ببطء على طريق الأرياف متجهة صوب المدينة، تساءل هوغو في سره: هل سيرى هاري كليفتون للمرة الأولى؟ هل سيعتبره الابن الآخر الذي أراده ولكنه لن يحصل عليه أبداً؟ أم سيدرك ما إن يرى الصبي أنه لا يمكن أن يكون ابنه؟

يتوجب على هوغو توخي الحذر لتفادي والده كليفتون. هل سيتعرف إليها إن رآها؟ لقد اكتشف مؤخراً أنها تعمل نادلة في قاعة بام كورت في فندق رويال الذي كان يرتاده غالباً كلما أراد عقد اجتماعات عمل في المدينة. عليه الآن الاكتفاء بالذهاب إلى الفندق مساءً بين الحين والآخر، بعد التأكد من مغادرتها.

تم إطلاق سراح ستان تانكوك- شقيق مايزي- من السجن بعد أن أمضى ثمانية عشر شهراً من فترة عقوبته البالغة ثلاث سنوات. لم يعرف هوغو قطّ ما حلّ بالتحري بلايكمور، ولكنه لم يرَ الرجل مجدداً بعد حفلة العشاء التي أقامها والده. إذ قدّم محقق شاب دليلاً في محاكمة تانكوك، وبدا جلياً أنه لا يشك أبداً في الفريق المذنب.

حين أصبح تانكوك وراء القضبان، توقف بسرعة التخمين حول ما حصل لآرثر كليفتون. وفي عمل يكون فيه اموت شائعاً، أصبح آرثر كليفتون مجرد رقم آخر. لكن عندما أطلقت لايدي هارفي سفينة «مابل ليف» بعد ستة أشهر، رأى هوغو أن اسم «خزنة دايفي جونز» كان بلا شك اسماً أفضل للسفينة.

بعد تقديم الأرقام النهائية إلى مجلس الإدارة، تبين أن شركة بارينغتون قد خسرت 13712 باونداً في المشروع. لم يقترح هوغو التقدم للمزيد من عقود بناء السفن في المستقبل، ولم يتطرق السير والتر إلى الموضوع قط مجدداً. وفي السنوات التي تلت، عادت شركة بارينغتون إلى عملها التقليدي في الشحن، واستمرت في النمو والازدهار.

بعد نقل ستان إلى السجن المحلي، افترض هوغو أنه لن يسمع أخباره مجدداً. ولكن قبل فترة من الموعد المرتقب لإطلاق سراح تانكوك، اتصل حاكم بريستول بالآنسة بوتس وطلب موعداً. وعندما التقيا، طلب الحاكم من بارينغتون إعادة تانكوك إلى وظيفته القديمة، وإلا فسيكون أمله ضئيلاً جداً بالحصول على وظيفة. في البداية، فرح هوغو بسماع هذا الخبر، ولكن بعد أن فكر في الأمر ملياً، بدّل رأيه وطلب من فيل هاسكينز - المسؤول عن العمال - زيارة تانكوك في السجن وإخباره بأنه يستطيع العودة إلى وظيفته بشرط واحد؛ وهو أنه لا يجدر به ذكر اسم آرثر كليفتون مجدداً. أما إذا فعل ذلك، فعليه جمع أغراضه والبحث عن عمل في مكان آخر. قبل تانكوك العرض بامتنان، ومع مرور السنوات، بدا جلياً أنه التزم بشروط الاتفاق.

توقفت سيارة الرولز رويس أمام البوابة الأمامية لمدرسة سانت بيد،  
وخرج منها السائق لفتح الباب الخلفي. استدارت عدة عيون للنظر  
إليهم؛ بعضها بإعجاب، والبعض الآخر بحسد.

لم يحبّ جيل هذا الانتباه الذي وُجّه إليه، ومشى بسرعة مبتعداً  
ومتجاهلاً السائق ووالديه. لحقت به أمه، وانحنت ورفعت له جوربيّه،  
قبل أن تتحقق للمرة الأخيرة من أظفاره. أمضى هوغو وقته في النظر إلى  
وجوه الأولاد، متسائلاً عمّا إذا كان سيتعرف إلى ولد لم يره من قبل قطّ.

ثم رأى ولداً يصعد الهضبة؛ من دون صحبة أم أو أب. نظر وراء  
الصبي فرأى امرأة تراقبه؛ امرأة لا يمكنه أن ينساها أبداً. لا بد أنهما  
تساءلا كلاهما عمّا إذا كان ابن واحد له أو اثنان يدخلان سانت بيد في  
اليوم الأول.

عندما أصيب جيل بجديري الماء وتوجب عليه قضاء بضعة أيام في  
المصحة، أدرك والده أن هذه هي فرصته ليثبت أن هاري كليفتون ليس  
ابنه. لم يخبر إليزابيث أنه ذاهب لزيارة جيل أثناء وجوده في المصحة؛  
لأنه لم يُرد أن تكون معه عندما يطرح سؤالاً غريباً على السيدة المسؤولة.

وبعد أن أنهى مراجعة بريده الصباحي، أخبر هوغو الأنسة بوتس  
أنه سيذهب إلى سانت بيد ليرى ابنه، وألا تتوقع عودته قبل ساعتين.  
توجّه إلى المدينة، وركن السيارة أمام مقر فروبيشر. كان يذكر جيداً مكان  
المصحة؛ إذ اضطر إلى زيارتها بانتظام حين كان في سانت بيد.

كان جيل جالساً على سريره والمسؤولة تتأكد من حرارته عندما  
دخل والده الغرفة، فأشرق وجهه ما إن رأى أباه.

كانت السيدة المسؤولة واقفة قرب سريره، وقالت: «انخفضت حرارتك لتصبح تسعاً وتسعين. سنعيدك في الوقت المناسب لحضور أول درس صباح يوم الاثنين أيها الشاب الصغير». ثم هزّت ميزان الحرارة وهي تتابع: «سأتركك الآن يا سيد بارينغتون كي تقضي بعض الوقت مع ابنك».

فقال هوغو: «شكراً لك يا سيدتي. كنت أتساءل عما إذا كان بوسعي التكلّم معك قبل أن أغادر؟».

«طبعاً يا سيد بارينغتون. سأكون في مكتبي».

قال هوغو بعد أن غادرت السيدة الغرفة: «لا تبدو لي سيئاً جداً يا جيل».

«أنا بخير بابا. في الواقع، أفضل لو أن السيدة تسمح لي بالخروج صباح يوم السبت كي ألعب كرة القدم».

«سأتكلم معها قبل أن أذهب».

«شكراً بابا».

«كيف تسير الدروس؟».

قال جيل: «لا بأس؛ والسبب في ذلك أنني أدرس مع أذكي ولدين في صفي».

عندها، سأله والده وهو يخشى الجواب مسبقاً: «ومن هما؟».

«ديكنز، إنه أذكي ولد في المدرسة. في الواقع، لا يتحدث معه بقية الأولاد لأنهم يظنونه تلميذاً مجداً. لكن أفضل صديق لي هو هاري

كليفتون. إنه ذكي جداً أيضاً، ولكنه ليس بذكاء ديكنز. ربما سمعته ينشد في جوقة دار العبادة. أعرف أنك ستحبه».

قال هوغو: «لكن، أليس هاري ابن حمّال سفن؟».

«نعم. وهو لا يخفي الموضوع؛ تماماً مثلما فعل جدي. لكن، كيف عرفت ذلك بابا؟».

فأجاب هوغو: «أعتقد أن كليفتون كان يعمل في شركتنا». لكنه ندم فوراً على كلماته ما إن تفوّه بها.

قال جيل: «لا بد أن هذا قد حصل قبل أيامك بابا. فقد قتل والده في الحرب».

سأل هوغو: «من قال هذا؟».

«والدة هاري. إنها نادلة في فندق رويال. ذهبنا إلى هناك لتناول الشاي يوم ذكرى ميلاده».

أراد هوغو أن يسأل عن يوم ذكرى ميلاد كليفتون، ولكنه خشي أن يكون قد أفرط في طرح الأسئلة. لذا قال عوضاً عن ذلك: «ترسل لك أمك تحياتها. أعتقد أنها تنوي زيارتك مع إيمّا في وقت لاحق من هذا الأسبوع».

فقال جيل: «أوه، هذا كل ما أحتاج إليه؛ جديري الماء وزيارة من أختي المريضة».

عندها، قال والده ضاحكاً: «ليست بهذا السوء».

أجاب جيل: «إنها أسوأ. ولا يبدو أن غرايس ستكون أفضل حالاً أيضاً. هل ستأتيان معنا في العطلة يا بابا؟».

«نعم، طبعاً».

«كنت أتساءل عما إذا كان بوسع هاري كليفتون الانضمام إلينا في  
توسكانة هذا الصيف؛ فهو لم يسافر قط».

فأجاب هوغو ببعض الصرامة: «لا. فالعطلات مخصصة للعائلة  
فقط، ولا تتم مشاركتها مع الغرباء».

عندها قال جيل: «لكنه ليس غريباً، إنه أفضل صديق لي».

كرّر هوغو: «لا، وانتهى الأمر». بدا جيل خائب الأمل، فسأله هوغو  
لتغيير الموضوع بسرعة: «ما الذي تريده كهدية بمناسبة ذكرى ميلادك يا  
صغيري».

أجاب جيل من دون تردد: «أحدث مذياع. اسمه روبرتس الموثوق».  
«وهل يُسمح لك بأخذ المذياع إلى المدرسة؟».

أجاب جيل: «نعم، شرط تشغيله فقط في عطلات نهاية الأسبوع.  
لكن، إذا ألقى القبض عليك وأنت تستمع إليه بعد إطفاء الأنوار أو  
خلال الأسبوع، فستتم مصادرته».

«سأرى ما أستطيع فعله. هل ستأتي إلى المنزل يوم ذكرى ميلادك؟».

«نعم، وإنما فقط لتناول الشاي. إذ يجب عليّ العودة إلى المدرسة في  
الوقت المحدد».

فقال هوغو: «إذاً، سأحاول أن أكون موجوداً. سأغادر الآن لأنني  
أريد التكلم مع السيدة المسؤولة قبل أن أغادر».



«لا تنسَ أن تسألها إذا كانت تسمح لي بالخروج صباح السبت». ذكره جيل فيما كان يغادر الغرفة لتنفيذ الهدف الحقيقي من زيارته.

قالت السيدة المسؤولة حين دخل مكتبها: «أنا مسرورة لأنك جئت يا سيد بارينغتون؛ إذ سيرفع ذلك معنويات جيل كثيراً. لكن مثلما ترى، لقد تعافى بالكامل تقريباً».

«نعم، وهو يأمل أن تسمح له بالخروج صباح السبت كي يشارك في مباراة كرة القدم».

فقالت السيدة المسؤولة: «أنا واثقة من أن هذا سيكون ممكناً، ولكنك قلتَ لي إنك تريد التحدث بخصوص أمر آخر؟».

«نعم، يا سيدي. تعرفين أن جيل مصاب بعمى الألوان، وأريد أن أعرف فقط إذا كان هذا الأمر يسبب له أي صعوبات».

فأجابت السيدة: «لا، ليس حسب علمي. فلو كانت هناك مشكلة، فإنها لا تمنعه من إصابة كرة حمراء في ملعب أخضر قبل أن تصل إلى حدود بيضاء».

ضحك بارينغتون قبل أن يقول عبارته التالية التي استعد لها جيداً: «عندما كنت في سانت بيد، كان الآخرون يضايقونني لأنني الصبي الوحيد المصاب بعمى الألوان».

عندها قالت السيدة المسؤولة: «دعني أؤكد لك أنه ما من أحد يضايق جيل. وعلى أية حال، إن صديقه المفضل مصاب أيضاً بعمى الألوان».

عاد هوغو إلى مكتبه، وفكّر في ضرورة القيام بشيء ما قبل أن يخرج الوضع عن السيطرة. قرّر التكلم مجدداً مع الكولونيل دانفيرز.

وما إن وصل إلى مكتبه حتى طلب من الأنسة بوتس عدم إزعاجه. انتظر إلى أن أغلقت الباب قبل أن يرفع سماعة الهاتف. وبعد لحظات قليلة، أصبح مسؤول الشرطة على الخط.

«أنا هوغو بارينغتون، حضرة الكولونيل».

فسأله مسؤول الشرطة: «كيف حالك يا صديقي؟».

«أنا بخير يا سيدي. كنت أتساءل عما إذا كان بوسعك تقديم النصيحة لي في مسألة خاصة».

«قل لي يا صديقي».

«أبحث عن مسؤول جديد للأمن، وأتساءل إذا كان بوسعك إرشادي في الاتجاه الصحيح».

«بطبيعة الحال، أعرف رجلاً قد يناسبك، ولكنني لست واثقاً من أنه لا يزال متوافراً. سأستوضح الأمر ثم أتصل بك».

وفي مسؤول الشرطة بكلمته، واتصل به مجدداً في صباح اليوم التالي قائلاً له: «الرجل الذي خطر في بالي يعمل الآن بدوام جزئي، ولكنه يبحث عن عمل أكثر ديمومة».

فسأله هوغو: «ما الذي تستطيع إخباري به عنه؟».

«تم تسليمه المهمات الصعبة في الشرطة، ولكنه اضطر إلى مغادرة السلك بعدما تعرض لإصابة بليغة وهو يحاول إلقاء القبض على سارق أثناء عملية سطو على مصرف ميدلاند. ربما تذكر القصة، فقد تم نشرها

في الصحافة الوطنية. برأيي، إنه المرشح المثالي ليرأس فريق الأمن لديك، وبصراحة ستكون محظوظاً إن وظّفته. إذا كنت مهتماً، فبإمكاني تزويدك بكل التفاصيل».

اتصل بارينغتون بالشرطي السابق ديريك ميتشيل من منزله؛ لأنه لا يريد أن تعرف الأنسة بوتس بما يحضر له، واتفق على لقائه في فندق رويال عند الساعة السادسة من مساء الاثنين، بعد أن تغادر السيدة كليفتون وتصبح قاعة بالم كورت فارغة.

وصل هوغو إلى الفندق قبل دقائق معدودة، وتوجّه مباشرة إلى طاولة في الطرف البعيد من القاعة، طاولة لا يفكر فيها عادة. جلس وراء العمود حيث لا يستطيع أحد رؤية أو سماع أي شيء أثناء لقائه ميتشيل. وفيما كان ينتظر، راجع في ذهنه لائحة من الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة إذا أراد وضع ثقته في شخص غريب.

وعند الساعة السادسة إلا ثلاث دقائق، وصل رجل طويل وقوي البنية ذو أسلوب عسكري، وشقّ طريقه عبر الباب الدوار. سترته الكحلية الداكنة، وسرواله الرمادي، وشعره القصير، وحذاؤه اللامع كلها دلّت على حياة منضبطة.

وقف هوغو ورفع يده كما لو أنه ينادي نادلاً، فمشى ميتشيل في الغرفة ببطء، ولم يحاول إخفاء عرجه البسيط الناجم عن الإصابة التي جعلته خارج سلك الشرطة، حسب قول دانفيرز.

تذكّر هوغو آخر مرة كان فيها وجهاً لوجه مع شرطي؛ ولكنه هو من سيطرح الأسئلة هذه المرة.

«مساء الخير سيدي».

قال هوغو فيما تصافحا: «مساء الخير ميتشيل». وبعد أن جلس ميتشيل، نظر هوغو عن كثب أكثر إلى أنفه المكسور وأذنيه الكبيرتين، وتذكّر ما قاله الكولونيل دانفيرز عن أنه كان يلعب في فريق بريستول.

قال هوغو من دون تبديد أي وقت: «دعني أتطرق إلى الموضوع مباشرة يا ميتشيل. أريد أن أناقش معك مسألة خاصة جداً، ويجب أن تبقى سرية بيننا نحن الاثنين». فأوماً ميتشيل برأسه. «في الواقع، إنها سرية جداً، حيث إن الكولونيل دانفيرز لا يعرف مطلقاً السبب الحقيقي الذي دفعني لرؤيتك؛ لأنني من دون شك لا أبحث عن شخص يرأس فريق الأمن لدي».

بقي وجه ميتشيل من دون أية تعابير فيما انتظر سماع ما يريد هوغو قوله.

«أنا أبحث عن شخص يوافق على العمل كرجل تحرّ؛ مهمته الوحيدة إبلاغي كل شهر عن نشاطات امرأة تعيش في هذه المدينة، وتعمل في هذا الفندق».

«أفهم يا سيدي».

«أريد أن أعرف كل ما تفعله، سواء أكان على الصعيد الشخصي أو المهني، ومهما بدا الأمر غير مهم. وأكرر، يجب ألا تعرف أبداً أنك مهمم بها. لذا، قبل أن أكشف لك عن اسمها، هل تعتبر نفسك قادراً على إنجاز مثل هذه المهمة؟».

فأجاب ميتشيل: «هذه الأمور غير سهلة البتة، ولكنها ليست مستحيلة. حين كنت محققاً شاباً، عملت في مهمة سرية أدّت إلى إلقاء

القبض على مجرم خطير بقي وراء القضبان لمدة ستة عشر عاماً. وإذا دخل الآن هذا الفندق، فأنا واثق من أنه سيتعرف إليّ».

ابتسم هوغو للمرة الأولى، ثم طرح سؤاله مجدداً: «قبل أن أتابع الكلام، أريد أن أعرف ما إذا كنت تقبل بأداء مثل هذه المهمة؟».

«هذا مرتبط بعدة أمور يا سيدي».

«مثل ماذا؟».

«هل ستكون وظيفة بدوام كامل؟ لأنني حالياً أعمل في دوام ليلي مع شركة أمن في مصرف».

فقال هوغو: «قدّم استقالتك غداً، فأنا لا أريدك أن تعمل لصالح أي كان».

«وما هو دوام العمل؟».

«حسب اختيارك».

«وماذا بشأن راتبي؟».

«سأدفع لك ثمانية باوندات في الأسبوع، مع دفعة شهرية مسبقة، وسأغطي كل النفقات».

عندها، أوما ميتشيل برأسه موافقاً وقال: «هل أستطيع اقتراح تسليمي المال نقداً سيدي، كي لا يتم اكتشاف أي شيء؟».

فردّ هوغو: «يبدو هذا منطقياً». علماً أنه كان قد اتخذ هذا القرار أساساً.

«أتريد أن تكون التقارير الشهرية مكتوبة أو أن أبلغك إياها شخصياً؟».

«أفضل أن تبلغني إياها شخصياً، فأنا لا أريد الالتزام بالورق».

«إذاً، علينا أن نلتقي في مكان مختلف كل مرة، وليس في اليوم نفسه من الأسبوع. وبهذه الطريقة، لن يصادفنا أي كان أكثر من مرة واحدة».

فقال هوغو: «لا مشكلة في ذلك».

«متى تريدني أن أبدأ سيدي؟».

فقال بارينغتون: «لقد بدأت قبل نصف ساعة». ثم أخرج قصاصة ورقية، ومغلفاً يحتوي على 32 باونداً من جيبه الداخلي وسلّمهما إلى ميتشيل.

قرأ ميتشيل الاسم والعنوان المكتوبين على القصاصة الورقية، وتأملها بضع لحظات قبل أن يعيدها إلى سيده. «أحتاج أيضاً إلى رقمك الخاص يا سيدي، وإلى تفاصيل عن كيفية الاتصال بك».

فقال هوغو: «في مكثبي مساءً، بين الخامسة والسادسة. لا يجدر بك أبداً الاتصال بي في المنزل؛ إلا في حال وجود أمر طارئ». ثم أخرج قلماً.  
«أخبرني بالأرقام يا سيدي. لا تكتبها».

سألت الأنسة بوتس: «هل تفكر في حضور حفلة ذكرى ميلاد السيد جيل؟».

نظر جيل إلى مفكرته. جيل، ذكرى ميلاده الثانية عشرة، الثالثة بعد الظهر، مانور هاوس. كانت العبارة مكتوبة بأحرف كبيرة في أعلى الصفحة.

«هل أملك الوقت الكافي لشراء هدية في طريق عودتي إلى المنزل؟».  
عندها، غادرت الأنسة بوتس الغرفة، ثم عادت بعد قليل حاملة علبة كبيرة ملفوفة بورقة حمراء لماعة ومربوطة بشريط.  
سأل هوغو: «ماذا يوجد في الداخل؟».

«أحدث مذياع روبرتس. ذاك الذي طلبه عندما زرته في المصحة في الشهر الماضي».

فقال هوغو: «شكراً لك آنسة بوتس». ثم تحقق من ساعته، وتابع: «من الأفضل أن أغادر الآن إذا أردت أن أراه وهو يقطع قالب الحلوى».

وضعت الأنسة بوتس ملفاً سميكاً في حقيبته، وقبل أن يسألها قالت: «إنها ملاحظتك لاجتماع مجلس الإدارة صباح الغد. يمكنك مراجعتها بعد أن يعود السيد جيل إلى مدرسة سانت بيد. وبهذه الطريقة، لا داعي لعودتك إلى هنا هذا المساء».

قال هوغو: «شكراً آنسة بوتس. أنت تفكرين في كل شيء».

وفيما اجتاز هوغو المدينة في طريقه إلى المنزل، لاحظ كم ازداد عدد السيارات على الطريق مقارنة مع ما كانت عليه قبل عام واحد. أصبح المشاة أكثر حذراً أثناء اجتيازهم الطرقات بعد أن زادت الحكومة السرعة المسموح بها إلى 30 ميلاً في الساعة. شبّ حصان حين مرّ هوغو أمام عربة بعجلتين. فتساءل عن مقدار الوقت الذي ستصمد فيه هذه العربات بعد أن سمح مجلس المدينة الآن بسيارات الأجرة.

وبعد أن خرج من المدينة، زاد هوغو سرعته؛ إذ لا يريد التأخر على حفلة ذكرى ميلاد ابنه. كم يكبر الصبي بسرعة، لقد أصبح أطول من أمه. هل سيصبح أيضاً أطول من أبيه؟

كان هوغو واثقاً من أنه عندما سيغادر جيل مدرسة سانت بيد وينضم إلى إيتون بعد سنة، فإن صداقته مع ابن كليفتون ستنسى؛ رغم إدراكه وجود صعوبات أخرى يجب تخطيها قبل ذلك الحين.

أبطأ سرعته فيما مرّ أمام بوابة منزله. لطالما استمتع بالمشوار الطويل في الطريق المحاط بأشجار السنديان والمؤدي إلى مانور هاوس. كان جنكينز واقفاً على الدرجة العلوية عندما خرج هوغو من السيارة. فتح الباب الأمامي للمنزل وقال: «السيدة بارينغتون موجودة في قاعة الرسم سيدي، مع السيد جيل واثنين من رفاقه في المدرسة».

وفيما دخل القاعة، نزلت إيما السلام بسرعة وطوّقت والدها بذراعيها.

سألته: «ماذا يوجد في الرزمة؟».

«هدية لأخيك».

«نعم، لكن ما هي؟».



فأجاب والدها مبتسماً: «عليك الانتظار لتري بنفسك». قبل أن يسلم حقيبته لكبير الخدم قائلاً له: «هل يمكنك وضعها في مكتبي يا جنكينز؟». أمسكت إيها بيده، وبدأت تشده صوب قاعة الرسم.

اختفت ابتسامة هوغو لحظة فتح الباب ورأى الشخص الجالس على الأريكة.

قفز جيل من مكانه، وركض صوب والده الذي أعطاه الرزمة وقال له: «ذكرى ميلاد سعيدة يا صغيري».

فردّ جيل: «شكراً لك بابا». وذلك قبل أن يعرّفه إلى صديقيه.

صافح هوغو يد ديكنز، ولكن عندما مدّ هاري يده اكتفى بالقول: «طاب مساؤك كليفتون». ثم جلس على كرسيه المفضل.

راقب هوغو جيل باهتمام فيما فك الشريط عن الرزمة ورأيا كلاهما الهدية للمرة الأولى. حتى إن فرحة ابنه الكبيرة بالمذيع الجديد لم ترسم الابتسامة على شفّتي هوغو. كان ثمة سؤال يريد طرحه على كليفتون، لكن يجب ألا يبدو جواب الصبي وكأنه مهم بالنسبة إليه.

بقي صامتاً فيما تناوب الأولاد الثلاثة على ضبط المحطتين الإذاعيتين والإصغاء جيداً إلى الموسيقى والأصوات الغريبة الصادرة من المذيع. تلا ذلك ضحك أو تصفيق.

تحدثت السيدة بارينغتون مع هاري عن حفل حضرته أخيراً، وأضافت كم استمتعت بإنشاده المنفرد.

فقال هاري: «شكراً لك سيدة بارينغتون».

عندها، سأله هوغو لاستهلال محادثة: «هل تنوي الذهاب إلى مدرسة القواعد في بريستول بعد أن تغادر سانت بيد يا كليفتون؟».

فأجاب هاري: «فقط إذا حصلت على منحة يا سيدي».

فسألت السيدة بارينغتون: «لكن، لم هذا الأمر مهم؟ لا شك في أنك ستحصل على مكان في المدرسة مثل أي صبي آخر».

«لأن أُمي لن تتمكن من دفع التكاليف يا سيدة بارينغتون. إنها نادلة في فندق رويال».

«لكن، ألا يستطيع والدك...»

فأجاب هاري: «لقد مات. قُتِل في الحرب».

فقالت السيدة بارينغتون: «أنا آسفة، لم أكن أعرف».

في تلك اللحظة، فُتِح الباب خلف هاري ودخل الخادم حاملاً قالب حلوى كبيراً على صينية فضية. وبعد أن نجح جيل في إطفاء الشمعات الاثنتي عشرة دفعة واحدة، صَفَّق له الجميع.

عندها، سأل هوغو: «متى ذكرى ميلادك يا كليفتون؟».

فأجاب هاري: «كانت في الشهر الماضي يا سيدي».

وبعد أن قطع جيل قالب الحلوى، وقف هوغو وغادر الغرفة من دون أية كلمة إضافية.

توجّه إلى مكتبه مباشرة، ولكنه لم يستطع التركيز على أوراقه الخاصة باجتماع مجلس الإدارة في اليوم التالي. جواب كليفتون يعني أنه يجدر به طلب النصيحة من محامٍ متخصص في قانون الإرث.

وبعد ساعة تقريباً، سمع أصواتاً في الردهة، ثم سمع صوت الباب الأمامي يغلق وصوت سيارة تنطلق بعيداً. بعد دقائق قليلة، سمع طرقاتاً على باب مكتبه قبل أن تدخل إليزابيت.

سألته: «ما الذي جعلك تغادرنا على عجل؟ ولماذا لم تأتِ وتلقِ تحية الوداع عندما عرفتَ أن جيل وصديقيه سيغادرون؟».

فقال من دون أن ينظر إليها: «لديّ اجتماع مهم لمجلس الإدارة صباح الغد».

«لكنّ هذا ليس سبباً كي لا تودّع ابنك، لاسيما وأن اليوم ذكرى ميلاده».

فقال: «هناك الكثير من الهموم في بالي». فيما استمر في النظر إلى أوراقه.

«لا شكّ في أنه ما من شيء مهم لدرجة أنه يجعلك فظاً مع ضيوفك. لقد تصرفتَ بفضافة مع هاري كليفتون أكثر مما تفعل مع أحد الخدم».

عندها، نظر هوغو إلى الأعلى للمرة الأولى وقال: «ربما يُعزى ذلك إلى اعتباري كليفتون أقل شأناً من خدمنا». فبدت إليزابيت مصدومة. «هل تعرفين أن والده كان عاملاً في أحواض السفن وأن أمه نادلة؟ لا أعتقد أن هذا الصبي مناسب لمرافقة جيل».

«لا شكّ لديّ في أن جيل يفكر بطريقة مختلفة. ومهما كانت خلفيته، فإن هاري ولد رائع. لا أفهم سبب عدائيتك تجاهه. فأنت لم تعامل ديكنز بهذه الطريقة، علماً أن والده بائع جرائد».

«لقد حصل على منحة دراسية».

«وهاري أيضاً حصل على منحة الإنشاد؛ مثلما يعرف كل مواطن في بريستول. عندما تلتقيه في المرة الثانية، أتمنى أن تتصرف معه بلباقة أكثر». ومن دون التفوه بأية كلمة أخرى، غادرت إليزابيت الغرفة وأغلقت الباب بقوة خلفها.

بقي السير والتر بارينغتون في مكانه إلى رأس طاولة الاجتماعات عندما دخل ابنه الغرفة.

قال هوغو وهو يجلس إلى يمين والده: «أصبحت أكثر قلقاً بشأن القوانين المقترحة من قبل الحكومة حول ضرائب الاستيراد، إذ يمكن أن يؤثر ذلك في موازنتنا».

فقال السير والتر: «لهذا السبب لدينا محامٍ في مجلس الإدارة؛ كي يعطينا النصائح في مثل هذه المسائل».

«لكن الحسابات التي أجريتها تظهر أن الأمر قد يكلفنا عشرين ألف باوند سنوياً إذا أصبح القانون نافذاً. ألا تعتقد أنه يجدر بنا طلب رأي آخر؟».

«أعتقد أنني أستطيع التحدث مع السير جايمس أمهورست عندما أذهب إلى لندن».

فقال هوغو: «سأسافر إلى لندن يوم الثلاثاء لحضور العشاء السنوي لجمعية أصحاب السفن البريطانية. وبما أنه المستشار القانوني للصناعة، فبإمكانني ربما التكلم معه».

قال السير والتر: «فقط إذا كنت مقتنعاً أن الأمر ضروري. ولا تنسَ أن أمهورست يقبض بالساعة؛ حتى لو كانت الاستشارة أثناء عشاء».

أقيم عشاء جمعية أصحاب السفن البريطانية في «غروسفنور هاوس»، وحضره أكثر من ألف عضو وضيوفهم.

اتصل هوغو مسبقاً بسكرتيرة الجمعية، وسألها إذا كان بإمكانه الجلوس قرب السير جايمس أمهورست. تعجبت السكرتيرة من طلبه، ولكنها وافقت على إعادة ترتيب مقاعد الضيوف الذين سيجلسون إلى الطاولة الأساسية. ففي النهاية، كان جوشوا بارينغتون عضواً مؤسساً للجمعية.

لم يحاول هوغو قط مقاطعة رجل الدين أثناء حديثه مع الرجل الجالس إلى يمينه. ولكن، عندما استدار المحامي أخيراً نحو الغريب الذي وضعه إلى يساره، لم يبدد هوغو أي وقت في التطرق إلى الموضوع.

بدأ كلامه للفت انتباه محدثه بالقول: «والدي، السير والتر بارينغتون قلق جداً بشأن قانون ضرائب الاستيراد الذي سيذهب إلى مجلس النواب وتأثيراته المحتملة في الصناعة. وهو يتساءل عما إذا كان بوسعك استشارتك في هذا الموضوع عندما يأتي إلى لندن».

فأجاب السير جايمس: «طبعاً يا عزيزي. فليطلب من سكرتيرته أن تتصل بسكرتيرتي وسأحرص على تخصيص وقت له حين يأتي إلى المدينة».

قال هوغو: «شكراً لك سيدي. بالمناسبة، أتساءل عما إذا كنت قد قرأت أي شيء لأغاتا كريستي».

فأجاب السير جايمس: «أخشى أنني لم أفعل. هل هي جيدة؟».

قال هوغو: «أستمتع كثيراً بقراءة كتابها الأخير عندما تتواجد الإرادة، لكنني لا أعرف إذا كانت حبكة الرواية صحيحة قانونياً».

فسأل أمهورست فيما تم وضع طبق من لحم العجل المشوي فوق طبق بارد موضوع أساساً أمامه: «ما الذي تقوله السيدة؟».

«حسب ما ذكرته الآنسة كريستي، إن الابن البكر للفارس يرث تلقائياً لقب والده؛ حتى لو كان غير شرعي».

فقال السير جايمس: «آه، هذه مشكلة قانونية محيرة. في الواقع، واجه مجلس القضاء مؤخراً مثل هذه القضية، بنسون ضد كارستيز إذا كانت ذاكرتي لا تخونني. تقول الصحافة غالباً إنها قضية الولد غير الشرعي».

فسأل هوغو محاولاً ألا يبدو مهتماً جداً: «وما هي النتيجة التي توصل إليها القضاة؟».

«إذا لم يتم إيجاد منفذ في الوصية الأصلية، فإن القضية تكون لصالح المولود الأول؛ حتى لو كان الولد المعني غير شرعي». إنه جواب آخر لم يشأ هوغو سماعه. وتابع السير جايمس قائلاً: «لكن القضاة قرروا حماية أنفسهم، وأضافوا ملحقاً جاء فيه أنه يجب التعاطي مع كل قضية وفق ظروفها، لتتم بعد ذلك مراجعتها من قبل السلطة القضائية العليا». وأضاف بعد أن رفع الشوكة والسكين لتناول لحم العجل: «هذا أمر طبيعي بالنسبة إلى مجلس القضاء الأعلى. فهو يخشى كثيراً تحديد شرط مسبق، ولكنه يسعد كثيراً بإلقاء اللوم لاحقاً».

عندما أعاد السير جايمس انتباهه إلى الرجل الجالس إلى يمينه، ففكر هوغو في ما يمكن أن يحدث إذا اكتشف هاري كليفتون أن لديه الحق في وراثة شركة بارينغتون للشحن، وكذلك أملاك العائلة. لا شك في أن إنجابه ولدًا غير شرعي أمر سيئ للغاية، ولكنه لا يحتمل أبدًا التفكير في إمكانية أن يرث هاري كليفتون لقب العائلة بعد موته، حيث يصبح السير هاري. إنه مستعد للقيام بأي شيء ممكن للحؤول دون ذلك.

كان هوغو بارينغتون يتناول الفطور عندما قرأ رسالة من مدير مدرسة سانت بيد تتحدث عن تفاصيل حملة أطلقتها المدرسة لجمع ألف باوند لتشيد جناح جديد للكريكت. فتح دفتر «الشكايات» وكتب الرقم 100 عندما سمع فجأة صوت سيارة تتوقف على الحصى في الخارج.

توجّه هوغو إلى النافذة ليرى من يمكن أن يزوره باكراً صباح يوم السبت. ودّهش عندما رأى ابنه ينزل من الباب الخلفي لسيارة أجرة حاملاً حقيبته، فيما كان يتطلع لرؤيته في المدرسة في افتتاح المباراة النهائية هذا الموسم ضد أفونهورست.

ظهر جنكينز في الوقت المناسب لفتح الباب الأمامي عندما وصل جيل إلى الدرجة العلوية وقال: «صباح الخير يا سيد جيل». كما لو أنه كان ينتظره.

خرج هوغو من غرفة الفطور بسرعة ليجد ابنه واقفاً في الردهة، ورأسه منحني، والحقيبة قربه. سأله: «ماذا تفعل في المنزل؟ ألا يزال هناك أسبوع آخر قبل انتهاء الفصل؟».

فأجاب جيل ببساطة: «تم طردني».

كرر والده: «تم طردك! وهل يمكنني أن أسأل عما فعلته لتستحق هذا؟».



نظر جيل إلى جنكينز الذي وقف بصمت قرب الباب الرئيس، فقال كبير الخدم: «سأخذ حقيبة السيد جيل إلى غرفة نومه في الأعلى». ثم حمل الحقيبة وتوجّه ببطء صوب السلام.

قال هوغو بعد أن اختفى كبير الخدم: «اتبعني».

لم يتفوه أي منهما بكلمة قبل أن يغلق هوغو باب المكتب خلفه، ثم سأل ابنه بعد أن جلس على كرسيه: «ماذا فعلت لتجبر إدارة المدرسة على اتخاذ مثل هذا الإجراء الخطير؟».

فأجاب جيل الذي بقي واقفاً وسط الغرفة: «تم إلقاء القبض عليّ وأنا أسرق من متجر الحلويات».

«هل من شرح بسيط لذلك؟ أو سوء تفاهم ربما؟».

فأجاب جيل حابساً دموعه: «لا. ما من تفسير يا سيدي».

«هل تريد قول أي شيء للدفاع عن نفسك؟».

«لا، سيدي». وتردد جيل. «إلا...»

«إلا ماذا؟».

«لطالما وزّعت الحلويات يا بابا، ولم أحتفظ بها لنفسي قط».

«لكليفتون من دون شك».

قال جيل: «وديكنز أيضاً».

«وهل كان كليفتون من حرّضك على ذلك أساساً؟».

فأجاب جيل بصرامة: «لا، أبداً. في الواقع، عندما اكتشف هاري ما كنت أفعله، حرص دوماً على إعادة الحلويات التي أعطيه إياها، بالإضافة

إلى تلك التي أعطيها لديكنز إلى المتجر. حتى إنه تحمل المسؤولية عندما اتهمه السيد فروبيشر بسرقتها».

تلت ذلك فترة صمت طويلة قبل أن يقول الأب: «إذاً، تم طردك وليس فصلك، أليس كذلك؟».

أوما جيل برأسه.

«هل تعتقد أنهم سيسمحون لك بالعودة في الفصل التالي؟».

فقال جيل: «أشك في ذلك».

«وما الذي يجعلك واثقاً هكذا؟».

«لأنني لم أر قط مدير المدرسة غاضباً إلى هذا الحد».

«لن يوازي ذلك نصف الغضب الذي ستشعر به أمك عندما تكتشف الأمر».

فقال جيل متوسلاً: «أرجوك، لا تخبرها بابا». ثم انفجر في البكاء.

«وكيف يمكنني أن أشرح لها سبب وجودك في المنزل قبل أسبوع من انتهاء الفصل، وعدم عودتك ربما إلى سانت بيد في الفصل التالي؟».

لم يحاول جيل الإجابة، وإنما استمر بالبكاء بصمت.

وأضاف الوالد: «ومن يعرف ما الذي سيقوله جداك عندما أضطر إلى إخبارهما عن سبب عدم ذهابك إلى إيتون؟».

فخيّم الصمت مجدداً.

«اذهب إلى غرفتك ولا تفكر في النزول إلى الأسفل قبل أن أطلب منك ذلك».

فأجاب جيل: «نعم سيدي». ثم استدار للمغادرة.

«ومهما فعلت، لا تناقش هذه المسألة مع أي كان، وخصوصاً أمام الخدم».

فقال جيل: «نعم بابا». ثم ركض إلى خارج الغرفة، وكاد يرتطم بجنكينز عندما التقاه على السلام.

انحنى هوغو إلى الأمام على كرسية محاولاً التفكير في ما إذا كانت هناك طريقة لتبديل الوضع قبل أن يضطر إلى مواجهة الاتصال المحتمل من المدير. وضع مرفقيه على المكتب ورأسه بين يديه، ولكن مرّ بعض الوقت قبل أن تركّز عيناه على «الشيك».

فارتسمت ابتسامة على شفثيه فيما أضاف صفراً جديداً إلى الرقم قبل التوقيع على «الشيك».

كان ميتشيل جالساً في الزاوية البعيدة من قاعة الانتظار وهو يقرأ مساء بريستول قبل أن يدخل هوغو ويجلس قربه. كان الطقس بارداً جداً، حيث أبقى هوغو يديه في جيبه.

قال ميتشيل وهو لا يزال ينظر إلى جريدته: «إنها تحاول جمع خمسمئة باوند لتأسيس مشروع مهني».

«وما هو المشروع المهني الذي يمكن أن تهتم به؟».

أجاب ميتشيل: «مقهى تيلي. يبدو أنها عملت هناك قبل أن تنتقل إلى بام كورت في فندق رويال. تلقت الأنسة تيلي مؤخراً عرضاً لبيع المقهى بخمسمئة باوند من رجل يدعى إدوار أتكينز. لكن الأنسة تيلي لا تهتم لأمر أتكينز، وأوضحت لامرأتنا أنها إذا استطاعت جمع المبلغ نفسه، فهي تفضل تسليمها العمل شخصياً».

«ومن أين يمكنها أن تحصل على هذا المبلغ الكبير من المال؟».

«ربما من شخص يرغب في التحكم فيها مالياً ليجني الأرباح في وقت لاحق؟».

بقي هوغو صامتاً، فيما لم يرفع ميتشيل عينيه عن الجريدة قط.

وفي النهاية سأل هوغو: «هل تقرّبت من أحد ما في محاولة لجمع المال؟».

«إنها حالياً تأخذ بنصيحة باتريك كاسي، ممثل شركة ديلون أند كو، وهي شركة مالية مقرها دابلين. الشركة متخصصة في تأمين القروض للزبائن».

«كيف أستطيع التواصل مع كاسي؟».

فأجابه ميتشيل: «لا أنصحك بذلك».

«لماذا؟».

«لأنه يزور بريستول مرة في الشهر تقريباً، وينزل دوماً في فندق

رويال».

«لا داعي لأن نلتقي في فندق رويال».

«إنه على علاقة حميمة مع امرأتنا. فحين يكون في المدينة،

يصطحبها لتناول العشاء أو إلى المسرح. وباتت في الآونة الأخيرة تعود

معه إلى الفندق، حيث يمضيان الليلة معاً في الغرفة رقم 371».

قال هوغو: «هذا مذهل. هل من شيء آخر؟».

«قد يهمك أيضاً أن تعرف أن المرأة تتعامل مع مصرف بروفنسيال

الوطني، 49 شارع كورن. المدير هو السيد برندرغاست. يتضمّن حسابها

الحالي اثني عشر باونداً وتسعة شلنات».

أراد هوغو أن يسأله عن كيفية معرفته هذه المعلومة تحديداً،

ولكنه اكتفى بالقول: «ممتاز. ما إن تعرف أي شيء آخر، مهما كان

سخيفاً، اتصل بي». ثم أخرج مغلفاً سميكاً من جيب معطفه وأعطاه

إياه.

«القطار الذي يصل الآن إلى المحطة التاسعة هو الثاني والسبعون من تونتون».

وضع ميتشيل المغلف في جيبه، وطوى جريدته، ثم خرج من قاعة الانتظار. لم ينظر مرة واحدة إلى سيده.

عجز هوغو عن إخفاء غضبه عندما اكتشف السبب الحقيقي الكامن وراء عدم تمكّن جيل من الحصول على مكان له في إيتون. اتصل بالمدير الذي رفض تلقي اتصالاته، وبالمسؤول عن المدرسة الذي تعاطف معه وإنما لم يعطه أي أمل بالعفو، وكذلك بالقيّم على المدرسة الذي وعده بأن يتصل به مجدداً، ولكنه لم يفعل. وعلى الرغم من عدم معرفة إليزابيث والفتاتين بالسبب الذي جعل هوغو يفقد أعصابه غالباً في الآونة الأخيرة، ومن دون سبب واضح، استمررن في تحمل نتيجة سوء تصرف جيل برباطة جأش.

رافق هوغو ابنه جيل على ماض إلى مدرسة القواعد في بريستول في اليوم الأول من الفصل الدراسي، ولم يسمح لإيها أو غرايس بالانضمام إليهم؛ رغم انفجار إيها بالبكاء.

عندما أوقف هوغو السيارة في الشارع، كان أول شخص رآه خارج بوابة المدرسة هو هاري كليفتون. وقبل أن يضغط على المكابح تماماً، قفز جيل من السيارة وركض لإلقاء التحية على صديقه.

تجنب هوغو الاختلاط مع بقية الأهل الذين فرحت إليزابيث بالتحدث إليهم. وعندما صادف كليفتون عن غير قصد، حرص على عدم مصافحته.

في رحلة العودة إلى مانور هاوس، سألت إيزابيت زوجها عن سبب معاملته أفضل صديق لجيل بمثل هذا التكبر، فذكرها هوغو بأنه كان يجدر بابنهما الذهاب إلى إيتون، حيث يفترض أن يختلط بأولاد النبلاء وليس بأولاد التجار المحليين، أو حتى بمن هم أسوأ في حالة كليفتون. عندها، اكتفت إيزابيت بالصمت؛ مثلما فعلت غالباً في الآونة الأخيرة.

صرخ بائع الجرائد الواقف في زاوية الشارع: «احتراق مقهى محلي بالكامل! احتمال الحرق بشكل متعمد!».

ضغط هوغو على المكابح، وخرج من سيارته، وأعطى البائع نصف قرش، ثم بدأ يقرأ الصفحة الأولى فيما عاد إلى سيارته.

احترق مقهى تيلي- وهو معلم مهم من معالم بريستول- الذي يرتاده الكثير من السكان المحليين احتراقاً تاماً في ساعات الصباح الأولى. وقد أوقفت الشرطة رجلاً محلياً في العقد الثالث من عمره واتهمته بافتعال الحريق بشكل متعمد. الأنسة تيلي التي تعيش الآن في كورنوال...

ابتسم هوغو عندما رأى صورة مايزي كليفتون وموظفاتها وهن يقفن على الرصيف، وينظرن بحزن إلى بقايا مقهى تيلي. لا شك في أن الحظ إلى جانبه.

عاد إلى سيارته، ووضع الجريدة على المقعد قربته وتابع رحلته إلى حديقة حيوانات بريستول. عليه أخذ موعد سريع لرؤية السيد برندرغاست.



نصحه ميتشيل بأنه إذا أراد أن يبقى نفسه الداعم السري للمرأة، فإن أي اجتماعات مع برندرغاست يجب أن تعقد في مكاتب شركة بارينغتون، ويستحسن أن يتم ذلك بعد عودة الأنسة بوتس إلى منزلها ليلاً. لم يحاول هوغو أن يشرح لميتشيل أنه لا يعرف إن كانت الأنسة بوتس تذهب أساساً إلى منزلها ليلاً. كان يتطلع بلهفة إلى الاجتماع مع برندرغاست وإعطائه التوجيهات الأخيرة. ولكن قبل التمكن من فعل ذلك كان بحاجة إلى رؤية شخص آخر.

كان ميتشيل يُطعم روزي عندما وصل.

مشى هوغو ببطء، واتكأ على «الدرابزين»، وزعم أنه مهتم بفيلة هندية أحضرتها حديقة حيوانات بريستول مؤخراً من أوتار براديش، وبدأت تجذب أصلاً عدداً كبيراً من الزوار. رمى ميتشيل قطعة خبز كبيرة، فالتقطتها روزي بخرطومها ونقلتها إلى فمها بحركة واحدة سريعة.

قال ميتشيل كما لو أنه يتحدث مع الفيلة: «عادت المرأة إلى العمل في فندق رويال. إنها مسؤولة عن الدوام الليلي في بام كورت من العاشرة مساء وحتى السادسة من صباح اليوم التالي. تحصل على ثلاثة باوندات أسبوعياً، بالإضافة إلى ما يمكنها جنيه من البقشيش، لكنه ليس كثيراً بسبب عدد الزبائن القليل ليلاً». ورمى قطعة أخرى من الخبز للفيلة ثم أضاف: «تم توقيف شخص يدعى بوب بوروز، كما تم اتهامه بافتعال الحريق بشكل متعمد. كان بوروز مورّد الحلويات للمقهى قبل أن تطرده المرأة. وقد اعترف بجريمته، وقال أيضاً إنه تقدّم لخطبتها واشترى لها خاتم خطوبة، لكن المرأة صدّته، أو على الأقل هذه هي روايته».

فارتسمت ابتسامة على شفتي هوغو وسأله: «ومن المسؤول عن القضية؟».

فأجاب ميتشيل: «التحري بلايكمور». عندها، اختفت ابتسامة هوغو وحلّ محلّها عبوس شديد، فيما تابع ميتشيل كلامه قائلاً: «ورغم اعتقاد بلايكمور في البداية أن المرأة قد تكون شريكة لبوروز، إلا أنه بعد ذلك أبلغ شركة بريستول وإنكلترا للتأمين بأن المرأة لم تعد مشبوهة». فقال هوغو وهو لا يزال عابساً: «هذا مؤسف».

عندها، قال ميتشيل: «ليس بالضرورة. فشركة التأمين ستصدر للسيدة كليفتون «شيك» بقيمة ستمئة باوند يصرف لصالحها». فابتسم هوغو.

ثم قال كما لو أنه يُحدث نفسه: «أتساءل إن كانت قد أخبرت ابنها».

تجاهل ميتشيل التعليق إذا كان قد سمعه وتابع كلامه: «المعلومة الأخرى التي قد تكون مهمة لك هي أن باتريك كاسي حجز ليلة الجمعة في فندق رويال، واصطحب المرأة إلى بليمسول لاين لتناول العشاء. عادا بعدها إلى الفندق، ورافقته إلى غرفته رقم 371، ولم تغادر إلا عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي».

ساد صمت طويل، وهذا دليل على أن ميتشيل قد أنهى تقريره الشهري. عندها، أخرج هوغو مغلفاً من جيبه الداخلي وقدمه إلى ميتشيل الذي عبّر عن شكره فيما كان يرمي الخبز إلى الفيلة روزي.

قالت الآنسة بوتس: «السيد برندرغاست يريد رؤيتك». ووقفت جانباً للسماح للمصرفي بالدخول إلى مكتب المدير التنفيذي.

فقال هوغو: «شكراً لك لأنك اجتزت كل تلك المسافة. أنا واثق من أنك ستفهم سبب عدم رغبتني في مناقشة مثل هذه المسألة السرية جداً في المصرف».

قال برندرغاست: «أفهم ذلك تماماً». ثم فتح حقيبته الجلدية وأخرج منها ملفاً سميكاً قبل أن يجلس. مرر ورقة واحدة عبر الطاولة صوب السيد بارينغتون.

تحقق هوغو من السطر الأخير، قبل أن يتكئ إلى الخلف على كرسيه.

قال برندرغاست: «للمراجعة فقط إذا أمكن. وضعت مبلغاً وقدره 500 باوند، مما أتاح للسيدة كليفتون شراء مقهى تيلي، المقهى الواقع في شارع برود. تم توقيع الاتفاق على كامل المبلغ، بالإضافة إلى فائدة تقدر بنسبة 5 في المئة في السنة، على أن يتم تسديدها ضمن فترة خمس سنوات.

ورغم نجاح مقهى تيلي في تحقيق ربح صغير في السنة الأولى من عمل السيدة كليفتون، وبعد ذلك في السنة الثانية، إلا أنه لم يكن هناك فائض كبير في الأرباح كي تتمكن من تسديد الفائدة أو إعادة أي جزء من رأس المال الأصلي. ولذلك عند حصول الحريق، كانت السيدة كليفتون تدين لك بمبلغ 572 باونداً و 16 شلناً. وعليّ أن أضيف إلى هذا المبلغ نفقات المصرف البالغة 20 باونداً، مما يجعل المجموع النهائي 592 باونداً و 16 شلناً. لا شك في أن شركة التأمين ستغطي هذا المبلغ؛ مما يعني أن

استثمارك لا يزال في أمان، فيما ستبقى السيدة كليفتون من دون أي شيء فعلياً».

قال هوغو بعد أن تأمل الأرقام بدقّة أكثر: «كم هذا مؤسف. هل يمكنني السؤال عن سبب عدم ظهور أتعاب السيد كاسي ضمن المبلغ النهائي؟».

«لأن السيد كاسي أبلغ المصرف أنه لن يتقاضى أي مال مقابل خدماته».

قطّب هوغو جبينه وقال: «على الأقل، هذا خبر مفرح بالنسبة للمرأة المسكينة».

«بالفعل. أخشى أيضاً أنها لن تتمكن من تسديد أقساط ابنها في مدرسة القواعد في بريستول خلال الفصل التالي».

قال هوغو: «كم هذا محزن. إذاً، هل سيتم إخراج الصبي من المدرسة؟».

فأجاب السيد برندرغاست: «آسف للقول إن النتيجة حتمية. وهذا عار كبير لأنها تعوّل عليه كثيراً، وأعتقد أنها مستعدة للتضحية بأي شيء من أجل إبقائه هناك».

كرر هوغو: «هذا مؤسف جداً». فيما أغلق الملف ونهض عن كرسيه قائلاً: «لن أؤخرك أكثر يا سيد برندرغاست. لديّ موعد في المدينة بعد نصف ساعة تقريباً. أتريد أن أوصلك؟».

«هذا لطف منك يا سيد بارينغتون، ولكنّ هذا ليس ضرورياً؛ فقد جئت إلى هنا بسيارتي».

فسأله هوغو فيما حمل حقيبته وتوجه صوب الباب: «ما نوع سيارتك؟».

أجاب برندرغاست: «موريس أوكسفورد». وأعاد الأوراق بسرعة إلى حقيبته الجلدية، ثم لحق بهوغو إلى خارج المكتب.

قال هوغو: «سيارة الشعب. لقد قيل لك يا سيد برندرغاست إنها سيارة موثوقة جداً». ضحك الرجلان فيما نزلا السلام معاً. قال هوغو حين خرجا من المبنى: «ما حصل للسيدة كليفتون أمر مؤسف، ولكنني لا أوافق على انخراط النساء في العمل. ليس هذا هو المجرى الطبيعي للأمور».

فقال برندرغاست: «أوافقك الرأي تماماً». وفيما توقّف الرجلان قرب سيارة بارينغتون، أضاف برندرغاست: «لكنني أذكرك بأنه لم يكن بوسعك فعل المزيد للمرأة المسكينة».

قال هوغو: «هذا لطف منك يا برندرغاست. لكنني رغم ذلك أودّ أن يبقى اتفاقنا سرياً؛ بيننا نحن الاثنين فقط».

قال برندرغاست: «طبعاً سيدي. يمكنك الاعتماد عليّ». وتصافح الرجلان.

قال هوغو وهو يصعد إلى سيارته: «فلنبقَ على اتصال يا صديقي. لا شك في أنني سأحتاج إلى خدمات المصرف مجدداً». فابتسم برندرغاست.

وفيما توجه هوغو إلى المدينة، عادت أفكاره إلى مايزي كليفتون. لقد وجه إليها صفة قوية قد لا تتعافى منها، ولكنه الآن ينوي إنقاذها.

توجّه إلى بريستول متسائلاً عن مكانها في الوقت الحاضر. ربما هي جالسة مع ابنها لتشرح له سبب اضطراره إلى مغادرة مدرسة القواعد في بريستول في نهاية الفصل الصيفي. هل تخيلت ولو هنيهة أن هاري قد يتمكن من متابعة دروسه كما لو أنه لم يحصل أي شيء؟ قرّر هوغو عدم التطرق إلى الموضوع مع جيل قبل أن ينقل إليه الصبي الخبر الحزين؛ وهو أن صديقه هاري لن يعود إلى مدرسة القواعد في بريستول للانضمام إليه في الفصل السادس.

لا تزال فكرة ذهاب ابنه إلى مدرسة القواعد في بريستول تثير غضبه، ولكنه لم يسمح بمعرفة إليزابيث أو والده مطلقاً بالسبب الحقيقي لعدم حصول جيل على مكان في إيتون.

وبعد أن اجتاز دار العبادة الكبيرة، تابع طريقه أمام «كولج غرين»، قبل أن ينعطف صوب مدخل فندق رويال. وصل قبل دقائق من مواعده، لكنه واثق من أن المدير لن يجعله ينتظر طويلاً. شقّ طريقه عبر الباب الدوار، ومشى عبر ردهة الفندق من دون أن يحتاج إلى أحد يخبره أين يقع مكتب السيد فرامبتون.

وقفت سكرتيرة المدير لحظة دخل هوغو الغرفة وقالت: «سأخبر السيد فرامبتون أنك هنا». وركضت تقريباً إلى المكتب المحاذي.

بعد قليل، ظهر المدير وقال: «كم أنا مسرور لرؤيتك يا سيد باريغتون. أتمنى أن تكون والسيدة باريغتون بخير». فيما رافقه إلى مكتبه. أوماً هوغو برأسه، وجلس قبالة مدير الفندق، ولكنه لم يصفحه.

قال فرامبتون: «عندما طلبت رؤيتي تحققتُ من ترتيبات العشاء السنوي الخاص بشركتك. سيحضر أكثر من 300 مدعو مثلما فهمت، أليس كذلك؟».

قال هوغو: «لا يهمني عدد الضيوف الذين سيحضرون. ليس هذا سبب مجيئي لرؤيتك فرامبتون. فأنا أريد أن أناقش معك مسألة خاصة أجدها كريهة جداً».

فقال فرامبتون وهو يجلس منتصباً: «آسف لسماع ذلك».

«كان أحد مديرينا غير التنفيذيين يمكث في الفندق ليلة الخميس، وقد تقدم بشكوى في اليوم التالي، وأشعر أنه من واجبي نقلها لك».

فقال فرامبتون وهو يفرك يديه المتعرقتين على سرواله: «نعم طبعاً. فأخر ما نريده هو إزعاج زبائننا المهمين».

قال هوغو: «أنا مسرور لسماع ذلك. الرجل المعني وصل إلى الفندق بعد أن أغلق المطعم، وذهب إلى بلم كورت على أمل الحصول على بعض الطعام الخفيف».

فقال فرامبتون: «أنشأت هذه الخدمة شخصياً». وسمح لنفسه بالابتسام قليلاً.

غير أن هوغو تابع كلامه متجاهلاً التعليق: «طلب الطعام من سيدة شابة يبدو أنها المسؤولة».

«نعم، إنها السيدة كليفتون».

قال هوغو: «لا أعرف من هي. لكن فيما كانت تقدم له القهوة وبعض الشطائر، دخل رجل آخر إلى بلم كورت وطلب الطعام، وسأل إذا

كان بالإمكان إيصاله إلى غرفته. الشيء الوحيد الذي يذكره صديقي عن الرجل هو أنه يملك لكنته إيرلندية. وقّع صديقي على فاتورته وخلد إلى غرفته، ثم نهض باكراً في صباح اليوم التالي؛ إذ أراد تناول الفطور وهو يراجع أوراقه قبل اجتماع مجلس الإدارة. وعندما خرج من غرفته، رأى المرأة نفسها تغادر الغرفة رقم 371 وهي لا تزال ترتدي بذلة الفندق. مشت إلى نهاية الرواق، وتسلفت عبر النافذة ومنها إلى منفذ الحريق».

«أنا متفاجئ جداً يا سيدي. أنا...»

«طلب عضو مجلس الإدارة المعني بأن ينزل في فندق آخر عندما يأتي إلى بريستول في المستقبل. لا أريد أن أبدو مفرطاً في الاحتشام يا فرامبتون، ولكن لطالما كان فندق رويال مكاناً أحضر إليه زوجتي وأولادي».

«اطمئن يا سيد بارينغتون، سيتم طرد المرأة على الفور، ومن دون أي شرح. أريد أن أقول لك إنني ممتن لك كثيراً لأنك لفت انتباهي إلى هذه المسألة».

عندها، نهض هوغو من مكانه وقال: «لا أريد طبعاً ذكر اسمي أو اسم الشركة إذا أردت صرف السيدة من العمل».

فقال فرامبتون: «يمكنك التأكد من ذلك».

ابتسم هوغو للمرة الأولى وقال: «من جهة أخرى، أريد القول إننا نتطلع جميعاً إلى العشاء السنوي الذي سيكون من دون شك وفق معاييركم العالية. وسوف نحتفل في السنة المقبلة بالذكرى المئة لتأسيس الشركة، وأنا واثق من أن والدي سيجعل الحفلة أكبر». وضحك الرجلان بصوت عالٍ قليلاً.



قال فرامبتون: «يمكنك الاعتماد علينا يا سيد بارينغتون». فيما رافق زبونه إلى خارج المكتب.

قال هوغو وهما يتوجهان صوب الردهة: «ثمة شيء آخر يا فرامبتون. أفضل ألا تخبر السير والتر أي شيء عن هذا. فوالدي قديم الطراز نوعاً ما في ما يتعلق بمثل هذه المسائل، ولذلك يُستحسن أن يبقى الأمر بيننا».

فأكد فرامبتون: «وأوافقك الرأي يا سيد بارينغتون. يمكنك الاطمئنان إلى أنني سأعالج المسألة شخصياً».

وفيما خرج هوغو من الباب الدوار، لم يكف عن التساؤل عن عدد الساعات التي قضاها ميتشيل في فندق رويال قبل أن يتمكن من تزويده بمثل هذه المعلومات النفيسة.

عاد إلى سيارته، وأدار المحرك، وتابع رحلته إلى المنزل. كان لا يزال يفكر في مايزي كليفتون عندما أحس بنقرة على كتفه. أحس بالذعر الحقيقي وهو يستدير ويرى من يجلس على المقعد الخلفي. وتساءل أيضاً إن كانت قد عرفت بشأن اجتماعه مع فرامبتون.

سألها من دون أن يبطئ سرعته خشية أن يراها أحد معاً: «ماذا تريدان؟».

وفيما أصغى إلى طلباتها، تساءل عن كيفية معرفتها كل تلك المعلومات. وبعد أن أنهت كلامها، وافق على شروطها لأنه عرف أنها أسهل طريقة لإخراجها من السيارة.

وضعت السيدة كليفتون مغلفاً بنياً رقيقاً على المقعد قربها وقالت: «سأنتظر سماع جوابك».

وضع هوغو المغلف في جيب سترته الداخلي، وأبطأ سرعته عندما وصل إلى طريق غير مضاءة، ولكنه لم يتوقف إلا حين تأكد من أنه لا يمكن لأي شخص أن يراها. وعندها، خرج من السيارة وفتح الباب الخلفي. حين رأى وجهها، بدا له جلياً أنها تشعر بأنها حققت مرادها.

أتاح لها هوغو الاستمتاع بلحظة انتصار، قبل أن يمسك بكتفيها ويهزها كما لو أنه يحاول إنزال تفاحة عنيدة من شجرة. وبعد أن جعلها تتأكد مما يمكن أن يحصل إذا أزعجته مجدداً، ضربها على وجهها بكل قوته، فانهارت على الأرض متفوقعة مثل الكرة، ولم تتوقف عن الارتجاف. ففكر هوغو في ركلها على معدتها، ولكنه لم يشأ المجازفة بأن يراه أحد. لذا، انطلق بعيداً من دون التفكير فيها مجدداً.

# العجوز جاك تار 1925-1936

بعد ظهر يوم خميس مشمس في شمال ترانسفال، قتلْتُ أحد عشر رجلاً، ومنحتني الأمة الممتنة وسام النصر تقديراً لخدماتي الاستثنائية. ولم أخطُ بليلة نوم هائلة منذ ذلك الحين.

لو قتلْتُ رجلاً إنكليزياً واحداً في وطني لحكم عليّ القاضي بالشنق حتى الموت، إلا أنه حكم عليّ بدلاً من ذلك بالسجن مدى الحياة؛ لأنني ما زلت أرى وجوه أولئك الرجال البائسين البالغ عددهم أحد عشر رجلاً كل يوم، مثل صورة قطعة نقدية لا تخبو أبداً. فكرت غالباً في الانتحار، ولكن القيام بذلك هو طريقة الجبان للهروب.

في المقالة التي تم نشرها في مجلة تايمز، قيل إن تصرفاتي مسؤولة عن إنقاذ ضابطين، وخمسة ضباط غير ملتزمين، وسبعة عشر جندياً خاصاً من الغلاوسسترز الملكي. أحد أولئك الضباط هو الملازم والتر بارينغتون الذي أتاح لي قضاء حكمي ببعض الكرامة.

فبعد أسابيع قليلة من الحادثة، تمت إعادتي إلى إنكلترا. وبعد أشهر قليلة صُرفتُ من الخدمة، بعد أن أصبت بما بات الآن يُسمى الانهيار العقلي. وبعد ستة أشهر أمضيتها في مستشفى عسكري، أعيد إطلاق سراحي إلى العالم. بدّلت اسمي، وتفاديت بلدي ويلز في سومرست، وانطلقتُ إلى بريستول. على عكس الابن الضال، رفضت السفر مسافة أميال قليلة إلى المقاطعة المجاورة حيث كان بوسعي الاستمتاع بالهدوء في منزل والدي.

خلال النهار، كنت أجول في شوارع بريستول وأنا أبحث عن فتات الطعام في مستوعبات النفايات، فيما غرفة نومي ليلاً هي الحديقة العامة، ومكان استراحتي هو المقعد الخشبي، وبطانيتي جريدة، ومنبهي الصباحي زقزقة العصفور المبشر بولادة فجر جديد. وحين كان الطقس بارداً أو رطباً جداً، كنت أتوجّه إلى غرفة الانتظار في محطة محلية للسكك الحديدية، حيث أنام تحت المقعد وأنهض قبل وصول أول قطار في الصباح التالي. وحين أصبحت الليالي أطول، تحولت إلى ضيف مجاني لاتحاد الرعاية الاجتماعية في شارع ليتل جورج، حيث تعطيني سيدات لطيفات الخبز السميك والحساء الخفيف قبل أن أنام على فراش من وبر الحصان تحت بطانية واحدة. إنه الترف.

مع مرور السنوات، أملتُ في أن يفترض رفاقي السابقون في السلاح أنني متّ. إذ لم أرغب قط في أن يكتشفوا السجن الذي قررت أن أمضي بقية حياتي فيه. وكان من الممكن أن تبقى الأمور على هذه الحال لو لم تتوقف سيارة رولز رويس فجأة في منتصف الطريق، ويُفتح الباب الخلفي للسيارة ويخرج منها رجل لم أره منذ أعوام.

صرخ وهو يتقدم صوبي: «كابتن تارانت». عندها، نظرتُ بعيداً على أمل أن يظن أنه ارتكب خطأ. ولكنني تذكرتُ جيداً أن والتر بارينغتون ليس رجلاً يعاني من الشك الذاتي. أمسك بي من كتفَيّ، وحدّق إليّ لبعض الوقت قبل أن يقول: «هل هذا ممكن يا رفيقي القديم؟».

وكلما حاولتُ إقناعه بأنني لا أحتاج إلى مساعدته، أصبح أكثر إصراراً على إنقاذي. استسلمتُ في النهاية، ولكن ليس قبل أن يوافق على شروطي.

في البداية، توسل إليّ لأنضم إليه وزوجته في «مانور هاوس»، ولكنني عشتُ طويلاً من دون سقف فوق رأسي، حيث أصبحت أعتبر مثل هذه الراحة بمثابة عبء حقيقي. كما عرض عليّ أيضاً مكاناً في مجلس إدارة شركة الشحن التي تحمل اسمه.

فسألته: «وبماذا يمكن أن أفيدك؟».

«حضورك يا جاك سيكون مهماً لنا جميعاً».

شكرته، وشرحتُ له أنني لم أنه بعد عقوبتي لقتلي أحد عشر رجلاً. إلا أنه لم يستسلم رغم ذلك.

وأخيراً، وافقتُ على استلام مهمة الحارس الليلي في أحواض السفن، على أن يدفع لي ثلاثة باوندات أسبوعياً، بالإضافة إلى تأمينه مكاناً أقيم فيه؛ وهو مقطورة قطار مهجورة أصبحت الآن زنزانتني.

أفترض أنني كنت سأتابع حياتي على هذا النحو إلى أن أموت؛ لو لم أحتك بالسيد هاري كليفتون.

فبعد سنوات عدة، قال لي هاري إنني بدّلت حياته كلها، ولكنه في الواقع أنقذ حياتي.

في المرة الأولى التي صادفت فيها الصغير هاري، لم يكن قد تجاوز الرابعة أو الخامسة من عمره، وقلت له عندما ملحته يزحف على يديه وركبتيه صوب المقطورة: «ادخل أيها الصغير». ولكنه نهض على الفور وهرب بعيداً.

ويوم السبت التالي، جاء ونظر عبر النافذة، فقلت له محاولاً طمأنته: «لماذا لا تدخل أيها الصغير؟ لن أعضك». هذه المرة، قبل بعرضي

وفتح الباب، ولكنه هرب مجدداً بعد أن تبادلنا بضع كلمات. هل شكلي مخيف حقاً؟

يوم السبت التالي، فتح الباب، ووقف هناك منفرج الساقين، وحدّق إليّ بتحدّ. تحدثنا لأكثر من ساعة عن كل شيء؛ بدءاً من فريق كرة القدم في مدينة بريستول إلى سبب تخلص الأفاعي من جلودها، ومن شيّد جسر كليفتون المعلق، ثم قال: «عليّ المغادرة الآن يا سيد تار؛ لأن أُمّي تتوقع عودتي إلى المنزل لتناول الشاي». هذه المرة، مشى بعيداً، ولكنه نظر إلى الخلف مرات عدة.

بعد ذلك، صار هاري يأتي لزيارتي كل سبت، إلى أن ذهب إلى مدرسة ميريوود الابتدائية، فحينها بدأ يأتي إليّ معظم الصباحات. احتجّت إلى بعض الوقت لإقناع الصبي بأنه يجدر به البقاء في المدرسة وتعلم القراءة والكتابة. وبصراحة، ما كنت لأنجح في ذلك لولا مساعدة الأنسة مانداي والسيد هولكومب ووالدة هاري. برزت الحاجة إلى فريق مذهل لكي يدرك هاري كليفتون إمكاناته، وعرفت أننا نجحنا حين لم يعد بوسعه زيارتي إلا صباح يوم السبت؛ وذلك لأنه كان يتحضر للدخول إلى مدرسة سانت بيد بمنحة للإنشاد.

حين بدأ هاري بالذهاب إلى مدرسته الجديدة، لم أتوقع رؤيته مجدداً إلا في فترة الإجازة. لكنني تفاجأت حين رأيته أمام بابي قبيل الساعة الحادية عشرة في آخر ليلة جمعة من الفصل الدراسي.

أخبرني أنه ترك مدرسة سانت بيد لأن أحد التلاميذ المفوضين يسخر منه - تباً، لم أعد أذكر اسم ذلك الولد - وسوف يهرب إلى البحر. ولو فعل ذلك، أعتقد أن الصبي كان سيصبح أميرالاً بحرياً. ولكنه أصغى إليّ

لحسن الحظ، وعاد إلى المدرسة في الوقت المناسب لتناول الفطور في صباح اليوم التالي.

وبما أنه اعتاد على المجيء إلى أحواض السفن مع ستان تانكوك، مرّ بعض الوقت قبل أن أدرك أن هاري هو ابن آرثر كليفتون. سألتني ذات مرة إذا كنت أعرف والده، وأجبتة بنعم، وبأنه كان رجلاً محترماً وذا سجل جيد في الحرب. سألتني بعدها إذا كنت أعرف كيف مات، فأجبتة بالنفي. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي كذبت فيها على الصبي؛ إذ لست أنا من سيتجاهل رغبة والدته.

كنت واقفاً في حوض السفن أثناء تبديل دوام العمال. لم ينظر إليّ أحد؛ كما لو أنني لست موجوداً أساساً. وعرفتُ أن بعض العمال يعتقدون أنني غير موجود. ولم أفعل أي شيء لأظهر لهم العكس؛ لأن هذا سمح لي بإبقاء هويتي مجهولة.

كان آرثر كليفتون مسؤولاً جيداً عن العمال، لا بل أفضلهم ربما، وقد أخذ وظيفته على محمل الجد؛ على عكس صديقه المقرب ستان تانكوك الذي كان مقهى «بيغ أند ويسل» أول محطة له في طريق عودته إلى المنزل. وما كان يصل إلى المنزل إلا في آخر الليل.

راقبتُ كليفتون فيما اختفى داخل بدن سفينة «مابل ليف» للتحقق من بعض الأمور قبل أن يصل العمال الذين سيأتون لختم القعر المزدوج ولحمه. لا بد أن الصوت الأجش للقوق الذي يشير إلى انتهاء الدوام هو الذي ألهى الجميع. كانت هناك مجموعة من العمال الذين أنهموا دوامهم، فيما هناك آخرون على وشك أن يبدأ دوامهم، ويحتاج



العمال الذين سيقومون بلحم قعر السفينة إلى البدء بسرعة إذا أرادوا إنهاء المهمة قبل انتهاء دوامهم والحصول على علاوة. لم يفكر أحد في ما إذا كان كليفتون قد خرج من القعر المزدوج أم لا؛ بمن فيهم أنا شخصياً.

افترضنا جميعاً أنه سمع بلا شك صوت البوق العالي، وأنه كان من بين مئات العمال الذين خرجوا عبر البوابات متوجهين إلى منازلهم. فعلى عكس شقيق زوجته، نادراً ما يتوقف كليفتون لتناول الشراب في مقهى «بيغ أند ويسل»، وكان يفضل الذهاب مباشرة إلى ستيل هاوس لاين للتواجد مع زوجته وطفله. في تلك الأيام، لم أكن أعرف زوجته أو ابنه، وما كنت لأعرفهما ربما لو عاد آرثر كليفتون إلى البيت في تلك الليلة.

كان عمال الدوام الثاني غارقين في عملهم عندما سمعتُ تانكوك يصرخ بأعلى صوته، ورأيته يشير إلى بدن السفينة. لكن هاسكينز - رئيس العمال - أزاحه جانباً كما لو أنه حشرة مزعجة.

وبعد أن أدرك تانكوك أنه لن يصل إلى أية نتيجة مع هاسكينز، نزل على السلم المتحرك، وبدأ يركض على الرصيف في اتجاه شركة بارينغتون. وعندما أدرك هاسكينز إلى أين يتوجه تانكوك، طارده وكاد يلحق به عندما وصل إلى الباب الدوار المؤدي إلى المقر الرئيس لشركة الشحن.

تفاجأت بعد دقائق قليلة حين خرج تانكوك مسرعاً من المبنى. وتفاجأت أكثر عندما رأيت هاسكينز والمدير التنفيذي يلحقان به. لم أعرف ما الذي أقنع السيد هوغو بمغادرة مكتبه بعد تلك المحادثة الوجيزة مع ستان تانكوك.

إلا أنني اكتشفت السبب سريعاً؛ لأنه ما إن وصل هوغو إلى حوض السفن حتى أعطى أمراً لكل العمال بأن يضعوا معداتهم أرضاً ويتوقفوا

عن العمل ويبقوا صامتين، كما لو أنها دقيقة صمت على روح أحدهم. وبالفعل، بعد دقيقة واحدة، طلب منهم هاسكينز متابعة العمل مجدداً.

عندئذ خطر في بالي أن آرثر كليفتون ربما لا يزال داخل القعر المزدوج. لكن، ما من رجل قاسي الفؤاد لدرجة أن يدير ظهره إذا اعتقد- ولو للحظة- أن هناك شخصاً قد علق وهو حيّ في قبر فولاذي من صنعه. وعندما تابع العمال عملهم، تحدث السيد هوغو مع تانكوك مجدداً قبل أن يخرج هذا الأخير عبر إحدى بوابات حوض السفن ويختفي عن الأنظار. نظرتُ إلى الخلف مجدداً لأرى إذا كان هاسكينز يلحق به، فوجدته أكثر اهتماماً في حث رجاله على العمل بأقصى جهد ممكن للتعويض عن الوقت الضائع؛ تماماً مثلما يعامل السيد عبيده. وبعد قليل، نزل السيد هوغو عن السلم المتحرك، وعاد إلى سيارته، وانطلق إلى شركة بارينغتون.

عندما نظرت إلى خارج نافذة مقطورتني في المرة التالية، رأيت تانكوك يدخل عبر البوابة مجدداً ويتوجه صوب شركة بارينغتون. غير أنه لم يعاود الظهور هذه المرة إلا بعد نصف ساعة. وعندما خرج، لم يكن وجهه أحمر، ولم يكن شديد الغضب كما كان حين دخل، وإنما بدا أكثر هدوءاً. فقلت لنفسي إنه وجد كليفتون على الأرجح وأراد إبلاغ السيد هوغو بذلك ببساطة.

نظرت إلى مكتب السيد هوغو، فرأيته واقفاً قرب النافذة مراقباً تانكوك لدى مغادرته المكان. لم يتعد عن النافذة إلا بعد أن اختفى تانكوك. وبعد دقائق قليلة، خرج السيد هوغو من المبنى، وتوجّه إلى سيارته وانطلق بعيداً.

ما كنت لأفكر في المسألة مجدداً لو ظهر آرثر كليفتون مع عمال الصباح. لكنه لم يظهر، لم يظهر في ذلك اليوم ولا في أي يوم آخر، لم يظهر إطلاقاً.

في صباح اليوم التالي، زارني التحري بلايكمور في مقطورتني. يمكنك الحكم على شخصية الإنسان من خلال طريقة معاملته لزملائه. وقد كان بلايكمور واحداً من الأشخاص النادرين الذين يستطيعون الرؤية أبعد من أنفسهم.

«أتقول إنك رأيت ستانلي تانكوك يغادر شركة بارينغتون بين السابعة والسابعة والنصف من مساء البارحة؟».

أجبتة: «نعم سيدي».

«هل بدا مستعجلاً أو قلقاً أو حاول الهرب من دون أن يراه أحد؟».

قلت: «على العكس. إذ أذكر أنني وجدته حينها هادئاً جداً بالنسبة إلى الظروف».

فكرّر بلايكمور مستغرباً: «بالنسبة إلى الظروف!».

«قبل ساعة واحدة تقريباً، كان يحتجّ لأن صديقه آرثر كليفتون كما قال قد علق في القعر المزدوج لبدن سفينة مابل ليف، ولم يفعل أحد أي شيء لمساعدته».

دوّن بلايكمور كلماتي في دفتره.

«هل تعرف إلى أين ذهب تانكوك بعد ذلك؟».

فأجبتة: «لا. عندما رأيته آخر مرة، كان يخرج عبر البوابة واضعاً ذراعه حول أحد رفاقه».

قال التحري: «شكراً لك يا سيدي. كان هذا مفيداً جداً». مضى وقت طويل على مناداتي بكلمة «سيد». «هل ترغب في الذهاب إلى مركز الشرطة- في الوقت الذي يناسبك- للتوقيع على إفادة مكتوبة؟».

فقلت له: «أفضل عدم فعل ذلك يا حضرة التحري لأسباب شخصية. لكن، لا مشكلة لدي في أن أكتب تقريراً وتمرّ لأخذه في الوقت الذي يناسبك».

«هذا لطف منك يا سيدي».

فتح التحري حقيبته، وأخرج ورقة خاصة بالشرطة وأعطاني إياها، ثم رفع قبعته وقال: «شكراً لك يا سيدي، سنبقى على تواصل». لكنني لم أره مجدداً قط.

وبعد ستة أسابيع، حُكِم على ستان تانكوك بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة السرقة، فيما كان السيد هوغو هو الشاهد الرئيس في جانب الادعاء. حضرت كل جلسة من جلسات المحاكمة، ولم أشك قط في الفريق المذنب فعلاً.

«حاول ألا تنسى أنك أنقذت حياتي».

ذكَرَ العجوز جاك: «أمضيتُ الأعوام الستة والعشرين الماضية وأنا أحاول أن أنسى».

«لكنك أيضاً كنت مسؤولاً عن إنقاذ حياة أربعة وعشرين رجلاً من زملائك. ستبقى بطلاً في هذه المدينة؛ رغم أنك غير مدرك لهذه الحقيقة على ما يبدو. لذا، أريد أن أسألك يا جاك، إلى كم من الوقت تنوي الاستمرار في تعذيب نفسك؟».

«إلى أن أتوقف عن رؤية الرجال الأحد عشر الذين قتلتهم بالوضوح نفسه الذي أراك فيه الآن».

فقال السير والتر: «لكنك كنت تؤدي واجبك حينها وليس أكثر».

اعترف جاك: «هكذا اعتبرت الأمر يومها».

«وما الذي تبدل؟».

أجاب جاك: «لو استطعت الإجابة عن هذا السؤال، لما كنا نتحدث هنا الآن».

«لكنك لا تزال قادراً على بذل الكثير من أجل زملائك ورفاقك. خذ مثلاً صديقك الصغير، فأنت تقول لي إنه يتهرب من واجباته المدرسية دوماً، لكنه إذا اكتشف أنك «الكابتن» جاك تارانت من فيلق

غلاوسسترشاير الملكي، الحائز على وسام النصر لأصغى إليك حتماً باحترام أكبر».

فأجاب جاك: «وقد يهرب بعيداً أيضاً. على أية حال، لديّ مشاريع أخرى للصغير هاري كليفتون».

قال السير والتر: «كليفتون، كليفتون... لماذا أجد هذا الاسم مألوفاً؟».

«والد هاري علق في القعر المزدوج لبدن سفينة مابل ليف، ولم يأت أحد لمساعدته...»

فقال السير والتر وقد تبدّلت نبرة صوته: «ليس هذا ما سمعته. قيل لي إن كليفتون ترك زوجته لأنها امرأة ساقطة».

قال جاك: «إذاً، تمّ تضليلك؛ لأنني أوكد لك أن السيدة كليفتون امرأة رائعة وذكية، وأي رجل محظوظ كفاية للزواج منها لن يرغب أبداً في تركها».

بدا السير والتر مصدوماً فعلاً، ومرّ بعض الوقت قبل أن يتكلم مجدداً، فسأل بهدوء: «أنت لا تصدق حتماً تلك الرواية القائلة إن كليفتون قد علق في القعر المزدوج لبدن السفينة، أليس كذلك؟».

«أخشى أنني أفعل يا والتر. فقد كنت شاهداً على كل ما حصل».

«إذاً، لماذا لم تقل أي شيء يومها عما حصل؟».

«قلت. عندما استجوبني التحري بلايكمور في اليوم التالي، أخبرته بكل ما رأيته، وأعددت تقريراً خطياً بناء على طلبه».

فسأل السير والتر: «إذاً، لماذا لم تُقدِّم شهادتك كدليل أثناء محاكمة تانكوك؟».

«لأني لم أرَ بلايكمور مجدداً قط. وعندما ذهبت إلى مركز الشرطة، قيل لي إنه لم يعد مسؤولاً عن القضية، ورفض بديله رؤيتي».

عندها، قال السير والتر: «أنا من أبعد بلايكمور عن القضية. فذلك الرجل اللعين اتهم هوغو بإعطائه تانكوك المال كي لا يتم فتح أي تحقيق في قضية كليفتون». بقي العجوز جاك صامتاً، فتابع السير والتر: «لا أريد التحدث عن هذا الموضوع مجدداً. أعرف أن ابني ليس مثالياً، لكنني لا أصدق...»

فقاطعه العجوز جاك: «أو ربما لا تريد التصديق».

«جاك، أنت مع من؟».

«أنا مع الحق؛ مثلما كنت أنت عندما التقينا للمرة الأولى».

فقال السير والتر: «ولا أزال كذلك». ثم صمت لبعض الوقت قبل أن يضيف: «أريدك أن تعديني بأمر يا جاك. إذا اكتشفت أي شيء عن هوغو يمكن أن يؤذي سمعة العائلة، لا تتردد في إخباري».

«لا شك في أنني سأفعل».

«ولا شك يا صديقي العزيز في أنني لن أتردد في تسليم هوغو إلى الشرطة إذا اكتشفت للحظة أنه خرق القانون».

قال العجوز جاك: «فلنأمل ألا يحصل أي شيء يجبرنا على ذلك».

«أوافقك الرأي يا صديقي العزيز. فلنتحدث الآن عن أمور أخرى. هل من شيء تحتاج إليه في الوقت الحاضر؟ ما زال بإمكانني...»

«هل تملك أي ملابس قديمة لا تحتاج إليها؟».

رفع السير والتر حاجبه، ثم سأله: «هل بإمكانني التجرؤ على السؤال؟».

فأجابه العجوز جاك: «كلا، لا تفعل. لكن عليّ زيارة رجل معين، وأحتاج إلى ملابس مرتبة».

أصبح العجوز جاك نحيلاً جداً على مرّ الأعوام، حيث بدت ملابس السير والتر فضفاضة عليه مثل خيوط الكتان فوق المغزل. وبما أن السير أندرو أغوتشيك كان أطول من صديقه القديم بعدة إنشات، توجب عليه فك طيات السروال الذي بالكاد وصل إلى كاحليه. لكنه شعر أن بذلة التويد، والقميص المطبوع بالمربعات، وربطة العنق المخططة ستؤدي غرضها في هذا اللقاء المحدد.

عندما خرج جاك من حوض السفن للمرة الأولى منذ أعوام، استدارت بعض الوجوه المألوفة صوبه للنظر إلى ذلك الغريب ذي الملابس الأنيقة.

وعندما رنّ جرس المدرسة في تمام الساعة الرابعة، اختبأ العجوز جاك في الظلال، فيما تدفق الأولاد من بوابات مدرسة ميريوود الابتدائية كما لو أنهم خارجون من سجن.

كانت السيدة كليفتون تنتظر هناك منذ عشر دقائق، وعندما رأى هاري أمه، سمح لها بالإمساك بيده على مضض. يا لها من امرأة راقية، فكر العجوز جاك في سره فيما راقب الاثنين وهما يتعدان، وهاري - كما



هي الحال دوماً- يقفز صعوداً ونزولاً، ويثرثر من دون توقف، كاشفاً عن طاقة مثل صاروخ ستفنسون.

انتظر العجوز جاك حتى أصبحتا بعيدين قبل أن يجتاز الطريق ويدخل فناء المدرسة. لو ارتدى ملابسه القديمة، لأوقفه حتماً أحد المسؤولين قبل وصوله إلى الباب الأمامي. نظر إلى الرواق، ولمح أستاذاً متوجهاً صوبه.

قال العجوز جاك: «آسف لإزعاجك، لكنني أبحث عن السيد هولكومب».

فقال الرجل: «الباب الثالث إلى اليسار يا عزيزي». وأشار إلى الرواق. عندما توقف العجوز جاك أمام صف السيد هولكومب، طرق على الباب بلطف.  
«ادخل».

فتح العجوز جاك الباب فوجد أمامه رجلاً شاباً، رداؤه الأسود الطويل مغطى بغبار الطباشور، وكان جالساً إلى طاولته قبالة مجموعة من الطاولات الشاغرة يصحح الدفاتر. قال العجوز جاك: «آسف لإزعاجك، لكنني أبحث عن السيد هولكومب».

فقال الأستاذ: «لا داعي للبحث أكثر». ثم وضع قلمه على المكتب. قال العجوز جاك وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: «اسمي تارانت، لكن رفاقي ينادونني جاك».

عندها، أشرق وجه هولكومب وقال: «أعتقد أنك الرجل الذي يذهب هاري كليفتون لزيارته معظم الصباحات».

فاعترف العجوز جاك: «نعم، أخشى ذلك. أعتذر».

قال هولكومب: «لا داعي لذلك. أتمنى فقط لو كان بإمكانني التأثير فيه مثلما تفعل أنت».

«لهذا السبب جئت لرؤيتك يا سيد هولكومب. أنا مقتنع بأن هاري ولد استثنائي، ويجب منحه كل الفرص الممكنة لإظهار مواهبه».

قال هولكومب: «أوافقك الرأي. وأعتقد أنه يملك موهبة لا تعرف عنها شيئاً».

«وما هي؟».

«يملك صوتاً رائعاً».

فقال العجوز جاك مبتسماً ابتسامة عريضة: «لكن هاري لا يعرف ذلك».

«أوافقك الرأي، لكن قد تكون هذه أفضل فرصة لنا لكسر دفاعاته».

سأل العجوز جاك: «ما الذي يخطر في بالك؟».

«ثمة احتمال في أنه قد يرغب بالانضمام إلى جوقة الإنشاد في دار العبادة. إذا كان بوسعك إقناعه بأن يأتي إلى المدرسة بتواتر أكبر، فبإمكانني تعليمه القراءة والكتابة».

«ولماذا يعتبر ذلك مهماً بالنسبة إلى جوقة الإنشاد في دار العبادة؟».

«هذا إلزامي؛ إذ ترفض الآنسة مانداي-المسؤولة عن الجوقة- إجراء

أي استثناء».

عندها، قال العجوز جاك: «إذاً، عليّ التأكد من حضور الصبي لكل دروسك، أليس كذلك؟».

«يمكنك أن تفعل ما هو أكثر من ذلك. ففي الأيام التي لا يأتي فيها إلى المدرسة، يمكنك تعليمه بنفسك».

«لكنني لست مؤهلاً لتعليم أي كان».

«هاري كليفتون لا تعنيه المؤهلات، وندرك كلانا أنه يصغي إليك. نستطيع ربها العمل معاً كفريق».

«لكن، إذا اكتشف هاري ما نحضره له، فلن يراه أي منا مجدداً».

عندها، تنهد الأستاذ قائلاً: «أوه، كم تعرفه جيداً. إذاً، علينا فقط التأكد من عدم اكتشافه الأمر».

فقال العجوز جاك: «قد يكون هذا تحدياً صعباً، لكنني مستعد للمحاولة».

قال السيد هولكومب: «شكراً لك سيدي». ثم صمت الأستاذ قليلاً قبل أن يضيف: «أتساءل عما إذا كان بإمكانني مصافحتك». بدا العجوز جاك متفاجئاً فيما مدّ الأستاذ يده، فصافحه بحرارة. «وأستطيع القول إنني تشرفت بلقائك «كابتن» تارانت».

بدا العجوز جاك مذعوراً: «كيف عرفت؟».

«يملك والدي صورة لك، وهي لا تزال معلقة على الجدار في غرفة الاستقبال في منزلنا».

فسأله العجوز جاك: «لكن، لماذا؟».

«لأنك أنقذت حياته يا سيدي».

أصبحت زيارات هاري إلى مسكن العجوز جاك أقل تواتراً خلال الأسابيع القليلة التالية، إلى أن باتا يلتقيان فقط صباح يوم السبت. وعرف العجوز جاك أن السيد هولكومب قد نجح في تنفيذ خطته عندما سأله هاري عما إذا كان سيذهب إلى دار العبادة يوم الأحد لسماعه وهو ينشد.

صباح الأحد، نهض العجوز جاك باكراً، واستخدم الحمام الخاص بالسير والتر في الطابق الخامس من شركة بارينغتون ليستحم ويحلق ذقنه، قبل أن يرتدي البذلة الأخرى التي أعطاه إياها السير والتر.

وصل إلى دار العبادة مباشرة قبل بدء الاحتفال الديني، وجلس في الصف الخلفي على طرف المقعد الخشبي. ملح السيدة كليفتون جالسة في الصف الثالث بين من يفترض أن يكونا والدها ووالدتها. أما الآنسة مانداي فكان بإمكانه تمييزها من بين مجموعة من ألف شخص.

لم يبالغ السيد هولكومب في وصفه صوت هاري؛ فهو جيد بقدر أي شيء يستطيع جاك تذكره من أيامه في دار العبادة الكبيرة ويلز. وما إن فتح الصغير فمه منشداً، حتى أدرك العجوز جاك أن صغيره يملك موهبة استثنائية.

وبعد أن أنهى رجل الدين طقوس الاحتفال الديني، انسحب العجوز جاك من دار العبادة وعاد بسرعة إلى أحواض السفن. عليه الانتظار حتى صباح السبت التالي ليخبر الصبي كم استمتع بإنشاده.

في طريق العودة، تذكّر العجوز جاك لوم السير والتر له وقوله:  
«يمكنك فعل المزيد لهاري لو أوقفت هذا النكران للذات». فكر ملياً في  
كلمات السير والتر، ولكنه لم يكن مستعداً بعد للتخلص من أغلال  
الذنب. إلا أنه يعرف رجلاً قادراً على تبديل حياة هاري، رجلاً كان معه  
في ذلك اليوم المرعب، رجلاً لم يتحدث معه منذ أكثر من خمسة وعشرين  
عاماً، رجلاً يعلم في مدرسة تزود دار عبادة سانت ماري ريدكليف  
بالمُنشدين. فلسوء الحظ، ليست مدرسة ميريوود الابتدائية أرضية  
مناسبة للحصول على منحة الإنشاد المدرسية، ولذلك يتوجب على الرجل  
الانتقال إلى ذلك الاتجاه.

الأمر الوحيد الذي أخاف العجوز جاك هو ألا يذكره الملازم  
فروبيشر.

انتظر العجوز جاك حتى غادر هوغو مقر شركة بارينغتون، لكن نصف ساعة إضافية مضت قبل أن تُطفأ الأنوار أخيراً في غرفة الأنسة بوتس.

عندها، خرج جاك من المقطورة المهجورة، وبدأ يسير ببطء صوب شركة بارينغتون، مدركاً أن لديه نصف ساعة فقط قبل أن تصل عاملات التنظيف. دخل المبنى غير المضاء، وصعد السلم وصولاً إلى الطابق الخامس. بعد خمسة وعشرين عاماً من غُضّ السير والتر الطرف، استطاع في الظلمة إيجاد طريقه إلى الباب الذي علّقت عليه لوحة كُتبت عليها عبارة «المدير التنفيذي».

جلس إلى مكتب هوغو، وأثار المصابيح. إذا لاحظ أحد ما تلك الأضواء، فسيفترض ببساطة أن الأنسة بوتس لا تزال تعمل حتى وقت متأخر. فتش في دليل الهاتف إلى أن وصل إلى سانت أندروز، سانت بارثلميو، سانت بياتريس، سانت بيدس.

رفع سماعة الهاتف للمرة الأولى منذ زمن بعيد، ومن دون أن يعرف ما يجدر به فعله. «الرقم من فضلك؟».

قال جاك: «8612». فيما كانت سبابته فوق الرقم مباشرة.

«شكراً لك سيدي». وفيما كان العجوز جاك ينتظر، ازداد توتره شيئاً فشيئاً. ما الذي سيقوله إذا أجاب شخص آخر؟ ببساطة، سينهي الاتصال.

أخرج قطعة ورقية من جيبه وفتحها، ثم بسطها على المكتب أمامه. سمع بعد ذلك صوت رنين، تلاه صوت رجل يقول: «مقرّ فروبيشر».

سأل: «هل أتحدث إلى نويل فروبيشر؟». متذكراً التقليد القائم بتسمية كل منزل في سانت بيد نسبة إلى سيد المنزل. ثم نظر إلى ورقته. كان قد حضر كل سطر بعناية فائقة، وتدرّب عليه جيداً.

قال فروبيشر: «إنه يتكلم». وبدا جلياً أنه متفاجئ لسماعه صوتاً لم يعرفه، ولكنه توجه إليه باسمه الأول. تلا ذلك صمت طويل، ثم سأل فروبيشر: «هل من أحد على الخط؟». وبدا منزعجاً قليلاً.

«نعم، أنا «الكابتن» جاك تارانت».

تلا ذلك صمت أطول قبل أن يقول فروبيشر في النهاية: «مساء الخير سيدي».

«اعذرنى لاتصالي بك في هذه الساعة المتأخرة يا صديقي، لكنني أريد نصيحتك».

«على الإطلاق. إنه لشرف لي أن أتحدث معك بعد كل هذه السنوات».

فقال العجوز جاك: «هذا لطف منك. سأحاول عدم تضييع وقتك كثيراً، لكنني أريد أن أعرف ما إذا كانت مدرسة سانت بيد لا تزال تزود دار عبادة سانت ماري ريدكليف بأفراد لجوقة الإنشاد؟».

«هذا صحيح يا سيدي. فرغم حصول الكثير من التغييرات في العالم المعاصر، إلا أن هذا التقليد لا يزال على حاله».

عندها، قال العجوز جاك: «وفي أيامي، كانت المدرسة تعطي منحة دراسية كل سنة لمنشد ذي موهبة استثنائية».

«هذا صحيح يا سيدي. في الواقع، سنبداً بتلقي الطلبات لهذه المنحة في الأسابيع القليلة المقبلة».

«أتقبل الطلبات من أية مدرسة في البلاد؟».

«نعم، من أية مدرسة قادرة على منحنا صوتاً مميزاً. لكن، لا بد من امتلاك التلميذ خلفية أكاديمية مهمة».

قال العجوز جاك: «حسناً، إذا كانت هذه هي الحالة، فأنا أريد لفت انتباهك إلى مرشح».

«طبعاً سيدي. ما المدرسة التي يذهب إليها التلميذ؟».

«مدرسة ميريوود الابتدائية».

تلا ذلك صمت طويل. «عليّ الاعتراف بأنها المرة الأولى التي نأخذ فيها طلباً من تلك المدرسة تحديداً. هل تعرف اسم أستاذ الموسيقى؟».

فأجاب العجوز جاك: «لا يوجد أستاذ للموسيقى، لكن عليك التواصل مع أستاذ الصبي، السيد هولكومب، وهو سيعرّفك على مدرّبه في الجوقة».

قال فروبيشر: «هل يمكنني السؤال عن اسم التلميذ؟».

«هاري كليفتون. إذا أردت سماعه وهو ينشد، فأنا أوصيك بحضور الاحتفال الديني الصباحي في دار العبادة يوم الأحد».

«هل ستكون هناك يا سيدي؟».



فأجاب العجوز جاك: «لا».

سأل فروبيشر: «كيف يمكنني الاتصال بك بعد أن أسمع إنشاد الصبي؟».

فأجاب العجوز جاك بصرامة: «لا داعي لذلك». وأنهى الاتصال. وفيما كان يطوي ورقته الصغيرة ويعيدها إلى جيبه، أقسم إنه سمع صوت خطوات مسرعة على الحصى في الخارج. فأطفأ الضوء بسرعة، وخرج من مكتب السيد هوغو ومنه إلى الرواق.

سمع باباً يفتح، وأصواتاً على السلام. آخر ما يريده هو أن يتم اكتشاف وجوده في الطابق الخامس المحظر دخوله على الجميع؛ باستثناء مديري الشركة والآنسة بوتس. وهو لا يريد إحراج السير والتر.

بدأ ينزل السلام بسرعة، وحين وصل إلى الطابق الثالث رأى السيدة نيتلز تتوجه نحوه حاملة ممسحة في إحدى يديها، ودلواً في اليد الأخرى، وبرفقتها امرأة أخرى لم يعرفها.

قال العجوز جاك: «مساء الخير يا سيدة نيتلز. يا للصدفة! فأنا أقوم بجولتي».

أجابت: «مساء الخير أيها العجوز جاك». وبعد أن انعطف حول الزاوية، توقف وأصغى جيداً، فسمع السيدة نيتلز تقول: «إنه العجوز جاك، الحارس الليلي. إنه مجنون بالكامل، ولكنه غير مؤذٍ البتة. إن صادفته فتجاهليه...» قهقه العجوز جاك فيما اختفى صوتها مع كل خطوة قامت بها.

وحين عاد إلى المقطورة المهجورة، تساءل عن الوقت الذي سيمضي  
قبل أن يأتي هاري لسؤاله عمّا إذا كان يجدر به إدراج اسمه للحصول  
على منحة مدرسية في سانت بيد.

طرق هاري على باب المقطورة، ثم دخل وجلس على المقعد قبالة العجوز جاك في مقطورة الدرجة الأولى.

خلال الفصل الدراسي في سانت بيد، استطاع هاري رؤية العجوز جاك بانتظام في صباحات أيام السبت. وفي المقابل، ردّ جاك الإطراء بحضوره الاحتفال الديني الصباحي في دار عبادة سانت ماري ريدكليف، حيث استمتع من حيث يجلس على المقعد الخلفي بمراقبة السيد فروبيشر والسيد هولكومب وهما يتسلمان بفخر لصغيره المدلل.

في العطلات المدرسية، لم يكن العجوز جاك يعرف متى يمكن أن يزوره هاري؛ لأن الصغير اعتبر المقطورة المهجورة بمثابة منزله الثاني دائماً. وكلما عاد إلى سانت بيد في بداية فصل مدرسي جديد، كان العجوز جاك يفتقد إلى صحبته. وقد تأثر كثيراً عندما قالت له السيدة كليفتون إنه بمثابة الأب الذي لم يعرفه هاري قط. وفي الحقيقة، كان هاري الولد الذي لطالما أرادته.

قال العجوز جاك: «هل أنهيت جولتك الصباحية لتوزيع الجرائد باكراً؟». فيما فرك عينيه عندما دخل هاري مقطورته صباح يوم السبت. قال هاري: «لا، أنت من تأخر في النوم أيها العجوز». وأعطاه نسخة من العدد السابق لجريدة التايمز.

قال العجوز جاك مبتسماً ابتسامة عريضة: «وأنت تصبح أكثر وقاحة يوماً بعد يوم أيها الصغير. كيف كانت جولتك الصباحية؟».

«جيدة. أعتقد أنني سأتمكن من توفير مال كافٍ لشراء ساعة لأمي».  
«هدية جيدة نظراً لوظيفة أمك الحالية. لكن، هل تستطيع  
شراءها؟».

فأجاب هاري: «وفّرت لغاية الآن أربعة شلنات. أعتقد أنني سأصل  
إلى ستة شلنات في نهاية العطلة».  
«هل اخترت الساعة التي تريدها؟».

أجاب هاري مبتسماً: «نعم. إنها في خزانة عرض السيد ديكنز، لكنها  
لن تبقى هناك لوقت طويل».  
ديكنز، إنه اسم لا يستطيع العجوز جاك نسيانه أبداً. سأل: «وكم  
يريد ثمناً لها؟».

أجاب هاري: «لا أعرف. لن أسأل السيد ديكنز إلا في اليوم الذي  
يسبق عودتي إلى المدرسة».

لم يعرف العجوز جاك كيف يخبر الصبي أن الشلنات الستة لا تكفي  
أبداً لشراء ساعة، ولذلك بدّل الموضوع. «أتمنى ألا يلهيك توزيع الجرائد  
عن الدراسة. لا داعي لتذكيرك بأن الامتحانات باتت أقرب».

قال هاري: «أنت أسوأ من فروب. لكنك ستسرّ حين تعرف أنني  
أمضي ساعتين كل صباح في المكتبة مع ديكنز، وساعتين آخرين في معظم  
فترات بعد الظهر».

«معظم فترات بعد الظهر!».

«حسناً، نذهب أنا وجيل إلى السينما أحياناً، وهما أن غلاوسسترشاير سيلعب مع يوركشاير في الأسبوع المقبل، ستكون لدينا فرصة لنرى كيف سيلعب هيربرت سوتكليف».

قال العجوز جاك: «سوف تشتاق إلى جيل حين يذهب إلى إيتون».

«لا يزال يحاول إقناع والده للسماح له بالانضمام إلى ديكنز وأنا في مدرسة بريستول للقواعد».

فقال العجوز جاك مصححاً: «بالانضمام إلينا أنا وديكنز». وصمت قليلاً، ثم تابع: «وانتبه، إذا حسم السيد هوغو أمره، فسيحتاج ذلك إلى أكثر من جيل لتبديل رأيه».

فجأة قال هاري: «السيد بارينغتون لا يحبني». وفاجأ قوله العجوز جاك.

«لماذا تقول هذا؟».

«إنه يعاملني بطريقة مختلفة عن معاملته للأولاد الآخرين في سانت بيدس. يبدو لي وكأنه يعتقد أنني لست جيداً بما يكفي لأكون صديقاً لابنه».

فقال العجوز جاك: «عليك مواجهة هذه المشكلة طوال حياتك يا هاري. فالإنكليز هم أكثر الأشخاص تبجحاً على سطح الأرض، ومن دون سبب في معظم الأحيان. وبحسب خبرتي، كلما تضاءلت الموهبة ازداد التبجح. إنها الطريقة الوحيدة التي تأمل من خلالها الطبقات الراقية أن تتمكن من الصمود. اعلم يا صديقي أنهم لا يهتمون بالصغار أمثالك الذين يدخلون عالمهم من دون دعوة».

فقال هاري: «لكنك لا تعاملني هكذا».

عندها، أجاب العجوز جاك ضاحكاً: «لأنني لست من الطبقة الراقية».

فقال هاري: «ربما لا، لكن أُمي تقول إنك من النخبة، وهذا ما أريد أن أكونه».

لم يستطع العجوز جاك إخبار هاري بالسبب الحقيقي الذي يجعل هوغو بارداً معه دوماً. وتمنى أحياناً لو لم يكن في المكان الخطأ والزمان الخطأ، ولو أنه لم يشهد على ما حصل فعلاً يوم مات والد الصبي.

قال هاري: «هل نمت مجدداً أيها العجوز؟ لا أستطيع البقاء هنا طوال اليوم للثرثرة معك. فقد وعدت أُمي بملاقاتها في متجر كلاركس لأنها تريد أن تشتري لي حذاءً جديداً، علماً أنني لا أرى مشكلة في الحذاء الذي أملكه».

قال العجوز جاك: «أُمك سيدة مميزة».

«لهذا السبب سأشتري لها ساعة».

رنّ الجرس فوق الباب فيما دخل المتجر. أمل العجوز جاك أن يكون زمن طويل قد مرّ ليضمن عدم تذكر ديكنز له.

«صباح الخير سيدي. كيف أساعدك؟».

استطاع العجوز جاك التعرف إلى السيد ديكنز على الفور، فابتسم وتوجه صوب خزانة العرض، وتأمل الساعتين على الرف العلوي، ثم قال: «أريد أن أعرف سعر ساعة إنغرسول هذه».

عندها، سأل السيد ديكنز وقد نهض من وراء طاولة مكتبه: «أيهما؟ الساعة الرجالية أو النسائية يا سيدي؟».

فأجاب العجوز جاك: «الساعة النسائية».

فتح ديكنز خزانة العرض، وأخرج الساعة من مكانها وتحقق من اللصيقة عليها ثم قال: «سته عشر شلناً يا سيدي».

فقال العجوز جاك: «جيد». ثم وضع ورقة عشرة شلنات على المكتب. بدا السيد ديكنز مذهولاً، فيما تابع العجوز جاك: «عندما يسألك هاري كليفتون عن سعر هذه الساعة يا سيد ديكنز، قل له أرجوك إن ثمنها ستة شلنات، لأن هذا هو المبلغ الذي سيكون قد وفره حين يتوقف عن العمل لديك. وأعرف أنه ينوي شراءها هدية لأمه».

قال ديكنز: «لا بد أنك العجوز جاك. سيكون متأثراً...»

فقاطع العجوز جاك وهو ينظر إلى عينيه مباشرة: «لكنك لن تخبره. أريده أن يصدق أن السعر الحقيقي للساعة هو ستة شلنات».

قال السيد ديكنز: «أفهمك». وأعاد الساعة إلى خزانة العرض.

«وما سعر الساعة الرجالية؟».

«باوند واحد».

«هل تسمح لي بدفع عشرة شلنات كدفعة أولى، ثم سأعطيك نصف كراون أسبوعياً طوال الشهر التالي إلى أن أسدد المبلغ كله؟».

«لا مشكلة في ذلك يا سيدي. لكن، ألا تودّ تجربتها أولاً؟».

فقال العجوز جاك: «لا، شكراً. ليست لي. سوف أهدئها لهاري حين يفوز بمنحة دراسية إلى مدرسة بريستول للقواعد».

قال السيد ديكنز: «خطرت في بالي الفكرة نفسها إذا أتحت لابني فرصة الفوز بمنحة دراسية».

عندها قال العجوز جاك: «إذاً، من الأفضل أن تحضر واحدة أخرى بسرعة؛ لأن هاري يقول لي إن ابنك متفوق جداً».

ضحك السيد ديكنز، ونظر إلى العجوز جاك عن كثب، ثم سأله: «أم نلتقي من قبل يا سيدي؟».

فأجاب العجوز جاك: «لا أظن ذلك». ثم غادر المتجر من دون أن يقول أي كلمة أخرى.



... ابتسم العجوز جاك لنفسه فيما نهض ليلقي التحية على السيد هولكومب ويعرض عليه الجلوس.

سأله العجوز جاك: «هل ترغب في الانضمام إليّ لتناول كوب من الشاي؟ كانت السيدة كليفتون لطيفة جداً بإعطائي علبة ممتازة من شاي إيرل غراي».

فأجاب هولكومب: «لا، شكراً لك سيدي. تناولتُ فطوري للتو».

قال العجوز جاك: «إذاً، لقد فوّت الصبي المنحة الدراسية». مفترضاً أن الأستاذ قد جاء لرؤيته بهذا الخصوص.

قال هولكومب: «يعتبر هاري أنه رسب؛ رغم حلوله في المرتبة السابعة عشرة بين ثلاثئة طالب، وحصوله على مكان في فريق المتفوقين في المدرسة خلال شهر سبتمبر».

«لكن، هل سيتمكن من قبول هذا العرض؟ سيفرض ذلك عبئاً مالياً إضافياً على أمه».

«طالما أنه لم تحصل مفاجآت غير متوقعة، يفترض أن تتمكن من تعليم هاري خلال السنوات الخمس المقبلة».

«رغم ذلك، لن يتمكن هاري من تحمل كلفة النفقات الإضافية التي يعتبرها بقية الأولاد بدهية».

«ربما. لكنني تدبرت أمر تغطية بعض نفقاته من لائحة المدرسة، حيث سيتمكن من اختيار اثنين على الأقل من النشاطات الثلاثة الإضافية التي يفترض به التسجيل فيها».

قال العجوز جاك: «دعني أحزر. الإنشاد، ونادي المسرح و...؟»

قال هولكومب: «تقدير الفنون. سوف نتحمل أنا والآنسة مانداي نفقات كل الرحلات التي قد تقوم بها جوقة الإنشاد، وسأغطي أنا تكاليف نادي المسرح و...»

فقال العجوز جاك: «إذاً، أنا سأغطي تكاليف تقدير الفنون؛ شغفه الجديد. أستطيع مشاطرة هاري هوايتي في أعمال رامبراندت وفيرمير وحتى ماتيس. إنه يحاول الآن حثي على الاهتمام بفنان إسباني جديد يدعى بيكاسو، لكنني لا أجد نفسي في ذلك».

اعترف هولكومب: «لم أسمع به قط».

«وأشك في أن تسمع به يوماً. لكن، لا تخبر هاري أنني قلت لك ذلك». ثم رفع علبة حديدية صغيرة وفتحها وأخرج منها ثلاث أوراق نقدية، وكل النقود المعدنية التي يملكها.

قال هولكومب: «لا، لا. ليس هذا هو السبب الذي دفعني للمجيء إليك. في الواقع، أنوي زيارة السيد كراديك بعد ظهر اليوم، وأنا واثق من أنه...»

«أعتقد أنني سأسبق السيد كراديك».

«هذا لطف كبير منك».

قال العجوز جاك: «يتم إنفاق المال في المكان الصحيح، حتى لو كان  
فلس الأرملة». ثم أضاف بعد تفكير: «على الأقل، سيوافق والدي على  
ذلك».

فكرر هولكومب مستغرباً: «والدك!».

«إنه رجل الدين المسؤول في دار العبادة الكبيرة ويلز».

عندها قال هولكومب: «لم أكن أعرف. إذًا، سوف تتمكن من زيارته  
بين الحين والآخر».

فقال العجوز جاك: «لسوء الحظ لا. أخشى أن أكون الابن الضال».  
ولم يشأ التعمق أكثر في هذا الموضوع فأضاف: «إذًا، أخبرني أيها الشاب،  
لماذا جئت لزيارتي؟».

«لا أذكر المرة الأخيرة التي ناداني فيها أحدهم بلقب الشاب!».

قال العجوز جاك: «إذًا، كن ممتناً لأن هناك شخصاً ما لا يزال يفعل  
ذلك».

ضحك هولكومب: «أملك تذكرتين لمسرحية المدرسة يوليوس قيصر.  
وبما أن هاري سيشارك في المسرحية، قد ترغب ربما في الانضمام إليّ ليلة  
الافتتاح».

قال العجوز جاك: «أعرف أنه كان يتمرن على المسرحية. ما الدور  
الذي سيؤديه؟».

قال هولكومب: «سيؤدي دور سينا».

«إذًا سنعرفه من مشيته الخاصة».

أخفض هولكومب رأسه، وسأله: «هل يعني هذا أنك ستنضم إلي؟». فأجاب العجوز جاك رافعاً يده: «أخشى أنني لن أفعل. لطف منك أنك فكرت بي يا هولكومب، لكنني لست مستعداً بعد للحفل المباشر؛ حتى لو كنت مجرد فرد بين الجمهور».

خاب أمل العجوز جاك لأنه لم يحضر أداء هاري في مسرحية المدرسة، واضطر إلى الاكتفاء بما أخبره به الصبي عن أدائه. وفي السنة التالية، عندما اقترح هولكومب حضور العجوز جاك المسرحية لأن دور هاري بات أكثر أهمية كاد يستسلم، ولكن الحلم لم يتحوّل إلى حقيقة إلا بعد أن شارك هاري في مسرحية بوك؛ أي بعد سنة.

صحيح أن العجوز جاك لا يزال يخشى التجمعات الكبيرة، ولكنه قرر الجلوس في الجهة الخلفية من مسرح المدرسة، حيث لن يراه أحد أو يتعرف إليه أحد.

كان قد مرّ بعض الوقت على حلاقته ذقنه في حمام الطابق الخامس في شركة بارينغتون عندما لاحظ العنوان العريض على نسخة من الجريدة المحلية تركها أحدهم هناك. احتراق مقهى تيلي بالكامل. عمل مفتعل على الأرجح. وعندما رأى الصورة تحت العنوان شعر بالغثيان. إذ كانت السيدة كليفتون واقفة على الرصيف محاطة بموظفاتها، وكن يتأملن بقايا المقهى المحترق. الرجاء الانتقال إلى الصفحة 11 للاطلاع على القصة كاملة. أطاع العجوز جاك ما طُلب منه، ولكن الصفحة 11 لم تكن موجودة.

غادر الحمام بسرعة على أمل إيجاد الصفحة المفقودة على مكتب الأنسة بوتس. غير أنه لم يتفاجأ عندما رأى مكتبها نظيفاً، وسلة نفاياتها خالية. عندها، فتح باب مكتب المدير التنفيذي بحذر، ونظر إلى الداخل، فلمح الصفحة الناقصة على مكتب السيد هوغو. جلس على الكرسي الجلدي الكبير وبدأ يقرأ.

وبعد أن أنهى قراءة المقالة، أول ما خطر في بال جاك هو التساؤل عما إذا كان هاري مضطراً لتترك المدرسة.

ذكرت المقالة أنه إذا لم تدفع شركة التأمين المبلغ كاملاً، فستواجه السيدة كليفتون الإفلاس. وأشار كاتب المقالة إلى أن ناطقاً باسم شركة بريستول وويست انغلند أكد أن الشركة لن تدفع أي فلس ما لم تحذف الشرطة كل الشبهات من سجلاتها. تساءل العجوز جاك في سرّه عما يمكن أن يحصل للمرأة المسكينة.

حرص كاتب المقالة على عدم تسمية مايزي، لكن العجوز جاك لم يشك قطّ في السبب وراء نشر صورتها بوضوح على الصفحة الأمامية. تابع قراءة المقالة، وعندما اكتشف أن التحري بلايكمور هو المسؤول عن القضية شعر ببعض التفاؤل. فذلك الرجل النبيل لن يحتاج إلى الكثير من الوقت لترتيب أمور السيدة كليفتون واكتشاف أنها لم تحرق مقهاها.

وفيما أعاد العجوز جاك الجريدة إلى مكتب السيد هوغو، لاحظ للمرة الأولى وجود رسالة على الطاولة. كان سيتجاهلها لو لم ير اسم «السيدة كليفتون» مذكوراً في الفقرة الأولى.

بدأ يقرأ الرسالة، ووجد صعوبة في تصديق أن هوغو بارينغتون هو من دفع المبلغ البالغ خمسمئة باوند الذي سمح للسيدة كليفتون بشراء

مقهى تيلي، وتساءل عن سبب رغبته في مساعدة مايزي. هل يشعر ببعض الندم بعد موت زوجها؟ أم يشعر بالخجل لأنه أرسل رجلاً بريئاً إلى السجن بسبب جرم لم يرتكبه؟ لا شك في أنه أعاد تانكوك إلى وظيفته السابقة لحظة إطلاق سراحه. بدأ العجوز جاك يتساءل عما إذا كان يجدر به الشك في هوغو. وتذكر كلمات السير والتر: «إنه ليس بذلك السوء، مثلما تعلم».

قرأ الرسالة مجدداً. إنها من السيد برنדרغاست مدير مصرف بروفنسيال الوطني، وقد كتب في الرسالة أنه يلح على شركة التأمين لتفي بالشروط الوارد ذكرها في العقد والتعويض على السيدة كليفتون بكامل قيمة التأمين، أي 600 باوند استرليني. أشار السيد برنדרغاست إلى أن السيدة كليفتون بريئة، وقد أبلغ التحري بلايكمور المصرف مؤخراً بأنها لم تعد قط تخضع لاستجواباته.

وفي الفقرة الأخيرة من رسالته، اقترح برنדרغاست أن يلتقي السيد بارينغتون في القريب العاجل لحل المسألة؛ كي تتمكن السيدة كليفتون من الحصول على كامل المبلغ المستحق لها. نظر العجوز جاك إلى الأعلى عندما دقت الساعة الموجودة في المكتب سبع مرات متتالية.

عندها، أطفأ الضوء، وركض إلى الرواق ونزل السلام؛ إذ لم يكن يريد الوصول إلى مسرحية هاري متأخراً.

عندما عاد العجوز جاك إلى مقطورته في وقت متأخر من تلك الليلة، أخذ نسخة من جريدة التايمز التي تركها له هاري في وقت سابق من ذلك الأسبوع. لم يزعج نفسه يوماً بقراءة الإعلانات الشخصية الموجودة على الصفحة الأمامية لأنه لا يحتاج إلى قبعة بولينغ جديدة، أو حمالات سروال، أو الإصدار الأول من كتاب معين.

قلب الصفحة ليجد صورة للملك إدوارد الثامن وهو يستمتع بإجازة على متن يخت في البحر الأبيض المتوسط، وقد وقفت إلى جانبه امرأة أميركية تدعى السيدة سمبسون. تمت كتابة التقرير بمصطلحات مبهمّة، لكن حتى الجريدة وجدت صعوبة في تأييد رغبة الملك الشاب في الزواج من امرأة مطلّقة. حزن العجوز جاك لأنه يحب إدوارد؛ ولاسيما بعد زيارته لعمال مناجم ويلز وتأثره الواضح بمصيبتهم. لكن مثلما كانت مربيته العجوز تقول، ستكون هناك دموع قبل النوم.

أمضى العجوز جاك وقتاً طويلاً في قراءة تقرير عن قانون إصلاح الضرائب الذي تمّت مطالعته للمرة الثانية في مجلس الشيوخ، رغم إعلان وينستون تشرشل أنه قانون تافه، ولن يستفيد منه أحد - بما في ذلك الحكومة - عندما يحين موعد الانتخاب. تحرّق شوقاً لسماع آراء السير والتر في هذا الموضوع تحديداً.

قلب الصفحة فقرأ أن شركة البث البريطانية قامت بأول بثّ تلفزيوني لها من قصر ألكسندرا. إنه مفهوم لم يستطع فهمه بعد. إذ

كيف يمكن أن تصل الصورة إلى منزلك؟ إنه لا يملك مذياعاً، ولا يرغب حتماً في اقتناء تلفاز.

انتقل إلى صفحة الرياضة ليجد صورة لفريد بيرى الأنيق تحت عنوان بطل ومبلدون ثلاث مرات، مؤهل للفوز ببطولة أميركا المفتوحة. اقترح كاتب المقال أن يرتدي بعض الأجانب المشاركين في المباريات الرياضية سراويل قصيرة في فوريسست هيلز؛ وهذا أمر آخر لم يستطع جاك استيعابه أيضاً.

ومثلما يفعل عادة عند قراءته جريدة التايمز، انتقل العجوز جاك في النهاية إلى صفحة الوفيات. فقد وصل إلى سنٍّ يموت فيها رجال أصغر منه، وليس فقط في الحروب.

عندما قلب الصفحة، اختفى اللون من وجهه وغمره إحساس بالحزن الشديد. أخذ وقته في قراءة رثاء توماس ألكسندر تارانت، رجل الدين المسؤول عن دار العبادة الكبيرة ويلز، والذي قيل عنه إنه رجل تقي. وعندما أنهى العجوز جاك قراءة ما كُتِبَ عن والده شعر بالخجل.

كرر العجوز جاك: «سبعة باوندات وأربعة شلنات! لكنني اعتقدت أنك حصلت على «شيك» بقيمة ستمئة باوند عداً ونقداً من شركة بريستول وويست إنجلند للتأمين؛ إذا كانت ذاكرتي جيدة».

فقالت مايزي: «هذا صحيح. لكن في الوقت الذي سدّدت فيه القرض الأصلي، والفائدة المترتبة على ذلك القرض، إضافة إلى نفقات المصرف، أصبح المبلغ سبعة باوندات وأربعة شلنات فقط».



قال العجوز جاك: «كم أنا ساذج! فقد اعتقدت لهنية، لهنية فقط، أن بارينغتون يحاول المساعدة».

فقلت مايزي: «لست ساذجاً بقدري. فلو شككت ولو قليلاً، ولو قليلاً فقط، في أن الرجل متورط في المسألة، لما أخذتُ فلساً واحداً من ماله. وبما أنني أخذت منه المال فقد خسرت كل شيء؛ حتى وظيفتي في الفندق».

عندها، سأل العجوز جاك: «لكن، لماذا؟ لطالما قال السيد فرامبتون إنه لا يمكن استبدالك بأحد».

«حسناً، يبدو أن الأمور قد تغيرت. فعندما سألته عن سبب رفضه لي، امتنع عن إعطائي سبباً واضحاً، واكتفى بالقول إنه تلقى شكوى عني من مصدر لا يمكنه الإفصاح عن هويته. وليست مصادفة أن يتم طردي في اليوم نفسه الذي توجه فيه ذلك «المصدر الذي لا يمكن الإفصاح عن هويته» إلى فندق رويال للتحدث مع المدير».

سأل العجوز جاك: «هل رأيت بارينغتون يذهب إلى الفندق؟».

«لا. لكنني رأيته وهو يدخله. لا تنس أنني كنت مختبئة بانتظاره على المقعد الخلفي لسيارته».

فقال العجوز جاك: «طبعاً. ماذا حصل عندما واجهته بشأن هاري؟».

قلت مايزي: «عندما كنا في السيارة، اعترف تقريباً أنه مسؤول عن موت آرثر».

فقال العجوز جاك بذهول: «هل اعترف بالحقيقة أخيراً بعد مرور كل تلك السنوات؟».

قالت مايزي: «ليس تماماً. كان الأمر زلة لسان، لكن عندما تركت المغليف التي يتضمن ورقة أقساط الفصل التالي على مقعد سيارته الأمامي، وضع المغليف في جيبه وقال إنه سيرى ما بإمكانه فعله للمساعدة».

«وهل صدقته؟».

اعترفت مايزي: «لم يستمر كذبه طويلاً؛ لأنه عندما أوقف السيارة، خرج منها وفتح لي الباب الخلفي. لكن ما إن خرجت من السيارة حتى ضربني ورماني أرضاً، ثم مزق المغليف فوقى وانطلق بعيداً».

«ألهدا السبب عينك محاطة باللون الأسود؟».

أومأت مايزي برأسها وقالت: «وقد حذّرتني أيضاً من وضعي في مستشفى للأمراض العقلية إذا فكرت في الاتصال بزوجته».

قال العجوز جاك: «هذا مجرد هراء لأنه لا يستطيع فعل ذلك».

فقالت مايزي: «أنت محق ربما. لكنني لا أرغب بالمجازفة في مثل هذا الأمر».

قال العجوز جاك: «وإذا أخبرت السيدة بارينغتون أن زوجها مسؤول عن موت آرثر، فسيخبرها فقط أنك أخت ستان تانكوك، وحينها ستتجاهل المسألة».

قالت مايزي: «ربما. لكنها لن تتجاهل المسألة إذا أخبرتها أن زوجها يمكن أن يكون والد هاري...»

ذهل العجوز جاك وصمت وهو يحاول استيعاب مضاعفات كلمات مايزي. وأخيراً قال: «أنا لست ساذجاً فقط، وإنما أنا غبي إلى أقصى الحدود. إذ لا يبالي هاري بارينغتون إذا صدقت زوجته أو لم تصدق أنه مسؤول عن موت زوجك، بل خوفه الأكبر هو أن يكتشف هاري أنه والده ربما...»

قالت مايزي: «لكنني لن أخبر هاري أبداً. فأخراً ما أريده هو أن يمضي بقية حياته متسائلاً عن من هو والده».

«هذا بالضبط ما يركز عليه بارينغتون. والآن بعد أن حطمتك، سيحاول تحطيم هاري».

سألت مايزي: «لكن، لماذا؟ لم يسبب له هاري أي أذى».

«طبعاً لم يفعل. لكن، إذا استطاع هاري إثبات أنه الابن البكر لهوغو بارينغتون، فقد يصبح مخلولاً لوراثة اللقب، وكل ما يرافقه. وفي الوقت نفسه، سيصبح جيل من دون أي شيء».

صمت مايزي صمتاً مطبقاً.

«إذاً، لقد اكتشفنا الآن السبب الحقيقي الذي جعل بارينغتون مصرّاً على إخراج هاري من مدرسة القواعد. لقد حان الوقت ربما لكي أزور السير والتر وأطلععه على بعض الحقائق المتعلقة بابنه».

عندها توصلت إليه مايزي: «لا. أرجوك لا تفعل هذا».

«ولم لا؟ قد تكون هذه فرصتنا الأخيرة لإبقاء هاري في مدرسة القواعد في بريستول».

«ربما. لكنني سأضمن أيضاً طرد أخي ستان من العمل، والله يعلم ما الذي يستطيع بارينغتون فعله أيضاً».

لم يتكلم العجوز جاك لبعض الوقت، ثم قال: «إذا لم تسمح لي بإخبار السير والتر بالحقيقة، فسأضطر إلى إزعاج هوغو بارينغتون في ما يفعله».

سألت الأنسة بوتس: «ماذا تريد؟!». غير واثقة من أنها سمعت الكلام بشكل صحيح.

فقال العجوز جاك: «اجتماع خاص مع السيد هوغو».

قالت من دون أن تحاول إخفاء السخرية من صوتها: «وهل يُسمح لي بالاطلاع على الغرض من هذا الاجتماع؟».

«مستقبل ابنه».

«انتظر هنا لحظة. سأرى إذا كان السيد بارينغتون يرغب في رؤيتك».

طرقت الأنسة بوتس على باب مكتب المدير التنفيذي برفق، ثم اختفت في الداخل. وعادت بعد قليل والدهشة بادية على وجهها.

قالت: «سيراك السيد بارينغتون الآن». وأبقت الباب مفتوحاً.

لم يكبح العجوز جاك ابتسامته عندما مرّ من أمامها. نظر هوغو بارينغتون إلى الأعلى من حيث يجلس وراء طاولة مكتبه، ولم يعرض على الرجل الجلوس، حتى إنه لم يحاول مصافحته.

سأل بارينغتون: «ما الذي يهكم في مستقبل جيل؟».

فاعترف العجوز جاك: «لا شيء. في الواقع، أنا مهتم بمستقبل ابنك الآخر».

عندها قال بارينغتون بصوت مرتفع قليلاً: «عمّ تتحدث؟!». فأجاب العجوز جاك بازدراء: «لو لم تكن تعرف عمّن أريد التحدث، لما وافقت على رؤيتي».

اختفى اللون من وجه بارينغتون، وتساءل العجوز جاك إذا كان سيغمي عليه، غير أنه سأله أخيراً: «ماذا تريد مني؟». فقال العجوز جاك: «لطالما كنت تاجراً طوال حياتك، وأنا أملك شيئاً ترغب في شرائه». «وما الذي يمكن أن يكون؟».

«بعد يوم واحد من الاختفاء الغامض لآرثر كليفتون واعتقال ستان تانكوك بسبب جريمة لم يرتكبها، طلب مني التحري بلايكمور إعداد إفادة بكل ما رأيته في ذلك المساء. وبما أنك أبعدت بلايكمور عن القضية، لا تزال هذه الإفادة في حوزتي، ولديّ إحساس بأنها ستكون مهمة جداً إذا وقعت بين الأيدي الخاطئة».

عندها، قال بارينغتون بغضب شديد: «أعتقد أن هذا ابتزاز يمكن أن يدخلك السجن لوقت طويل جداً». «قد لا يعتبره البعض أكثر من واجب مدني لجعل مثل هذا المستند في متناول الشأن العام».

«ومن تظن أنه سيكون مهتماً بآراء رجل عجوز؟ لن تكون الصحافة مهتمة بذلك حتماً، ولاسيما بعد أن يشرح لها المحامون لديّ قانون التشهير. وبما أن الشرطة قد أغلقت الملف قبل عدة أعوام، لا أعتقد أن مسؤول الشرطة سيتكبد العناء والتكاليف لإعادة فتح الملف بسبب

أقوال رجل عجوز يمكن اعتباره غريب الأطوار في أفضل الحالات، ومجنوناً في أسوأ الحالات. لذا، هل أستطيع سؤالك عن تريد إخباره أيضاً بمزاعمك تلك؟».

عندها، قال العجوز جاك بتبجح: «والدك». لكن بارينغتون لم يكن يعرف بشأن وعد جاك لمايزي.

تراجع بارينغتون إلى الخلف على كرسيه، مدركاً تماماً التأثير الكبير الذي يملكه العجوز جاك في والده؛ رغم أنه لم يفهم السبب يوماً. «وكم تتوقع أن أدفع لك ثمناً لذلك المستند؟».

«ثلاثمئة باوند».

«هذه سرقة في وضح النهار».

«إنه تقريباً المبلغ الضروري لتغطية الأقساط وبعض النفقات الإضافية التي ستسمح لهاري كليفتون بالبقاء في مدرسة القواعد في بريستول خلال السنتين المقبلتين».

«ولماذا لا أدفع أقساطه في بداية كل فصل مثلما أفعل مع ابني؟».

«لأنك ستتوقف عن دفع أقساط ابنك ما إن تقع يداك على إفادتي».

قال بارينغتون: «إذاً، عليك أن تأخذ المال نقداً». ثم أخرج مفتاحاً

من جيبه.

عندها قال العجوز جاك: «لا، شكراً. ما زلت أذكر جيداً ما حصل مع ستان تانكوك بعد أن أعطيته النقود، ولا أرغب أبداً في قضاء السنوات الثلاث المقبلة في السجن بسبب جريمة لم ارتكبها».

«إذًا، عليّ الاتصال بالمصرف إذا أردت تحرير «شيك» بمثل هذا المبلغ الكبير».

فقال العجوز جاك: «هيا، افعل ذلك». وأشار إلى الهاتف الموضوع على مكتب بارينغتون.

تردد بارينغتون هنيهة قبل أن يرفع السماعة، ثم انتظر ريثما ردّ عليه صوت، وقال: «الرقم 3731».

انتظر وقتاً إضافياً قبل أن يقول صوت آخر: «نعم، من المتصل؟». «هل هذا أنت برندرغاست؟».

فأجاب الصوت: «لا، سيدي».

عندها قال بارينغتون: «جيد. إذًا، أنت الرجل الذي أحتاج إلى التحدث إليه. سأرسل السيد تار لرؤيتك خلال الساعة التالية، مع «شيك» بقيمة ثلاثمائة باوند تدفع لصالح جمعيات بريستول الخيرية. أطلب منك صرف «الشيك» على الفور، ومعاودة الاتصال بي بعد ذلك».

قال الصوت: «إذا أردت مني معاودة الاتصال بك فقل فقط «نعم هذا صحيح»، وسأعود الاتصال بك بعد دقائق قليلة».

فقال بارينغتون: «نعم هذا صحيح». وأنهى الاتصال.

فتح درج مكتبه، وأخرج دفتر «شيكات» وكتب عبارة «يدفع لصالح جمعيات بريستول الخيرية»، ومن ثم عبارة «ثلاثمائة باوند» على سطر آخر. وبعد ذلك، وقّع «الشيك»، وأعطاه للعجوز جاك الذي تأمله بإمعان ثم أوماً برأسه.



قال بارينغتون: «سأضعه في مغلف». وضغط على زر صغير تحت مكتبه. نظر العجوز جاك إلى الأنسة بوتس حين دخلت الغرفة.  
«نعم سيدي».

قال بارينغتون: «سيذهب السيد تار إلى المصرف». فيما وضع «الشيك» في مغلف، وختمه، وكتب عليه اسم السيد برندرغاست مع كلمة «خاص» بحروف كبيرة، ثم سلمه للعجوز جاك.

قال جاك: «شكراً. سأعطيك المستند شخصياً فور عودتي».

أوماً بارينغتون برأسه، فيما بدأ الهاتف الموجود على مكتبه يرن. انتظر ريثما غادر العجوز جاك الغرفة قبل أن يرفع السماعه.

قرر العجوز جاك أن يستقل الترامواي للذهاب إلى بريستول، إذ شعر أن الكلفة مبررة في مثل هذه المناسبة المميزة. وعندما دخل المصرف بعد عشرين دقيقة، أخبر الموظف الشاب عند مكتب الاستقبال أنه يحمل رسالة للسيد برندرغاست. لم يتأثر موظف الاستقبال كثيراً، إلى أن أضاف العجوز جاك: «إنها من السيد هوغو بارينغتون».

غادر الموظف الشاب مكتبه على الفور، ورافق العجوز جاك عبر ردهة المصرف مروراً برواق طويل للوصول إلى مكتب المدير. طرق على الباب ثم فتحه قائلاً: «يحمل هذا الرجل رسالة من السيد بارينغتون».

وقف السيد برندرغاست خلف طاولة مكتبه وصافح الرجل العجوز، ثم دعاه إلى الجلوس في الجهة الأخرى من مكتبه. سلم العجوز جاك المغلف إلى برندرغاست وقال: «طلب مني السيد بارينغتون تسليمك هذا المغلف شخصياً».

قال برندرغاست: «نعم طبعاً». وقد تعرّف فوراً إلى الخط المألوف لأحد أهم زبائنه. فتح المغلف وأخرج «الشيك». نظر إليه هنيهة قبل أن يقول: «لا بد من وجود خطأ ما».

فقال العجوز جاك: «لا يوجد خطأ. يريد السيد بارينغتون دفع كامل المبلغ لصالح جمعيات بريستول الخيرية بأسرع وقت ممكن، مثلما طلب منك عبر الهاتف قبل نصف ساعة فقط».

عندها قال برندرغاست: «لكنني لم أتحدث إلى السيد بارينغتون هذا الصباح». فيما أعاد «الشيك» للعجوز جاك.

حذق العجوز جاك إلى «الشيك» الفارغ بذهول، واحتاج إلى بضع ثوانٍ ليذكر أن بارينغتون قد بدّل «الشيكين» عندما دخلت الأنسة بوتس الغرفة. كان الهدف الأساسي من توجيهه المغلف إلى السيد برندرغاست والكتابة عليه أنه خاص هو ضمان عدم فتحه قبل تسليمه إلى المدير. لكن الشيء الذي لم يفهمه جاك هو من كان يتحدث معه عبر الهاتف!

خرج العجوز جاك من المكتب بسرعة من دون توجيه أية كلمة أخرى إلى برندرغاست. اجتاز قاعة المصرف وخرج مسرعاً إلى الشارع. توجّب عليه الانتظار بضع دقائق فقط قبل أن يستقل الترامواي المؤدي إلى أحواض السفن. لم يكن قد مضى على غيابه أكثر من ساعة واحدة عندما وصل إلى البوابات ومنها إلى حوض السفن.

كان ثمة رجل لم يعرفه يمشي بسرعة صوبه. هناك شيء عسكري فيه، وتساءل العجوز جاك عما إذا كان عرجه ناجماً عن إصابة تعرض لها خلال الحرب.

مرّ العجوز جاك قربه بسرعة ونزل إلى الرصيف، وارتاح عندما رأى باب المقطورة مغلقاً. وعندما فتح الباب، شعر بسرور أكبر حين اكتشف أن كل شيء لا يزال على حاله مثلما تركه. ركع على ركبتيه ورفع زاوية السجادة، ولكنه تفاجأ عندما أدرك أن إفادة الشرطة لم تعد موجودة هناك. لا شك في أن التحري بلايكمور سيصف هذه السرقة بالعمل المحترف.

جلس العجوز جاك في الصف الخامس من مقاعد دار العبادة على أمل ألا يتعرف عليه أحد. كانت دار العبادة الكبيرة مزدحمة بالأشخاص، حيث إن الذين لم يجدوا أماكن لهم في المقاعد الجانبية اضطروا إلى الوقوف في الممرات، واحتشدوا أيضاً في الجهة الخلفية.

تلاأت الدموع في عيني العجوز جاك عندما تحدث رجل الدين عن إيمان والده الكبير، وكيف أنه كرّس حياته منذ وفاة زوجته باكراً لخدمة الآخرين. «والدليل على ذلك هو العدد الكبير للأشخاص الذين جاءوا لتكريمه وحضور حفل تأبينه». قال رجل الدين ذلك رافعاً يديه ومشيراً إلى الحشود الغفيرة.

«ورغم أن الرجل لم يكن متكبراً البتة، إلا أنه لم يستطع إخفاء فخره بابنه الوحيد جاك الذي امتلك شجاعة كبيرة وإرادة قوية وضحّى بحياته الخاصة في جنوب أفريقيا خلال حرب بوير لإنقاذ العديد من زملائه، فحصل يومها على وسام النصر». ثم صمت ونظر إلى الصف الخامس من المقاعد وقال: «وكم أنا مسرور لرؤيته اليوم بيننا».

عندها، بدأ العديد من الأشخاص يبحثون عن رجل لم يروه من قبل، فأخفض العجوز جاك رأسه خجلاً.

وفي نهاية الاحتفال الديني، جاء العديد من الأشخاص لإخبار «الكابتن» تارانت كم كانوا يحبون والده. وسمع كلمات «التفاني» و«التضحية» و«الكرم» و«الحب» من أفواه الجميع.

أحس جاك بالفخر لكونه ابن والده، وشعر في الوقت نفسه بالخجل لأنه استثنى نفسه من حياته؛ تماماً مثلما فعل مع بقية زملائه.

وفيما كان يغادر دار العبادة، اعتقد أنه تعرّف إلى رجل عجوز جالس قرب البوابة الكبيرة، وبدا جلياً أنه ينتظره للتحدث إليه. تقدم الرجل صوبه ورفع قبعته، وسأله بصوت فيه شيء من السلطة: «هل أنت «الكابتن» تارانت؟».

فأجاب جاك باللباقة نفسها: «نعم سيدي».

«اسمي إدوين ترانت. كنت محظوظاً لكوني محامي والدك، وأودّ الاعتقاد أيضاً أنني كنت واحداً من أقدم أصدقائه المقربين».

فصافحه جاك بحرارة قائلاً له: «أذكرك جيداً يا سيدي. فقد علمتني كيف أحب الروائي ترولوب وأجيد التقنيات في لعبة البولينغ».

عندها، قهقه ترانت قائلاً: «لطف منك تذكر ذلك. أتساءل إذا كان بوسعي مرافقتك في طريق العودة إلى المحطة».

«طبعاً سيدي».

قال ترانت فيما كانا يسيران صوب البلدة: «مثلما تعلم، كان والدك مقيماً في دار العبادة الكبيرة طوال الأعوام التسعة الماضية. وتعلم أيضاً أنه لم يكثر قط للأشياء المادية، وتشارك الأشياء القليلة التي امتلكها مع أشخاص أسوأ منه حالاً. وهو بلا شك أكثر من اهتم بالمشردين».

ابتسم العجوز جاك، وتذكر أنه ذهب ذات صباح إلى المدرسة من دون فطور لأن ثلاثة مشردين كانوا ينامون في الردهة، واستهلكوا كل ما كان في المنزل حسب قول أمه.

تابع ترانت كلامه: «لذا، عندما يحين موعد قراءة وصيته، سيتضح أنه مثلما جاء إلى هذا العالم من دون أي شيء فقد غادره أيضاً من دون أي شيء؛ باستثناء ألف صديق اعتبرهم بمثابة ثروة حقيقية. وقبل وفاته، طلب مني القيام بمهمة صغيرة إذا حضرتَ دفنه؛ ألا وهي تسليمك آخر رسالة كتبها». ثم أخرج مغلفاً من جيب داخلي في معطفه الكبير وقدمه للعجوز جاك، وبعد ذلك رفع قبعته مجدداً وقال: «لقد نفّذت طلبه، وأنا فخور لأنني التقيتُ ابنه مجدداً».

«هذا من حسن حظي يا سيدي. أتمنى فقط ألا أكون سبب اضطراره إلى كتابة الرسالة أساساً». ورفع جاك قبعته، ثم افترق الرجلان. قرّر العجوز جاك ألا يقرأ رسالة والده إلا عندما يصبح في القطار، ويبدأ رحلة العودة إلى بريستول. وفيما انطلق القطار من المحطة، ونفت أعمدة الدخان الرمادية، جلس جاك في مقطورة الدرجة الثالثة. تذكر كيف أنه حين كان طفلاً كان يسأل والده عن سبب سفره دوماً في الدرجة الثالثة، فيجيبه: «لأنه لا توجد درجة رابعة». المثير للسخرية أن جاك يعيش منذ ثلاثين عاماً في مقطورة الدرجة الأولى.

أخذ وقته في فتح المغلف، وحتى بعد أن أخرج الرسالة منه أبقاها مطوية، فيما استمر في التفكير في والده. ما من ولد يحلم بوالد أو مرشد أفضل. وحين يسترجع حياته الماضية، يجد أن كل أفعاله وأحكامه وقراراته ليست سوى محاكاة لوالده.

عندما فتح الرسالة أخيراً، عاد إليه دفق جديد من الذكريات لحظة رأى الخط المألوف الكبير والسميك، وبدأ بالقراءة.

دار العبادة الكبيرة ويلز

26 أغسطس 1936

ابني الحبيب

إذا كنت لطيفاً بما فيه الكفاية لحضور دفني، فلا بد أنك تقرأ هذه الرسالة الآن. اسمح لي أن أبدأ بشكرك على تواجدك في حفل التأبين.

رفع جاك رأسه، ونظر إلى المشاهد الطبيعية التي تمر أمامه، وشعر بالذنب مجدداً لأنه عامل والده بتلك الطريقة المستهترة وغير المناسبة. وقد فات الأوان الآن ليطلب منه السماح. عادت عيناه إلى الرسالة.

عندما حصلت على وسام النصر، كنت أكثر الآباء فخراً في إنكلترا، ولا تزال الإشادات ببطولاتك معلقة فوق مكتبي لغاية هذا اليوم. لكن مع مرور السنوات، تحولت سعادتي إلى حزن، وسألت الله عما فعلته لأعاقب بخسارتي والدتك، وخسارتك أنت أيضاً؛ ابني الوحيد.

أفهم أنك تملك سبباً نبيلاً يدفعك لإدارة رأسك وقلبك لهذا العالم، لكنني أتمنى لو أنك شاركتني ذلك السبب. عندما تقرأ هذه الرسالة، قد تتمكن ربما من تحقيق آخر أمنية لي.

أخرج العجوز جاك منديلاً من جيبه العلوي، ومسح عينيه قبل أن يتمكن من متابعة القراءة.

لقد منحك الله هبة القيادة والقدرة على توجيه رفاقك، ولذلك أتوسل إليك ألا تموت وأنت تعرف أنه حين تأتي ساعتك، ستضطر إلى الاعتراف بأنك دفنت الموهبة الوحيدة التي منحك الله إياها.

لذا عوضاً عن ذلك، استخدم تلك الموهبة لتفيد رفاقك، وهكذا حين تأتي ساعتك - علماً أنها ستأتي حتماً - ويحضر بعض الرجال دفنك، لن

يكون وسام النصر هو الشيء الوحيد الذي يذكرونه حين يسمعون باسم  
جاك تارانت.

والدك الحنون

«هل أنت بخير يا عزيزي؟». سألته سيدة انتقلت من الجهة الأخرى  
في المقطورة وجلست قربه.

فأجاب فيما انهمرت الدموع على وجهه: «نعم، شكراً لك. ما حصل  
هو أنه تم إطلاق سراحي من السجن اليوم».



## جیل بارینگتون 1936-1938

تحمّست كثيراً لدى رؤيتي هاري وهو يدخل عبر بوابة المدرسة في أول يوم من الفصل الدراسي، فقد أمضيت العطلة الصيفية في الفيلا الخاصة بنا في توسكانة، ولذلك لم أكن في بريستول عندما احترق مقهى تيلي، ولم أكتشف الأمر إلا عندما عدت إلى إنكلترا في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت بداية الفصل الدراسي. أردت أن ينضم هاري إلينا في إيطاليا، لكن والدي رفض التحدث بالموضوع.

لم ألتق يوماً أي شخص لم يحب هاري، باستثناء والدي الذي لم يكن يسمح حتى بذكر اسمه في البيت. سألت ماما ذات مرة إذا كان بوسعها أن تشرح لي سب نفوره القوي منه، لكن يبدو أنها لم تكن تعرف أكثر مما أعرفه.

لم ألحّ على والدي كثيراً، لأنني لم أنجح يوماً في تلميع صورتي أمام عينيه. إذ كدت أطرده من المدرسة بسبب السرقة - والله وحده يعلم كيف تدبر تسوية الأمر - ثم خذلته مجدداً عند إخفاقي في الدخول إلى إيتون. أخبرتُ بابا حين أنهيت الامتحان أنني بذلت كل ما بوسعي، وتلك هي الحقيقة. حسناً، نصف الحقيقة. في الواقع، كنت سأنجح لو أبقى شريكي في المؤامرة فمه مغلقاً. إلا أن تلك الحادثة علّمتني على الأقل درساً بسيطاً: إذا تعاملت مع أحرق، فلا تتفاجأ حين يتصرف بحماقة.

شريكي في المؤامرة كان بيرسي، ابن إيرل بريدبورت. وقد كان يواجه معضلة أكبر من معضلتي؛ لأن سبعة أجيال من آل بريدبورت تعلموا في إيتون، وبدا وكأن الصغير بيرسي سيقضي على ذلك المستوى الراقى.

كانت مدرسة إيتون مشهورة بكسرها للقواعد حين يتعلق الأمر  
بأفراد العائلات الأرستقراطية؛ إذ كانت تسمح بين الحين والآخر لولد  
أحمق بأن يطرق أبوابها، ولذلك السبب اخترتُ بيرسي ليكون بمثابة  
ذريعة لي في المقام الأول. فبعد أن سمعت فروب يقول لولد آخر: لو كان  
بريدبورت أذكى، لكان قد تصرف بطريقة أفضل، عرفتُ أنه لا داعي لكي  
أفتش عن شريك آخر.

كان بيرسي يتوق بشدة للحصول على مكان في إيتون؛ مثلما كنت  
أتوق لكي يتم رفضي. لذا، رأيت في ذلك فرصة ليحقق كل منا هدفه.  
لم أناقش خطتي مع هاري أو ديكنز. إذ لا شك لديّ في أن هاري  
كان سيعارض الخطة؛ لأنه ولد مستقيم جداً على الصعيد الأخلاقي. ولن  
يتمكن ديكنز أيضاً من استيعاب سبب رسوب أي شخص في امتحان.  
في اليوم السابق للامتحان، كان يفترض بأبي أن يوصلني إلى إيتون في  
سيارة البوغاتي الجديدة، القادرة على اجتياز مسافة مئة ميل في الساعة،  
وتبيّن أنها قادرة على ذلك فعلاً. أمضينا الليلة في «سوان آرمز»؛ الفندق  
نفسه الذي مكث فيه قبل عشرين عاماً عندما تقدّم إلى امتحان  
الدخول. وخلال العشاء، أوضح لي أبي بشكل جلي توفقه الشديد لدخولي  
إيتون، وكدتُ أستسلم لرغبته في اللحظة الأخيرة، لكنني أعطيت بيرسي  
بريدبورت كلمتي، وشعرتُ أنني لا أستطيع خذلانه.

عقدنا أنا وبيرسي الصفقة في مدرسة سانت بيد، واتفقنا على أن  
يعطي كل منا اسم الآخر عند وصولنا إلى قاعة الامتحانات. استمتعت  
بمناداتي «سيدي» من قبل الجميع، حتى لو اقتصر ذلك على بضع ساعات  
فقط.

لم تكن أسئلة الامتحان صعبة مثل تلك التي خضعت لها في مدرسة القواعد في بريستول، وشعرتُ أنني أبلت حسناً لضمان عودة بيرسي إلى إيتون في شهر سبتمبر. لكن كان من الصعب أن أشعر بالثقة بأن بيرسي لن يخذلني حتماً.

عندما سلّمنا أوراق الامتحان وعاد كل منا إلى اسمه الحقيقي، ذهبت لتناول الشاي مع أبي في ويندسور. وعندما سألني عن رأيي في الامتحان، قلت له إنني بذلت كل ما بوسعي. بدا راضياً عن ذلك، وبدأ يسترخي، مما جعلني أشعر بالمزيد من الذنب. لم أستمتع برحلة العودة إلى بريستول، وشعرت بالسوء أكثر عندما وصلت إلى المنزل وطرحت عليّ أمي السؤال نفسه.

بعد عشرة أيام، تلقيت رسالة أسف واعتذار من إيتون. لم أحصل إلا على 32 في المئة من العلامات. أما بيرسي فنال 56 في المئة، وحصل على مكان في الفصل الجديد، مما أفرح والده، فيما لم يستطع فروب تصديق ما حصل.

كانت كل الأمور ستجري على ما يرام لو لم يخبر بيرسي صديقاً له بكيفية نجاحه في الدخول إلى إيتون. وقد قام ذلك الصديق بإخبار صديق آخر، الذي أخبر بدوره صديقاً آخر أخبر والد بيرسي. وبما أن إيرل بريدبورت رجل شريف ومحترم جداً، قام على الفور بإبلاغ مدير مدرسة إيتون بما فعلناه. ونتيجة لذلك، تم طرد بيرسي على الفور قبل أن تتاح له حتى فرصة الدخول إلى المدرسة. ولولا تدخل فروب الشخصي، لكنت قد واجهت المصير نفسه في مدرسة القواعد في بريستول.

حاول والدي إقناع مدير إيتون بأن ما حصل كان خطأ بسيطاً، وبما أنني حصلت على 56 في المئة من العلامات في الامتحان، كان يفترض أن

يتم قبولي في المدرسة عوضاً عن بريدبورت. إلا أن هذا المنطق تم رفضه بالكامل؛ لأن إيتون لم تكن بحاجة إلى تشييد ملعب جديد للكريكت. وهكذا، توجّهت إلى مدرسة القواعد في بريستول في أول يوم من الفصل الدراسي.

خلال سنتي الأولى، استعدت سمعتي الطيبة نوعاً ما من خلال تسجيل ثلاثة أهداف للنادي، وأنهيت الموسم بنجاح كبير. أدى هاري دور أورشولا في مسرحية المدرسة، وبقي ديكنز على حاله، حيث لم يتفاجأ أحد حين فاز بجائزة المرتبة الأولى في المدرسة.

خلال سنتي الثانية، أصبحت أكثر إدراكاً للمشكلات المادية التي تواجهها والدة هاري، وذلك عندما لاحظت أنه ينتعل حذاءه من دون رباط، واعترف لي أنه يؤلمه لأنه ضيق جداً.

لذا، عندما احترق مقهى تيلي قبل أسابيع قليلة من موعد بدئنا الفصل الدراسي السادس، لم أتفاجأ كثيراً حين علمت أن هاري قد لا يتمكن من البقاء معنا في المدرسة. فكرت في سؤال والدي عما إذا كان يستطيع المساعدة، لكن ماما أخبرتني أن ذلك سيكون مضيعة للوقت. لهذا السبب، فرحت كثيراً عندما رأته يدخل عبر بوابة المدرسة في أول يوم من الفصل الدراسي.

أخبرني أن أمه بدأت بالعمل في وظيفة جديدة في فندق رويال، في دوام ليلي، وبدا أن العمل مربح أكثر مما تصورت في البداية.

خلال الإجازات الصيفية، تمنيت مجدداً لو كان بإمكانني دعوة هاري للانضمام إلينا في توسكانة، لكنني عرفت أن والدي لن يقبل بالفكرة أبداً.

لكن، بما أن جمعية تقدير الفنون التي بات هاري الآن أمين سرها تخطط للقيام برحلة إلى روما، اتفقنا على اللقاء هناك؛ حتى لو عنى ذلك أنني مضطر لزيارة فيلا بورغيزي.

رغم أننا نعيش في فقاعة صغيرة في عالمنا الخاص في ويست كاونتري، إلا أنه كان من المستحيل تجاهل ما يحصل في القارة.

نشأة النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا لم تؤثر على ما يبدو في الرجل الإنكليزي العادي الذي ظلّ يستمتع بكوب من عصير التفاح وشطيرة من الجبن في المقهى المحلي ليلة السبت قبل أن يشاهد - أو في حالتي أنا يلعب - الكريكت على الملعب الأخضر في فترة بعد الظهر. وقد استمر الأمر على هذا المنوال لسنوات عدة؛ لأنه لم يكن بالإمكان التفكير في حرب أخرى مع ألمانيا. لقد قاتل آباؤنا في الحرب لإنهاء كل الحروب، لكن يبدو أن المحظور بات الآن على ألسنة الجميع.

أخبرني هاري بشكل واضح أنه في حال اندلعت الحرب فهو لن يذهب إلى الجامعة، وإنما سيلتحق بالجيش على الفور؛ تماماً مثلما فعل والده وخاله قبل عشرين عاماً. لقد «فوّت» أبي تلك الفرصة مثلما يقول، لأنه يعاني لسوء الحظ من عمى الألوان، وقد اعتبر المسؤولين في السلطة حينها أنه سيخدم الحرب بشكل أفضل إذا بقي في مكانه، حيث يؤدي دوراً أفضل في أحواض السفن. لكنني لم أعرف قط طبيعة ذلك الدور بالتحديد.

في سنتنا الأخيرة في مدرسة القواعد في بريستول، قررنا أنا وهاري تسجيل اسمينا في جامعة أوكسفورد. وكان ديكنز قد حصل أصلاً على منحة دراسية لجامعة باليول. أردت الذهاب إلى جامعة «هاوس»، لكن تمّ إبلاغي بتهذيب شديد من قبل مسؤول التسجيل أنه نادراً ما يقبل تلاميذ من مدرسة بريستول للقواعد، ولذلك اخترتُ برازينوز التي وصفها بيرتي ووستر ذات مرة بأنها «الجامعة المفتقدة إلى الأدمغة».

وبما أن برازينوز كانت أيضاً الجامعة المشتملة على أكبر عدد من لاعبي الكريكيت، وحققتُ شخصياً ثلاثة انتصارات مهمة في سنتي الأخيرة في مدرسة بريستول للقواعد، ومن ضمنها الجائزة الكبرى للمدارس الرسمية، شعرتُ أن الحظ يحالفني على ما يبدو. في الواقع، أخبرني أستاذي السابق الدكتور باجيه، أنني حين أذهب لإجراء المقابلة فقد يرمون لي كرة الكريكيت حين أدخل الغرفة، وإذا أمسكت بالكرة فسأحصل على مكان في الجامعة. أما إذا أمسكت بها بيد واحدة، فسأحصل على منحة، ولكن تبين أن ذلك كله مجرد هراء. لكن عليّ الاعتراف بأنني عندما تناولت الشراب مع مدير الجامعة، طرح عليّ أسئلة مرتبطة بهاتون أكثر من هوراس.

حصل العديد من الأمور المهمة الإيجابية والسلبية في آخر سنتين لي في المدرسة. فقد فاز جيس أوينز بأربع ميداليات ذهبية في الألعاب الأولمبية في برلين أيام حكم هيتلر، وهذا نجاح مهم من دون شك. فيما تمّ خلع الملك إدوارد الثامن بسبب رغبته في الزواج من امرأة أميركية مطلقة، وهذا بلا شك أمر سلبي في غاية الأهمية.

بدت البلاد منقسمة في الرأي حول فكرة خلع الملك إدوارد؛ تماماً مثلما كنا أنا وهاري. إذ لم أفهم كيف يستطيع رجل ولد ملكاً أن يتخلى

عن العرش للزواج من امرأة مطلقة. أما هاري فكان أكثر تعاطفاً مع الملك، وقال إننا لن نستطيع فهم ما يعيشه الرجل المسكين إلا إذا وقعنا في الحب. اعتبرت الأمر مجرد كلام فارغ؛ إلى أن حصلت تلك الرحلة إلى روما التي بدلت حياتينا.



إذا تصوّر جيل أنه عمل بكّد خلال أيامه الأخيرة في سانت بيد، فقد صار العمل بتلك الطريقة عادة بالنسبة إليه وإلى هاري خلال السنتين الأخيرتين لهما في مدرسة القواعد في بريستول. فقد اعتادا على الدراسة لساعات طويلة؛ الأمر الذي كان في السابق مألوفاً بالنسبة إلى ديكنز وحده.

إذ أخبرهما الدكتور باجيه - أستاذ الفصل السادس - بشكل واضح وجلي أنهما إذا أرادا الحصول على مكان في أوكسفورد أو كامبريدج، فعليهما نسيان كل النشاطات الأخرى والعمل في كل لحظة متوافرة استعداداً لامتحانات الدخول.

أمل جيل في أن يكون «كابتن» المدرسة في الكريكيت خلال سنته الأخيرة، فيما تحرق هاري شوقاً ليكون البطل في مسرحية المدرسة. رفع الدكتور باجيه حاجبه حين سمع ذلك، رغم أن روميو وجوليات هو النص المحدد لامتحانات أوكسفورد في ذلك العام، وقال بصرامة: «احرص فقط على عدم الاهتمام بأي شيء آخر».

استقال هاري على مضض من جوقة الإنشاد، مما منحه ليلتين إضافيتين في الأسبوع للدراسة. لكن، ثمة نشاط لا يستطيع أي تلميذ أن يحرم نفسه منه: ففي كل ثلاثاء وخميس، في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر، يتوجب على كل الصبيان الوقوف في أرض الملعب بكامل زيهم المدرسي استعداداً للتفتيش؛ بصفتهم أفراداً من القوة المشتركة المستقبلية.

صرخ قائد المجموعة: «لا يمكن السماح لشبيبة هتلر بالتخيل أنه إذا كانت ألمانيا غبية بما فيه الكفاية لإعلان الحرب علينا مجدداً، فلن نكون جاهزين لصدها».

وفي كل مرة قال فيها النقيب روبرتس هذه الكلمات، كان تلاميذ المدرسة يرتجفون بشدة؛ إذ يدركون أنه مع مرور كل يوم، يزداد أكثر فأكثر احتمال توجههم إلى جبهة القتال ليكونوا جنوداً في أرض ما، بدلاً من ذهابهم إلى الجامعات ونيلمهم الشهادات.

حفظ هاري هذه الكلمات عن ظهر قلب، وتمت ترقيته سريعاً إلى جندي صغير. أما جيل فلم يأخذها كثيراً على محمل الجد؛ لأنه علم أنه في حال تم استدعاؤه، فسيعمد - مثل والده - إلى اختيار طريق الهروب، وتذكيرهم بأنه يعاني من عمى الألوان، وذلك لتفادي التواجد مع العدو وجهاً لوجه.

أما ديكنز فكشف عن اهتمام قليل في كل المسألة، وأعلن بثقة كبيرة لا تحتل أي نقاش: «لا داعي لمعرفة كيفية استعمال المسدس إذا كان الشخص في قسم الاستخبارات».

ومع اقتراب نهاية ليالي الصيف الطويلة، كانوا جميعاً مستعدين للإجازة قبل عودتهم إلى سنتهم الأخيرة، حيث سيضطرون في نهايتها إلى الخضوع للامتحانات مجدداً. وقبل أسبوع واحد من انتهاء الفصل، غادر الثلاثة لقضاء الإجازة الصيفية؛ فسافر جيل للانضمام إلى عائلته في الفيلا في توسكانة، فيما سافر هاري إلى روما مع جمعية تقدير الفنون التابعة للمدرسة، ودفن ديكنز نفسه في مكتبة بريستول متفادياً الاحتكاك مع أي شخص آخر؛ على الرغم من حصوله أصلاً على مقعد في أوكسفورد.

مع مرور السنوات، بات جيل يعلم تماماً أنه إذا أراد رؤية هاري خلال الإجازات، فعليه التأكد من عدم اكتشاف والده لما يخطط له، وإلا فستحطم كل مشاريعه... لكن، لتحقيق ذلك، كان يضطر غالباً إلى اللجوء إلى أخته إيما لتشاركه في تنفيذ الخطة؛ علماً أنها لا تخفق أبداً في نيل مكسبها الخاص قبل أن توافق على أن تصبح شريكة له في الخطة. قال جيل بعد أن شرح لها أحدث مخطط له: «إذا قمتِ بالمبادرة الليلة خلال العشاء فسأحذو حذوك».

فقالت إيما بغضب: «يبدو أن هذا هو المنطق الطبيعي للأمور».

لذا، بعد أن تم تقديم الطبق الأول، سألت إيما أمها ببراءة عما إذا كان بوسعها اصطحابها إلى فيلا بورغيزي في اليوم التالي مثلما طلبت منها معلمة الفنون. وكانت مدركة تماماً أن أمها قد حضرت مسبقاً مشاريعها الخاصة.

فأجابت أمها كما توقعت: «آسفة جداً يا عزيزتي، لكننا سنذهب أنا ووالدك لتناول الغداء مع آل هندرسونز في أريزو غداً. يمكنك الانضمام إلينا إذا شئت».

وقال والده من الجهة الأخرى للطاولة: «ما من شيء يمنع جيل من اصطحابك إلى روما».

فقال جيل: «وهل يجدر بي فعل ذلك؟». فيما كان على وشك تقديم الاقتراح نفسه.

عندها، أجاب والده بصرامة: «نعم».

«لكن، ما الجدوى من ذلك بابا؟ حين نصل إلى هناك، سنضطر إلى أن نعود أدراجنا. لا يستحق الأمر العناء.»

«ليس إذا أمضيتما الليلة في فندق بلازا. سأتصل بهم غداً صباحاً وأحجز لكما غرفتين.»

سألت السيدة بارينغتون قلقة بعض الشيء: «هل أنت واثق من أنهما كبيران بما يكفي للقيام بذلك؟»

«سيبلغ جيل الثامنة عشرة بعد أسابيع قليلة. لقد حان الوقت لينضج ويتحمل بعض المسؤولية.» فأخفض جيل رأسه كما لو أنه شعر بالخجل.

وفي صباح اليوم التالي، أوصلته سيارة أجرة مع أخته إيما إلى المحطة المحلية في الوقت المناسب لركوب القطار الصباحي المتوجه إلى روما. آخر ما قاله والده قبل مغادرتهما الفيلا: «أحرص على الاهتمام بأختك.»

فأجاب جيل فيما انطلقت السيارة: «سأفعل.»

نهض عدة رجال عن مقاعدهم مفسحين المجال لإيما لكي تجلس حين دخلت المقطورة، فيما بقي جيل واقفاً طوال الرحلة. وعند وصولهما إلى روما، استقلا سيارة أجرة إلى فيا ديل كورسو، وبعد أن سجلا دخولهما في الفندق، تابعا طريقهما إلى فيلا بورغيزي. صدم جيل لدى رؤيته عدداً كبيراً من الرجال الذين لا يكبرونه كثيراً بالبذلات العسكرية، فيما انتشرت صور موسوليني على كل الأعمدة التي مرا أمامها.

وبعد أن أوصلتهما سيارة الأجرة، تابعا طريقهما عبر الحدائق، وشاهدا المزيد من الرجال بالبذلات العسكرية، والمزيد من الصور «للدوق» قبل أن يصلا أخيراً إلى فيلا بورغيزي.

كان هاري قد كتب رسالة لجيل أخبره فيها أنهم سيبدأون جولتهم الرسمية في العاشرة صباحاً. تحقق جيل من ساعته. إنها الحادية عشرة وبضع دقائق، حيث تكاد الجولة المدرسية تنتهي. اشترى بطاقتين، وأعطى إيما واحدة، ثم صعدا الدرج المؤدي إلى داخل المعرض بحثاً عن الفريق المدرسي. أخذت إيما وقتها في تأمل تماثيل برنيني المعروضة في الغرف الأربع الأولى، إذ لم تكن على عجلة من أمرها، فيما انتقل جيل من قاعة إلى قاعة إلى أن ملح مجموعة من الشباب الذين يرتدون سترات داكنة وسراويل سوداء، محتشدين حول لوحة صغيرة لرجل عجوز يرتدي بذلة حريرية قشدية ويضع عمامة بيضاء على رأسه.

قال: «ها هم». لكنه لم يلمح إيما في أي مكان. لم يفكر في أخته قط، بل توجه إلى المجموعة. ولحظة رآها، نسي تماماً سبب مجيئه إلى روما.

قالت بلكنة خفيفة: «طلب من كارافاجيو رسم هذه اللوحة لحبر الفاتيكان عام 1605. سوف تلاحظون أن اللوحة غير منتهية، وسبب ذلك هو اضطرار الفنان إلى الهرب من روما».

«لماذا يا آنسة؟». سأل شاب من الصف الأمامي بدا جلياً أنه مصمم على أخذ مكان ديكنز في المستقبل.

«لأنه تورط في شجار وانتهى به الأمر بقتل رجل».

فسأل الصبي نفسه: «وهل تم اعتقاله؟».

أجابت المرشدة: «لا. فلطالما نجح كارافاجيو في الانتقال من مدينة إلى أخرى قبل أن تتمكن يد العدالة من إلقاء القبض عليه. لكن حبر الفاتيكان قرر منحه العفو في النهاية».

فسأل الصبي نفسه: «لماذا؟».

«لأنه أراد أن يرسم له كارافاجيو المزيد من اللوحات. بعض تلك اللوحات من بين الأعمال الفنية السبعة عشر التي لا تزال موجودة في روما حتى اليوم».

وفي تلك اللحظة، لمح هاري صديقه جيل يحدق إلى اللوحة بذهول، فترك المجموعة وذهب للانضمام إليه، وسأله: «كم مضى على وقوفك هنا؟».

فقال جيل: «ما يكفي من الوقت لكي أقع في الحب». فيما عيناه لا تزالان مسمرتين على المرشدة السياحية.

ضحك هاري حين أدرك أن جيل لم يكن يحدق إلى اللوحة الفنية، وإنما إلى المرأة الشابة الأنيقة التي تتكلم مع الشبان. قال هاري: «أعتقد أنها لا تناسب عمرك، ولا ميزانيتك أيضاً».

فقال جيل: «أنا مستعد للمجازفة». فيما رافقت المرشدة السياحية مجموعتها إلى القاعة التالية. لحق بها جيل، ووقف في مكان يستطيع منه رؤيتها بوضوح، فيما تأمل باقي أفراد المجموعة تمثال باولينا بورغيزي للفنان كانوفا. قالت المرشدة السياحية: «إنه أفضل نحات على الإطلاق». لن يعارضها جيل الرأي.

قالت: «حسناً، هكذا تنتهي جولتنا. لكن، إذا أردتم طرح المزيد من الأسئلة، فسأبقى هنا بضع دقائق إضافية. لا تترددوا في السؤال».

لم يتردد جيل.

راقب هاري صديقه وهو يتوجّه صوب المرأة الإيطالية الشابة ليبدأ بالتحدث معها كما لو أنهما صديقان قديمان. حتى إن الصبي الصغير الواقف في الصف الأمامي لم يجرؤ على مقاطعته. انضم جيل إلى هاري بعد دقائق قليلة، مع ابتسامة عريضة مرسومة على وجهه.

«وافقت على تناول العشاء معي الليلة.»

فقال هاري: «لا أصدقك.»

عندها، أضاف جيل متجاهلاً النظرة المشككة لصديقه: «لكن ثمة مشكلة.»

«أكثر من مشكلة حسب اعتقادي.»

«... يمكن تجاوزها بمساعدتك.»

قال هاري: «أنت بحاجة إلى شخص مرافقتك؛ في حال خرجت الأمور عن السيطرة.»

«لا، أيها الأحمق. أريد منك أن تهتم بأختي فيما تتولى كاترينا تعريفي على الحياة الليلية في روما.»

فقال هاري: «لا مجال لذلك. لم أجتز كل هذه المسافة وصولاً إلى روما لأهتم بأختك.»

عندها، توّسل إليه جيل قائلاً: «لكنك أفضل صديق لي. وإذا لم تساعدني، فمن سيفعل؟»

«لماذا لا تجرب باولينا بورغيزي؟ أشك في أنها تملك أي مشاريع الليلة».

«كل ما عليك فعله هو اصطحابها لتناول العشاء، والتأكد من خلودها إلى النوم في تمام العاشرة».

«اعذرني على ذكر الأمر يا جيل، لكنني اعتقدت أنك جئت إلى روما لتناول العشاء معي!».

«سأعطيك ألف ليرة إذا أبعدتها عني. ويمكننا تناول الفطور في فندق في الصباح».

«لا يمكن رشوتي بهذه السهولة».

فتابع جيل: «وسأعطيك أيضاً تسجيلي لكاروسو وهو يغني الغجرية».

استدار هاري فوجد فتاة شابة واقفة قربها.

قال جيل: «بالمناسبة، هذه أختي إيما».

قال هاري: «مرحباً». ثم استدار صوب جيل وقال: «حسناً، اتفقنا».

انضم هاري إلى جيل لتناول الفطور في فندق بالاس في صباح اليوم التالي، فألقى عليه صديقه التحية بالابتسامة المتواضعة نفسها التي عرفها هاري منذ البداية.

سأل هاري: «كيف حال كاترينا؟». من دون أية رغبة في سماع

الجواب.



«أروع من أجمل أحلامي».

كان هاري على وشك طرح سؤال آخر عليه عندما جاء النادل للوقوف قربها، فقال له: «كابوتشينو من فضلك». ثم سأل: «إلى أين وصلت معها؟».

فأجاب جيل: «إلى النهاية».

فتح هاري فمه من دون التفوه بأية كلمة، ثم قال: «هل...»  
«ماذا؟».

حاول هاري مجدداً: «هل...»

«نعم». مكتبة الرمحي أحمد

«... رأيتها...؟».

«نعم، طبعاً».

.... ثم ارتشف القهوة وسأل: «كيف تصرفت أختي؟».

«كان الطعام ممتازاً، وأنت تدين لي بتسجيل كاروسو».

«أبهذا السوء؟ حسناً، لا يمكن أن نكون جميعنا رابحين».

لم يلاحظ أي منهما أن إيما قد دخلت الغرفة إلا عندما وقفت قربهما. عندها، وقف هاري وعرض عليها مقعده قائلاً: «آسف، لكنني مضطر للمغادرة، إذ يجدر بي التواجد في متحف الفاتيكان في تمام العاشرة».

صرخ جيل: «بلغ كاترينا حبي». فيما خرج هاري من قاعة الفطور مسرعاً.

انتظر جيل حتى اختفى هاري عن الأنظار ثم سأل أخته: «كيف كانت الليلة الماضية؟».

فأجابت وهي تتناول الكرواسان: «كان من الممكن أن تكون أسوأ. إنه جدي كثيراً، أليس كذلك؟».

«يجدر بك التعرف إلى ديكنز».

ضحكت إيما قائلة: «حسناً، كان الطعام جيداً على الأقل. لكن، لا تنسَ أنني أصبحت الآن أملك الفونوغراف الخاص بك».

وصف جيل تلك الليلة لاحقاً بأنها أبرز ليلة في حياته؛ لكل الأسباب الخاطئة.

كانت المسرحية السنوية من أهم الأحداث في روزنامة مدرسة القواعد في بريستول؛ ليس فقط لأن المدينة تحافظ على تقليد المسرح الراقى، وإنما لأن العام 1937 كان مميزاً بحد ذاته.

قدّمت المدرسة - تماماً مثل العديد من المدارس الأخرى في البلاد - أحد نصوص شكسبير المختارة لهذا العام. وتوجّب الاختيار بين روميو وجوليات وحلم ليلة صيف، فاختر الدكتور باجيه التراجيديا بدلاً من الكوميديا، لأنه يملك روميو وليس بوتوم.

للمرة الأولى في تاريخ المدرسة، تمت دعوة شابات الرّد كروس في الجهة الأخرى من المدينة للمشاركة في مسابقة الترشح لأدوار الفتيات، ولكن بعد أن جرت مناقشات عدة مع الأنسة ويب، المسؤولة عنهن، والتي أصرت على فرض مجموعة من القواعد؛ مما أقنع المديرة المسؤولة.

يفترض أن تُعْرَض المسرحية ثلاث ليالٍ متتالية في الأسبوع الأخير من الفصل الدراسي. وكما هي الحال دوماً، نفذت بطاقات ليلة السبت سريعاً، لأن قدامى التلاميذ وأهالي التلاميذ الحاليين رغبوا في حضور المسرحية في الليلة الأخيرة.

كان جيل واقفاً في الردهة بتوتر، وهو يتحقق من ساعته كل بضع لحظات في انتظار وصول والديه وأخته. أمل أن يقدم هاري عرضاً مميّزاً مجدداً، حيث يستوعب والده أخيراً فكرة تقبله.

النقد الذي كتبه جريدة عالم بريستول المسائي وصف أداء هاري «بالناضج أكثر من عمره»، لكن المديح الأكبر كان لجوليات، حيث قيل إن مشهد الموت لم يكن يوماً أكثر تأثيراً، ولا حتى في ستانفورد.

صافح جيل السيد فروبيشر حين وصل إلى الردهة. وعرفه أستاذه القديم على ضيفه السيد هولكومب، قبل أن يذهبا معاً إلى القاعة الكبرى للجلوس في مكانيهما.

سمعت بلبله بين الجمهور حين مشى «الكابتن» تارانت في الممر الوسطي وأخذ مكانه في الصف الأمامي. فقد تم تعيينه أخيراً رئيساً للمدرسة، ولقي هذا التعيين قبولاً شاملاً. وفيما انحنى للتكلم مع رئيس مجلس الأمناء، ملح مايزي كليفتون جالسة على مسافة مقاعد قليلة. وجه إليها ابتسامة حنونة، ولكنه لم يتعرف إلى الرجل الجالس قربها. وكانت المفاجأة التالية عندما اطلع على أسماء أبطال المسرحية.

كان مدير المدرسة والسيدة بارتون من آخر الأشخاص الذين دخلوا القاعة الكبيرة، وجلسا في مكانيهما في الصف الأمامي قرب السير والتر بارينغتون و«الكابتن» تارانت.

أصبح جيل أكثر توتراً مع مرور كل دقيقة، وبدأ يتساءل عما إذا كان والداه سيصلان قبل رفع الستارة.

قالت والدته عندما وصلوا أخيراً: «أسفة جداً يا جيل. إنها غلطتي فأنا لم أنتبه إلى الوقت». وأسرعت مع غرايس إلى داخل الردهة، ثم لحق

بهما والده الذي رفع حاجبيه عندما رآه. لم يعطه جيل برنامج المسرحية، إذ أراد إبقاء الأمر مفاجأة، رغم أنه أخبر أمه بالأمر، وأملت - تماماً مثله - في أن يحسن زوجها أخيراً معاملته لهاري، وأن يعامله كما لو أنه فرد من العائلة، وليس شخصاً دخيلاً.

تم رفع الستارة قبل لحظات فقط من جلوس آل بارينغتون على مقاعدهم، وسمع صوت بلبلة بين الجمهور الغفير.

عندما ظهر هاري على المسرح، نظر جيل إلى والده. لم يُظهر والده أية ردة فعل فورية، فبدأ يسترخي للمرة الأولى هذا المساء. لكن الوضع الإيجابي استمر فقط حتى مشهد قاعة الرقص؛ عندما رأى روميو وهوغو جوليات للمرة الأولى.

انزعج بعض الأشخاص الجالسين قرب آل بارينغتون من الرجل المتململ الذي أفسد عليهم متعة مشاهدة المسرحية بسبب صوته العالي وطلبه الحصول على برنامج المسرحية. وانزعج الأشخاص أكثر فأكثر بعد أن قال روميو: «أليست هذه ابنة كابوليت؟». فحينها نهض هوغو بارينغتون من مكانه، وخرج من صف المقاعد، غير آبه بالأقدام التي داس عليها. ومشى بعد ذلك في الممر الوسطي، وشقّ طريقه صوب الباب الدوار واختفى في الليل. مرّ بعض الوقت قبل أن يستعيد روميو رباطة جأشه.

حاول السير والتر التظاهر بأنه لم يلاحظ ما جرى خلفه. ورغم أن «الكابتن» تارانت قطّب جبينه، إلا أن عينيه لم تفارقا المسرح قط. ولو استدار لرأى السيدة كليفتون تتجاهل الخروج المفاجئ لبارينغتون لأنها كانت تركز على كل كلمة يقولها العاشقان الصغيران.

خلال الاستراحة الفاصلة، ذهب جيل للبحث عن والده، ولكنه لم يجده. تحقق من مرأب السيارات، ولكن لم يكن هناك أثر لسيارة البوغاتي. وعندما عاد إلى الردهة، رأى جده منحنيًا يهمس في أذن أمه.

سأل السير والتر: «هل أصيب هوغو بالجنون؟».

فأجابت إليزابيث: «لا، إنه عاقل كفاية». من دون أن تحاول إخفاء غضبها.

«إذًا، لماذا تصرف بهذه الطريقة؟».

«لا أعرف».

«هل يحتمل أن تكون للأمر علاقة بابن كليفتون؟».

كانت ستجيب لو لم يأتِ جاك تارانت للانضمام إليهما.

قال: «ابنتك ذات موهبة مميزة إليزابيث، فضلاً عن أنها ورثت جمالك». وقبّل يدها.

فأجابت: «وأنت ذو كلام معسول يا جاك. لا أعتقد أنك التقيت ابني جيل».

قال جيل: «مساء الخير يا سيدي. شرف كبير لي أن أتعرف إليك. أريد تهنئتك على منصبك الأخير».

قال تارانت: «شكراً أيها الشاب. وما رأيك في أداء صديقك؟».

«مميز. لكن، هل كنت تعلم...؟».

«مساء الخير سيدة بارينغتون».

«مساء الخير حضرة المدير».

«لا بد أنني أنضم إلى صف طويل من الأشخاص الذين يرغبون في...»

راقب جيل «الكابتن» تارانت فيما انسحب للانضمام إلى والدة هاري، وتساءل عن كيفية تعرفهما إلى بعضهما بعضاً.  
«كم أنا مسرورة برؤيتك «كابتن» تارانت».

«وأنا أيضاً سيدة كليفتون. وكم تبدين رائعة الليلة. لو عرف كاري غرانت أن مثل هذا الجمال موجود في بريستول، لما تركنا أبداً للذهاب إلى هوليوود». ثم أخفض صوته قائلاً: «هل كنت تعرفين أن إيما بارينغتون تؤدي دور جوليات؟».

فقالت مايزي: «لا. لم يذكر هاري الأمر أمامي. لكن، لم يجدر به ذكره أصلاً؟».

«فلنأمل أن تكون العاطفة الظاهرة على المسرح مجرد تمثيل لا أكثر، لأنه إذا كان هذا شعورهما الحقيقي حيال بعضهما، فسنكون أمام مشكلة كبيرة». واستدار للتأكد من أن أحداً لا يستمع إلى هذا الحديث، ثم تابع: «أفترض أنك لم تخبري هاري أي شيء بعد؟».

فقالت مايزي مؤكدة: «لا شيء على الإطلاق. وحسب ردة الفعل غير اللائقة لبارينغتون، يبدو أنه تفاجأ أيضاً بالموضوع».

قالت الأنسة مانداي فيما لمست ذراع جاك: «مساء الخير «كابتن» تارانت». وكانت الأنسة تيلي معها. «كم هو رائع أن تأتي كل هذه المسافة من كورنوال لمشاهدة أداء تلميذك المفضل». فابتسمت الأنسة مانداي ابتسامة عريضة، فيما رنّ الجرس لإبلاغ الجمهور بضرورة العودة إلى مقاعدهم.

وبعد أن استقر الجميع في أماكنهم، ارتفعت الستارة لبدء النصف الثاني من المسرحية، رغم أن مقعداً في الصف السادس بقي فارغاً. مشهد الموت جعل الدموع تتلألأ في عيون بعض الأشخاص الذين لم يذرفوا يوماً دمعة في العلن، فيما لم تبك الأنسة مانداي بهذا القدر منذ أن تغيّر صوت هاري.

وما إن أُسِدَّت الستارة في النهاية حتى وقف الجمهور كله. حظي هاري وإيما بموجة عارمة من التصفيق عندما اقتربا من الجهة الأمامية للمسرح، ممسكين بيدي بعضهما، وهتف بعض الرجال الذين نادراً ما كانوا يعبرون عن مشاعرهم.

وعندما استدارا للانحناء أمام بعضهما بعضاً، ابتسمت السيدة بارينغتون وتوردت خجلاً، وقالت بصوت عالٍ سمعه جيل: «يا إلهي! إنهما لا يمثلان». وخطرت الفكرة نفسها في رأس مايزي كليفتون وجاك تارانت قبل أن يظهر الممثلان الشابان للمرة الأخيرة على المسرح.

توجّهت السيدة بارينغتون وجيل وغرايس إلى الكواليس، فوجدوا روميو وجوليات يمسكان بيدي بعضهما، فيما احتشد الناس حولهما وهم يمدحونهما.

قال جيل: «كنت رائعاً». فيما ربّت على ظهر صديقه.

فقال هاري: «كنت جيداً. لكن إيما مذهلة».

فهمس جيل لصديقه: «متى حصل كل ذلك؟».

اعترف هاري مبتسماً ابتسامة خجولة: «بدأت القصة في روما».



«وأعتقد أن تضحيتي بتسجيل كاروسو والفونوغراف هي التي جمعتكم معاً».

«وكذلك دفع كلفة أول عشاء لنا».

سألت إيما فيما نظرت حولها: «أين بابا؟».

كانت غرايس على وشك إخبار أختها بما حصل عندما ظهر «الكابتن» تارانت.

قال: «تهاني يا صغيري. كنت مذهلاً فعلاً».

قال هاري: «شكراً لك سيدي. لكنني لا أعتقد أنك التقيت سابقاً نجمة المسرحية».

«لا. لكن، دعيني أؤكد لك يا جميلتي أنني لو كنت أصغر بأربعين عاماً لقضيت على كل منافسي».

فقالت إيما: «ليس هناك أي منافسين على محبتي لك. إذ يخبرني هاري دوماً عن كل ما فعلته من أجله».

قال جاك: «الأمر متبادل». فيما لمح هاري أمه ووضع ذراعيه حولها.

قالت مايزي: «أنا فخورة بك جداً».

قال: «شكراً ماما. لكن، دعيني أعرفك على إيما بارينغتون». ووضع ذراعه حول خصر إيما.

قالت إيما فيما صافحت والدة هاري: «الآن أعرف سبب وسامة ابنك. هل يمكنني أن أعرفك على أمي؟».

إنه لقاء فكرت فيه مايزي منذ أعوام عدة، ولكن لم يخطر في بالها هذا السيناريو تحديداً. كانت قلقة فيما صافحت إيزابيت بارينغتون، ولكنها حظيت منها بابتسامة ودودة أوضحت لها تماماً أنها غير مدركة أبداً لأي رابط محتمل بينهما.

قالت مايزي: «أعرفكم إلى السيد أتكينز». فيما عرفتهم إلى الرجل الذي كان جالساً قربها أثناء المسرحية.

لم يصادف هاري السيد أتكينز من قبل قط. نظر إلى معطف الفرو الذي ترتديه أمه، وتساءل عما إذا كان أتكينز هو سبب امتلاكها ثلاثة أزواج من الأحذية الآن.

كان على وشك التحدث إلى السيد أتكينز عندما قاطعه الدكتور باجيه الذي أراد تعريفه على البروفيسور هنري وايلد. وتذكر هاري الاسم فوراً.

قال وايلد: «سمعت أنك تنوي الذهاب إلى أوكسفورد لتعلم الإنكليزية».

«إذا علمتني أنت يا سيدي».

«أرى أن سحر روميو لم يفارقك بعد النزول عن خشبة المسرح».

«وهذه إيها بارينغتون يا سيدي».

انحنى أستاذ اللغة والأدب الإنكليزي في جامعة أوكسفورد قليلاً وقال: «كنت مذهلة أيتها الشابة».

فقالت إيما: «شكراً لك يا سيدي. أمل أيضاً أن تعلمني، فقد تقدمت بطلب إلى سومرفيل للسنة المقبلة».

نظر جاك تارانت إلى السيدة كليفتون، ولاحظ الذعر في عينيها.  
قال جيل فيما انضم إليهم رئيس مجلس الأمناء: «جدي، لا أعتقد  
أنك تعرف صديقي هاري كليفتون».

صافح السير والتر هاري بحرارة، قبل أن يطوّق حفيدته بذراعيه  
ويقول لها: «جعلت الرجل العجوز فخوراً جداً».

بدا جلياً لجاك ومايزي أن العاشقين الصغيرين لا يدركان أبداً  
المشاكل التي تنتظرهما.

طلب السير والتر من سائقه أن يوصل السيدة بارينغتون والأولاد إلى  
مانور هاوس. وبالرغم من نجاح إيما، إلا أن أمها لم تحاول إخفاء  
مشاعرها فيما شقت السيارة طريقها صوب «تشو فالي». وعندما اجتازوا  
البوابة ووصلوا إلى المنزل، لاحظ جيل أن بعض الأنوار لا تزال مضاءة في  
غرفة الرسم.

وبعد أن أنزلهم السائق، طلبت إليزابيت من جيل وإيما وغرايس  
الخلود إلى النوم بنبرة لم يسمعوها منها منذ أعوام عدة، فيما توجهت إلى  
قاعة الرسم. صعد جيل وإيما السلم العريض على مضض، ولكنهما جلسا  
على الدرجة العلوية لحظة اختفاء أمهما عن ناظريهما، فيما ذهبت  
غرايس إلى غرفتها. وتساءل جيل عما إذا كانت أمه قد تركت باب الغرفة  
مفتوحاً بشكل متعمّد.

عندما دخلت إليزابيت الغرفة، لم يزعج هوغو نفسه بالوقوف.  
لاحظت قنينة الشراب نصف الفارغة، والكأس على الطاولة قربه.

«لا شك في أنك تملك شرحاً لسلوكك غير المبرر!».

«لست مضطراً إلى أن أشرح لك أي شيء أقوم به.».

«نجحت إيما نوعاً ما في التغلب على سلوكك المهين الليلة.».

سكب بارينغتون لنفسه كأساً أخرى من الشراب، وارتشف منها قليلاً، ثم قال: «تدبرت أمر نقل إيما من شابات الرّد كروس على الفور. سوف أسجلها خلال الفصل التالي في مدرسة بعيدة جداً؛ لضمان عدم رؤيتها ذلك الشاب مجدداً.».

على السلام، انفجرت إيما في البكاء، فوضع جيل ذراعه حولها.

«ما الذي فعله هاري كليفتون حتى تتصرف بهذه الطريقة

المعيبة؟».

«ليس هذا من شأنك.».

فقالت إليزابيث وهي تحاول البقاء هادئة: «بلى، إنه من شأني. نحن نناقش مسألة ابنتنا وأفضل صديق لها. لو وقعت إيما في حب هاري- وأشك في أنها فعلت- فلن نجد شاباً ألطف منه أو أكثر احتراماً منه ليسرق قلبها.».

«هاري كليفتون ابن عاهرة. لهذا السبب تركها زوجها. وأكرر، لن أسمح أبداً بأن تتعاطى إيما مجدداً مع ذلك الولد، أبداً.».

عندها قالت إليزابيث: «سأخلد إلى النوم قبل أن أفقد صوابي. لا تفكر في اللحاق بي وأنت هكذا.».

فقال بارينغتون فيما سكب لنفسه كأساً أخرى من الشراب: «لا أنوي اللحاق بك على أية حال. فأنت لم تنجحي في إسعادي في غرفة النوم قط حسبما أذكر».

نهضت إيما وركضت إلى غرفتها، وأقفلت الباب وراءها. فيما لم يتحرك جيل من مكانه.

قالت إليزابيث: «يبدو جلياً أنك فاقد رشذك. سوف نناقش المسألة في الصباح حين تستعيد رزانتك».

فصرخ بارينغتون فيما غادرت زوجته الغرفة: «لن يكون هناك أي شيء لمناقشته في الصباح». بعد قليل، أرجع رأسه على الوسادة وبدأ يشخر.

عندما فتح جنكينز الستائر في قاعة الرسم قرابة الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، ولم يتفاجأ قطّ لدى رؤيته سيده مستلقياً على كرسي هناك، وغارقاً في نوم عميق وهو لا يزال يرتدي سترته الرسمية.

تململ بارينغتون بسبب شمس الصباح، وطفرف بعينه ونظر إلى كبير الخدم قبل أن يتحقق من ساعته ثم يقول:

«ستأتي سيارة لاصطحاب الآنسة إيما بعد ساعة تقريباً يا جنكينز. لذا، تأكد من أنها توضع أغراضها وتستعد».

«الآنسة إيما ليست هنا يا سيدي».

سأل بارينغتون: «ماذا؟ أين هي؟». ونهض من مكانه محاولاً الوقوف، غير أنه تمايل هنيهة قبل أن يسقط على الكرسي مجدداً.

«لا أعرف يا سيدي. فقد غادرت مع السيدة بارينغتون المنزل بعد منتصف الليل».

سأل هاري بعد أن وصف له جيل ما حصل عند وصوله إلى مانور هاوس: «إلى أين ذهبنا برأيك؟».

فأجاب جيل: «لا أعرف. كنت نائماً عندما غادرتا المنزل. كل ما عرفته من جنكينز هو أنه جاءت سيارة أجرة واصطحبتهما إلى المحطة بعد منتصف الليل».

«وقلت إن والدك كان فاقداً رشده عندما عدتم إلى المنزل في الليلة الماضية، أليس كذلك؟».

«جداً، ولم يكن قد استعاد رزائته عندما نزلت لتناول الفطور هذا الصباح. كان يصرخ في وجه كل من صادفه، حتى إنه حاول لومي على كل شيء. وعندئذ، قررت الذهاب والبقاء عند جدي».

«هل تعتقد أن جدك يعرف مكانهما؟».

«لا أعتقد ذلك؛ رغم أنه لم يتفاجأ كثيراً عندما أخبرته بما حصل. قالت جدي إنني أستطيع البقاء عندهما بقدر ما أشاء».

فقال هاري: «إذا كانت سيارة الأجرة قد أخذتهما إلى المحطة فهما ليستا في بريستول».

قال جيل: «يمكن أن تكونا في أي مكان».

لم يتحدث أي منهما لبعض الوقت، إلى أن قال هاري: «أيمكن أن تكونا في الفيلا في توسكانة؟».

فأجاب جيل: «الأمر مستبعد. فهذا أول مكان سيفكر فيه والدي، ولن تكونا بأمان هناك».

«لا بد أنهما في مكان سيضطر والدك إلى التفكير ملياً للتوصل إليه قبل أن يتمكن من اللحاق بهما». وصمت الشابان مجدداً إلى أن قال هاري: «أعتقد أن هناك شخصاً قد يعرف مكانهما».

«ومن هو؟».

أجاب هاري: «العجوز جاك». إذ لم يفلح بعد في مناداته «الكابتن» تارانت. «أعرف أنه أصبح صديقاً لأمك، ولا شك في أنها تثق فيه».

«هل تعرف مكانه في الوقت الحاضر؟».

فردّ هاري بغضب: «أي شخص يقرأ جريدة التايمز يعرف ذلك».

عندها، ضرب جيل صديقه على ذراعه وسأله: «إذاً، أين هو أيها الذكي؟».

«سيكون في مكتبه في لندن، في ساحة سوهو، إذ كانت ذاكرتي جيدة».

قال جيل: «لطاماً أردت عذراً لقضاء يوم في لندن. من المؤسف أنني تركت كل أموالني في المنزل».

فأجاب هاري: «هذه ليست مشكلة، فأنا أملك المال. أعطاني أتكينز خمسة باوندات، ولكنه طلب مني إنفاقها على الكتب».

قال جيل: «لا تقلق. أستطيع التفكير في خطة بديلة».

سأله هاري بتفاؤل: «وما هي؟».



«يمكننا الانتظار إلى أن تكتب لك إيما».

جاء الآن دور هاري لضرب صديقه، ثم قال: «حسناً. لكن من الأفضل أن نتحرك قبل أن يكتشف أحد ما نخطط له».

قال جيل فيما انطلق القطار من تمبل ميدس: «لست معتاداً على السفر في الدرجة الثالثة».

فقال هاري: «حسناً، من الأفضل أن تعتاد على ذلك حين أدفع ثمن البطاقتين».

«أخبرني يا هاري، ما الذي يفعله صديقك «الكابتن» تارانت؟ أعرف أن الحكومة قد عينته مديراً لوحدة السكان النازحين، وهذا أمر مهم، لكنني لا أعرف ما يفعله بالضبط».

قال هاري: «إنه مسؤول عن تأمين مأوى للاجئين، ولاسيما للعائلات التي تهرب من ظلم ألمانيا النازية. يقول إنه يتابع عمل والده».

«يا له من شخص نبيل، صديقك «الكابتن» تارانت».

قال هاري: «أنت لا تعرف عنه شيئاً بعد».

«أريد رؤية البطاقتين من فضلكما».

أمضى الشابان معظم الرحلة وهما يحاولان توقع مكان إيما والسيدة بارينغتون. لكن، عندما وصل القطار إلى محطة بادينغتون، لم يكونا قد توصلا إلى أية نتيجة حاسمة بعد.

استقلا المترو إلى ساحة لايسستر، وخرجا إلى نور الشمس وذهبا للبحث عن ساحة سوهو. وفيما شقا طريقهما إلى الجهة الغربية، تشتت انتباه جيل بفعل أضواء النيون الساطعة وواجهات المحلات الزجاجية المليئة ببضائع لم يرها من قبل قط، حيث إن هاري اضطر إلى تذكيره بين الحين والآخر بسبب مجيئهما إلى لندن.

عندما وصلا إلى ساحة سوهو، انتبها كلاهما إلى الدفق الكبير من الرجال والنساء والأولاد الذين يسرون خافضي الرؤوس، وهم يدخلون ويخرجون من مبنى كبير في الطرف البعيد من الساحة.

بدا الشابان اللذان يرتدي كل منهما سترة رسمية وسروالاً رمادياً ويضع ربطة عنق غريبين نوعاً ما فيما دخلا المبنى، وسارا في الاتجاه الذي تشير إليه الأسهم التي أرشدتهما إلى الطابق الثالث. وقف العديد من اللاجئيين في جانب واحد للسماح لهما بالمرور، مفترضين أنهما موجودان للقيام بعمل رسمي.

انضم جيل وهاري إلى الرتل الطويل خارج مكتب المدير، وكانا سيبقيان هناك طوال اليوم لو لم تخرج سكرتيرة وتلمحهما. توجهت صوب هاري وسألته عما إذا كان قد جاء لرؤية «الكابتن» تارانت.

فأجاب: «نعم. إنه صديق قديم».

قالت المرأة: «أعرف. تعرفت إليك فوراً».

سألها هاري: «كيف؟!».

فقالت: «وضع صورة لك على طاولة مكتبه. اتبعني، سيفرح

«الكابتن» تارانت برؤيتك».

أشرق وجه العجوز جاك عند رؤيته الولدين- يجب عليه أن يتوقف عن اعتبارهما ولدين؛ إذ أصبحا الآن شاوين- يدخلان مكتبه، وقال: «أنا مسرور لرؤيتكما». ونهض عن كرسيه لإلقاء التحية عليهما، ثم أضاف مبتسماً: «ممن تهربان هذه المرة؟».

فأجاب جيل بهدوء: «من والدي».

اجتاز العجوز جاك الغرفة وأغلق الباب، ثم طلب من الشابين الجلوس على أريكة غير مريحة، وأحضر كرسيًا وجلس عليه مصغياً إليهما بانتباه فيما كانا يخبرانه بكل ما حصل منذ أن رأياه لآخر مرة في المسرح في الليلة الماضية.

قال العجوز جاك: «لا شك في أنني رأيت والدك وهو يغادر المسرح. لكن، لم يخطر في بالي قط أن يعامل أمك وأختك بهذه الفظاظة».

سأل جيل: «هل لديك فكرة عن مكان وجودهما؟».

«لا. لكن إذا فكرت في الأمر، فأتوقع أنهما مع جدك».

«لا يا سيدي. أمضيت الصباح مع جدي، وهو لا يعرف مكانهما أيضاً».

فقال جاك: «لم أحدد أيّ جد».

فسأله هاري: «أتقصد اللورد هارفي؟».

أجاب جاك: «هذا تخميني. ستشعران بالأمان معه، وستكونان على يقين بأن بارينغتون سيفكر ملياً قبل اللحاق بهما».

«لكنّ جدي يملك ثلاثة منازل على الأقل. لذا، لن أعرف أبداً أين يجدر بي البحث».

عندها قال هاري: «كم أنا غبي. أعرف مكانه بالضبط».

فقال جيل مستغرباً: «حقاً! أين؟».

«إنه في منزله الريفي في اسكوتلندا».

قال جاك: «تبدو واثقاً جداً».

«لأنه كتب رسالة إلى إيمّا في الأسبوع الماضي يشرح لها فيها سبب اضطراره إلى التغيّب عن مسرحية المدرسة. يبدو أنه يمضي شهريّ ديسمبر ويناير في اسكوتلندا دائماً. لكنني لا أذكر العنوان أبداً».

قال جيل: «قصر مولجلري، قرب مولجلري، هايلاندس».

قال جاك: «مذهل».

«ليس تماماً يا سيدي. وإنما مرّت أعوام كثيرة أجبرتني فيها أمي على كتابة رسائل الشكر لكل أقربائي. ولكنني لم أزر اسكوتلندا قط، ولا أعرف أبداً أين يقع القصر».

عندها، نهض العجوز جاك من مكانه، وأنزل أطلساً كبيراً عن الرف من وراء طاولة مكتبه. بحث عن مولجلري في الفهرس، ثم قلب عدة صفحات، وبعد ذلك فتح الأطلس على الطاولة أمامه. مرّر إصبعاً من لندن إلى اسكوتلندا وقال: «عليكما أن تستقلا القطار الليلي إلى إيدينبورغ، ومن ثم يجب أن تركبا القطار المحلي إلى مولجلري».

قال هاري: «لا أعتقد أننا نملك المال الكافي للقيام بذلك». فيما تحقق من محفظة نقوده.

فقال جاك: «إذاً، عليّ إعطاؤكما بطاقتين للقطار، أليس كذلك؟». وفتح درج مكتبه، وأخرج منه دفترًا كبيراً ملوناً، ومزق ورقتين. ملأ

القسيمتين ووقعهما وختمهما، ثم أضاف: «ففي النهاية، أنتما لاجئان تبحثان عن منزل».

قال جيل: «شكراً لك يا سيدي».

فقال العجوز جاك فيما نهض من خلف طاولة مكتبه: «لدي نصيحة أخيرة. هوغو بارينغتون رجل لا يحب أن يتجاوزه أحد. أنا واثق تماماً من أنه لن يفعل أي شيء يزعج اللورد هارفي، لكنّ هذا لا ينطبق عليك يا هاري. لذا، توخَّ الحذر إلى أن تصبح داخل قصر مولجلري. وإذا صادفت رجلاً أعرج، احذر منه، فهو يعمل مع والد جيل. إنه ذكي، والأهم من ذلك أنه ليس وفياً إلا لمعلمه الذي يدفع له».

توجّه جيل وهاري إلى مقطورة في الدرجة الثالثة، ولكنهما كانا متعبين جداً، حيث ناما فوراً بالرغم من الفتح والإغلاق المتكررين لأبواب المقطورات خلال الليل، وصوت احتكاك العجلات على السكك، والصفير المنتظم لصافرة القطار.

استيقظ جيل مذهولاً حين توقف القطار في نيوكاسل قبل دقائق قليلة من الساعة السادسة. نظر إلى خارج النافذة، فرأى سماء ضبابية وصفوفاً من الجنود المنتظرين للركوب في القطار. ثمّة ضابط ألقى التحية على ضابط آخر لا يبدو أكبر من جيل بكثير وسأله: «هل تملك إذناً للركوب في القطار يا سيدي؟». فردّ الشاب التحية، وأجاب بصوت أكثر نعومة: «نعم سيدي». وبدأ الجنود يصعدون إلى القطار.

التهديد الدائم للحرب، ومسألة اضطرارهما- هو وهاري- إلى ارتداء البذلة العسكرية قبل الذهاب إلى أوكسفورد، كانا دوماً في بال جيل. كان عمه نيكولاس الذي لم يلتقه قط ضابطاً مثل الشاب الذي أمامه الآن، وقد قاد فرقة من الجنود وقُتِل في إيبر. تساءل جيل عن أسماء المعارك التي سيتم تخليدها كل عام إذا حصلت حرب كبرى جديدة لإنهاء كل الحروب.

وتوقّفت أفكاره عندما لاحظ انعكاساً على زجاج نافذة المقطورة، فاستدار للنظر جيداً، لكن الشخص الذي رأى انعكاس صورته لم يعد موجوداً. هل جعله تحذير «الكابتن» تارانت مفرطاً في الحذر، أم أنها مجرد صدفة؟

نظر جيل إلى هاري الذي كان لا يزال نائماً، ربما لأنه لم ينم خلال الليلتين الماضيتين، فيما توجه القطار إلى بيرويك أون تويد. لاحظ جيل الرجل نفسه يمرّ أمام مقطورتها لوقت قصير جداً قبل أن يختفي. لم تعد مصادفة. هل كان يتحقق ليرى المحطة التي سينزلان فيها؟ استيقظ هاري أخيراً، وطرف بعينه، ومدد ذراعيه ثم قال: «أتصور جوعاً».

عندها، انحنى جيل وهمس له قائلاً: «أعتقد أن هناك شخصاً يلحق بنا في هذا القطار».

فسأله هاري: «ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟». وقد صار متيقظاً فجأة.

«شاهدت الرجل نفسه يمرّ أمام مقطورتنا عدة مرات».

«أريد رؤية البطاقتين من فضلكما».

سلم جيل وهاري بطاقتيهما إلى المسؤول، فيما سأله جيل: «لكم من الوقت يتوقف هذا القطار في كل محطة؟».

فأجاب المسؤول بشيء من الحذر: «حسناً، يرتبط الأمر بما إذا كان لدينا وقت أم لا. ولكن ليس لأقل من أربع دقائق حسب قانون الشركة».

سأل جيل: «ما هي المحطة التالية؟».

«دونبار. يفترض أن نصل إلى هناك خلال ثلاثين دقيقة تقريباً. لكنكما تملكان تذكرتين إلى مولجلري». ثم انتقل إلى المقصورة التالية.

عندها، سأله هاري: «لمّ كل هذه الأسئلة؟».

فأجاب جيل: «أحاول أن أعرف إن كنا ملاحقين. والجزء التالي من خطتي يشملك».

قال هاري: «ما هو الدور الذي سأؤديه هذه المرة؟». فيما جلس على حافة المقعد.

أجاب جيل: «طبعاً ليس دور روميو. عندما يتوقف القطار في دونبار، أريد منك أن تنزل في المحطة فيما أراقب لأتأكد إن كان أحدهم سيلحق بك. وعندما تصبح في المحطة، توجه بسرعة إلى حاجز البطاقات، ثم استدر واذهب إلى قاعة الانتظار واشترِ كوباً من الشاي. لا تنس أن لديك أربع دقائق فقط للعودة قبل أن ينطلق القطار مجدداً. وفي كل الأحوال، لا تنظر إلى الخلف أبداً، وإلا فسيعرف أننا فضحنا أمره».

«لكن، إذا كان هناك شخص يلاحقنا، فسيكون حتماً مهتماً بك وليس بي».

قال جيل: «لا أظن ذلك، خصوصاً إذا كان «الكابتن» تارانت محقاً؛ لأنني أشعر أن صديقك يعرف معلومات أكثر مما يفصح عنه».

فقال هاري: «لا يمنحني ذلك الكثير من الثقة».

وبعد نصف ساعة، توقف القطار في محطة دونبار، ففتح هاري باب المقطورة، ونزل إلى الرصيف وتوجه نحو المخرج.

عندها، لمح جيل الرجل يركض مسرعاً خلف هاري.

قال جيل: «فضحتك». ثم انحنى إلى الخلف وأغمض عينيه، وهو على ثقة أنه حين يدرك الرجل أن هاري نزل فقط لشراء كوب من الشاي، فسينظر باتجاهه للتأكد من أنه لم يترك المقطورة أيضاً.



فتح جيل عينيه مجدداً عندما عاد هاري إلى المقطورة ممسكاً بلوح من الشوكولاته.

قال هاري: «حسناً، هل ملحت أحداً؟».

فأجاب جيل: «طبعاً. في الواقع، لقد عاد إلى القطار للتو».

عندها، سأله هاري محاولاً ألا يبدو قلقاً: «كيف يبدو شكله؟».

أجاب جيل: «ملحته بسرعة. لكنني أستطيع القول إنه في الأربعين من عمره تقريباً، طوله ست أقدام، يرتدي ملابس أنيقة، وهو ذو شعر قصير جداً. الشيء الوحيد الذي لا يمكن تفويته هو أنه يعرج».

«إذاً، نعرف الآن من يواجهنا. ما هي الخطوة التالية يا شارلوك؟».

«أولاً، واتسون، من المهم التذكر أن هناك أموراً عديدة لصالحنا».

فقال هاري: «لا أستطيع التفكير في أي منها».

«حسناً، في البداية، نعرف أننا ملاحقان، ولكنه لا يعرف أننا نعرف.

كما نعرف أيضاً إلى أين نذهب، فيما لا يعرف هو ذلك، بالإضافة إلى أننا نتمتع باللياقة البدنية، فنحن في نصف عمره. وبسبب عرجه لن يتمكن من التحرك بسرعة كبيرة».

قال هاري: «أنت محق في ذلك».

فقال جيل: «أملك ميزة إضافية؛ أنا ابن والدي».

عندما وصل القطار إلى إيدنبورغ وايفرلي، كان جيل قد راجع خطته مع هاري عشر مرات. خرجا من المقطورة، ومشيا ببطء على الرصيف في اتجاه الحاجز.

قال جيل: «لا تفكر أبداً في النظر إلى الخلف». عرض على المسؤول عن الحاجز بطاقته، ثم توجّها صوب رتل من سيارات الأجرة.

قال جيل لسائق سيارة: «فندق رويال. وهل يمكنك إبلاغي إذا لحقت بنا سيارة أجرة أخرى؟». ثم جلس مع هاري على المقعد الخلفي. قال سائق سيارة الأجرة فيما انطلق من بين رتل السيارات: «اتفقنا». سأله هاري: «كيف تعرف أنه يوجد فندق رويال في إيدنبورغ؟». فأجاب جيل: «يوجد فندق رويال في كل مدينة».

بعد دقائق قليلة، قال سائق السيارة: «لست واثقاً تماماً، ولكن سيارة الأجرة التالية ليست بعيدة جداً عنا».

قال جيل: «جيد. كم الأجرة إلى فندق رويال؟».

«إنها شلنان يا سيدي».

«حسناً، سأعطيك أربعة شلنات إذا نجحت في تضليله».

وعلى الفور، ضغط السائق على دواسة الوقود أكثر؛ مما جعل راكبيه يتراجعان إلى الخلف بقوة. استعاد جيل وضعيته بسرعة، ونظر عبر النافذة الخلفية، فوجد أن السيارة التي وراءهم قد أسرع أيضاً. تقدموا مسافة ستين أو سبعين ياردة، لكن جيل أدرك أن هذا الفارق لن يستمر طويلاً.

«حضرة السائق، انعطف إلى اليسار، ثم أبطئ قليلاً. وبعد أن نقفز من السيارة، أريدك أن تتابع طريقك إلى فندق رويال، ولا تتوقف إلا عند وصولك إلى هناك». ثم امتدت ذراعه صوب هاري، فأعطاه هذا الأخير النقود.

قال جيل: «عندما أقفز من السيارة اتبعني، ثم قم بما أقوم به بالضبط». أوماً هاري برأسه موافقاً.

انعطفت سيارة الأجرة، وأبطأت هنيهة فيما فتح جيل الباب، ثم قفز على الرصيف وتدحرج، وبعد ذلك نهض بسرعة ودخل فوراً أقرب متجر، ورمى بنفسه على الأرض. لحق به هاري بعد ثوانٍ قليلة، وأغلق الباب خلفه، واستلقى على الأرض قرب صديقه، فيما انعطفت السيارة التالية قربهما.

قال البائع وازعاً يديه على وركيه، فيما نظر إلى الشابين المستلقين على الأرض: «هل أستطيع مساعدتكما؟».

فقال جيل: «لقد ساعدتنا أصلاً». فيما نهض ووجه إليه ابتسامة ودودة، ثم نفخ عنه الغبار قائلاً: «شكراً». وبعد ذلك غادر المتجر من دون أن يضيف أية كلمة إضافية.

وعندما وقف هاري، وجد نفسه وجهاً لوجه مع تمثال عارضة نحيلة ترتدي مشدّاً فقط، فتورد خجلاً، وخرج من المتجر مسرعاً، وانضم إلى جيل على الرصيف.

قال جيل: «لا أتوقع أن ينام الرجل الأعرج في فندق رويال الليلة. لذا، من الأفضل أن نتحرك».

فقال هاري: «موافق». فيما أوقف جيل سيارة أجرة أخرى، وقال للسائق: «محطة وايفرلي». قبل أن يجلس على المقعد الخلفي. سأل هاري صديقه بإعجاب حين عادا إلى المحطة مجدداً: «أين تعلمت كل هذا؟».

«أتعرف يا هاري؟ يجب أن تقلل من قراءة جوزف كونراد، وتكثر من قراءة جون بوتشان إذا أردت أن تعرف أصول السفر في اسكوتلندا من دون أن يطارذك أحدهم».

الرحلة إلى مولجلري كانت أكثر بطئاً وأقل إثارة من الرحلة إلى إيدنبورغ، ولم يظهر أي أثر للرجل الأعرج. وعندما توقف المحرك أخيراً، ومعه المقطورات الأربع والراكبان، كانت الشمس قد اختفت وراء الجبال العالية. كان المسؤول عن المحطة واقفاً قرب المخرج للتحقق من البطاقات حين نزلا من آخر قطار في ذلك اليوم.

سأل جيل فيما سلما بطاقتيهما: «هل يمكننا إيجاد سيارة أجرة؟».

فأجاب المسؤول عن المحطة: «لا سيدي. يذهب جوك إلى منزله لشرب الشاي قرابة الساعة السادسة، ولن يعود قبل ساعة».

حاول جيل الاستفسار عن منطق تصرفات جوك من المسؤول عن المحطة، قبل أن يسأل: «إذاً، هل يمكنك من فضلك إخبارنا كيف يمكننا الوصول إلى قصر مولجلري».

فأجاب المسؤول عن المحطة: «عليكما أن تذهبا سيراً على الأقدام».

عندها سأل جيل محاولاً ألا يبدو يائساً: «في أي اتجاه؟».

أجاب الرجل: «إنه يبعد مسافة ثلاثة أميال تقريباً نحو الأمام». ثم أشار إلى الهضبة وتابع: «سوف تريانه حتماً».

تبين أن عبارة «نحو الأمام» كانت المعلومة الوحيدة الدقيقة التي أعطاهما إياها المسؤول عن المحطة؛ فبعد مرور ساعة تقريباً على سيرهما، حلّ الظلام الحالك ولم يظهر أي قصر.

عندها، بدأ جيل يتساءل عما إذا كانا سيمضيان أول ليلة لهما في هايلاندس وسط الحقول برفقة مجموعة من الخراف. وفي تلك اللحظة، صرخ هاري: «ها هو».

حذق جيل إلى الليل الضبابي، وعلى الرغم من عدم تمكنه من تحديد شكل القصر تحسنت معنوياته لمجرد رؤيته أضواء وامضة من نوافذ عدة. تابعا السير حتى وصلا إلى بوابة حديدية عملاقة غير مقفلة. وفيما شقا طريقهما عبر الممشى الطويل، سمع جيل صوت نباح، ولكنه لم يرَ أي كلاب. وبعد اجتياز مسافة ميل تقريباً، وصلا إلى جسر فوق بركة، وفي الطرف البعيد، رأيا باباً ضخماً من السنديان بدا وكأنه لا يرحب بالغرباء. قال جيل فيما مشيا على الجسر وتوقفا أمام الباب: «اترك لي أمر الكلام».

طرق جيل ثلاث مرات بطرف قبضة يده. وبعد لحظات قليلة، فُتح الباب كاشفاً عن رجل عملاق يرتدي تنورة وسترة داكنة وقميصاً أبيض ويضع ربطة عنق بيضاء.

نظر كبير الخدم إلى الولدين المنهكين الواقفين أمامه وقال: «مساء الخير يا سيد جيل». رغم أن جيل لم يكن قد رأى هذا الرجل من قبل

قط. «يتوقع سيدي وصولك منذ بعض الوقت، وهو يتساءل إذا كنت تريد الانضمام إليه لتناول العشاء».

جيل وهاري كليفتون في طريقهما إلى مولجيري. نقطة. يتوقع وصولهما قرابة السادسة. نقطة.

أعطى اللورد هارفي البرقية إلى جيل وقهقه بصوت عالٍ وهو يقول: «أرسلها صديقنا المشترك، «الكابتن» تارانت. لكن تبين أنه مخطئ في موعد وصولكما».

قال جيل فيما التهم الطعام: «توجب علينا القدوم من المحطة سيراً على الأقدام».

فقال اللورد هارفي: «نعم، فكرت في إرسال السيارة لاصطحابكما عند وصول آخر قطار، ولكن لا شيء أروع من المشي في هايلاند لفتح الشهية».

ابتسم هاري الذي بالكاد تحدث منذ جلوسهما لتناول العشاء. وبما أن إيما كانت جالسة في الطرف البعيد من الطاولة، اضطر إلى الاكتفاء بالنظر إليها بين الحين والآخر، متسائلاً عما إذا كان سيتم تركهما بمفردهما.

الطبق الأول كان عبارة عن حساء هايلاند المكثف، وقد أنهاه هاري بسرعة كبيرة. لكن، عندما أعاد جيل ملء طبقه، سمح هاري بإعادة ملء طبقه أيضاً. وكان هاري سيطلب إعادة ملء الطبق للمرة الثالثة لو لم

يتابع الجميع المحادثة المهذبة في انتظار إنهائهما- هو وجيل- الحساء قبل تقديم الطبق الرئيس.

قال اللورد هارفي: «لا داعي للقلق أبداً بشأن تساؤل الآخرين عن مصيركما، لأنني أرسلت برقيتين إلى السير والتر والسيدة كليفتون لطمأنتهما إلى أنكما بخير وبصحة جيدة. لكنني لم أتصل بوالدك يا جيل». أضاف جملته الأخيرة من دون أي تعليق إضافي، فنظر جيل عبر الطاولة ورأى أمه تزعم شفيتها.

بعد لحظات، فُتح بابا قاعة الطعام، ودخل عدد من الخدم لرفع أطباق الحساء، تلاهم ثلاثة خدم آخرون يحملون أطباقاً فضية عليها ست دجاجات صغيرة مثلما خمّن هاري.

قال اللورد هارفي: «أتمنى أن تحب طيور الإوز يا سيد كليفتون». وكان أول شخص يناديه بلقب سيد، فيما تم وضع طائر أمامه. «لقد اصطدتها بنفسني».

لم يستطع هاري التفكير في جواب ملائم، وراقب جيل فيما رفع هذا الأخير الشوكة والسكين وبدأ يقطع شرائح صغيرة من لحم الطائر، فتذكر حينها أول وجبة لهما معاً في مدرسة سانت بيد. بالكاد استطاع هاري تناول ثلاث لقم، وتساءل كم سيكون عمره عندما ينجح أخيراً في القول: «لا، شكراً. أفضل طبقاً آخر من الحساء».

تحسنت الأمور قليلاً عندما وُضع وعاء كبير مليء بفاكهة مختلفة لم يرها هاري من قبل وسط الطاولة. أراد أن يسأل مضيفه عن أسمائها والبلاد التي تأتي منها، ولكنه تذكر أول موزة تناولها في حياته، فتراجع عن قراره. اكتفى بأن يحذو حذو جيل، فراقبه عن كثب لمعرفة الفاكهة



الواجب تقشيرها، وتلك الواجب تقطيعها، وتلك التي يمكن قضمها ببساطة.

وعندما انتهى من تناول الفاكهة، ظهر خادم ووضع وعاء مليئاً بالماء قرب طبقه. كان هاري على وشك رفعه والشرب منه عندما رأى اللايدي هارفي تضع أصابعها في وعائها وتغسل يديها. وبعد لحظات، أعطاهما الخادم فوطة قماشية كي تجفف يديها. عندها، غمّس هاري أصابعه في الماء، ومثل السحر، ظهرت فوطة قماشية على الفور.

بعد العشاء، انسحبت السيدات إلى قاعة الرسم. أراد هاري الانضمام إليهن كي يبقى مع إيماء ويخبرها بكل ما حصل منذ أن سمّمت نفسها في المسرحية. لكن، ما إن غادرت الغرفة حتى عاود اللورد هارفي الجلوس، وكانت تلك إشارة إلى النادل ليقدّم لسيدة سيجاراً، فيما قام نادل آخر بسكب كأس من الشراب له.

وبعد أن ارتشف القليل منه أوماً برأسه، فتم وضع كأسين أمام جيل وهاري. أغلق كبير الخدم صندوق السيجار قبل أن يملأ كأسيهما بالشراب.

قال اللورد هارفي بعد أن سحب من سيجاره نفسين أو ثلاثة: «حسناً. فهمت أنكما تأملان بالذهاب إلى أوكسفورد؟».

قال جيل: «هاري في مأمن، أما أنا فيجدر بي تسجيل بعض الأهداف المهمة خلال الصيف، ولاسيما في المباراة النهائية؛ وذلك إذا قررت اللجنة الفاحصة عدم تجاهل نقاط ضعفي الجلية».

فقال هاري: «جيل متواضع يا سيدي. لديه فرصة كبيرة في الحصول على مكان في أوكسفورد؛ مثلي تماماً. ففي النهاية، ليس فقط «كابتن» الكريكت، وإنما أيضاً «كابتن» المدرسة».

«حسناً، إذا كنت ناجحاً، فأنا أؤكد لك أنك ستعيش أسعد ثلاث سنوات في حياتك. هذا على افتراض أن هتلر لن يكون أحقق كفاية حيث يكرر الحرب الأخيرة على أمل عكس النتيجة».

رفع الثلاثة كؤوسهم، وارتشف هاري الشراب للمرة الأولى. لم يحب طعمه، وكان يتساءل عما إذا كان مجبراً على إنهائه عندما أنقذه اللورد هارفي بقوله وقد أنهى كأسه:

«أعتقد أن الوقت قد حان للانضمام إلى السيدات». ثم وضع سيجاره على منفضة، ونهض من مكانه وخرج من غرفة الجلوس من دون أن ينتظر أي رأي آخر.

جلس اللورد هارفي بالقرب من إليزابيت، فيما غمز جيل هاري وذهب للانضمام إلى جدته. عندها، جلس هاري بالقرب من إيما على الأريكة.

قالت فيما لمست يده: «كم أنت نبيل لأنك اجتزت كل تلك المسافة يا هاري».

«أنا آسف جداً بشأن ما حصل بعد المسرحية. أتمنى فقط ألا أكون المسؤول عن المشكلة أساساً».

«كيف يمكن أن تكون المسؤول يا هاري؟! أنت لم تفعل أي شيء يدفع والدي إلى التحدث مع ماما بتلك الطريقة».

«لكن، ليس سراً أن والدك لم يحب فكرة تواجداً معاً؛ حتى على المسرح».

همست إِيما: «دعنا نتحدث في هذا الأمر صباح الغد. يمكننا القيام بنزهة طويلة في الهضاب والتواجد بمفردنا، حيث يسمعنا قطع الأغنام فقط».

فقال هاري: «أتطلع إلى ذلك». أراد الإمساك بيدها، ولكن العديد من العيون كانت تنظر إليهما باستمرار.

قالت اللايدي هارفي: «لا بد أنكما متعبان جداً أيها الشابان بعد تلك الرحلة المرهقة. لم لا تخلدان إلى النوم وسنراكما عند الفطور غداً؟».

لم يشأ هاري الخلود إلى السرير، بل أراد البقاء مع إِيما ومعرفة ما إذا كانت قد اكتشفت سبب معارضة والدها الشديدة لتواجدهما معاً. لكن جيل نهض على الفور، وقبّل جدته وأمه على وجنتيهما وتمنى للجميع ليلة سعيدة، حيث لم يترك أمام هاري أي خيار سوى الانضمام إليه. انحنى وقبّل إِيما على وجنتها، وشكر مضيفه على الأمسية الرائعة، ثم لحق بجيل إلى خارج الغرفة.

وفيما مشيا في الرواق، توقف هاري لتأمل لوحة لسلة فاكهة رسمها فنان يدعى بيلو. عندئذ، خرجت إِيما من الغرفة بسرعة، ووضعت ذراعيها حول عنقه، وقبّلته برفق على شفتيه.

تابع جيل صعود السلالم كما لو أنه لم ير شيئاً، فيما أبقى هاري عينيه على باب قاعة الرسم. هربت إِيما بسرعة عندما سمعت صوت الباب يفتح خلفها، وهمست: «عمت مساء، عمت مساء. الفراق صعب جداً».

أجاب هاري: «طاب مساؤك، وإلى الغد».

سألت إيزابيت بارينغتون فيما خرجت من قاعة الفطور: «ما الذي تفعلانه أنتما الاثنان؟».

أجابت إيما: «سوف نتسلق كراغ كوين. لا تنتظرينا؛ لأنك ربما لن ترينا أبداً مجدداً».

فضحكت أمها وقالت: «إذاً، احرصا على ارتداء ملابس سميكة؛ لأن الخراف أيضاً تصاب بالبرد في هايلاندس». انتظرت حتى أغلق هاري الباب خلفهما قبل أن تضيف: «جيل، يريد جدك رؤيتك في مكتبه عند الساعة العاشرة». رأى جيل في ذلك أمراً أكثر من كونه طلباً.

غير أنه قال: «حاضر ماما». نظر إلى خارج النافذة، وراقب هاري وإيما وهما يمشيان صوب كراغ كوين. اجتازا ياردات قليلة فقط قبل أن تمسك إيما بيد هاري. ابتسم جيل عندما استدارا عند المنعطف، واختفيا وراء صف من أشجار الصنوبر.

عندما بدأت الساعة ترنّ، أسرع جيل في الرواق للتأكد من الوصول إلى مكتب جده قبل الرنة العاشرة. توقّف جداه وأمه عن الحديث لحظة دخل الغرفة، وبدا جلياً أنهم بانتظاره.

قال جده: «اجلس يا بني العزيز».

أجاب جيل: «شكراً سيدي». وجلس على كرسي بين أمه وجدته.

قال اللورد هارفي: «أعتقد أنه يمكن وصف هذا بمجلس الحرب». فيما نظر إلى الأعلى من حيث يجلس على كرسيه الجلدي كما لو أنه في

اجتماع مجلس الإدارة. «سأحاول إطلاع الجميع على سير الأمور قبل تقرير الخطوات الواجب اتخاذها». شعر جيل بالإطراء لأن جده اعتبره الآن عضواً ناضجاً من مجلس العائلة.

«اتصلت بوالتر في الليلة الماضية. كان مصدوماً من تصرف هوغو أثناء عرض المسرحية تماماً مثلما صدمتُ عندما أخبرتني إيزابيت بما حصل؛ رغم أنه توجب عليّ إخباره بما حصل عندما عادت إلى مانور هاوس». أحت والددة جيل رأسها، ولكنها لم تقاطع كلام والدها. «أخبرته أنني تحدثت مع ابنتي مطولاً، وأنا أدركنا وجود حلين فقط».

تراجع جيل على كرسيه، ولكن من دون أن يسترخي.

«أوضحت لوالتر أنه إذا فكرت إيزابيت في العودة إلى مانور هاوس، فمن الضروري أن يتنازل هوغو عن أمور عدة. عليه أولاً الاعتذار عن سلوكه المشين».

فأومات جدة جيل مؤيدة زوجها.

«ثانياً، لن يقترح أبداً، وأصرّ على كلمة أبداً، أن تترك إيمها مدرستها. وعليه في المستقبل القريب أن يدعم جهودها لتحصل على مكان لها في أوكسفورد. الله يعلم كم يصعب على شاب الحصول على شهادة في هذه الأيام، لكن الأمر مستحيل تقريباً بالنسبة إلى امرأة».

أما طلبي الثالث والأكثر أهمية، وأنا مصرّ تماماً على ذلك، فهو أن يشرح لنا جميعاً سبب استمراره في معاملة هاري كليفتون بهذه الطريقة الفظة. أعتقد أن للأمر علاقة بالسرقة التي قام بها خال هاري. خطايا الأب مختلفة، فيما الخال... أرفض قبول فكرته- التي قالها غالباً لإيزابيت- وهي أنه يعتبر كليفتون غير جدير بالاختلاط مع أولاده لأن

والده كان عاملاً في أحواض السفن وأمه مجرد نادلة. ربما نسي هوغو أن جدي كان موظفاً عادياً في شركة لبيع الشراب، فيما ترك جده المدرسة في عمر الثانية عشرة وبدأ بالعمل في أحواض السفن تماماً مثل والد الشاب كليفتون. وفي حال نسي أحدهم، فأنا أول لورد هارفي في هذه العائلة».

أراد جيل الهتاف، غير أن اللورد هارفي تابع قائلاً: «والآن، لاحظنا جميعنا الشعور المتبادل بين إيما وهاري، وهذا ليس مفاجئاً؛ لأنهما شابان استثنائيان. وإذا تعززت علاقتهما مع مرور الوقت، فسنكون أنا وفيكتوريا فرحين جداً. وفي هذا الموضوع، وافقني والتر الرأي».

ابتسم جيل، فقد أحب فكرة أن يصبح هاري فرداً من العائلة؛ رغم تيقّنه من رفض والده للفكرة.

تابع الجد كلامه: «أخبرت والتر أنه إذا شعر هوغو بأنه عاجز عن الالتزام بهذه الشروط، فلن يبقى أمام إليزابيث أي خيار سوى طلب الطلاق على الفور. وسأضطر أيضاً إلى الاستقالة من مجلس أمناء شركة بارينغتون، وسأعلن عن أسبابي أمام الجميع».

حزن جيل كثيراً؛ لأنه عرف أنه لم يسبق أن حصل أي طلاق في كلتا العائلتين.

«وافق والتر على معاودة الاتصال بي في الأيام القليلة المقبلة، بعد أن تتاح له الفرصة لمراجعة الأمور مع ابنه. ولكنه أخبرني أن هوغو قد وعده أصلاً بالتوقف عن تناول الشراب، وأنه يبدو نادماً جداً. دعوني أنهي كلامي بالتذكير بأن هذه المسألة عائلية، ويجب ألا تتم مناقشتها مع الغرباء؛ مهما كانت الظروف. نأمل أن يكون هذا مجرد حادث مؤسف سوف ننساه قريباً».

في صباح اليوم التالي، اتصل والد جيل وطلب التحدث إليه. اعتذر كثيراً، وأخبره كم هو آسف لأنه لأمه على أمر يتحمل خطأه شخصياً، وتوسّل إليه كي يبذل كل ما بوسعه لإقناع أمه وإيها بالعودة إلى غلاوسسترشاير كي يُضوا الكريسمس معاً في مانور هاوس. وأمل أيضاً أن يتم نسيان هذه الحادثة بسرعة، مثلما اقترح حموه. غير أنه لم يأتِ على ذكر هاري كليفتون على الإطلاق.

بعد أن نزلوا من القطار في تمبل ميدز، انتظر جيل وأمه في السيارة فيما ودّعت إيما هاري.

قال جيل: «لقد أمضيا الأيام التسعة الماضية معاً. هل نسيا أنهما سيريان بعضهما بعضاً مجدداً يوم غد؟».

فقالت والدة جيل: «وفي اليوم الذي بعده ربما. لكن، حاول ألا تنسى أن الأمر قد يحصل معك أيضاً في يوم ما؛ وإن بدا الأمر مستبعداً». في النهاية، انضمت إيما إليهما. لكن، بعد أن انطلقت السيارة، استمرت في النظر من النافذة الخلفية، ولم تتوقف عن التلويح إلا بعد أن غاب هاري عن نظرها.

تحرّق جيل للعودة إلى المنزل ليكتشف أخيراً ما فعله هاري حتى يعامله والده بهذه الفظاظة على مرّ الأعوام. لن يكون الأمر أسوأ من سرقة متجر الحلويات في المدرسة، أو الرسوب عمداً في الامتحانات. ففكر في عشرات الاحتمالات، لكنّ أياً منها لم يكن منطقياً. أمل أن يعرف الحقيقة الآن. نظر إلى أمه التي نادراً ما كانت تكشف عن عواطفها، ولكن بدا جلياً أنها أصبحت أكثر اضطراباً مع اقترابهم من تشو فالي.

كان والد جيل واقفاً على الدرجة العلوية في انتظارهم عندما توقفت السيارة أمام المنزل. لا أثر لجنكينز. اعتذر من إليزابيت على الفور، وبعدها اعتذر من الولدين قبل أن يخبرهم كما اشتاق إليهم.



ثم قال: «الشاي جاهز في قاعة الرسم. انضموا إليّ من فضلكم ما إن تصبحوا جاهزين».

كان جيل أول من نزل إلى الأسفل وجلس على الكرسي المقابل لوالده. وفيما انتظرا انضمام أمه وإيما إليهما، اكتفى والد جيل بسؤاله عن كيفية استمتاعه في اسكوتلندا، وشرح له أن المربية أخذت غرايس إلى بريستول لتشتري لها بذلتها المدرسية. لم يذكر هاري على الإطلاق. وعندما دخلت والدة جيل وأخته الغرفة بعد دقائق قليلة، سكب الشاي لهم جميعاً. بدا جلياً أنه لا يريد أن يسمع الخدم ما يريد قوله. وبعد أن استقر الجميع في أماكنهم، جلس والد جيل على حافة مقعده وبدأ كلامه بهدوء:

«دعوني أبدأ بالقول لكم جميعاً كم كان سلوكي غير مقبول ليلة ما اعتبره الجميع انتصاراً عظيماً لإيما. لا شك في أن عدم وجود والدك أثناء إسدال الستارة كان سيئاً يا إيما»، ونظر إلى ابنته مباشرة ثم تابع: «لكن طريقة معاملتي لوالدتكما حين عدتم إلى المنزل تلك الليلة ليست مقبولة إطلاقاً. وأدرك جيداً أنه قد يمرّ بعض الوقت قبل أن يشفى ذلك الجرح العميق».

وضع هوغو بارينغتون رأسه بين يديه، ولاحظ جيل أنه كان يرتجف، ثم نجح أخيراً في تمالك أعصابه.

«لقد سألتكم جميعاً، ولأسباب مختلفة، عن سبب معاملتي هاري كليفتون بهذا السوء على مرّ الأعوام. صحيح أنني لا أستطيع تحمل وجوده، ولكنني المسؤؤل عن كل ذلك. وحين تعرفون السبب، قد تتفهمون سلوكي ذاك، وربما تتعاطفون معي».

نظر جيل إلى أمه التي كانت جالسة على كرسيها متصلبة. لا مجال أبداً لمعرفة شعورها.

تابع بارينغتون كلامه قائلاً: «قبل أعوام عديدة، حين أصبحت المدير التنفيذي للشركة، أقنعت مجلس الإدارة بضرورة إنشاء فرع لتشييد السفن، بالرغم من تحفظات والدي. وقّعت عقداً مع شركة كندية لتشييد سفينة تجارية اسمها «مابل ليف». اتضح لاحقاً أن ذلك المشروع لم يكن فقط كارثة مالية للشركة، وإنما أيضاً كارثة شخصية لي لم أتعاف منها قط، وأشك في أنني سأفعل ذلك يوماً. دعوني أشرح لكم.

بعد ظهر أحد الأيام، طرق أحد عمال أحواض السفن باب مكنتي، وأصرّ على أن زميله في العمل قد علق داخل بدن سفينة «مابل ليف»، وأني إذا لم أعطِ الأمر بفتح بدن السفينة فسيخسر الرجل حياته. بطبيعة الحال، نزلت إلى حوض السفن على الفور، فأكد لي المسؤول عن العمال أن القصة غير حقيقية أبداً. لكنني أصررت على أن يضع الرجال معداتهم أرضاً كي نحاول سماع أي صوت قد يصدر من داخل بدن السفينة. انتظرت لبعض الوقت، ولم يصدر أي صوت، فأعطيت الأمر للعمال بمتابعة عملهم، لاسيما وأنا كنا متأخرين أسابيع عدة عن موعد التسليم.

افتترضت أن العامل المعني سيأتي إلى عمله الاعتيادي في اليوم التالي، ولكنه لم يأت، ولم يظهر مجدداً قط. واحتمال موته يقض مضجعي منذ ذلك الحين». صمت قليلاً، ثم رفع رأسه وقال: «ذلك الرجل كان آرثر كليفتون، وهاري هو ابنه الوحيد».

بدأت إيماء تبكي.

«أريدكم أن تتخيلوا- إذا كان بوسعكم ذلك- ما ينتابني من مشاعر عندما أرى الشاب، وكيف سيشعر هو حين يكتشف أنني ربما كنت المسؤول عن موت والده. أصبح هاري كليفتون الصديق المقرب لابني جيل، ووقع في غرام ابنتي، وهذه ذروة المأساة».

وضع رأسه بين يديه مجدداً، ولم يتحدث لبعض الوقت، وعندما نظر إلى الأعلى أخيراً قال: «إذا كنت ترغبون في طرح أي أسئلة عليّ، فسأبذل ما بوسعي للإجابة عنها».

انتظر جيل كي تتحدث أمه أولاً، فسألته إيزابيت بهدوء: «هل كنت مسؤولاً عن إرسال رجل بريء إلى السجن بسبب جريمة لم يرتكبها؟».

أجاب بارينغتون: «لا يا عزيزتي. أتمنى أن تعرفي جيداً أنني لا أستطيع القيام بمثل هذا العمل. كان ستان تانكوك سارقاً معروفاً، وقد اقتحم مكتبي وسرقني. وبما أنه شقيق زوجة آرثر كليفتون، أعدته إلى عمله يوم تم إطلاق سراحه من السجن». عندها، ابتسمت إيزابيت للمرة الأولى.

قال جيل: «بابا، أتساءل إذا كان بوسعي طرح سؤال».

«نعم، طبعاً».

«هل طلبت من أحدهم ملاحقتنا، أنا وهاري، عندما سافرنا إلى اسكوتلندا؟».

«نعم يا جيل. أردت معرفة مكان تواجد أمك وإيما كي أعتذر منهما على سلوكي المشين. أرجوكم سامحوني».

استدار الجميع صوب إِيها التي لم تكن قد تحدثت بعد. وعندما فعلت، تفاجأ الجميع بكلماتها، فقد قالت بهمس: «عليك أن تخبر هاري بكل ما أخبرتنا إياه للتو. وإذا سامحك، فعليك الترحيب به في عائلتنا».

«سأفرح كثيراً بالترحيب به في عائلتنا يا حبيبتى، لكن علينا أن نستوعب في حال رفض التحدث إليّ مجدداً. لكنني لا أستطيع إخباره الحقيقة بشأن ما حصل مع والده».

سألت إِيها: «ولمَ لا؟».

«لأن والدة هاري أوضحت أنها لا تريد أن يكتشف ابنها كيف مات والده؛ إذ ترعرع على الاعتقاد بأن والده كان رجلاً شجاعاً قتل في الحرب. ولغاية هذه اللحظة، وفيثُ بوعدى ولم أكشف لأحد عما حصل في ذلك اليوم المرعب».

نهضت إيزابيت بارينغتون، وتوجّهت صوب زوجها وقبّلتها، فانهار بارينغتون وانفجر باكياً. بعد قليل، انضم جيل إلى والديه، ووضع ذراعه حول كتفي والده.

غير أنّ إِيها لم تتحرك.

قال جيل: «هل والدتك جميلة هكذا على الدوام؟ أم أنني تقدمت في العمر؟».

أجاب هاري: «لا أعرف. كل ما أستطيع قوله هو أن أمك تبدو دائماً أنيقة جداً».

فقال جيل: «بقدر ما أحب تلك المرأة العزيزة، إلا أنها تبدو مختلفة جداً بالمقارنة مع أمك». في تلك الأثناء، توجهت صوبهما إليزابيث بارينغتون وهي تحمل مظلة في إحدى يديها وحقبة في اليد الأخرى.

كان جيل - تماماً مثل أي ولد آخر - يخشى الملابس التي قد ترتديها أمه. وبالنسبة إلى خيار القبعات، كان الأمر أسوأ من أسكوت، حيث حاولت كل أم وابنتها التفوق على الأخريات.

نظر هاري ملياً إلى أمه التي كانت تتحدث إلى الدكتور باجيه. عليه الاعتراف بأنها لفتت الانتباه أكثر من معظم الأمهات، فشعر بالقليل من الإحراج. لكنه فرح لأنها لم تعد قلقة بشأن الأمور المادية، وافترض أن الرجل الواقف إلى يمينها له علاقة بذلك.

شعر بالكثير من الامتنان للسيد أتكينز، ولكنه لم يحبذ فكرة أن يصبح زوج أمه. لقد كان السيد بارينغتون مفرطاً في حماية ابنته، ولكن هاري لا يستطيع إنكار أنه يشعر بالشيء نفسه حيال أمه.

أخبرته أمه مؤخراً أن السيد فرامبتون مسرور جداً بعملها في الفندق، وأنه منحها ترقية لتصبح المشرفة الليلية مع علاوة مادية

إضافة. وهكذا، لم يعد هاري مضطراً إلى الانتظار كي يصبح سرواله قصيراً جداً قبل أن يشتري غيره. لكنه تفاجأ حين لم تعلق على كلفة سفره إلى روما مع جمعية تقدير الفنون.

قالت السيدة بارينغتون: «كم أنا مسرورة برؤيتك يا هاري، اليوم يوم انتصارك. ستحصل على جائزتين إذا كنت أذكر جيداً. أنا آسفة لأن إيما لم تستطع التواجد معنا للمشاركة في فرحتك. لكن مثلما قالت الأنسة ويب، لا تستطيع تلميذتها أخذ يوم إجازة لحضور حفل تخرج؛ حتى لو كان أخوها «كابتن» المدرسة».

جاء السيد بارينغتون للانضمام إليهم، وراقب جيل والده جيداً فيما صافح هاري. بدا جلياً افتقاد تصرف والده إلى الدفء؛ على الرغم من بذله كل جهد ممكن لإخفاء الأمر.

سأل بارينغتون: «متى تتوقع سماع ردّ من أوكسفورد يا هاري؟»  
«خلال الأسبوع المقبل يا سيدي».

«أنا واثق من أنك ستحصل على مكان لك هناك؛ رغم أنني لست واثقاً جداً بشأن جيل».

فقال هاري: «لا تنس أنه نال مجده أيضاً».

عندها قالت السيدة بارينغتون: «لا أذكر ذلك».

«أعتقد أن هاري يشير إلى الهدف الذي سجلته في المباراة النهائية ماما».

وقال والده: «صحيح أن ذلك الأمر رائع، لكنني لا أرى كيف يمكنه أن يساعدك في الدخول إلى أوكسفورد».

قال جيل: «أوافقك الرأي بابا لو لم يكن أستاذ التاريخ جالساً قرب رئيس نادي الكريكت آنذاك».

اختفت الضحكة التي تلت ذلك بفعل صوت الأجراس. وبدأ الصبيان يتحركون بسرعة في اتجاه القاعة الكبرى، ولحق بهم أهلهم. جلس جيل وهاري بين التلاميذ المفوضين والفائزين بالجوائز في الصفوف الأمامية الأولى.

قال هاري: «هل تذكر أول يوم لنا في سانت بيد عندما جلسنا جميعاً في الصف الأمامي مذعورين من الدكتور أوكشوت؟».

فأجاب جيل: «لم أخف من أوكشوت على الإطلاق».

قال هاري: «لا، طبعاً لم تخف».

«لكنني أذكر أول صباح لنا، عندما نزلنا لتناول الفطور وقمت بلعق وعاء العصيدة».

همس هاري: «وأذكر أنك أقسمت على عدم ذكر الأمر أبداً».

أجاب جيل من دون همس: «وأعدك أنني لن أفعل مجدداً. ما اسم ذلك الولد المتنمر الذي صفحك في أول ليلة لنا؟».

قال هاري: «فيشر، وقد حصل ذلك في ليلتنا الثانية هناك».

«أتساءل عن مكانه الآن».

«إنه يدير ربما مخيماً للشباب النازيين».

قال جيل: «هذا سبب جيد للذهاب إلى الحرب». في تلك الأثناء، وقف جميع من في القاعة للترحيب برئيس مجلس الإدارة والأعضاء كافة.

شقت مجموعة من الرجال طريقهم ببطء في الممر الوسطي للوصول إلى المنصة. كان المدير، السيد بارتون، آخر من جلس في مكانه، ولكن ليس قبل أن يدعو ضيف الشرف للجلوس على الكرسي الوسطي في الصف الأمامي.

وبعد أن جلس الجميع، نهض المدير للترحيب بالأهل والضيوف، قبل إلقاء التقرير السنوي للمدرسة. بدأ بوصف العام 1938 بالعام المميز، واستمر في خطابه طوال عشرين دقيقة، عارضاً بالتفصيل الإنجازات الأكاديمية والرياضية للمدرسة. ثم أنهى خطابه بدعوة السيد وينستون تشرشل - رئيس جامعة بريستول وعضو البرلمان - لإلقاء كلمته وتقديم الجوائز.

نهض السيد تشرشل من مكانه ببطء، وحدّق إلى الجمهور لبعض الوقت قبل أن يبدأ بالكلام:

«يبدأ بعض ضيوف الشرف خطابهم بالقول لجمهورهم إنهم لم يربحوا قط أي جوائز حين كانوا في المدرسة، لا بل إنهم كانوا دوماً من أسوأ التلاميذ؛ غير أنني لا أستطيع قول ذلك. فصحيح أنني لم أربح يوماً أية جائزة، لكنني لم أكن يوماً من أسوأ التلاميذ، بل تقريباً كنت مثلهم». هتف الأولاد وضحكوا، فيما ابتسم الأساتذة. وحده ديكنز لم يتأثر.

وبعد أن هدأ الضحك، تابع تشرشل كلامه: «تواجه أمتنا اليوم مرحلة من أهم المراحل في التاريخ. إذ قد يُطلب من الشعب البريطاني مجدداً تقرير مصير العالم الحرّ. إن العديد من الأشخاص الموجودين هنا الآن في هذه القاعة الكبرى...» وأخفض صوته وركّز انتباهه على صفوف التلاميذ الجالسين أمامه، من دون أن ينظر أبداً في اتجاه أهلهم، ثم تابع:



«أولئك الذين عاشوا الحرب الكبرى لن ينسوا أبداً الخسارة الكبيرة في الأرواح التي منيت بها أمتنا، والتأثير الذي حصل في جيل كامل. فمن بين الأولاد العشرين الذين كانوا في صفي في هارو وذهبوا للقتال في الصفوف الأمامية، بقي ثلاثة منهم فقط على قيد الحياة للإدلاء بأصوتهم في الانتخابات. أتمنى أن الشخص الذي سيلقي هذا الخطاب بعد عشرين سنة لن يصف هذه المرحلة البربرية والمبددة للحياة بالحرب العالمية الأولى. وعلى هذا الأمل، أتمنى لكم جميعاً حياة طويلة وسعيدة وناجحة».

كان جيل من بين الأوائل الذين وقفوا وشفقوا لضيف الشرف فيما عاد إلى مكانه. إذ شعر أنه إذا لم يعد أمام بريطانيا أي خيار سوى الذهاب إلى الحرب، فسيكون هذا الرجل هو الوحيد المؤهل ليصبح رئيساً للوزراء. وبعد أن جلس الجميع في أماكنهم مجدداً بعد دقائق قليلة، دعا مدير المدرسة السيد تشرشل لتقديم الجوائز.

هتف جيل وهاري بصوت عالٍ عندما أعلن السيد بارتون أن ديكنز أفضل تلميذ لهذا العام، ثم أضاف: «تلقيت هذا الصباح برقية من رئيس كلية باليول في جامعة أوكسفورد يقول لي فيها إن ديكنز قد حصل على منحة التلاميذ المتفوقين». وتابع السيد بارتون كلامه بعد فترة صمت قصيرة: «يمكنني القول إنه أول صبي يحقق مثل هذا التميز في تاريخ المدرسة الممتد على مدى أربعمئة عام».

وقف جيل وهاري على الفور، فيما توجه صبي طوله ست أقدام وإنشان، يضع نظارة كبيرة ويرتدي بذلة فضفاضة جداً عليه صوب المنصة. أراد السيد ديكنز القفز فرحاً والتقاط صورة لابنه وهو يستلم الجائزة من السيد تشرشل، ولكنه لم يفعل ذلك خشية أن يتم توبيخه.

وحظي هاري بتصفيق حارٍ عندما نال جائزة اللغة الإنكليزية، وكذلك جائزة أفضل قارئ في المدرسة، وأضاف المدير: «لن ينسى أي منا أداءه دور روميو. فلنأمل أن يكون هاري من الأشخاص الذين سيتلقون برقية في الأسبوع المقبل تفيد بحصوله على مكان في أوكسفورد».

عندما قدّم السيد تشرشل الجائزة لهاري، همس له: «لم أذهب إلى الجامعة قط. ليتني فعلت. فلنأمل أن تستلم البرقية يا كليفتون بالتوفيق».

قال هاري: «شكراً لك يا سيدي».

لكن الهمّات الأكبر حظي به جيل بارينغتون عندما استلم جائزة المدير لكونه «كابتن» المدرسة و«كابتن» الكريكت. تفاعلاً ضيف الشرف كثيراً حين رأى رئيس مجلس الأمناء ينهض من مكانه ويصافح جيل قبل أن يصل إلى السيد تشرشل.

عندها، شرح السير والتر بفخر شديد: «إنه حفيدي يا سيدي». فابتسم تشرشل، وصافح جيل، ونظر إليه قائلاً: «أحرص على خدمة وطنك بالتميز نفسه الذي خدمت به مدرستك».

وفي تلك اللحظة، عرف جيل بالضبط ما الذي سيفعله إذا خاضت بريطانيا الحرب.

عند انتهاء الحفل، نهض التلاميذ والأهل والأساتذة لإنشاد كارمن بريستولينسي.

بعد انتهاء النشيد، رافق مدير المدرسة ضيف الشرف وموظفيه إلى خارج القاعة، ووقفوا تحت شمس ما بعد الظهر. بعد لحظات، خرج الجميع إلى المرج الأخضر لتناول الشاي، وأحيط ثلاثة شبان تحديداً بالمهنيين، بالإضافة إلى مجموعة من الفتيات اللواتي رأين جيل «ظريفاً جداً».

قالت والدة هاري وهي تعانقه: «إنه أروع يوم في حياتي».

وقال العجوز جاك وهو يصافح هاري: «أعرف شعورك يا سيدة كليفتون. أتمنى لو أن الآنسة مانداي عاشت كفاية لرؤيتك اليوم؛ لأنني لا أشك أبداً في أنها كانت ستعتبر هذا اليوم أيضاً أسعد يوم في حياتها».

وقف السيد هولكومب جانباً، وانتظر بصبر ليتمكن من تقديم تهنئته. عرفه هاري على «الكابتن» تارانت، غير مدرك أنهما صديقان قديمان.

وعندما توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ورحل المهنيون، جلس جيل وهاري وديكنز على العشب، وتحسروا على الماضي؛ إذ لم يعودوا تلاميذ مدرسة.

وصلت برقية إلى غرفة هاري بعد ظهر يوم الخميس، فانتظر جيل وديكنز بصبر كي يفتحها، ولكنه أعطى جيل المغلف البني الصغير ليفتحه. قال جيل وهو يمزق المغلف: «ها أنت تحمّلي المسؤولية مجدداً». لم يستطع إخفاء دهشته عندما قرأ محتوى البرقية،

وقال مصدوماً: «لقد فشلت...» انهار هاري على كرسيه، فتابع جيل كلامه: «... في الحصول على منحة دراسية، لكن يسرنا أن نقدم لك إعانة مالية في كلية برازنوز في أوكسفورد. تهانينا. انتظر منا التفاصيل في الأيام القليلة المقبلة. و. ت. س. ستاليراس، المدير. ليس الأمر سيئاً، لكنك لن تكون في صف ديكنز».

فقال هاري: «وفي أي صف ستكون أنت؟». لكنه ندم فوراً ما إن تفوه بكلماته.

«الأول فاز بمنحة دراسية، والثاني فاز بإعانة مالية».

صحّ له ديكنز: «مساعدة مالية».

غير أن جيل تابع كلامه متجاهلاً صديقه: «والثالث طالب عادي يدفع نفقاته. هذا تناغم جميل».

وصلت إحدى عشرة برقية أخرى إلى التلاميذ الناجحين من مدرسة القواعد في بريستول في ذلك اليوم، لكن لم تصل أية برقية إلى جيل بارينغتون.

قال جيل حين ذهبوا إلى القاعة لتناول العشاء: «يجدر بك إبلاغ أمك؛ فهي لم تنم ربما طوال الأسبوع بسبب قلقها».

عندها، نظر هاري إلى ساعته ثم قال: «لقد تأخر الوقت كثيراً. ستكون قد غادرت إلى عملها الآن. لن أتمكن من إخبارها قبل صباح الغد».

فقال جيل: «لم لا تذهب وتفاجئها في الفندق حيث تعمل؟».

«لا أستطيع فعل ذلك. فهي ترى أنه من غير اللائق مقاطعتها أثناء عملها، ولا أستطيع أن أكون استثناء لذلك». فيما لوح بالبرقية.

فألح جيل: «لكن، ألا تظن أن لديها الحق في أن تعرف؟ ففي النهاية، لقد ضحّت بكل شيء من أجلك. بصراحة، لو حصلت على مكان في أوكسفورد، لقاطعت ماما حتى لو كانت تلقي خطاباً أمام الجماهير. ألا توافقني الرأي يا ديكنز؟».

نزع ديكنز نظارته وبدأ ينظفها بمنديل؛ وهذا دليل على أنه غارق في تفكير عميق، ثم قال: «اسأل باجيه عن رأيه، وإذا لم يعارض...»

فقال جيل: «فكرة جيدة. فلنذهب لنرى باجيه».

سأل هاري: «هل ستأتي يا ديكنز؟». ولكنه لاحظ حينها أن نظارة ديكنز قد عادت إلى طرف أنفه، وهذا دليل على أنه انتقل إلى عالم آخر.

قال الدكتور باجيه بعد أن قرأ البرقية: «ألف مبروك. تستحق ذلك برأيي».

فقال هاري: «شكراً لك يا سيدي. أتساءل إذا كان بوسعي الذهاب إلى فندق رويال لإطلاع أمي على الخبر».

«لا أرى سبباً يحول دون ذلك يا كليفتون».

فسأل جيل ببراءة: «هل أستطيع مرافقته؟».

تردد باجيه قليلاً ثم قال: «نعم، يمكنك مرافقته يا بارينغتون. لكن، لا تفكرا في تناول الشراب أو التدخين أثناء وجودكما في الفندق».

«ولا العصير يا سيدي؟».

فأجاب باجيه بصرامة: «لا يا بارينغتون. ولا حتى خل التفاح».

خرج الشابان من بوابة المدرسة، ومراً أمام عامل كان يحاول إنارة مصباح. تحدثا عن الإجازة الصيفية؛ عندما سينضم هاري إلى عائلة جيل في توسكانة للمرة الأولى، واتفقا على ضرورة العودة في الوقت المناسب لرؤية الأستراليين حين يلعبون مع غلاوسسترشاير في الملعب الريفي. ناقشا إمكانية- أو حسب رأي هاري: احتمال- إعلان الحرب بعد أن تم تزويد الجميع بأقنعة الغاز. لكن، لم يتطرق أي منهما إلى موضوع آخر شغل بال الاثنين معاً: هل سينضم جيل إلى هاري وديكنز في جامعة أوكسفورد في شهر سبتمبر؟

لدى اقترابهما من الفندق، فكّر هاري مجدداً في مقاطعة والدته أثناء عملها، لكن جيل كان قد دخل عبر الباب الدوار ووقف في الردهة بانتظاره.

قال جيل عندما انضم إليه هاري: «سيستغرق الأمر دقيقتين فقط. انقل إليها الخبر الجميل، ويمكننا بعد ذلك العودة إلى المدرسة فوراً».

فأوماً هاري برأسه.

سأل جيل البواب عن مكان بلم كورت، فتم إرشاده إلى مساحة مرتفعة في طرف الردهة. وبعد أن صعد نصف دزينة من الدرجات، توجه جيل صوب المكتب وسأل عاملة الاستقبال بصوت منخفض: «هل يمكننا التحدث قليلاً مع السيدة كليفتون؟».

فسأته الفتاة مستغربة: «السيدة كليفتون! هل حجزت هنا؟». ومرت إصبعها فوق لائحة الحجوزات.

فأجاب جيل: «لا. إنها تعمل هنا».

قالت الفتاة: «أوه، أنا جديدة هنا. لكن سأسأل إحدى النادللات؛ إذ يفترض بهن أن يعرفن الجواب».

«شكراً لك».

بقي هاري على الدرجة السفلية، فيما بحثت عيناه عن أمه.

سألت عاملة الاستقبال نادلة كانت تمر من أمامها: «هاتي، هل تعمل السيدة كليفتون هنا؟».

«لم تعد تعمل هنا. فقد غادرت قبل بضعة أعوام، ولم نسمع منها أي خبر منذ ذلك الحين». كان الجواب فورياً.

فقال هاري فيما انضم إلى صديقه ووقف قربه: «لا بد من وجود خطأ ما».

عندها، سأل جيل النادلة بصوت منخفض: «هل لديك فكرة عن المكان الذي يمكننا إيجادها فيه؟».

فأجابت هاتي: «لا. لكن يمكنك التحدث مع دوغ، الحاجب الليلي، فهو يعمل هنا منذ زمن طويل».

قال جيل: «شكراً لك». ثم استدار صوب هاري وأضاف: «لا بد من وجود تبرير بسيط. لكن، إذا كنت تفضل ترك...»  
«لا. دعنا نرى إذا كان دوغ يعرف مكانها».

مشى جيل ببطء صوب مكتب الحاجب، مانحاً هاري الوقت الكافي لتبديل رأيه، لكن هذا الأخير لم يتفوه بكلمة. «هل أنت دوغ؟». سأل رجلاً يرتدي معطفاً أزرق قديماً ذا أزرار غير لماعة.

فأجاب الرجل: «نعم سيدي. كيف أستطيع مساعدتك؟».

«إننا نبحث عن السيدة كليفتون».

«لم تعد مايزي تعمل هنا يا سيدي. لقد تركت العمل قبل أعوام عدة».

«هل تعرف أين تعمل الآن؟».

«لا أعرف يا سيدي».

عندها، رفع جيل محفظة نقوده، وأخرج منها نصف كراون ووضعها على الرف. نظر الحاجب إلى النقود لبعض الوقت قبل أن يتحدث مجدداً: «يحتمل أن تجدها في ملهى أيدي الليلي».

فسأله هاري: «أتعني أيدي أتكينز؟».

«نعم، سيدي».

عندها قال هاري: «حسناً، الآن فهمت. وأين يقع ذلك الملهى؟».

أجاب الحاجب: «في ويلش باك». فيما وضع النقود في جيبه.



غادر هاري الفندق من دون أية كلمة أخرى، وجلس على المقعد الخلفي في سيارة أجرة، فجلس جيل قربه. قال جيل وهو ينظر إلى ساعته: «ألا تظن أنه يجدر بنا العودة إلى المدرسة؟ يمكنك إخبار أمك في الصباح».

هزّ هاري رأسه رافضاً اقتراح صديقه، وقال له: «أنت من قلت إنك ستقاطع أمك حتى لو كانت تلقي خطاباً أمام الجماهير». ثم أضاف بصرامة: «ملهى إيدي الليلي في ويلش باك من فضلك».

لم يتحدث هاري خلال الرحلة القصيرة. وعندما انعطفت السيارة صوب طريق مظلم وتوقفت أمام ملهى إيدي، خرج من السيارة وتوجّه صوب المدخل.

طرق هاري على الباب بقوة، ففتّح الباب قليلاً، وحدقت عينان إلى الشابين، ثم قال الرجل: «رسم الدخول هو خمسة شلنات للشخص الواحد». عندها، دفع جيل ورقة عشرة شلنات عبر الفتحة الصغيرة، ففتّح الباب على الفور.

نزلا على سلم مضاء بأنوار خفيفة للوصول إلى الطابق السفلي. رآها جيل أولاً فاستدار بسرعة للمغادرة، لكن الأوان كان قد فات. فقد كان هاري يحدق إلى صف من الفتيات الجالسات على مقاعد خشبية. بعضهن كنّ يتحدثن مع الرجال، فيما بعضهن الآخر يتحدثن في ما بينهنّ. اقتربت منهن واحدة ترتدي كنزة بيضاء شفافة وسترة جلدية سوداء قصيرة وجوربين أسودين وقالت: «هل أستطيع مساعدتكما؟».

تجاهلها هاري، واستقرت عيناه على امرأة تجلس في الطرف البعيد من المقهى، وتصغي جيداً إلى رجل متقدم في السن وضع يده على

فخذها. نظرت الفتاة لترى إلى من يحدق، ثم قالت: «عليّ الاعتراف بأن الأنيق يلفت النظر على الدوام. لكن، دعني أذكرك بأن مايزي قد تكون نيّقة».

استدار هاري وصعد الدرج بسرعة، ثم فتح الباب وركض إلى الشارع، فيما لحق به جيل. وعندما أصبح هاري على الرصيف، ركع على ركبتيه وهو يشعر بالغثيان. عندها، ركع جيل ووضع ذراعه حول صديقه محاولاً مواساته.

كان هناك رجل يقف في الظل في الطرف الآخر من الطريق، وسرعان ما اختفى بعيداً وهو يعرج.

## إمّا بارینختون 1939-1932

لن أنسى أول مرة رأيته فيها.

جاء لتناول الشاي في مانور هاوس للاحتفال بذكرى ميلاد أخي الثانية عشرة. كان هادئاً جداً ومتحفظاً جداً، حيث تساءلت عن كيفية تمكنه من أن يصبح الصديق المفضل لدى جيل. أما الولد الآخر، ديكنز، فكان غريباً فعلاً. إذ لم يتوقف عن الأكل قط، وبالكاد تفوه بكلمة طوال فترة بعد الظهر.

ثم تحدث هاري بصوت ناعم ورقيق يجعل من يستمع إليه راغباً في الإصغاء. كانت حفلة ذكرى ميلاد أخي تجري على ما يرام إلى أن دخل أبي الغرفة فجأة، ولم يتفوه بعدها بأية كلمة تقريباً. لم أعرف أبي يوماً فظاً مع أحد، ولم أفهم سبب تصرفه بهذه الطريقة مع شخص غريب تماماً. كما أن ردة فعل بابا عندما سأل هاري عن تاريخ ذكرى ميلاده كانت غير مبررة إطلاقاً. إذ كيف يمكن لهذا السؤال العادي أن يسبب ردة فعل مفرطة؟ بعد قليل، نهض والدي وغادر الغرفة من دون أن يودّع حتى جيل وصديقيه. لاحظت أن ماما شعرت بالكثير من الإحراج بسبب تصرفه، رغم أنها سكبت لنفسها كوباً إضافياً من الشاي وزعمت عدم ملاحظتها ما حصل.

بعد دقائق قليلة، غادر أخي وصديقه للعودة إلى المدرسة. فاستدار هاري وابتسم لي قبل أن يغادر، لكن تماماً مثل أمي، زعمت عدم ملاحظتي تصرفه. لكن، بعد أن أغلق الباب الأمامي، وقفْتُ قرب نافذة

قاعة الرسم وراقبت السيارة وهي تختفي في الممشى. أعتقد أنني رأيته ينظر من النافذة الخلفية، ولكنني لست واثقة.

وبعد أن غادروا، توجهت أُمي إلى مكتب أبي مباشرة، واستطعت سماع صوتيهما المرتفعين؛ الأمر الذي أصبح متكرراً في الآونة الأخيرة. وعندما خرجت من المكتب، ابتسمت لي كما لو أنه لم يحصل أي شيء غير اعتيادي.

سألتها: «ما اسم الصديق المفضل لدى جيل؟».

فأجابتنني: «هاري كليفتون».

المرّة التالية التي رأيت فيها هاري كليفتون كانت في الاحتفال الديني في دار عبادة سانت ماري ريدكليف. فقد أنشد بمفرده، واتهمتنني صديقتي المقربة، جيسيكا برايثوايت، بأنني أشعر بسعادة غامرة كما لو أنني أستمع إلى بينغ كروسبي الجديد، فلم أحاول إنكار الأمر. رأيته بعد الاحتفال الديني يتحدث مع جيل ورغبت في تهنئته، ولكن بدا أن بابا كان مستعجلاً للعودة إلى المنزل. وحين غادرنا، رأيت مربيته تعانقه بحرارة.

كنت أيضاً في دار عبادة سانت ماري ريدكليف ليلة تغير صوته عن المعتاد، ولكنني لم أفهم يوماً سبب التفات العديد من الرؤوس، وتهامس بعض الأشخاص معاً. كل ما أعرفه هو أنني لم أسمع قط ينشد مجدداً.

عند إيصال جيل إلى مدرسة القواعد في أول يوم مدرسي، توسلت إلى أُمي للسماح لي بالذهاب معهم لأنني أردت رؤية هاري، لكن والدي لم

يقبل قط. وبالرغم من بكائي المتعمد، تركوني واقفة على الدرجة العلوية مع أختي الصغرى غرايس. عرفتُ أن بابا غضب جداً بسبب عدم حصول جيل على مكان له في إيتون؛ وهذا أمر لم أفهمه بعد، لأن العديد من الصبيان الأكثر غباء من أخي نجحوا في الامتحان. وبدا أن أمي غير مهتمة لأمر المدرسة التي سيذهب إليها جيل، فيما فرحت شخصياً بذهابه إلى مدرسة القواعد في بريستول؛ لأن هذا يعني احتمال رؤيتي هاري مجدداً.

في الواقع، رأيتُه عشر مرات على الأقل خلال السنوات الثلاث التالية، ولكنه لم يتمكن من تذكر تلك المناسبات قط، إلى أن التقينا في روما. كانت العائلة تقيم في الفيلا في توسكانة في ذلك الصيف. وذات يوم، أخذني جيل جانباً، وقال إنه يحتاج إلى نصيحتي. وكان يفعل ذلك دوماً كلما احتاج إلى مساعدتي له في أمر ما. لكن، تبين هذه المرة أنني أريد الأمر نفسه بقدره هو.

سألته: «ما الذي تتوقعه مني هذه المرة؟».

أجاب: «أريد عذراً للذهاب إلى روما غداً، لأنني تدبرت لقاء مع هاري».

فقلت متظاهرة باللامبالاة: «هاري من؟».

«هاري كليفتون أيتها الغبية. إنه في رحلة مدرسية إلى روما، وقد وعدته بالذهاب لقضاء يوم معه». لم يحتج إلى القول إن بابا ليس موافقاً. «كل ما عليك فعله هو أن تطلبي من ماما أخذك إلى روما». «ولكنها ستسأل عن سبب رغبتني في الذهاب إلى روما».

«أخبريها أنك تريدان زيارة فيلا بورغيزي».

«ولماذا فيلا بورغيزي؟».

«لأن هاري سيكون هناك غداً عند الساعة العاشرة صباحاً».

«لكن، ماذا لو وافقت أمي على اصطحابي؟ ستكون في وضع محرج

حينها».

«لن تصطحبك، فهما سيتناولان الغداء غداً مع آل هندرسونز في أريزو، ولذلك سأطوع لمرافقتك».

سألتُ: «وعلامَ سأحصل في المقابل؟». لأنني لم أشأ أن يعرف جيل مدى توقي لرؤية هاري.

فأجاب: «على الفونوغراف الخاص بي».

«هل سأحصل عليه للأبد أم سأستعيره فقط؟».

لم يتحدث جيل لبعض الوقت، ثم قال على مضض: «للأبد».

فقلت: «أعطني إياه الآن وإلا فستنسى». وفاجأني أنه لبى طلبي.

ذهلت أكثر عندما وقعت أمي في اليوم التالي في هذا الفخ الصغير. ولم يحتج جيل إلى أن يعرض مرافقته لي، فقد أصرّ والدي على أن يرافقني. وعندها، تظاهر أخي بالاحتجاج، ثم استسلم في النهاية.

في صباح اليوم التالي، نهضت باكراً وأمضيت وقتاً طويلاً وأنا أفكر في ما يجب ارتداؤه. عليّ ارتداء ملابس متحفظة نوعاً ما كي لا تشك أمي في الأمر، ولكنني أردت في الوقت نفسه لفت انتباه هاري.

وأثناء وجودنا في القطار المتوجه إلى روما، ذهبت إلى الحمام وارتديت زوجاً من الجوارب الحريرية استعرتة من أمي، ووضعت ملسة من أحمر الشفاه، وإنما بطريقة لا تسمح لجيل بملاحظته.

وبعد أن وصلنا إلى الفندق، أراد جيل المغادرة فوراً إلى فيلا بورغيزي، وأنا أيضاً.

وفيما مشينا صوب الحدائق، ومن ثم إلى الفيلا، استدار جندي للنظر إليّ. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحصل فيها هذا الأمر، فأحسست بتورد في وجنتي.

وما إن دخلنا المعرض حتى بدأ جيل بالبحث عن هاري. عندها، تلكأت قليلاً متظاهرة أنني مهتمة كثيراً باللوحات والتماثيل؛ إذ أردت لفت الانتباه حين أدخل.

وعندما لمحتهما معاً في النهاية، وجدت هاري يتحدث مع أخي؛ رغم أن جيل لم يكن ينصت إليه قط؛ إذ كان منجذباً بوضوح إلى المرشدة السياحية. ولو سألني عن رأيي، لقلت له إنه لا يملك أية فرصة. لكن الإخوة نادراً ما ينصتون إلى أخواتهم حين يتعلق الأمر بالنساء. كنت سأنصحه بعدم التأمل كثيراً، وذلك بمجرد رؤيتي حذاءها الذي جعلني أشعر بالغيرة. يعتقد الرجال أن الإيطاليين مشهورون فقط بتصميم السيارات. ثمة استثناء واحد لهذه القاعدة، وهو «الكابتن» تارانت الذي يعرف تماماً كيفية معاملة سيدة. يستطيع أخي تعلم الكثير منه. إذ يعتبرني جيل بمثابة أخته الصغيرة الخرقاء فقط؛ رغم أنه لا يعرف ما تعنيه كلمة خرقاء.



انتهزت فرصتي، وتوجهت صوبهما، وانتظرت ريثما يعرّفنا جيل على بعضنا. وتخيلوا مفاجأتي عندما دعاني هاري لتناول العشاء معه تلك الليلة. الفكرة الوحيدة التي خطرت في بالي هي أنني لم أحضر معي فستان سهرة. وخلال العشاء، اكتشفت أن أخي دفع لهاري النقود ليبعدني عنه، ولكنه رفض إلى أن وافق جيل على إعطائه تسجيل كاروسو الذي يملكه. أخبرت هاري أنه حصل على التسجيل، فيما حصلت أنا على الفونوغراف، فلم يعلق.

وفيما اجتزنا الطريق أثناء عودتنا إلى الفندق، أمسك بيدي للمرة الأولى. وعندما وصلنا إلى الجانب الآخر من الطريق، لم يفلتها. عرفت أنها المرة الأولى التي يمسك فيها هاري بيد فتاة؛ لأنه كان متوتراً جداً ويتعرق.

حاولت أن أهوّن الأمر عليه ليقبّلني عندما نعود إلى فندقي، ولكنه اكتفى بمصافحتي، وتمنّى لي ليلة سعيدة؛ كما لو أننا صديقان قديمان. عندها، قلت له إننا قد نلتقي مجدداً بعد عودتنا إلى بريستول، فبدأ أكثر تجاوباً هذه المرة، واقترح الموقع الأكثر رومانسية لموعدنا التالي: المكتبة المركزية في المدينة، وشرح لي أننا لن نصادف جيل فيها أبداً، فوافقت بسعادة.

غادر هاري بعد الساعة العاشرة، فصعدتُ إلى غرفتي. وبعد دقائق قليلة، سمعت جيل يفتح باب غرفة نومه. ابتسمت، إذ بدا واضحاً لي أن أمسيته مع كاترينا لم تكن جديدة بتسجيل الكاروسو والفونوغراف.

وعندما عادت العائلة إلى تشو فالي بعد أسبوعين، كانت هناك ثلاث رسائل في انتظاري على الطاولة، وكلها مكتوبة بالخط نفسه. وإذا كان والدي قد لاحظها، فهو لم يقل أي شيء.

خلال الشهر التالي، أمضينا أنا وهاري الكثير من الساعات معاً في مكتبة المدينة من دون أن يشك فينا أحد، لاسيما وأنه اكتشف غرفة حيث لا يحتمل أن نجدنا أحد، ولا حتى ديكنز.

وعندما بدأ الفصل الدراسي ولم يعد بوسعنا رؤية بعضنا بعضاً كثيراً، أدركت سريعاً كم أشتاق إلى هاري. تبادلنا الرسائل كل يوم، وحاولنا أن نلتقي بضع ساعات في عطلات نهاية الأسبوع. وكانت الأمور ستستمر على هذه الحال لولا تدخل الدكتور باجيه.

فأثناء تناولنا القهوة في كارواردين صباح أحد أيام السبت، أخبرني هاري- الذي أصبح جريئاً جداً- أن أستاذ اللغة الإنكليزية لديه أقنع الآنسة ويب بالسماح لفتياتها بالمشاركة في مسرحية مدرسة القواعد في بريستول هذه السنة. وعندما أجريت الاختبار للمسرحية بعد ثلاثة أسابيع، كنت قد حفظت دور جوليات عن ظهر قلب. لم يصدق المسكين البريء الدكتور باجيه حظه.

التمارين على المسرحية لم تكن تعني فقط أننا نستطيع التواجد معاً ثلاث مرات أسبوعياً بعد الظهر، وإنما عنت أيضاً السماح لنا بتأدية دور العاشقين. وعندما رفعت الستارة في الليلة الأولى، لم نعد نمثل قط.

جرت الحفلتان الأوليان بشكل رائع، حيث تحرقت شوقاً ليحضر أهلي في الليلة الأخيرة؛ رغم أنني لم أخبر والدي بأنني أؤدي دور جوليات، إذ أردت أن يكون الأمر مفاجأة له. لكن بعد ظهوري على المسرح بفترة وجيزة، شعرت بأحدهم يغادر المسرح محدثاً بلبلة. إلا أن الدكتور باجيه كان قد أخبرنا مرات عدة بضرورة عدم النظر إلى الجمهور لعدم إفساد المسرحية، ولذلك لم أعرف هوية الشخص الذي غادر هكذا. دعوت ألا يكون أبي. لكن عندما لم يأت إلى الكواليس بعد انتهاء العرض،

أدركت أنه كان ذلك الشخص. وما زاد الأمر سوءاً هو ثقتي بأن غضبه موجّه إلى هاري، رغم أنني ما زلت أجهل السبب.

عندما عدنا إلى المنزل في تلك الليلة، جلسنا أنا وجيل على السلام، وأصغينا إلى مشاجرة جديدة بين والدينا. لكنها كانت مختلفة هذه المرة، لأنه لم يسبق لي يوماً أن سمعت أبي وهو يتحدث بهذه الفظاظ مع ماما. وعندما عجزت عن تحمل المزيد، ذهبت إلى غرفتي وحبست نفسي في الداخل.

كنت مستلقية على سريري وأنا أفكر في هاري عندما سمعت طرقاتاً خفيفاً على الباب. وعندما فتحتة، لم تحاول أُمي إخفاء حقيقة بكائها، وطلبت مني توضيح حقيقة صغيرة لأننا سنغادر سريعاً. أوصلتنا سيارة أجرة إلى المحطة، فوصلنا في الوقت المناسب للركوب في القطار المتوجه إلى لندن. خلال الرحلة، كتبت لهاري رسالة لأبلغه فيها بما حصل وأين يمكنه التواصل معي، ووضعت الرسالة في الصندوق البريدي في محطة كينغ كروس، وذلك قبل أن نركب قطاراً آخر متوجهاً إلى إيدنبورغ.

تخيلوا مفاجأتي عندما وصل هاري وأخي في اليوم التالي إلى قصر مولجلري في وقت العشاء. أمضينا معاً تسعة أيام رائعة وغير متوقعة في اسكوتلندا. لم أشأ العودة إلى تشو فالي مطلقاً؛ رغم اتصال والدي بنا واعتذاره كثيراً على طريقة تصرفه ليلة المسرحية.

لكنني عرفت أنه علينا العودة إلى المنزل في النهاية. ووعدت هاري في إحدى نزهاتنا الصباحية الطويلة بأن أحاول معرفة سبب عدائية والدي المستمرة تجاهه.

عندما عدنا إلى مانور هاوس، كان والدي لطيفاً جداً. وقد حاول أن يشرح سبب معاملته لهاري بهذا السوء على مرّ الأعوام، وبدأ أن جيل وأمي قد صدّقا شرحه، لكنني لم أقتنع بأنه أخبرنا بالحقيقة كاملة.

وما زاد الأمور صعوبة عليّ هو منعي من إخبار هاري بحقيقة موت والده، لأن أمه أصرت على أن تبقى المسألة سراً عائلياً. شعرت أن السيدة كليفتون تعرف السبب الحقيقي لعدم موافقة أبي على علاقتنا أنا وهاري، ورجبت في إخبارهما معاً أنه ما من شيء يستطيع تفريقنا، لكن الأمور وصلت إلى مرحلة لم أتوقعها قط.

كنت أتحرق شوقاً بقدر هاري لمعرفة ما إذا كان قد حصل على مكان له في أوكسفورد، واتفقنا على أن نلتقي خارج المكتبة في صباح اليوم التالي لتلقيه البرقية التي تبلغه بالنتيجة.

تأخرت دقائق قليلة صباح يوم الجمعة. وعندما رأيته جالساً على الدرجة العلوية ورأسه بين يديه عرفت أنه رسب على الأرجح.

قفز هاري ووضع ذراعيه حول إيماء لحظة رآها. واستمر في التشبث بها؛ وهذا أمر لم يفعله من قبل قط أمام العموم، مما أكد لها شكوكها بأن الخبر سيئ.

ومن دون التفوه بأية كلمة، أمسك بيدها، ورافقها إلى داخل المبنى. صعدا على سلم خشبي دائري، ومن ثم عبرا رواقاً حجرياً ضيقاً إلى أن وصلا أمام باب كُتب عليه «أثریات»، فنظر إلى الداخل للتأكد من عدم اكتشاف أحد لمخبيئهما.

جلسا قبالة بعضهما أمام طاولة صغيرة، حيث أمضيا ساعات كثيرة في الدرس خلال العام الماضي. كان هاري يرتجف، ولم يكن سبب ذلك البرد في الغرفة المفتقدة إلى النوافذ والمغطاة من كل الجهات برفوف مليئة بالكتب الجلدية المكسوة بالغبار، والتي يبدو أن بعضها لم يفتح منذ أعوام طويلة. ومع مرور الوقت، ستصبح هذه الكتب أثرية بحد ذاتها.

مرّ بعض الوقت قبل أن يتكلم هاري.

«هل تظنين أن هناك أي شيء أقوله أو أفعله يمكنه أن يبدّل حبك لي؟».

فأجابت إيماء: «لا يا حبيبي. لا شيء على الإطلاق».

«عرفتُ سبب إصرار والدك على تفريقنا».

فقالت إيما وقد أخفضت رأسها قليلاً: «أعرف السبب أصلاً، وأعدك أن الأمر لن يحدث أي فرق».

فقال هاري: «كيف تعرفين؟».

«أخبرنا والدي يوم عدنا من اسكوتلندا، لكنه جعلنا نقسم على إبقاء الأمر سراً».

«هل أخبرك أن أمي عاهرة؟».

ذهلت إيما مما سمعته، ومرّ بعض الوقت قبل أن تتمكن من التحدث مجدداً، فقالت: «لا، لم يفعل. كيف يمكنك قول مثل هذا الشيء الفظيع؟».

أجاب هاري: «لأنها الحقيقة. لم تعد أمي تعمل في فندق رويال مثلما كنت أعتقد، فقد توقفت عن العمل هناك منذ عامين، وهي الآن تعمل في ملهى ليلي يُدعى ملهى إيدي».

فقالت إيما: «لكنّ عملها هناك لا يجعلها عاهرة».

«كان الرجل الجالس قربها يحمل كأس شراب في إحدى يديه فيما يده الأخرى على فخذها، لذا بالتأكيد لم يكن يريد التحدث إليها فقط».

عندها، انحنت إيما فوق الطاولة، ولمست وجنة هاري برفق وقالت له: «أنا آسفة يا حبيبي، لكنّ هذا لن يبدّل أبداً مشاعري تجاهك».

رسم هاري ابتسامة صغيرة على وجهه، لكن إيما بقيت صامتة؛ إذ عرفت أن لحظات قليلة فقط ستمرّ قبل أن يطرح عليها السؤال المحتمل.

بعد قليل، قال لها وقد عاد إلى جديته: «إذا لم يكن هذا هو السر الذي أراد والدك إخفاءه، فما الذي أخبرك إياه؟».

جاء الآن دور إيما لتضع رأسها بين يديها بعد أن أدركت أنه لم يعد أمامها أي خيار سوى إخباره بالحقيقة. فتماماً مثل أمها، لم تكن تجيد إخفاء مشاعرها.

كرّر هاري بتعاطف أكبر: «ما الذي أخبرك إياه؟».

تشبثت إيما بحافة الطاولة كما لو أنها تحاول تثبيت نفسها، وأخيراً استجمعت قوتها لتنظر إلى هاري. صحيح أنه على بعد خطوات قليلة منها، ولكنها شعرت بأنه بعيد جداً عنها. قالت: «أريد أن أطرح عليك السؤال نفسه الذي طرحته عليّ منذ قليل. هل هناك أي شيء أقوله أو أفعله يمكنه أن يبدّل حبك لي؟».

فانحنى هاري فوق الطاولة، وأمسك بيدها قائلاً: «طبعاً لا».

عندها، قالت بهدوء: «لم يُقتل والدك في الحرب. وقد يكون والدي الشخص المسؤول عن موته». ثم أمسكت بيده بشدة قبل أن تكشف له كل ما أخبرهم به والدها يوم عادوا من اسكوتلندا.

وعندما أنهت كلامها كان هاري يبدو مذهولاً وعاجزاً عن التكلم. حاول الوقوف، ولكن ساقيه لم تسعفاه؛ تماماً مثل الملاكم الذي تلقى الكثير من الضربات، فانهار مجدداً على كرسيه.

قال هاري بهدوء: «عرفت منذ بعض الوقت أن والدي لم يمت في الحرب. لكنني ما زلت لا أفهم سبب إصرار أمي على عدم إخباري بالحقيقة».

فقالت إيما محاولة كبح دموعها: «والآن بعد أن أصبحت تعرف الحقيقة، أتفهم قرارك إذا أردت فسخ علاقتنا بعد ما فعله والدي بعائلتك».

قال هاري: «ليس خطأك، لكنني لن أسامحه أبداً». وصمت قليلاً قبل أن يضيف: «ولن أتمكن من مواجهته بعد أن يكتشف حقيقة أُمي». فقالت إِيما وقد أمسكت بيده مجدداً: «لن يكتشف ذلك أبداً، إذ سيبقى الأمر سراً بيننا».

قال هاري: «لم يعد هذا ممكناً».

«ولمَ لا؟».

«لأن جيل رأى الرجل الذي لحق بنا إلى إيدينبورغ واقفاً قبالة ملهى إيدي الليلي».

فقالت إِيما: «إذاً والدي هو العاهر؛ لأنه لم يكتفِ بالكذب علينا مجدداً فقط، وإنما تراجع عن كلمته أيضاً».

«كيف؟».

«لقد وعد جيل بالألّا يلحق به هذا الرجل أبداً مجدداً».

فقال هاري: «لم يكن ذلك الرجل مهتماً بجيل. أعتقد أنه كان يلاحق أُمي».

«لكن لماذا؟».

«لأنه إذا استطاع أن يُثبت كيف تكسب أُمي مالها، فقد يتمكن من إقناعك بالتخلي عني».

عندها قالت إِيما: «إذاً، إنه لا يعرف ابنته جيداً؛ لأنني بتّ الآن أكثر إصراراً على ألا يفرقنا أي شيء. ولا شك في أنه لا يستطيع منعي من إبداء إعجابي بأمك أكثر مما كنت أفعل سابقاً».



فسألها هاري: «كيف تقولين هذا!؟».

«لقد عملت نادلة لإعالة عائلتها، ثم اشترت مقهى تيلي، وعندما احترق المقهى تمّ اتهامها بأنها أحرقتة عمدًا، ولكنها أبقت رأسها مرفوعاً لأنها على يقين بأنها بريئة. وبعد ذلك، وجدت لنفسها عملاً آخر في فندق رويال. وعندما طُردت رفضت الاستسلام. حصلت على «شيك» بقيمة ستمئة باوند، واعتقدت لوهلة أن كل مشاكلها قد حلت، لتكتشف بعدها أنها في الواقع من دون أي فلس في الوقت الذي تحتاج فيه إلى المال لضمان بقائك في المدرسة. وبسبب اليأس، تحولت إلى...»  
«لكنني لم أكن أريد أن تفعل ذلك...»

«إنها تعرف ذلك يا هاري، ولكنها شعرت بأن تلك التضحية جديرة بالعناء».

تلا ذلك صمت طويل، ثم قال هاري: «أوه يا إلهي. كيف فكرت بها بهذا السوء؟!». ثم نظر إلى إيما قائلاً لها: «أريد خدمة منك».  
«أي شيء».

«هل يمكنك الذهاب لرؤية أُمي؟ استعملي أي عذر، لكن حاولي أن تعرفي إذا كانت قد رأتني في ذلك المكان المريع في الليلة الماضية».  
«كيف سأعرف إذا لم تشأ الاعتراف بذلك؟».

فقال هاري بهدوء: «ستعرفين».

«لكن، إذا كانت أمك قد رأتك، فسوف تسألني عما كنتَ تفعله هناك».

«كنت أبحث عنها».

«لكن لماذا؟».

«لأخبرها أنني حصلت على مكان في أوكسفورد».

جلست إيما على مقعد خشبي في الجهة الخلفية من دار العبادة وانتظرت انتهاء الاحتفال الديني. استطاعت رؤية السيدة كليفتون جالسة في الصف الثالث بالقرب من سيدة عجوز. كانت قد تركت هاري بعد أن صار أقل توتراً مما كان عليه حين التقيا صباحاً. كان مصراً تماماً على معرفة ما يريده، ووعده بأن تعطيه الجواب الشافي. تمرنا على كل سيناريو محتمل مرات عدة، إلى أن أجادت كل الأجوبة.

وبعد أن أنهى رجل الدين الكبير في السن طقوس الاحتفال، تقدمت إيما صوب وسط الممشى، وانتظرت إلى أن ملحتها السيدة كليفتون. عندما رأت مايزي إيما لم تخف دهشتها، ثم رسمت ابتسامة مرحبة على وجهها. مشت بسرعة صوبها وعرفتها على السيدة العجوز التي كانت معها. «ماما، هذه إيما بارينغتون. إنها صديقة هاري».

وجّهت السيدة العجوز ابتسامة عريضة لإيما وقالت لها: «ثمة فرق كبير بين الصديقة والحبيرة. فمن أنت؟».

ضحكت السيدة كليفتون، لكن بدا لإيما بشكل جلي أنها مهتمة أيضاً بسماع جوابها.

قالت إيما بفخر: «أنا حببته».

رسمت السيدة العجوز ابتسامة أخرى عريضة على وجهها، لكن مايزي لم تبتسم.

قالت جدة هاري: «حسناً. إذاً، كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ لا أستطيع الوقوف هنا طوال اليوم وأنا أتكلم. عليّ تحضير العشاء». وبدأت تسير مبتعدة، ثم استدارت وسألت إيما: «هل تودين الانضمام إلينا لتناول العشاء أيتها الشابة؟».

إنه سؤال استبقه هاري، وحضراً له جواباً مناسباً، لذا أجابت إيما: «هذا لطف شديد منك، لكن أهلي في انتظاري».

عندها قالت السيدة العجوز: «صحيح. عليك دوماً احترام رغبات أهلك. أراك لاحقاً يا مايزي».

سألت إيما فيما خرجت مع والدة هاري من دار العبادة: «هل أستطيع السير معك يا سيدة كليفتون؟».

«نعم، طبعاً يا عزيزتي».

«طلب مني هاري أن آتي لرؤيتك، لأنه عرف أنك ترغبين في معرفة أنه حصل على مكان في أوكسفورد».

فقالت مايزي: «أوه، هذا خبر رائع». وطوّقت إيما بذراعيها، ثم أفلتتها فجأة وسألتها: «لكن، لماذا لم يأت ليخبرني بنفسه؟».

وهذا سؤال آخر تم تحضير جوابه مسبقاً. فأجابت إيما على أمل ألا يبدو جوابها محضراً مسبقاً: «إنه محجوز؛ فهو ينفذ عقوبته ويكتب مقاطع من شيلي. أخشى القول إن أخي من يتحمل المسؤولية. فبعد أن سمع بالخبر الجيد، أدخل قنينة من الشراب إلى المدرسة للاحتفال، وتم إلقاء القبض عليهم وهم يحتفلون في غرفته في الليلة الماضية».

عندها سألت مايزي مبتسمة ابتسامة عريضة: «وهل هذا خطأ كبير؟».

«يبدو أن الدكتور باجيه يعتقد ذلك. يشعر هاري بالكثير من الأسف».

ضحكت مايزي بصوت عالٍ جداً، فتأكدت إِيَّها من أنها ليست على علم بزيارة ابنها لها في الملهى في الليلة الماضية. كانت تريد أن تطرح على والدة هاري سؤالاً آخر لا يزال يحيِّرها، لكن هاري أصرَّ على ألا تفعل ذلك، وقال لها: «إذا لم تشأُ أمي إبلاغني بكيفية موت والدي، فلتكن تلك مشيئتها».

فقالت مايزي: «آسفة لأنك لا تستطيعين البقاء لتناول الغداء معنا؛ فهناك أمر أرغب في قوله لك. مرة أخرى ربما».

أمضى هاري الأسبوع التالي في انتظار سقوط قنبلة أخرى. وعندما سقطت، هتف بصوت عالٍ.

فقد تلقى جيل برقية في اليوم الأخير من الفصل الدراسي مفادها أنه حصل على مكان في كلية برازينوز في جامعة أوكسفورد لدراسة التاريخ.

«بصعوبة فائقة». كان هذا هو التعبير الذي استخدمه الدكتور باجيه عندما أبلغ مدير المدرسة.

بعد شهرين، وصل طالب فائز بمنحة دراسية وطالب فائز بإعانة مالية وطالب يدفع تكاليف دراسته بنفسه إلى حرم الجامعة القديمة بوسائل نقل مختلفة، لبدأوا سنواتهم الجامعية الثلاث قبل التخرج.

تسجل هاري في جمعية الدراما وهيئة تدريب الجنود، فيما تسجل جيل في اتحاد الطلاب ونادي الكريكت، واكتفى ديكنز بالغوص في مكتبة بودلاين، حيث نادراً ما خرج منها؛ كما لو أنه خلد مختبئ في جحره. في ذلك الوقت، كان قد قرر أن أوكسفورد هي المكان الذي سيمضي فيه بقية حياته.

لم يعرف هاري بعد أين سيمضي بقية حياته، فيما استمر رئيس الوزراء في الانتقال إلى ألمانيا ذهاباً وإياباً، قبل أن يعود أخيراً إلى مطار هيستون وهناك ابتسامة على وجهه، حاملاً بيده ورقة ليخبر الناس بما أرادوا سماعه. لم يشك هاري قط في أن بريطانيا باتت على شفير الحرب. وعندما سأله إهما عن قناعته، أجاب: «ألم تلاحظي أن هتلر لا يزعج

نفسه بزيارتنا أبدأ؟ نحن دوماً من نلتمس الرضى، وفي النهاية سيتم احتقارنا». تجاهلت إيما رأيه، ولكنها لم تشأ تصديق أنه قد يكون محقاً؛ تماماً مثل السيد تشامبرلاين.

كتبت إيما الرسائل إلى هاري مرتين أسبوعياً، وأحياناً ثلاث مرات؛ بالرغم من استعداداتها المكثفة لامتحانات الدخول إلى أوكسفورد.

عندما عاد هاري إلى بريستول في عطلة الكريسمس، حاولا قضاء أطول وقت ممكن مع بعضهما؛ رغم حرص هاري على الابتعاد عن طريق السيد بارينغتون.

ورفضت إيما فرصة قضاء عطلتها مع بقية أفراد العائلة في توسكانة، ولم تخفِ على والدها حقيقة تفضيلها قضاء العطلة مع هاري.

ومع اقتراب موعد امتحانات الدخول، ازداد عدد الساعات التي قضتها إيما في غرفة «الأثريات»، حيث تأثر ديكنز نفسه بذلك. لكن هاري استنتج أنها ستبهر حتماً اللجنة الفاحصة بقدر ما فعل صديقه العبقري في العام الفائت. وكلما قال ذلك أمام إيما، ذكّرتة بحقيقة أن أنثى واحدة تدخل أوكسفورد مقابل عشرين ذكراً.

عندها اقترح جيل بحماقة: «يمكنك الذهاب إلى كامبريدج».

فأجابت إيما: «حيث القانون يرجع إلى مرحلة ما قبل التاريخ! إنهم لا يمنحون الشهادات للنساء».

لم يكن خوف إيما الأكبر هو عدم حصولها على مكان في جامعة أوكسفورد، وإنما اندلاع الحرب بعد نجاحها في الامتحان، حيث يضطر

هاري إلى المغادرة إلى مكان بعيد ليس في إنكلترا. فقد تمّ تذكيرها طيلة حياتها بالحرب الكبرى، وعدد النساء اللواتي ما زلن يرتدين الأسود كل يوم بسبب موت أزواجهن أو أحبابهن أو إخوتهن أو أبنائهن الذين لم يعودوا مطلقاً من جبهة القتال، في ما بات يُسمى بالحرب التي تهدف إلى إنهاء كل الحروب.

توسّلت إلى هاري كي لا يتطوع في الجيش في حال إعلان الحرب، وإمّا أن ينتظر على الأقل إلى أن يتم استدعاؤه. لكن، بعد اجتياح هتلر لتشيكوسلوفاكيا، وانتقاله إلى ساندنلاند، بات هاري على يقين تام بأن الحرب مع ألمانيا حتمية، وأنه لحظة إعلانها سيرتدي البذلة العسكرية في اليوم التالي.

عندما وجّه هاري الدعوة إلى إيما للانضمام إليه في حفلة نهاية العام الجامعي الأول، قررت عدم مناقشة احتمال الحرب، واتخذت أيضاً قراراً آخر.

توجّهت إيما إلى أوكسفورد صباح يوم الحفلة، ونزلت في فندق راندولف. أمضت ما تبقى من النهار وهي تتجول في سومرفيل وأشمولين وبودلاين برفقة هاري الذي كان واثقاً من أنها ستتنضم إليه في الجامعة بعد أشهر قليلة.

وحين عادت إيما إلى الفندق، منحت نفسها الوقت الكافي للاستعداد للحفلة، وقرر هاري المرور لاصطحابها في تمام الساعة الثامنة.

دخل عبر الباب الأمامي للفندق قبل دقائق قليلة من الوقت المحدد. كان يرتدي سترة كحلية جميلة أهدته إياها أمه بمناسبة ذكرى

ميلاده التاسعة عشرة. اتصل بغرفة إيما من مكتب الاستقبال، وطلب منها النزول، وأخبرها أنه ينتظرها في ردهة الفندق.

فأجابته: «سأنزل فوراً».

ومع مرور الدقائق، بدأ هاري يذرع الردهة متسائلاً عما تعنيه إيما بعبارة «على الفور». لكنّ جيل أخبره سابقاً مرات عدة أنها لا تقدّر الوقت؛ تماماً مثل أمها.

ثم رآها تقف في أعلى السلام. لم يتحرك حين نزلت السلام ببطء، بفستانها الحريري الفيروزي مكشوف الكتفين الذي أبرز روعة جسدها الرشيقي. بدا كل رجل آخر في ردهة الفندق كما لو أنه على استعداد لتبادل مكانه مع هاري.

قال لها هاري عندما وصلت إلى الدرجة السفلية: «واو! من يحتاج إلى فيفيان لايف؟ بالمناسبة، لقد أحببت الحذاء». فشعرت إيما أن أول جزء من خطتها تمّ على ما يرام.

خرجا من الفندق، وشبكا ذراعيهما، وتوجّها صوب ساحة رادكليف. ومع عبورهما بوابة جامعة هاري، بدأت الشمس تغيب في الأفق. لم يكن أحد من الداخلين إلى برازينوز في ذلك المساء على علم بأن أسابيع قليلة فقط تفصلهم عن حرب ستحرم نصف الشباب الذين رقصوا تلك الليلة من التخرج.

لكن، ما من شيء عكّر صفو أفكار الشابين اللذين رقصا على أنغام موسيقى كول بورتر وجيروم كيرن. وفيما قام مئات الطلاب الجامعيين وضيوفهم باحتساء الشراب وتناول السلمون المدخن، لم يسمح هاري قط بأن تبتعد إيما عن نظره، خشية أن يحاول شاب غير مهذب سرقها منه.



أفرط جيل في احتساء الشراب قليلاً، وتناول الكثير من المحار، ولم يرقص مع الفتاة نفسها أكثر من مرة واحدة خلال السهرة.

وعند الساعة الثانية فجراً، عزفت فرقة بيبي كوتون دانس رقصة الفالز الأخيرة. تشبث هاري وإيما ببعضهما، فيما رقصا على وقع الأنغام التي عزفتها الأوركسترا.

وعندما رفع قائد الأوركسترا عصاه أخيراً لعزف النشيد الوطني، لاحظت إيما أن كل الشباب حولها وقفوا باحترام وهم ينشدون «فليحفظ الله الملك».

عاد هاري وإيما إلى فندق راندولف ببطء، وتحدثا عن أمور غير مهمة، لمجرد أنهما لم يرغباً في أن تنتهي السهرة.

قال هاري فيما صعدا درج الفندق معاً: «حسناً، سوف تعودين بعد وقت قليل لتقديم امتحان الدخول. لذا، لن يمرّ وقت طويل قبل أن أراك مجدداً».

فقالت إيما: «هذا صحيح. لكن، لن يكون هناك وقت للهو قبل أن أنهي آخر امتحان. وعندما أنهي كل شيء، يمكننا حينها قضاء ما تبقى من عطلة نهاية الأسبوع معاً».

كان هاري على وشك تقبيلها ليتمنى لها ليلة سعيدة عندما همست له: «هل تريد الصعود إلى غرفتي؟ لديّ هدية لك. لا أريدك أن تظن أنني نسيت ذكرى ميلادك».

بدا هاري متفاجئاً تماماً مثل الحاجب الليلي. صعد الشابان الدرجات معاً، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. وعندما وصلا إلى غرفة إيما، أدخلت المفتاح في القفل بعصبية قبل أن تفتح الباب أخيراً.

قالت فيما اختفت في الحمام: «سأعود بعد قليل».

جلس هاري على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، وحاول التفكير في أكثر ما يحب الحصول عليه في ذكرى ميلاده. وعندما فُتح باب الحمام، ظهرت إيما وسط الظلام الجزئي المخيم على الغرفة، وقد لفت منشفة الفندق حول جسدها بدلاً من الفستان الأنيق مكشوف الكتفين. استطاع هاري سماع قلبه وهو يخفق بسرعة فيما مشت صوبه ببطء.

قالت إيما: «أعتقد أنك ترتدي الكثير من الملابس يا حبيبي».

قال والد إيما كما لو أنها غير موجودة في الغرفة: «إنها صغيرة جداً للتفكير في الزواج».

فذكرته إليزابيث: «إنها في مثل عمري تماماً حين تقدّمت للزواج بي».

«لكنك لم تكوني على وشك تقديم أهم امتحان في حياتك، قبل أسابيع قليلة من الزفاف».

فقالت إليزابيث: «لهذا السبب اتخذت كل التدابير اللازمة، ولن يصرف أي شيء انتباه إيما قبل انتهاء امتحاناتها».

«من الأفضل حتماً تأجيل الزفاف بضعة أشهر. ففي النهاية، لم العجلة؟».

عندها، قالت إيما متحدثة للمرة الأولى: «يا لها من فكرة جيدة بابا! يمكننا ربما الطلب من هتلر أن يؤجل الحرب بضعة أشهر لأن ابنتك تريد الزواج».

فسأل والدها متجاهلاً تعليق ابنته: «وما رأي السيدة كليفتون في كل هذا؟».

فما كان من إليزابيث إلا أن سألته: «وهل يمكن ألا تكون مسرورة بالخبر؟». فلم يجب.

تم نشر إعلان الزواج المرثقب بين إيما غرايس بارينغتون وهارولد آرثر كليفتون في جريدة التايمز بعد عشرة أيام. كما تم إعلان الخبر في دار عبادة سانت ماري من قبل رجل الدين ستايلر يوم الأحد التالي، وتم توجيه أكثر من ثلاثمئة دعوة خلال الأسبوع التالي. ولم يتفاجأ أحد عندما طلب هاري من جيل أن يكون إشبينه، فيما طلب من «الكابتن» تارانت وديكنز أن يكونا الشاهدين الأساسيين.

لكن هاري صُدم عندما تلقى رسالة من العجوز جاك يرفض فيها دعوته لأنه لا يستطيع ترك عمله في الظروف الراهنة. عندها، كتب له هاري رسالة جديدة، وتوسل إليه أن يعيد النظر في قراره ويحضر الزفاف على الأقل، حتى لو لم يرغب في أن يكون شاهداً. إلا أن جواب العجوز جاك جعل هاري أكثر ارتباكاً: «أشعر أن وجودي قد يكون مصدر إحراج».

تساءل هاري: «عم يتحدث؟! إنه يعرف بلا شك أننا جميعاً نتشرف بحضوره».

فقالت إيما: «إنه سيئ بقدر والدي الذي يرفض تسليمي للعريس، ويقول إنه غير واثق من حضوره الزفاف».

«لكنك أخبرتني أنه وعدك بأن يكون أكثر دعماً في المستقبل».

«نعم. لكن كل شيء تغير لحظة سمع أننا مخطوبان».

اعترف هاري: «لا أستطيع الادعاء بأن أُمي بدت متحمسة كثيراً عندما أطلعتها على الخبر أيضاً».

لم تستطع إيما رؤية هاري مجدداً إلا عند عودتها إلى أوكسفورد لتقديم امتحاناتها، وليس قبل أن تنجز الامتحان الأخير. وعندما خرجت من قاعة الامتحانات، كان خطيبها في انتظارها على الدرجة العلوية مع قنينة شراب بإحدى يديه وكأسين في اليد الأخرى.

سألها فيما ملاً كوبها: «كيف كان الامتحان برأيك؟».

تنهدت إيما، فيما خرجت عشرات الفتيات الأخريات من قاعة الامتحانات: «لا أعرف. لم أكن أتوقع ما ينتظرنني إلا عندما واجهته».

«حسناً، لديك على الأقل ما يصرف انتباهك في انتظار صدور

النتائج».

ذكرته إيما: «ثلاثة أسابيع فقط. هذا الوقت أكثر من كافٍ لتبدل

رأيك».

«إذا لم تفوزي بمنحة دراسية، فعليّ إعادة النظر في قراري. ففي

النهاية، لا أستطيع مرافقة زوجة تدفع تكاليف دراستها بنفسها».

«وإذا فزت بمنحة دراسية عليّ إعادة النظر في قراري والبحث عن

طالب آخر».

فقال هاري: «ديكنز لا يزال متوافراً». فيما رفع كأسها.

عندها قالت إيما: «لكن الوقت سيكون قد تأخر».

«لماذا؟».

«لأن نتائج الامتحانات ستعلن صباح يوم زفافنا».

أمضى هاري وإيما معظم عطلة نهاية الأسبوع داخل غرفتها الصغيرة في الفندق؛ يراجعان ترتيبات الزفاف كلما توقفا عن القيام بعلاقة حميمة. وليلة الأحد، توصلت إيما إلى استنتاج واحد.

قالت: «كانت أمي رائعة فعلاً. لكنني لا أستطيع قول الشيء نفسه عن أبي».

«هل تظنين أنه سيحضر الزفاف؟».

«أوه نعم. فقد أقنعت أمي بالمجيء، لكنه ما زال يرفض تسليمي إليك. ما هي أخبار العجوز جاك؟».

أجاب هاري: «لم يجب على رسالتي الأخيرة».

«ألم تكتسبي القليل من الوزن يا حبيبتي؟». سألت إليزابيث إيما فيما حاولت تثبيت المشبك الأخير في ظهر فستان زفاف ابنتها. فأجابت إيما: «لا أظن ذلك». ونظرت إلى نفسها في المرآة الطويلة. «مذهل». قالت إليزابيث ذلك وهي تتراجع إلى الخلف لتأمل فستان العروس.

كانتا قد سافرتا إلى لندن مرات عدة لقياس الفستان عند السيدة رينيه، صاحبة المحل الصغير في مايفاير، والذي يُقال إنه تحت رعاية الملكة ماري والملكة إليزابيث. أشرفت السيدة رينيه شخصياً على كل المقاسات، والتطريزات الفيكتورية المخرمة حول العنق والحاشية، والتي تناغمت بشكل رائع مع الصدر الحريري والتنورة الطويلة الفضفاضة التي تبدو رائجة جداً هذا العام. وقد أكدت لهما السيدة رينيه أن القبعة القشدية الصغيرة هي ما ستعتمره كل النساء في السنة المقبلة. لم يصدر والد إيما أي تعليق حول الموضوع إلا عندما رأى الفاتورة.

نظرت إليزابيث بارينغتون إلى ساعتها التي أشارت إلى الثالثة إلا تسع عشرة دقيقة، ثم قالت لإيما: «لا داعي للاستعجال». سمعتا طرقاتاً على الباب؛ رغم أنها واثقة من أنها علقت لافتة «الرجاء عدم الإزعاج» على مقبض الباب وطلبت من السائق عدم توقع نزولهما قبل الساعة الثالثة. أثناء التمارين في اليوم السابق، استغرقت الرحلة من الفندق إلى

دار العبادة سبع دقائق فقط. أرادت إليزابيت بشكل متعمد أن تصل إيها متأخرة قليلاً.

«دعيهم ينتظرون بضع دقائق، ولكن من دون أن تسببي لهم القلق». طرق الباب مجدداً.

قالت إليزابيت: «سأفتح». ثم توجهت إلى الباب. كان ثمة حاجب شاب يرتدي بذلة حمراء أنيقة سلّمها برقية، هي الحادية عشرة هذا اليوم. وكانت على وشك إغلاق الباب عندما قال لها: «طُلب مني إبلاغك يا سيدتي بأن هذه البرقية مهمة».

أول ما خطر في بال إليزابيت هو احتمال إلغاء بعض الأشخاص حضورهم في الدقيقة الأخيرة. وأملت فقط ألا تضطر إلى إعادة تنظيم الطاولة الرئيسة خلال حفل الاستقبال. مزّقت مغلف البرقية وقرأت محتواها.

سألتها إيها: «ممن هي؟». فيما سوّت زاوية قبعتها، وتساءلت عمّا إذا كانت طلّتها مبالغاً فيها قليلاً.

عندها، أعطتها إليزابيت البرقية. وبعد أن قرأتها إيها انفجرت باكية. قالت أمها: «تهاني يا حبيبتي». فيما أخرجت منديلًا من حقيبتها وبدأت تجفف دموع ابنتها. «كنت أود معانقتك، لكنني لا أريد إفساد فستانك».

وبعد أن تأكدت إليزابيت من أن إيها جاهزة، وقفت هنيهة للتحقق من طلّتها في المرأة، فقد قالت لها السيدة رينيه: «يجب ألا تتفوقي على ابنتك يوم زفافها، لكن في الوقت نفسه، عليك لفت الأنظار». أحبت

إليزابيت بشكل خاص قبعة نورمان هارتنل، رغم أنها ليست ما تعتبره الشابات «أنيقة».

قالت بعد أن نظرت مجدداً إلى ساعتها: «حان وقت الانطلاق». فابتسمت إيما فيما نظرت إلى الملابس التي سترتديها بعد انتهاء حفل الزفاف، عندما ستسافر مع هاري إلى اسكوتلندا لقضاء شهر العسل. فقد عرض عليهما اللورد هارفي قضاء شهر العسل في قصر مولجلري، ووعدهما بأنه لن يسمح لأحد من أفراد العائلة بالاقتراب من العقار خلال ذلك الوقت مسافة عشرة أميال. والأهم من كل ذلك ربما، يستطيع هاري طلب ثلاثة أطباق من حساء هايلاند كل ليلة، من دون طبق إوز بعده.

لحقت إيما بأمها إلى خارج غرفة الفندق، ومن ثم سارتا في الرواق. وعندما وصلت إلى أعلى السلم، أحست بأن ساقها ستتهاران. وفيما نزلت السلم، وقف الضيوف جانباً كي لا يعرقل أحد طريقها.

فتح الحاجب الباب الرئيس للفندق، فيما وقف سائق السير والتر قرب الباب الخلفي لسيارة الرولز كي تنضم العروس إلى جدها. وبعد أن جلست إيما قربها، وسوّت فستانها جيداً، وضع السير والتر نظارته على عينه اليمنى وقال: «تبدين جميلة جداً أيتها الشابة. لا شك في أن هاري رجل محظوظ جداً».

فقالت: «شكراً لك جدي». ثم قبلته على وجنته. نظرت من النافذة الخلفية، فرأت أمها تركب في سيارة رولز رويس ثانية. وبعد قليل، انطلقت السيارتان للانضمام إلى زحمة بعد الظهر، في طريقهما إلى دار عبادة سانت ماري في الجامعة.



سألت إيما: «هل بابا في دار العبادة؟». وحاولت ألا تبدو قلقة.  
فأجاب جدها: «سيكون أول الواصلين. أعتقد أنه بدأ يندم على  
منحي ميزة تسليمك للعريس».

«وماذا عن هاري؟».

«لم أره سابقاً متوتراً هكذا. لكن يبدو أن جيل مسيطر على كل  
شيء، وهذه سابقة من دون شك. وأعرف أنه أمضى الشهر الأخير في  
تحضير خطاب الإشبين».

قالت إيما: «نحن محظوظان لأننا نملك الصديق نفسه. أتعرف يا  
جدي؟ قرأت ذات مرة أن كل عروس تعيد النظر في قرارها صباح  
زفافها».

«هذا طبيعي يا عزيزتي».

فقالت إيما: «لكنني لم أعد النظر بشأن هاري قط». فيما توقفت  
السيارة أمام دار العبادة الخاصة بالجامعة. «أعرف أننا سنمضي بقية  
حياتنا معاً».

انتظرت حتى خرج جدها من السيارة قبل أن تجمع فستانها  
وتنضم إليه على الرصيف.

وأسرعت أمها إلى الأمام للتحقق من فستان ابنتها للمرة الأخيرة قبل  
السماح لها بدخول دار العبادة. أعطتها إليزابيث باقة صغيرة من الورود  
الوردية الشاحبة، فيما أمسكت الإشبينتان، غرايس- أخت إيما الصغرى-  
وجيسيكا- صديقتها في المدرسة- بذيل الفستان.

قالت أمها: «أنت التالية». فيما انحنى لتسوية فستان الإشبينة.

فقال غرايس بصوت عالٍ كفاية لتسمعه أمها: «لا أتمنى ذلك».

تراجعت إليزابيت إلى الخلف وأومات برأسها، ففتح حاجبان بائي دار العبادة الثقيلين، وبدأ عازف الأرغن يعزف موسيقى الزفاف، فيما وقف المدعوون للترحيب بالعروس.

وفيما دخلت إيما، تفاجأت بعدد الأشخاص الذين جاءوا إلى أوكسفورد لمشاركتها فرحتها. مشت في رواق دار العبادة ببطء ممسكة بذراع جدها، فيما استدار الضيوف للابتسام لها وهي تشق طريقها إلى الأمام.

لاحظت السيد فروبيشر جالساً قرب السيد هولكومب في الجهة اليمنى، والآنسة تيلي التي اعتمرت قبعة كبيرة جداً واجتازت كل المسافة من كورنوال، فيما وجه إليها الدكتور باجيه ابتسامة دافئة جداً. لكن، لا يمكن مقارنة هذه الابتسامة بتلك التي ارتسمت على وجهها عندما ملحت «الكابتن» تارانت محني الرأس. وكان يرتدي بذلة صباحية غير مناسبة كثيراً. سيفرح هاري لأنه وافق على حضور الزفاف في النهاية. وفي الصف الأمامي، جلست السيدة كليفتون التي يبدو جلياً أنها خصت الكثير من الوقت لانتقاء ملابسها؛ فقد بدت أنيقة جداً. ارتسمت ابتسامة على شفتي إيما، لكنها تفاجأت وخاب أملها عندما لم تستدر حماتها المستقبلية للنظر إليها.

ثم رأت هاري واقفاً بالقرب من أخيها في انتظارها. تابعت إيما سيرها في الرواق ممسكة بذراع جدها، فيما وقف جدها الآخر منتصباً في الصف الأمامي، بالقرب من والدها الذي وجدته حزيناً نوعاً ما. لقد ندم ربما على قراره بعدم تسليمها للعريس.

وقف السير والتر جانباً فيما سعدت إيها الدرجات الأربع للانضمام إلى زوجها المستقبلي. وانحنت صوبه هامسة: «كدت أبدل رأبي». فحاول هاري عدم الابتسام. «ففي النهاية، لا يمكن لطلاب هذه الجامعة أن يتزوجوا ممن هم أدنى منهم».

قال: «أنا فخور بك جداً يا حبيبتي. تهاني».

انحنى جيل لأخته احتراماً، وسرت الهمسات بين الحشود فيما انتشر الخبر من صف إلى آخر.

توقفت الموسيقى، ورفع رجل الدين يديه قائلاً: «أيها الأحباء، اجتمعنا هنا معاً لمشاركة هذا الرجل وهذه المرأة في هذا الاحتفال...» فجأة، شعرت إيما بالتوتر. لقد حفظت كل الأجوبة عن ظهر قلب، ولكنها لا تستطيع تذكر أي منها.

«الهدف منه أولاً إنجاب الأولاد...»

حاولت إيما التركيز على كلمات رجل الدين، لكنها كانت تتحرق شوقاً للهرب والتواجد مع هاري بمفردهما. كان يجدر بهما ربما الذهاب إلى اسكوتلندا في الليلة الماضية والاختباء في غريتنا غرين. كان ذلك أقرب إلى قصر مولجلري، مثلما أشارت إلى هاري.

«في هذا المكان، يجتمع الآن شخصان. فإذا استطاع أي كان إظهار سبب لعدم زواجهما قانونياً، فأنا أطلب منه التحدث الآن وإلا فليصمت إلى الأبد...»

صمت رجل الدين قليلاً، مفسحاً المجال أمام فترة دبلوماسية قبل أن يلفظ كلماته التالية: «إِذَا، أَعْلَنَكَمَا...»، حينها سُمِع صوت يقول: «أعارض».

استدار كل من إيما وهاري إلى الخلف ليريا من لفظ هذه الكلمة اللعينة.

نظر رجل الدين إلى الحشود غير مصدق، متسائلاً عمّا إذا كان سمعه قد خانته، لكنّ كل الرؤوس استدارت في محاولة لمعرفة الشخص الذي نطق بالكلمة غير المتوقعة. لم يكن رجل الدين قد عاش مثل هذه التجربة من قبل، وحاول يائساً تذكر ما يفترض به فعله في مثل هذه الظروف.

دفنت إيما رأسها في كتف هاري، فيما نظر هو إلى الحشود الغفيرة، محاولاً معرفة الشخص الذي سبب هذه الفوضى. افترض أنه والد إيما، لكنه عندما نظر إلى الصف الأمامي، رأى هوغو بارينغتون شاحباً مثل الموتى وهو يحاول أيضاً معرفة الشخص الذي أوقف مراسم الزفاف.

توجّب على رجل الدين ستايلر رفع صوته كي يتم سماعه بسبب الضجيج الشديد: «هل يستطيع الشخص الذي عارض هذا الزواج أن يعرف عن نفسه من فضلكم؟».

فوقف شخص طويل في الممشى، وبقيت كل العيون شاخصة على «الكابتن» تارانت فيما كان يتوجه صوب المذبح قبل أن يتوقف أمام رجل الدين. عندها، تشبثت إيما بهاري خشية ما سيقوله «الكابتن» لإبعادها عن هاري.

قال رجل الدين: «هل أفهم منك يا سيدي أنك تشعر بضرورة عدم إتمام هذا الزواج؟».

فأجاب العجوز جاك بهدوء: «هذا صحيح يا سيدي».

«إذاً، عليّ الطلب من العروس والعريس وأفراد عائلتيهما الانضمام إليّ في المكتب». ورفع صوته مضيفاً: «أطلب من المدعويين البقاء في أماكنهم إلى حين النظر في الاعتراض، واتخاذ قرار».

رافق رجل الدين أفراد العائلتين إلى مكتبه، ولحق بهم هاري وإيما. لم يتحدث أي منهما؛ بالرغم من الهمسات العالية التي سرت بين المدعويين.

وبعد أن دخل أفراد العائلتين إلى المكتب الصغير، أغلق رجل ستايلر الباب، وبدأ كلامه بالقول: «حضرة «الكابتن» تارانت، عليّ إخبارك أنني الوحيد المخوّل حسب القانون بتقرير ما إذا كان يجب إتمام هذا الزواج أم لا. وبطبيعة الحال، لن أتخذ أي قرار قبل أن أسمع سبب اعتراضك».

الشخص الوحيد الذي بدا هادئاً في الغرفة المزدحمة هو العجوز جاك الذي قال: «شكراً لك. أولاً، أريد الاعتذار منكم جميعاً، ولاسيما من إيما وهاري، بسبب تدخلتي. لقد أمضيت الأسابيع القليلة الماضية وأنا أتعارك مع ضميري قبل أن أتوصل إلى هذا القرار المحزن. كان بوسعي اختيار الطريق السهل وإيجاد عذر لعدم حضور هذا الزفاف اليوم. وقد بقيت صامتاً حتى الآن على أمل حصول أي شيء يمنع الزواج. لكن لم يحدث ذلك؛ لأن حب هاري وإيما لبعضهما كبر على مرّ السنوات ولم يصغر، ولهذا السبب بات يستحيل عليّ البقاء صامتاً لوقت أطول».

كان الجميع مأخوذين بكلمات العجوز جاك، حيث كانت إليزابيت بارينغتون الوحيدة التي لاحظت أن زوجها قد انسحب بهدوء من الباب الخلفي لمكتب رجل الدين.

قال رجل الدين ستايلر: «شكراً لك «كابتن» تارانت. صحيح أنني أقبل تدخلك بروح طيبة، لكنني أريد أن أعرف التهم الموجهة تحديداً إلى هذين الشابين».

«لا يوجد شيء ضد هاري وإيما اللذين أحترمهما وأحبهما، وأعتقد أنه لا علم لهما بالحقيقة؛ تماماً مثل الآخرين. اعتراض هو ضد هوغو بارينغتون الذي عرف طوال أعوام عدة أنه يحتمل أن يكون والد هذين الشابين معاً».

عندها، سمع أصوات الشهيق ترتفع في أرجاء الغرفة، فيما حاول الجميع استيعاب فداحة هذا الكلام. لم يقل رجل الدين أي شيء قبل أن يتمكن من السيطرة على دهشته. «هل من شخص موجود هنا ويستطيع تأكيد أو دحض كلام «الكابتن» تارانت؟».

عندها قالت إيما وهي لا تزال متشبثة بهاري: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لا بد من وجود خطأ ما. لا يستطيع والدي...»

في تلك اللحظة، أدرك الجميع أن والد العروس لم يعد موجوداً بينهم. حوّل رجل الدين انتباهه إلى السيدة كليفتون التي كانت تبكي بهدوء.

قالت: «لا أستطيع إنكار مخاوف «الكابتن» تارانت». ثم صمت لبعض الوقت قبل أن تتابع: «أعترف أنني قمت بعلاقة حميمة مع السيد بارينغتون ذات مرة». وصمت مجدداً ثم تابعت: «مرة واحدة

فقط، ولكن قبل أسابيع قليلة فقط من زواجي»- ورفعت رأسها ببطء-  
«ولذلك لا مجال أبداً لكي أعرف من هو والد هاري».

قال العجوز جاك: «عليّ الإشارة لكم جميعاً إلى أن هوغو بارينغتون  
قد هدّد السيدة كليفتون في أكثر من مناسبة كي لا تفضح هذا السر  
الخطير».

قال السير والتر برفق: «سيدة كليفتون، هل يمكنني أن أطرح عليك  
سؤالاً؟».

أومات مايزي برأسها، رغم أنها أبقتة منخفضاً.

«هل عانى المرحوم زوجك من عمى الألوان؟».

فأجابت بصوت منخفض لا يمكن سماعه تقريباً: «ليس حسب

علمي».

ثم استدار السير والتر صوب هاري: «لكنك مصاب به يا بني، أليس  
كذلك؟».

فأجاب هاري من دون تردد: «نعم سيدي. لكن، لمّ هذا الأمر

مهم؟».

فقال السير والتر: «لأنني مصاب بعمى الألوان؛ تماماً مثل ابني

وحفيدي. إنها صفة وراثية أصابت عائلتنا منذ أجيال عدة».

أخذ هاري إيما بين ذراعيه قائلاً: «أقسم لك يا حبيبتي إنني لم أكن

أعلم أي شيء عن هذا».

فقالت إليزابيث بارينغتون متحدثة للمرة الأولى: «طبعاً لم تكن

تعلم. الشخص الوحيد الذي كان يعلم هو زوجي، ولم يملك الشجاعة

للمواجهة والاعتراف. ولو فعل، لما حصل أي من هذا». ثم استدارت صوب اللورد هارفي وقالت: «أبي، هل يمكنك أن تشرح لضيوفنا سبب عدم استمرار هذا الاحتفال؟».

فأوماً اللورد هارفي برأسه قائلاً: «اتركي الأمر لي. لكن، ماذا ستفعلين؟».

«سأخذ ابنتي إلى أبعد مكان ممكن».

قالت إيما: «لا أريد الذهاب بعيداً، إلا برفقة هاري».

قالت إليزابيث: «أعتقد أن والدك لم يترك لنا أي خيار». وأمسكت بذراع ابنتها برفق، لكن إيما استمرت في التشبث بهاري إلى أن همس لها: «أخشى أن أمك محقة يا حبيبتي. لكن ثمة شيء لا يستطيع والدك فعله، وهو منعي من حبك. فحتى لو بقي يوم واحد من حياتي، سأثبت أنه ليس والدي».

اقترح رجل الدين: «يجدر بك ربما المغادرة من الباب الخلفي يا سيدة بارينغتون». عندها، أفلتت إيما يد هاري على مضض وسمحت لأمها بأخذها بعيداً.

أخرجهما رجل الدين من المكتب ورافقهما في ممر ضيق وصولاً إلى باب تفاجأ أنه غير مقفل، وقال لهما قبل إخراجهما:

«فليكن الله بعونكما».

رافقت إليزابيث ابنتها إلى خارج دار العبادة وصولاً إلى سيارة الرولز رويس. وتجاهلت أولئك المدعوين الذين خرجوا لتنشق الهواء أو تدخين



سيجارة، والذين لم يحاولوا إخفاء فضولهم عندما ملحوا المرأتين تجلسان مجدداً على مقعد السيارة الخلفي.

فتحت إليزابيث باب سيارة الرولز، وساعدت ابنتها في الجلوس على المقعد الخلفي قبل أن يلمحها السائق الذي كان واقفاً قرب باب دار العبادة؛ إذ لم يتوقع أن يخرج العريس والعروس قبل نصف ساعة، وذلك حين تدق الأجراس معلنة للعالم زواج السيد والسيدة كليفتون. وما إن سمع السائق باب السيارة يغلق حتى أطفأ سيجارته، وركض صوب السيارة وجلس خلف المقود.

قالت إليزابيث: «عد بنا إلى الفندق».

لم تتحدث أي منهما مجدداً قبل الوصول إلى الغرفة. واستلقت إيما على السرير مجهشة بالبكاء، فيما ربّت إليزابيث على شعرها مثلما كانت تفعل حين كانت ابنتها صغيرة.

بكت إيما: «ماذا سأفعل؟ لا أستطيع التوقف عن حب هاري فجأة».

قالت أمها: «أنا واثقة من أنك لن تتوقفي عن محبته أبداً. لكن القدر أصرّ على عدم وجودكما معاً إلا قبل التثبّت من هوية والد هاري». ثم تابعت التريبت على شعر ابنتها، وظنت أنها نامت، إلى أن أضافت إيما بهدوء: «ماذا سأقول لابني عندما يسألني عن والده؟».

## هاري كليفتون 1939-1940

الشيء الوحيد الذي أذكره بعد أن غادرت إيما ووالدتها دار العبادة هو أن الجميع بدوا هادئين؛ لا هستيريا، ولا إغماء، ولا أصوات مرتفعة. قد يسامح الزائر لعدم إدراكه كم تبدلت حياة العديد من الأشخاص إلى غير رجعة، لا بل تحطمت. كم هو قاسٍ هذا السلوك بريطاني. لم يرغب أحد في الاعتراف بأن حياته الشخصية قد تحطمت خلال ساعة واحدة. حسناً، عليّ الاعتراف بأن حياتي قد تحطمت.

وقفت بصمت مطبق، فيما أدى الممثلون الآخرون أدوارهم. لقد أنجز العجوز جاك ما اعتبره واجبه نوعاً ما؛ رغم أن شحوب بشرته والخطوط العميقة التي بدت على وجهه دلّت على غير ذلك. كان بوسعه اختيار الطريق السهل ورفض دعوتنا إلى الزفاف بكل بساطة، لكنّ الفائزين بوسام النصر لا يهربون.

إليزابيث بارينغتون مصنوعة من ذلك المعدن الذي أثبت أنها مثل أي رجل آخر عند وضعها على المحك؛ بورتيا الجميلة لم تتزوج من بروتوس.

فيما نظرتُ حولي في أرجاء المكتب بانتظار عودة رجل الدين، شعرت بحزن شديد على السير والتر الذي رافق حفيدته ليسلمها إلى زوجها المستقبلي ولم يربح حفيداً بل خسر ابناً؛ لأنه مثلما قال العجوز جاك قبل أعوام عدة «ليس من الطينة نفسها» مثل والده.

خشيت أمي الحبيبة الاستجابة عندما حاولت أخذها بين ذراعيّ  
والتعبير لها عن حبي، فقد اعتقدت بشكل جليّ أنها الوحيدة المسؤولة  
عن كل ما حصل اليوم.

وجيل أصبح رجلاً بعد أن هرب والده من مكتب رجل الدين  
للاختباء في مكان ما، تاركاً مسؤولية الاهتمام بنتائج أعماله للآخرين. مع  
الوقت، سيدرك العديد من الأشخاص الذين كانوا حاضرين أن ما حصل  
في ذلك اليوم كان بمثابة كارثة بالنسبة لكل من جيل وإيما.

وأخيراً، كان اللورد هارفي مثلاً لنا جميعاً بشأن كيفية التصرف في  
محنة. فعندما عاد رجل الدين اتفقنا بين بعضنا على أن يتوجه اللورد  
هارفي إلى المدعوين متكلماً باسم العائلتين.

قال: «أريد أن يقف هاري إلى يميني؛ لأنني أرغب في أن أوضح  
لجميع الحاضرين أنه ما من لوم يلقي عليه أبداً؛ تماماً مثلما قالت ابنتي  
إليزابيت».

ثم استدار صوب أمي وقال: «سيدة كليفتون، أتمنى أن تكوني لطيفة  
كفاية وتقفني إلى يساري. شجاعتك كانت مثلاً لنا جميعاً، ولواحد بيننا  
تحديداً.

أتمنى أن يقف «الكابتن» تارانت بجانب هاري، أما جيل فيجب أن  
يقف قربته. حضرة السير والتر، يجدر بك ربما الوقوف قرب السيدة  
كليفتون، فيما سيقف بقية أفراد العائلة خلفنا. دعوني أوضح لكم جميعاً  
أن لديّ هدفاً واحداً في كل هذه المأساة؛ وهو التأكيد لجميع الحاضرين  
في دار العبادة هذه اليوم أننا سنحل هذه المشكلة، حيث لا يقول أحد  
يوماً إننا كنا عائلة منقسمة».

ومن دون إضافة أية كلمة أخرى، رافق مجموعته الصغيرة إلى خارج مكتب رجل الدين.

عندما رأى المدعوون أهل العروسين يعودون، لم يحتج اللورد هارفي إلى طلب الصمت منهم. وقف كل منا في المكان المحدد له، كما لو أننا على وشك التقاط صورة عائلية ستشق طريقها لاحقاً إلى ألبوم زفاف.

بدأ اللورد هارفي كلامه بالقول: «أيها الأصدقاء، لقد طُلب مني إبلاغكم نيابة عن العائلتين بأن الزواج بين حفيدتي إيما بارينغتون، والسيد هارفي كليفتون لن يتم اليوم، ولا في أي يوم آخر ربما». كانت الكلمات الأخيرة قاسية جداً، حيث تلاشى أي أمل بإمكانية حل المسألة يوماً ما. وتابع قائلاً: «عليّ الاعتذار منكم جميعاً إذا كنا قد أزعجناكم بصورة أو بأخرى، لكن الأمر لم يكن مقصوداً حتماً. وأخيراً، أريد أن أشكركم على حضوركم اليوم، وأتمنى لكم عودة سعيدة إلى منازلكم».

لست واثقاً مما حصل بعد ذلك، ولكن واحداً أو اثنين من المدعوين نهضا من مكانيهما وبدأا يشقان طريقهما ببطء إلى خارج دار العبادة. وبعد لحظات، خرج المدعوون في دفع مطرد، إلى أن بقينا نحن الواقفين على الدرج الأشخاص الوحيديين الباقين في دار العبادة.

شكر اللورد هارفي رجل الدين، وصافحني بحرارة قبل أن يرافق زوجته في ممشى دار العبادة ومن ثم إلى خارجها.

استدارت أمي صوبي وحاولت التكلم، ولكن مشاعرها تغلبت عليها. وجاء العجوز جاك لإنقاذنا، فأمسكها من ذراعها برفق ورافقها، فيما رافق السير والتر غرايس وجيسيكا. لا شك في أن الأمهات والإشبينات لا يردن تذكّر هذا اليوم طوال حياتهن.

كنا أنا وجيل آخر من غادر دار العبادة. لقد دخل دار العبادة بصفته إشبيني، وها هو يغادرها الآن متسائلاً عما إذا كان أخي غير الشقيق. يقف بعض الأشخاص معك في محنتك، فيما يتركك أشخاص آخرون وحيداً. قليلون فقط من يأتون إليك ويصبحون أكثر قرباً منك.

بعد أن ودّعنا رجل الدين ستايلر الذي بدا عاجزاً عن إيجاد الكلمات للتعبير عن مدى أسفه، مشينا أنا وجيل على الرصيف المرصوف بالحصى وعدنا إلى جامعتنا. لم نتفوه بأية كلمة فيما سعدنا السلم الخشبي المؤدي إلى غرفتي وجلسنا على الكرسيين الجلديين القديمين وسط صمت مطبق.

جلسنا بمفردنا فيما تحوّل النهار ببطء إلى ليل. كلمات مبعثرة، من دون معنى أو منطق. وعندما ظهرت أولى علامات العتمة، طرح عليّ جيل سؤالاً لم يخطر في بالي منذ أعوام.

«هل تذكر أول مرة زرتَ فيها أنت وديكنز مانور هاوس؟».

«وكيف يمكنني أن أنسى؟! كان ذلك في ذكرى ميلادك الثانية عشرة، وقد رفض والدك حينها مصافحتي».

«هل تساءلت يوماً عن السبب؟».

فقلت: «أعتقد أننا اكتشفنا السبب اليوم». وحاولت ألا أبدو متبلدّ المشاعر كثيراً.

قال جيل بهدوء: «لا، لم نكتشفه. اكتشفنا اليوم احتمال أن تكون إيما أختك غير الشقيقة. لكنني أدرك الآن السبب الذي دفع والدي إلى إبقاء علاقته بأمك سرية طوال كل تلك الأعوام؛ فقد خشي أن تكتشف أنت أنك ابنه».

قلتُ محدقاً إليه: «لا أفهم الفرق».

«إذاً، من المهم أن تتذكر السؤال الوحيد الذي طرحه عليك والدي في ذلك اليوم».

«سألني عن اليوم الذي وُلدتُ فيه».

«صحيح. وعندما اكتشف أنك أكبر مني ببضعة أسابيع فقط غادر الغرفة من دون أية كلمة. ولاحقاً، عندما عدنا إلى المدرسة لم يخرج من مكتبه ليودعنا؛ رغم أنني كنت أحتفل بذكرى ميلادي. لقد أدركت اليوم معنى تصرفاته».

سألته: «كيف يمكن لهذا الحادث البسيط أن يكون ذا أهمية بعد كل تلك السنوات؟».

«لأنه في تلك اللحظة أدرك والدي أنك قد تكون ابنه البكر، وأنه حين يموت ستكون أنت، وليس أنا، من سيرث لقب العائلة والعمل وكل ممتلكاته المادية».

«لكن، لا شك في أن والدك يستطيع ترك ممتلكاته لمن يريد، ولن أكون أنا حتماً».

فقال جيل: «ليت الأمر كان بهذه البساطة. لكن مثلما يذكرني جدي غالباً، حصل والده السير جوشوا بارينغتون على سيف تقدير من الملكة فيكتوريا عام 1877 بفضل خدماته في صناعة السفن. وقد ذكر في وصيته أن تذهب كل ألقابه، وممتلكاته، وأغراضه إلى أول ابن على قيد الحياة؛ على الدوام».

فقلت محاولاً طمأنته: «لكنني لست مهتماً بالمطالبة بما ليس لي».

قال جيل: «أنا واثق من أنك لن تفعل، لكنك لا تملك أي خيار في هذه المسألة؛ فعندما يحين الوقت، سيلزمك القانون بأن تصبح على رأس عائلة بارينغتون».

غادرتني جيل بعد منتصف الليل للعودة إلى غلاوسسترشاير، ووعدني بمعرفة ما إذا كانت إيما لا تزال راغبة في رؤيتي؛ إذ افترقنا من دون أن نودّع بعضنا، وقال إنه سيعود إلى أوكسفورد ما إن يحصل على أي معلومات.

لم أنم تلك الليلة، وتسارعت الكثير من الأفكار في عقلي، حتى إنني فكرت لهنيهة في الانتحار، مجرد هنيهة. لكنني لا أحتاج إلى العجوز جاك لتذكيري بأنه حل الجبناء.

لم أترك غرفتي طوال الأيام الثلاثة التالية. ولم أجب على الطرق الخفيف على الباب، كما لم أجب على الهاتف عندما رنّ. لم أفتح الرسائل التي تم دفعها من تحت الباب. كان من غير اللائق ربما ألا أجب على الذين أرادوا التعاطف معي، لكن فرط العطف أحياناً قد يكون مزعجاً أكثر من الوحدة.

عاد جيل إلى أوكسفورد في اليوم الرابع. ولم يحتج إلى التكلم معي لأدرك أن أخباره لن تفرحني. إذ تبين أن الأمور أسوأ بكثير مما توقعت. فقد غادرت إيما ووالدها إلى قصر مولجلري حيث كان يفترض بنا قضاء شهر العسل، من دون السماح باقتراب أي شخص لمسافة عشرة أميال. وطلبت السيدة بارينغتون من محاميها الشروع في معاملات الطلاق، ولكنهم عجزوا عن تقديم أي أوراق لأن أحداً لم يرَ زوجها منذ خروجه



خلسة من مكتب رجل الدين. كما استقال اللورد هارفي والعجوز جاك من مجلس أمناء شركة بارينغتون، لكن احتراماً للسير والتر لم يعلن أي منهما عن سبب استقالته؛ رغم أن هذا لم يمنع الإشاعات من الانتشار. وتركت أمي ملهى إيدي الليلي وبدأت بالعمل كنادلة في غرفة الطعام في فندق غراند.

سألته: «ماذا عن إيما؟ هل سألتها...»

أجاب جيل: «لم تتح لي فرصة التكلم معها. فقد غادرتا إلى اسكوتلندا قبل وصولي، لكنها تركت لك رسالة على الطاولة». أحسستُ بقلبي يخفق بسرعة أكثر حين سلمني مغلفاً عليه خط مألوف. «إذا أردت تناول بعض الطعام لاحقاً، فسأكون في غرفتي».

قلت: «شكراً».

جلست على كرسيّ قرب النافذة، من دون أن أرغب في فتح الرسالة التي عرفت أنها لن تعطيني أي بصيص أمل. وأخيراً، مزّقت المغلف وأخرجت ثلاث صفحات مكتوبة بخط إيما المرتب. ورغم ذلك، مرّ بعض الوقت قبل أن أقرأ كلماتها.

مانور هاوس

تشو فالي

غلاوسسترشاير

29 يوليو 1939

حبيبي هاري

إنه منتصف الليل، وها أنا أجلس في غرفتي وأكتب للرجل الوحيد  
الذي أحببته. كتأكت

الكراهية الشديدة التي أكنها لوالدي- الذي لا يمكنني أن أسامحه  
أبدًا- تحولت إلى هدوء مفاجئ. ولذلك عليّ كتابة هذه الكلمات قبل أن  
يعود الاتهام المضاد والمزير لتذكيري بما حرمننا منه ذلك الرجل المخادع.

أتمنى فقط لو أننا استطعنا الافتراق كعاشقين، وليس كغريبين في  
قاعة مزدحمة، بعد أن قرر القدر ألا نقول أبدًا عبارة «حتى يفرقنا  
الموت»؛ رغم أنني واثقة من أنني سأذهب إلى قبوري وقد أحببت رجلًا  
واحدًا فقط.

لن أكتفي أبدًا بذكرى حبك؛ لأنه طالما أنه لا يزال هناك أمل ضئيل  
بأن يكون آرثر كليفتون والدك، فكن على ثقة يا حبيبي بأنني سأبقى  
على حبك.

ماما مقتنعة بأنه مع مرور الوقت سوف تضحل ذكراك؛ تمامًا مثل  
شمس المساء، ثم ستختفي أخيرًا قبل أن يشرق فجر جديد. يبدو أنها لا  
تذكر أنها قالت لي يوم زفافي إن حبنا لبعضنا بعضاً نقي وبسيط ونادر  
جدًا، حيث سيصمد حتمًا أمام الوقت؛ وهو أمر حسدتنا عليه لأنها لم  
تعرف هذه السعادة مطلقًا.

لكن إلى أن أصبح زوجتك يا حبيبي، أنا مصرة على ضرورة بقائنا  
منفصلين؛ إلى أن يتضح أننا نستطيع الزواج قانونيًا. لن يستطيع أي رجل  
آخر أن يأخذ مكانك، وسأبقى عزباء عند الضرورة بدل أن أتزوج من  
رجل آخر.

أتساءل عمّا إذا كان سيأتي اليوم الذي لا أشتاق فيه إليك وأتوقع  
إيجادك قربي، وعمّا إذا كان بوسعي النوم من دون أن أهمس باسمك.  
أنا مستعدة للتضحية ببقية حياتي لقضاء سنة أخرى مثل تلك التي  
تشاركناها معاً، ولا يستطيع أي شيء أن يبدّل مشاعري. أدعو أن يأتي  
اليوم الذي سنجتمع فيه معاً أمام الله والأشخاص أنفسهم. لكن حتى  
ذلك الحين يا حبيبي، سأبقى زوجتك المحبة في كل شيء، ما عدا الاسم.

إيما

عندما استجمع هاري قواه أخيراً لفتح الرسائل الكثيرة المبعثرة على الأرض، صادف رسالة من سكرتيرة العجوز جاك في لندن.

ساحة سوهو، لندن

الأربعاء 2 أغسطس 1939

عزيزي السيد كليفتون،

قد لا تتلقى هذه الرسالة إلا بعد عودتك من شهر العسل في اسكوتلندا، لكنني أتساءل عما إذا كان «الكابتن» تارانت قد مكث في أوكسفورد بعد الزفاف. فهو لم يعد إلى المكتب صباح الاثنين، ولم أره منذ ذلك الحين. لذا، أتساءل عما إذا كنت تعرف أين أستطيع الاتصال به.

أتطلع إلى سماع خبر منك

مع أطيب التمنيات

فيليس واتسون

نسي العجوز جاك إخبار الأنسة واتسون أنه ذاهب إلى بريستول لقضاء بضعة أيام مع السير والتر، وذلك ليوضح أنه بالرغم من كونه السبب في تعطيل الزواج، وبالرغم من استقالته من مجلس أمناء شركة

بارينغتون، إلا أنه لا يزال صديقاً مقرباً من رئيس مجلس الإدارة. وبما أنه لم تكن هناك رسالة ثانية من الأنسة واتسون بين كومة الرسائل غير المفتوحة، افترض هاري أن العجوز جاك قد عاد إلى ساحة سوهو، وبات وراء مكتبه.

أمضى هاري كل فترة قبل الظهر في الإجابة على كل الرسائل التي تركها غير مفتوحة. فقد أعرب العديد من الأشخاص عن تعاطفهم؛ ليس خطأهم إن كانوا يذكرونه بتعاسته. فجأة، قرّر هاري أنه عليه الابتعاد عن أوكسفورد قدر الإمكان. لذا، رفع سماعة الهاتف، وطلب من الموظفة إجراء اتصال بلندن. وبعد نصف ساعة، عاودت الاتصال به لتخبره أن الرقم مشغول على الدوام. حاول بعد ذلك الاتصال بالسير والتر في شركة بارينغتون، لكن الهاتف رنّ ورنّ من دون أن يتلقى إجابة. عندها، أحس بالإحباط بسبب عدم قدرته على الاتصال بأي منهما، وقرر تنفيذ إحدى نصائح العجوز جاك: أدر ظهرك وافعل شيئاً إيجابياً.

أمسك بالحقيبة التي وضّبها لشهر عسله في اسكوتلندا، وغادر غرفته، وأخبر البواب أنه مسافر إلى لندن، وأنه لن يعود إلا في أول يوم من الفصل الدراسي. ثم أضاف قائلاً: «إذا سأل جيل بارينغتون عن مكاني، فقل له من فضلك إنني ذهبت للعمل مع العجوز جاك».

كرر البواب: «العجوز جاك». فيما دوّن الاسم على قصاصة ورقية.

خلال رحلة القطار إلى بادينغتون، قرأ هاري في جريدة التايمز عن آخر المراسلات الحاصلة بين وزارة الخارجية في لندن ووزارة الخارجية في برلين. وبدأ يفكر في أن السيد تشامبرلاين في هذا الوقت هو الشخص الوحيد الذي ما زال يعتقد بوجود احتمال ليحل السلام. وقد توقّعت

جريدة التايمز ألا يصمد رئيس الوزراء في منصبه إذا تحداه الألمان ودخلوا بولندا.

تابعت الجريدة بالقول إنه سيتم في النهاية تشكيل حكومة ائتلاف برئاسة وزير الخارجية اللورد هاليفكاس (الموثوق به)، وليس وينستون تشرشل (الذي لا يمكن توقع قراراته). وبالرغم من امتعاض الجريدة الواضح من تشرشل، إلا أن هاري لم يصدق أن بريطانيا تحتاج إلى شخص موثوق في هذا الوقت المحدد من التاريخ، وإنما إلى شخص لا يخاف من التنمر على متنمر.

عندما نزل هاري من القطار في بادينغتون، رأى أمامه مجموعة من البذلات العسكرية مختلفة الألوان الآتية من كل صوب. لقد قرّر أصلاً الخدمة التي يريد الانضمام إليها لحظة إعلان الحرب. خطرت فكرة حزينة في رأسه عندما ركب الحافلة المتجهة إلى سيرك بيكاديلي: إذا قُتل أثناء خدمته بلده، فسيحلّ ذلك كل مشاكل عائلة بارينغتون؛ باستثناء مشكلة واحدة.

عندما وصلت الحافلة إلى بيكاديلي، نزل هاري منها وبدأ يشق طريقه بين المهرجين العاملين في سيرك ويست إند، عبر أرض المسرح، ومرّ أمام المطاعم والمقاهي التي بدت مصممة على تجاهل أي اقتراح للحرب. بدا رتل المهجّرين الداخلين والخارجين من المبنى في ساحة سوهو أطول وأكثر فوضوية مما كان عليه في أول زيارة له إلى هذا المكان. مجدداً، صعد السلام المؤدية إلى الطابق الثالث، فوقف العديد من اللاجئيين جانباً على افتراض أنه واحد من الموظفين. وأمل أن يصبح هكذا قريباً.

عندما وصل إلى الطابق الثالث، توجه مباشرة إلى مكتب الأنسة واتسون فوجدها تملأ استمارات، وتوزع بطاقات للقطار، وترتب أماكن

إقامة، وتعطي القليل من المال النقدي للأشخاص البائسين. أشرق وجهها عندما رأت هاري وقالت له: «أخبرني أن «الكابتن» تارانت قد جاء معك». كانت تلك أولى كلماتها.

فقال هاري: «لا، لم يفعل. اعتقدت أنه عاد إلى لندن، ولهذا السبب جئت إلى هنا. كنت أتساءل عما إذا كنت بحاجة إلى المساعدة».

قالت: «أنت لطيف جداً يا هاري، لكن أكثر شيء مفيد يمكنك فعله الآن هو إيجاد «الكابتن» تارانت. فالمكان يعجّ بالفوضى من دونه».

قال هاري: «آخر ما سمعته هو أنه يقيم مع السير والتر بارينغتون في منزله في غلاوسستر؛ لكن هذا كان قبل أسبوعين تقريباً».

فقالت الأنسة واتسون: «لم نره منذ أن ذهب إلى أوكسفورد لحضور زفافك». فيما حاولت مواساة مهاجرين لا يتكلمان الإنكليزية أبداً.

سأل هاري: «هل اتصل أحد بشقته لمعرفة ما إذا كان هناك؟».

فأجابت الأنسة واتسون: «إنه لا يملك هاتفاً، وأنا لم أذهب تقريباً إلى منزلي خلال الأسبوعين الماضيين». فيما أشارت إلى الرتل الطويل جداً الممتد أمامهما.

«لم لا أبدأ من هناك ثم أخبرك بما سأجده؟».

قالت الأنسة واتسون: «هلاً تفعل ذلك». وحين أجهشت فتاتان صغيرتان بالبكاء طمأنتهما قائلة: «لا تبكيا. سيكون كل شيء على ما يرام». ثم ركعت وطوّقتهما بذراعيها.

سأل هاري: «أين يعيش؟».

«في الرقم ثلاثة وعشرين، قصور الأمير إدوار، جادة لامبيث. استقل الحافلة رقم أحد عشر إلى لامبيث، واسأل هناك عن الطريق. شكراً لك يا هاري».

استدار هاري وتوجّه صوب السلام. ثمّة خطب ما بالتأكيد؛ فالعجوز جاك لا يترك عمله أبداً من دون أن يذكر السبب للآنسة واتسون. صرخت الآنسة واتسون مخاطبة إياه فيما كان يتعد: «نسيت أن أسألك، كيف كان شهر العسل؟».

شعر هاري أنه أصبح بعيداً كفاية ليتظاهر بعدم سماعها.

عاد إلى سيرك بيكاديلي، وركب في حافلة من طبقتين مزدحمة جداً بالجنود. توجّهت الحافلة إلى وايتهاول التي كانت مليئة بالجنود، ومن ثم إلى ساحة البرلمان حيث احتشد الكثير من المتفرجين في انتظار أي معلومات يمكن أن تصدر من مجلس الشيوخ. تابعت الحافلة طريقها عبر جسر لامبيث، ونزل هاري منها عندما وصلت إلى سدّ ألبير.

أرشد بائع جرائد كان يصرخ بريطانيا تنتظر جواب هتلر هاري إلى ثاني منعطف إلى اليسار، ومن ثم ثالث منعطف إلى اليمين، قبل أن يضيف: «ظننتُ أن الجميع يعرفون أين تقع جادة لامبيث».

بدأ هاري يركض مثل رجل مطارد، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى أمام مجموعة من الشقق المتهدمة كثيراً، حيث تساءل عن سبب إطلاق اسم الأمير ألبير عليها. دفع باباً لن يصمد كثيراً مع تلك المفصلات، وصعد بسرعة مجموعة من السلام متوخياً الحذر من كومات النفايات التي لم تتم إزالتها منذ أيام.



وعندما وصل إلى الطابق الثاني، توقف أمام الرقم 23 وطرق على الباب بقوة، ولكن من دون جواب. طرق مجدداً بقوة أكبر، ولكن من دون جواب. عندها، نزل السلام مسرعاً بحثاً عن شخص يعمل في المبنى، وعندما وصل إلى الطابق السفلي وجد شخصاً عجوزاً مسترخياً على كرسي قديم جداً، يدخن سيجارة ويقلب صفحات دايلي ميورر.

سأله هاري بحدّة: «هل رأيت «الكابتن» تارانت مؤخراً؟».

فأجاب الرجل وقد وقف على قدميه بتأهب عندما سمع لكنة هاري: «ليس خلال الأسبوعين الماضيين».

عندها سأله هاري: «هل تملك مفتاحاً لشقته؟».

«نعم يا سيدي. لكنني لا أستطيع استعماله إلا في الحالات الطارئة».

فقال هاري: «أؤكد لك أنها حالة طارئة». فيما استدار وصعد السلام مجدداً من دون انتظار جوابه.

لحق به الرجل، وإن لم يكن بسرعة كبيرة. وعندما وصل إلى الشقة، فتح الباب. تحرك هاري بسرعة من غرفة إلى أخرى، ولكنه لم يجد أي أثر للعجوز جاك. آخر باب وصل إليه كان مغلقاً. طرق عليه بهدوء، وقد خشي الأسوأ. وعند عدم حصوله على أي جواب، دخل بحذر فوجد السرير مرتباً ومن دون أثر لأحد. لا بد أنه لا يزال مع السير والتر، كانت تلك أول فكرة خطرت في بال هاري.

شكر البواب، ونزل السلام مجدداً وعاد إلى الشارع فيما كان يحاول استجماع أفكاره. أوقف سيارة أجرة، إذ لم يشأ تبديد الوقت في الحافلات في مدينة لا يعرفها.

«محطة بادينغتون. أنا مستعجل».

فقال سائق السيارة فيما انطلق: «يبدو الجميع مستعجلاً اليوم».

بعد عشرين دقيقة، كان هاري واقفاً في المحطة رقم 6، لكن توجب عليه الانتظار خمسين دقيقة أخرى قبل أن ينطلق القطار إلى تمبل ميدز. استفاد من ذلك الوقت في تناول شطيرة وكوب من الشاي، والاتصال بالآنسة واتسون لإخبارها بأن العجوز جاك لم يعد إلى شقته. بدت أكثر انزعاجاً مما كانت عليه عندما تركها، فقال لها: «أنا في طريقي إلى بريستول. سأصل بك ما إن أجده».

وفيما شق القطار طريقه خارج العاصمة عبر شوارع المدينة المليئة بالضباب والدخان وصولاً إلى الهواء النظيف في الأرياف، قرّر هاري أنه لا يملك أي خيار سوى التوجه مباشرة إلى مكتب السير والتر في أحواض السفن، حتى لو عنى ذلك أن يلتقي هوغو بارينغتون. فالتحور على العجوز جاك أهم من أي شيء آخر.

وبعد أن توقف القطار في تمبل ميدز، عرف هاري الحافلتين اللتين يحتاج إلى الركوب فيهما من دون الحاجة إلى سؤال بائع الجرائد الواقف عند الزاوية وهو يصرخ بأعلى صوته بريطانيا تنتظر جواب هتلر. العنوان نفسه، وإنما هذه المرة بلكنة بريستولية. بعد ثلاثين دقيقة، وصل هاري إلى بوابات أحواض السفن.

سأله حارس لم يتعرف إليه: «هل أستطيع مساعدتك؟».

أجاب هاري: «لديّ موعد مع السير والتر؟». وأمل ألا يتم الاستفسار عن هذا.

«طبعاً سيدي. هل تعرف الطريق إلى مكتبه؟».

أجاب هاري: «نعم، شكراً». وبدأ يمشي ببطء صوب مبنى لم يدخله من قبل قط. بدأ يفكر في ما قد يفعله إذا صادف هوغو بارينغتون وجهاً لوجه قبل أن يصل إلى مكتب السير والتر.

فرح لدى رؤيته سيارة الرولز الرويس الخاصة برئيس مجلس الإدارة مركونة في مكانها الاعتيادي، وارتاح أكثر حين لم يرَ أي أثر لسيارة البوغاتي الخاصة بهوغو بارينغتون. كان على وشك الدخول إلى شركة بارينغتون هاوس عندما نظر إلى المقطورة البعيدة. هل هذا ممكن؟! بدّل اتجاهه ومشى صوب المقطورة البومنان، مثلما كان العجوز جاك يسميها بعد تناوله الكأس الثانية من الشراب.

عندما وصل هاري إلى المقطورة، طرق على الباب الزجاجي برفق كما لو أنه باب منزل كبير. لم يظهر كبير الخدم، ولذلك فتح الباب ودخل. مشى في الرواق المؤدي إلى الدرجة الأولى، ورآه هناك جالساً على مقعده الاعتيادي.

إنها المرة الأولى التي يرى فيها هاري العجوز جاك واضعاً وسام النصر.

جلس هاري على المقعد قبالة صديقه، وتذكر أول مرة جلس فيها في هذا المكان. كان حينها في الخامسة من عمره تقريباً، ولم تصل قدماه إلى الأرض. ثم تذكر المرة التي هرب فيها من سانت بيد وأقنعه العجوز بالعودة إلى هناك في الوقت المناسب لتناول الفطور. كما تذكر حين جاء العجوز جاك لسماعه وهو ينشد منفرداً في دار العبادة، وفي تلك المرة التي تغير فيها صوته. في ذلك اليوم، اعتبر العجوز جاك ما حصل عقبه بسيطة. ثم جاء اليوم الذي علم فيه أنه فشل في الحصول على منحة دراسية لمدرسة القواعد في بريستول، وكانت تلك عقبه مهمة. وبالرغم

من فشله، أعطاه العجوز جاك ساعة إنغرسول التي لا يزال يضعها حتى اليوم. لا بدّ أنها كلّفته كل قرش كان يملكه. وفي العام الدراسي الأخير لهاري، سافر العجوز جاك من لندن لرؤيته وهو يؤدي دور روميو، وعرفه هاري على إيما للمرة الأولى. ولن ينسى أبداً يوم خطابه الأخير؛ عندما جلس جاك على المسرح بصفته رئيساً لمدرسته القديمة، وراقب هاري أثناء حصوله على جائزة اللغة الإنكليزية.

والآن، لن يتمكن هاري أبداً من شكره على الكثير من أفعال الصداقة التي قدّمها له على مرّ الأعوام، والتي لا يمكن إيفاؤها حقها من التقدير. حدّق إلى الرجل الذي أحبه وافترض أنه لن يموت أبداً. وفيما جلسا هناك في مقطورة الدرجة الأولى، غابت الشمس عن حياة طفولته.

راقب هاري الحمالة أثناء وضعها في سيارة الإسعاف التي سرعان ما انطلقت بعيداً. أصيب بنوبة قلبية حسب ما قاله الطبيب.

لم يحتج هاري إلى الذهاب لإخبار السير والتر بأن العجوز جاك قد مات، لأنه عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، كان رئيس مجلس إدارة شركة بارينغتون جالساً قربه.

أول ما قاله له السير والتر: «أخبرني أنه لم يعد يملك أي سبب للعيش. خسرنا كلانا صديقاً مقرباً وعزيزاً».

إلا أن جواب هاري فاجأ السير والتر: «ما الذي ستفعله بهذه المقطورة بعد أن مات العجوز جاك الآن؟».

فأجاب السير والتر: «لن أسمح لأي كان بالاقتراب من هذا المكان طالما أنني رئيس مجلس الإدارة. فالمكان يحمل الكثير من الذكريات الشخصية بالنسبة إلي».

قال هاري: «وأنا أيضاً. أمضيت هنا وقتاً من طفولتي أكثر مما فعلت في منزلي».

عندها، قال السير والتر مبتسماً ابتسامة حزينة: «أو في الصف. كنت أراقبك من نافذة مكتبي. قلت لنفسي إنك بلا شك ولد مميز لأن العجوز جاك أراد قضاء ذلك الوقت الطويل معك».

ابتسم هاري حين تذكر كيف ابتكر العجوز جاك سبباً لحثه على العودة إلى المدرسة وتعلم القراءة والكتابة.

«ما الذي ستفعله الآن يا هاري؟ هل ستعود إلى أوكسفورد وتتابع تعليمك؟».

«لا يا سيدي. أخشى أننا أوشكنا على خوض الحرب...»

فقال السير والتر: «في نهاية هذا الشهر حسب تقديري.»

«حينها سأترك أوكسفورد على الفور وأنضم إلى البحرية. لقد أخبرت المشرف عليّ في الجامعة- السيد براينبريدج- بما أنوي فعله، وقد أكد لي أنني أستطيع العودة ومتابعة دروسي ما إن تنتهي الحرب.»

فقال السير والتر: «هذا نموذجي في أوكسفورد. فهم ينظرون دوماً إلى المدى البعيد. إذاً، سوف تذهب إلى دارتماوث لتصبح ضابطاً في البحرية؟».

«لا يا سيدي. ترعرعت بين السفن طوال حياتي. على أية حال، بدأ العجوز جاك حياته كجندي خاص ونجح في الترقى. فلم لا أفعل ذلك أنا أيضاً؟».

أجاب السير والتر: «بالفعل، لمّ لا؟ في الواقع، كان هذا أحد الأسباب التي جعلته دوماً متقدماً علينا نحن الذين خدمنا معه.»

«لم أكن أعرف أنكما خدمتما معاً.»

«أوه نعم. خدمت مع «الكابتن» تارانت في جنوب أفريقيا. كنت واحداً من بين الرجال الذين أنقذ حياتهم يوم حصل على وسام النصر، والبالغ عددهم أربعة وعشرين رجلاً.»

قال هاري: «هذا يفسر الكثير من الأمور التي لم أفهمها قط». ثم فاجأ السير والتر مجدداً بقوله: «هل أعرف أيّاً من الرجال الآخرين؟». فقال السير والتر: «فروب. في تلك الأيام، كان اسمه الملازم فروبيشر، والعريف هولكومب والد السيد هولكومب، والجندي ديكنز». فسأله هاري: «أهو والد ديكنز؟».

«نعم، سبروغ مثلما كنا نناديه. كان جندياً مهذباً جداً. لم يكن كثير الكلام، ولكن اتضح أنه شجاع جداً. خسر ذراعه في ذلك اليوم المشؤوم». صمت الرجلان، وتاه كل منهما في أفكاره حول العجوز جاك قبل أن يسأله السير والتر: «إذا لم تكن تنوي الذهاب إلى دارتماوث يا صغيري، فهل يمكنني أن أسألك كيف تنوي الانتصار في الحرب وحيداً». «سأخدم في أية سفينة تنقلني يا سيدي طالما أنها ستذهب للبحث عن أعداء جلالته».

«إذاً، أستطيع مساعدتك».

«هذا لطف منك يا سيدي. لكنني أريد الانضمام إلى سفينة حربية، وليس إلى سفينة ركاب أو سفينة تجارية».

عندها، ابتسم السير والتر مجدداً ثم قال له: «ستفعل يا عزيزي. لا تنسَ أنني أبقى دوماً على اطلاع بكل السفن التي تدخل وتخرج من هذه الأحواض، وأعرف معظم المسؤولين عنها. إذا فكرت في الأمر، فستجد أنني عرفت معظم آبائهم حين كانوا مسؤولين عن السفن. لمّ لا نذهب إلى مكتبي ونرى السفن التي يفترض بها دخول المرفأ والخروج

منه في الأيام القليلة المقبلة، والأهم من ذلك، معرفة السفينة التي يمكن أن تقلك على متنها؟».

«هذا لطف كبير منك سيدي، لكن هل أستطيع زيارة أمي أولاً؟ فقد لا تتاح لي فرصة رؤيتها مجدداً لبعض الوقت».

أجاب السير والتر: «هذا هو التصرف المناسب يا بني. وبعد أن تذهب لرؤية أمك، فلتأتِ إلى مكتبي في وقت متأخر من بعد الظهر. يفترض أن يمنحني ذلك الوقت الكافي للتحقق من لوائح السفن».

«شكراً يا سيدي. سأعود ما إن أطلع أمي على ما أنوي القيام به».

«حين تعود، أخبر الرجل الذي يقف عند البوابة أن لديك موعداً مع رئيس مجلس الإدارة، ولن تصادف حينها أية مشكلة في تجاوز حاجز الأمن».

قال هاري: «شكراً لك يا سيدي». فيما كبح ابتسامة.

«وانقل تحياتي إلى أمك العزيزة. إنها امرأة مميزة».

أدرك هاري السبب الذي جعل السير والتر الصديق المقرب من العجوز جاك.

دخل هاري فندق غراند، وهو عبارة عن مبنى فيكتوري عظيم في وسط المدينة، وسأل البواب عن المطعم. مشى عبر الردهة، وتفاجأ لدى رؤيته رتلاً صغيراً من الناس الذين يقفون أمام مكتب الاستقبال في انتظار الحصول على طاولات. انضم إلى الرتل، وتذكر كيف كانت أمه تعارض أن يزورها في مقهى تيلي أو في فندق رويال أثناء دوام عملها.



وفيما انتظر هاري، نظر في أرجاء المطعم المليء بالأشخاص الذين لا يبدو عليهم أنهم يتوقعون حصول نقص في الطعام، أو يفكرون في الانضمام إلى القوى المسلحة إذا خاضت البلاد الحرب. كان يتم إدخال الطعام وإخراجه عبر الأبواب على صوانٍ فضية ثقيلة، فيما يرتدي ثياب طاهٍ يجرّ عربة من طاولة إلى أخرى، ويقطع شرائح لحم البقر، ويلحق به رجل آخر حاملاً طبق صلصة.

لم يرَ هاري أي أثر لأمه، وبدأ يتساءل عما إذا كان جيل قد أخبره فقط بما يريد سماعه. وفي تلك اللحظة، خرجت فجأة من أحد الأبواب الدوارة، حاملة ثلاثة أطباق على ذراعيها. وضعتها أمام زبائنها برشاقة، حيث لم يلاحظوا تقريباً وجودها، ثم عادت إلى المطبخ. ورجعت بعد قليل، حاملة ثلاثة أطباق من الخضار. عندما وصل هاري إلى مقدمة الرتل، تذكر من أعطاه هذه الطاقة الكبيرة، والحماسة القوية، والروح التي لا تقبل الهزيمة. هل سيتمكن يوماً من تكريم هذه المرأة المميّزة على كل التضحيات التي فعلتها؟!

قال موظف مكتب الاستقبال: «أسف لأنك انتظرت يا سيدي، لكنني لا أملك طاولة شاغرة في الوقت الحاضر. يمكنك العودة إذا شئت بعد عشرين دقيقة.»

لم يخبره هاري أنه لا يريد طاولة؛ وليس السبب فقط أن أمه واحدة من النادلّات، وإنما لأنه لا يستطيع دفع ثمن أي شيء موجود على القائمة، باستثناء الصلصة ربما.

فقال: «سأعود لاحقاً». وحاول أن يبدو خائب الأمل. بعد عشر سنوات ربما، حين تصبح أمه المسؤولة عن المطعم. ترك الفندق

والابتسامة مرسومة على وجهه، واستقل الحافلة متوجهاً إلى أحواض السفن.

توجّه مباشرة إلى مكتب السير والتر برفقة السكرتيرة، ووجد رئيس مجلس الإدارة متكئاً على مكتبه وهو يحدق إلى جداول مواعيد المرفأ وخرائط المحيط التي تغطي كل إنش من مساحة المكتب.

قال السير والتر: «اجلس يا بني العزيز». ثم ثبت نظارته على عينه اليمنى ونظر إلى هاري بصرامة، وتابع قائلاً: «فكرت في محادثتنا هذا الصباح قليلاً، وقبل أن نمضي قدماً، أريد الاقتناع بأنك اتخذت القرار الصحيح».

قال هاري من دون تردد: «أنا واثق تماماً».

«ربما، لكنني واثق أيضاً من أن جاك كان سينصحك بالعودة إلى أوكسفورد، وبالانتظار إلى أن يتم استدعاؤك».

«ربما كان سيفعل ذلك يا سيدي، لكنه ما كان ليأخذ بنصيحته».

قال السير والتر: «كم كنت تعرفه جيداً. في الواقع، هذا ما توقعت منك قوله. دعني أخبرك بما توصلت إليه لغاية الآن». وأعاد انتباهه إلى الأوراق التي تغطي مكتبه، ثم تابع: «الخبر الجيد هو أنه يفترض بالسفينة الحربية «ريزوليوشن» التابعة للبحرية الملكية أن تصل إلى بريستول خلال شهر تقريباً، حيث سيتم تزويدها بالوقود قبل انتظار أوامر جديدة».

قال هاري: «شهر!». ولم يحاول إخفاء شعوره بالإحباط.

قال السير والتر: «صبرك يا بني. السبب الذي دفعني إلى اختيار السفينة «ريزوليوشن» هو أن قبطانها صديق قديم لي، وأنا واثق من أنني أستطيع وضعك على متن السفينة بمثابة نوتيّ عادي، شرط أن ينجح الجزء الآخر من خطتي».

«لكن، هل سيقبل قبطان سفينة «ريزوليوشن» بأن يقل شخصاً لا يملك خبرة في البحر؟».

«ربما لا. لكن إذا جرى كل شيء على ما يرام، فستكون خبيراً في البحر عندما تصبح على متن سفينة «ريزوليوشن»».

عندها، تذكر هاري أحد الأقوال المفضلة عند العجوز جاك: أجد أنني لا أتعلم كثيراً حين أتكلم. فقرر التوقف عن المقاطعة والاكتفاء بالإصغاء.

تابع السير والتر كلامه: «والآن، وجدتُ ثلاث سفن يفترض أن تغادر بريستول خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة، ويتوقع أن تعود خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع، مما يمنحك المزيد من الوقت لتسجل اسمك كنوتيّ على متن سفينة «ريزوليوشن»».

أراد هاري المقاطعة، ولكنه لم يفعل.

«فلنبدأ بخياري الأول. سفينة ديفونيان ستتوجه إلى كوبا وعلى متنها فساتين قطنية وبطاطا ودراجات هوائية، على أن تعود إلى بريستول خلال أربعة أسابيع، وستكون حينها محملة بالتبغ والسكر والموز».

السفينة الثانية الموجودة على لائحتي هي إس إس كنساس ستار، وهي سفينة ركاب ستبحر إلى نيويورك صباح غد. طلبتها حكومة

الولايات المتحدة لنقل الرعايا الأميركيين إلى ديارهم قبل أن تصبح بريطانيا في حرب مع ألمانيا.

السفينة الثالثة هي ناقلة نפט فارغة، اسمها إس إس الأميرة بياتريس، وهي في طريقها إلى أمستردام للتزود بالوقود على أن تعود إلى بريستول مع حمولة كاملة قبل نهاية الشهر. تدرك هذه السفن الثلاث أنها تحتاج إلى العودة إلى المرفأ بأسرع ما يمكن، لأنه في حال إعلان الحرب، سيتم اعتبار السفينتين التجاريتين بمثابة هدف مباح من قبل الألمان، فيما ستعتبر سفينة كنساس ستار بأمان من السفن الحربية الألمانية التي تجوب الأطلسي في انتظار الأوامر لإغراق أي شيء يحمل إشارة حمراء أو زرقاء».

«وما هو نوع العمال الذين تحتاج إليهم تلك السفن؟ لست مؤهلاً تماماً».

فتش السير والتر في مكتبه قبل أن يخرج ورقة أخرى ويقول: «الأميرة بياتريس تحتاج إلى نوتي، فيما كنساس ستار تحتاج إلى شخص للعمل في المطابخ؛ ما يعني عادة غسل الأطباق أو العمل كنادل، فيما سفينة ديفونيان تحتاج إلى ربان رابع».

«إذاً، يمكن حذف هذا الخيار من اللائحة».

فقال السير والتر: «هذا مضحك فعلاً. لأنني اعتبرتك مؤهلاً لهذه الوظيفة تحديداً. تملك سفينة ديفونيان طاقماً مؤلفاً من سبعة وثلاثين شخصاً، ونادراً ما تخرج في عرض البحر مع ربان قيد التدريب، وبالتالي سيتوقع الجميع أنك مبتدئ».

«لكن، لماذا سيقبل بي القبطان؟».

«لأنني أخبرته أنك حفيدي».

مشى هاري على الرصيف المؤدي إلى سفينة ديفونيان. الحقيقة الصغيرة التي حملها جعلته يشعر كأنه تلميذ في أول يوم دراسي. كيف سيكون معلّمه؟ هل سينام على سرير قرب جيل أو ديكنز؟ هل سيصادف عجوزاً آخر يدعى جاك؟ هل سيكون هناك فيشر على متن السفينة؟

بالرغم من أن السير والتر عرض عليه مرافقته لتعريفه على القبطان، إلا أن هاري شعر أنها ليست الطريقة المثالية للتعريف عن نفسه أمام زملائه الجدد في السفينة.

توقف هنيهة ونظر عن كثب إلى الباخرة القديمة التي سيمضي عليها الشهر القادم. أخبره السير والتر أنه تم تشييد باخرة ديفونيان عام 1913، حين كانت المحيطات لا تزال مليئة بالمراكب الشراعية، فيما السفن العاملة بالمحركات هي الأحدث على الإطلاق. لكن اليوم، بعد ستة وعشرين عاماً، لن يمضي وقت طويل قبل أن يتم إقصاؤها ونقلها إلى تلك المساحة من الأحواض حيث يتم تكسير السفن القديمة وبيع أجزائها.

أشار السير والتر أيضاً إلى أنه لا تزال أمام القبطان هيفنز سنة عمل واحدة فقط قبل التقاعد، وقد يقرر أصحاب السفينة التخلص منه في الوقت نفسه مع سفينته.

أظهرت عقود العمل مع سفينة ديفونيان وجود سبعة وثلاثين موظفاً على متنها، لكن هذا العدد غير دقيق تماماً كما هي الحال في بقية سفن الشحن: إذ ثمة طاهٍ وموظف لغسل الأطباق تم اصطحابهما من هونغ كونغ ولكنهما لا يظهران على جدول الرواتب، ولا النوتي العادي الهارب من القانون والذي لا يرغب أبداً في العودة إلى بلده.

صعد هاري السلم الخشبي ببطء. وبعد أن أصبح على متن السفينة، لم يتحرك إلا بعد أن حصل على إذن بالركوب. فبعد كل السنوات التي أمضاها حول أحواض السفن، بات يدرك تماماً بروتوكول السفن. نظر إلى المنصة، وافترض أن الرجل الذي رآه يعطي الأوامر هو على الأرجح القبطان هيفنز. أخبره السير والتر أن القبطان المسؤول في سفينة الشحن يكون في الواقع بحاراً خبيراً، وإنما يتم اعتباره قبطاناً على متن السفينة. كان طول القبطان هيفنز أقل من ست أقدام، وبدا بعمر الخمسين وليس بعمر الستين. امتلك بنية قوية، وكان ذا وجه أسمر ولحية داكنة مشدبة جعلته يبدو مثل جورج الخامس، لاسيما مع رأسه الأصلع.

عندما لمح القبطان هاري ينتظر في أعلى السلم الخشبي، وجّه أمراً سريعاً للربان الواقف قربة على المنصة، قبل أن ينزل. قال بسرعة: «أنا القبطان هيفنز. لا بد أنك هاري كليفتون». وصافح هاري بحرارة، ثم قال: «أهلاً بك على متن سفينة ديفونيان. تمت التوصية بك كثيراً».

بدأ هاري بالقول: «سيدي، تجدر بي الإشارة إلى أنها رحلتي الأولى...» غير أن هيفنز قاطعه بصوت منخفض: «أعرف ذلك، لكنني أبقيت هذا الأمر لنفسِي، وأنصحك بأن تحذو حذوي إذا لم تكن تريد أن يتحول وقتك إلى جحيم على متن هذه السفينة. ومهما فعلت، لا تذكر أبداً أنك كنت في أوكسفورد، لأن هؤلاء- وأشار إلى البحارة العاملين على متن

السفينة- سيظنون أنه اسم سفينة أخرى. سأريك المقر الرئيس للربان الرابع».

لحق هاري بالقبطان، مدركاً أن عشرات العيون الفضولية تراقب كل حركة من حركاته.

قال القبطان بعد أن لحق به هاري: «هناك ربانان آخران على متن سفينتي. جيم باترسون، وهو المهندس الرئيس، وقد أمضى معظم حياته في الأسفل في غرفة المحركات، فلا تراه إلا في أوقات وجبات الطعام، وقد يتغيب عنها أحياناً. خدم معي خلال الأعوام الأربعة عشر الماضية، وأشك صراحة في أن تتمكن هذه السفينة العجوز من عبور القناة والأطلسي لولا جهوده في إصلاحها. والربان الثالث، توم برادشو، موجود على المنصة. إنه يعمل معي منذ ثلاثة أعوام، ولم يحصل على رخصته بعد. يبقى منطوياً على نفسه، لكن كل الذين درّبوه يعرفونه تماماً. إنه ربان مذهل».

بدأ هيفنز يختفي تحت سلام ضيقة تؤدي إلى الطابق السفلي، ثم قال فيما تابع سيره في الرواق: «هذه حجرتي، وهذه حجرة السيد باترسون». وتوقف أمام ما بدا خزانة للمكانس، ثم تابع: «وهذه حجرتك». ودفع الباب لفتحه لكنه لم يتحرك إلا إنشأت قليلة قبل أن يرتطم بسرير خشبي ضيق. «لن أدخل لأنه لا توجد مساحة تتسع لنا معاً. سوف تجد بعض الملابس على السرير. وبعد أن تبدّل ملابسك، انضم إليّ على المنصة. سوف نبحر في غضون ساعة. قد يكون ترك الميناء هو الجزء الأكثر إثارة من الرحلة إلى أن نصل إلى كوبا».

دخل هاري عبر الباب المفتوح قليلاً بصعوبة، وتوجب عليه إغلاقه خلفه لترك مساحة كافية تتيح له تبديل ملابسه. تحقق من الملابس التي



تم تركها له، وكانت مطوية بترتيب: كنزتان سميكتان باللون الأزرق، وقميصان باللون الأبيض، وسروالان باللون الأزرق، وثلاثة أزواج من الجوارب الصوفية الزرقاء، وحذاء قماشي ذو نعل مطاطي سميك. بدا الأمر فعلاً شبيهاً بالعودة إلى المدرسة. فكل الأغراض تكشف عن شيء مشترك: بدت كلها كما لو أن أشخاصاً كثيراً استعملوها قبل هاري. ارتدى بسرعة الملابس البحرية، ثم أفرغ محتويات حقيبته.

ونظراً لوجود درج واحد فقط، وضع هاري الحقيبة الصغيرة المليئة بملابسه المدنية تحت السرير؛ وهو الشيء الوحيد الجيد في الحجرة. فتح الباب، وخرج إلى الرواق، وذهب بحثاً عن السلام. وبعد أن وجدها صعد إلى المنصة، فلحقت به مجموعة من العيون الفضولية.

قال القبطان فيما وصل هاري إلى المنصة للمرة الأولى: «سيد كليفتون، هذا توم برادشو، الربان الثالث الذي سيخرج السفينة من المرفأ ما إن نحصل على الإذن من سلطة المرفأ. بالمناسبة يا سيد برادشو، تقضي إحدى مهماتنا في هذه الرحلة بأن نعلم هذا الشاب كل ما نعرفه، حيث إنه حين يعود إلى بريستول بعد شهر واحد سيظنه طاقم سفينة ريزوليوشن خبيراً قديماً في البحر».

لو علّق السيد برادشو لما سمعت كلماته بسبب الصفير العالي الصادر من صافرة الباخرة؛ وهو صوت سمعه هاري مرات عدة على مرّ الأعوام، وأشار الصوت إلى وجود زورقين للسحب في مكانيهما في انتظار مرافقة السفينة ديفونيان إلى خارج المرفأ.

قال الكابتن هيفنز: «استعد للانطلاق يا سيد برادشو».

رفع السيد برادشو الغطاء عن أنبوب نحاسي لم ينتبه إليه هاري إلا الآن، ثم قال بلكنة أميركية خفيفة: «كل المحركات جاهزة يا سيد باترسون. زورقا السحب جاهزان ومستعدان لمرافقتنا إلى خارج المرفأ». جاء صوت من غرفة المحركات: «كل المحركات جاهزة».

نظر إلى الأسفل من حافة المنصة، وراقب العمال وهم ينفذون المهمات المطلوبة منهم. أربعة رجال، اثنان في مقدمة السفينة واثنان في مؤخرها، يفكون حبالاً سميكة من المراسي الموجودة على الرصيف. وثمة عاملان آخران يرفعان السلم الخشبي. قال القبطان فيما دخن غليونه: «انتبه إلى مدير الدفة؛ إذ تعود إليه مسؤولية إخراجنا بأمان من المرفأ ونقلنا إلى عرض المياه. وبعد أن يفعل ذلك، سيستلم السيد برادشو المهمة. وإذا اتضح لنا أنك جيد بما فيه الكفاية يا سيد كليفتون، فقد يسمح لك بأخذ مكانه خلال سنة تقريباً، ولكن ليس قبل أن أستقيل ويستلم السيد برادشو القيادة». لم يكشف برادشو عن أية ابتسامة، فبقي هاري صامتاً واستمر في مراقبة كل ما يجري حوله. تابع القبطان هيفنز كلامه: «لا يسمح لأي كان بالخروج مع صديقتي ليلاً إلا إذا تأكدت بأنه لن يعبث معها». لم يبتسم برادشو هذه المرة أيضاً؛ رغم أنه سمع تماماً ما قيل.

وجد هاري نفسه مفتوناً بكيفية سير العملية، فقد ابتعدت سفينة ديفونيان بسهولة عن الرصيف، وشقت طريقها ببطء خارج أحواض السفن بمساعدة زورقي السحب، وانطلقت في نهر آيفون تحت الجسر المعلق.

سأل القبطان فيما أخرج الغليون من فمه: «هل تعرف من شيّد هذا الجسر يا سيد كليفتون؟».

أجاب هاري: «إيزامبار برونييل».

«ولماذا لم يعيش قط لرؤيته قيد العمل؟».

«لأن المجلس المحلي نفذ منه المال، وقد مات قبل إنجاز الجسر».

عبس القبطان ثم قال له: «ستخبرني لاحقاً أنه تمّت تسميته تيمناً بك». وبعد ذلك أعاد الغليون إلى فمه. لم يتحدث مجدداً إلا بعدما وصل زورقا السحب إلى جزيرة باري، وأطلقا صفارتين أخيرتين ثم عادا إلى المرفأ.

قد تكون سفينة ديفونيان قديمة جداً، لكن اتضح لهاري سريعاً أن القبطان هيفنز وأفراد طاقمه يعرفون جيداً كيفية التعامل معها.

قال القبطان: «استلم زمام الأمور يا سيد برادشو». فيما ظهرت عينان جديدتان على المنصة، يحمل صاحبهما كوبين من الشاي الساخن. «سيكون هناك ثلاثة ملاحين على المنصة خلال هذه الرحلة يا لو، ولذلك تأكد من حصول السيد كليفتون على كوب من الشاي أيضاً». فأوماً الرجل الصيني برأسه واختفى تحت المنصة.

وبعد أن اختفت أضواء المرفأ في الأفق، أصبحت الأمواج أعلى وأعلى، مما جعل السفينة تتمايل من جانب إلى آخر. وقف هيفنز وبرادشو متباعدي القدمين، كما لو أنهما ملتصقان بالأرض، فيما وجد هاري نفسه مضطراً دوماً إلى التشبث بشيء ما للتأكد من عدم وقوعه. وعندما عاود الرجل الصيني الظهور مع كوب ثالث من الشاي، قرر هاري عدم القول أمام القبطان إنه بارد، وإن أمه تضيف إليه عادة القليل من السكر.

وفيما بدأ هاري يشعر بالقليل من الثقة، ويستمتع بتجربته تقريباً، قال القبطان: «لن يسعك فعل الكثير الليلة يا سيد كليفتون. لم لا تنزل إلى الأسفل وتحاول النوم قليلاً. عد إلى المنصة في تمام الساعة السابعة والثلاث لتناول الفطور». كان هاري على وشك الاحتجاج عندما ارتسمت ابتسامة على وجه السيد برادشو للمرة الأولى.

قال هاري: «طاب مساؤك سيدي». ثم نزل السلام في طريقه إلى الأسفل. مشى ببطء على السلام الضيقة، وشعر مع كل خطوة قام بها أنه مراقب بالميزيد من العيون. ثمّة شخص قال بصوت عالٍ كفاية لسمعته: «لا بد أنه راكب».

وقال صوت ثانٍ: «لا، إنه ربّان مسؤول».

«وما الفرق؟». فضحك رجال عدة.

بعد أن أصبح في حجرته، خلع ملابسه واستلقى على السرير الخشبي الرقيق. حاول إيجاد وضعية مريحة من دون الوقوع أو الارتطام بالحائط فيما تمايلت السفينة من جانب إلى آخر وتحركت صعوداً ونزولاً. لم يكن يملك مغسلة للتقيؤ فيها، أو نافذة لإخراج رأسه منها.

وفيما استلقى مستيقظاً، عادت أفكاره إلى إيما. تساءل إن كانت لا تزال في اسكوتلندا أم عادت إلى مانور هاوس، أو ربما استقرت في أوكسفورد. هل يتساءل جيل عن مكانه، أم أن السير والتر أخبره بأنه ذهب إلى البحر وسينضم إلى سفينة ريزوليوشن لحظة يعود إلى بريستول؟ وهل تتساءل أمه عن مكانه؟ كان يجدر به ربما خرق قاعدتها الذهبية ومقاطعتها في العمل. وأخيراً، فكر في العجوز جاك، وشعر فجأة بالذنب عندما أدرك أنه لن يعود في الوقت المناسب لحضور دفنه.

ما لم يعرفه هاري هو أن دفنه شخصياً سيتم قبل دفن العجوز  
جاك.

استيقظ هاري على صوت أربعة أجراس. قفز فجأة فارتطم رأسه بالسقف، ثم ارتدى ملابسه ومشى في الرواق الضيق، وبعد ذلك صعد السلام، وركض على متن السفينة، وتسلق السلام المؤدية إلى المنصة.

«آسف على التأخر سيدي. لا بد أنني استغرقت في النوم».

قال برادشو: «لا داعي لمناداتي سيدي حين نكون بمفردنا. اسمي توم، وبطبيعة الحال، جئت قبل ساعة واحدة تقريباً. لقد نسي قبطان السفينة إخبارك أن الجرس يرن سبع مرات لإعلان موعد الفطور، وأربع مرات للإعلان عن أن الساعة هي السادسة. لكن بما أنك أصبحت هنا، لم لا تستلم الدفة قليلاً فيما آخذ استراحة». صُدم هاري حين أدرك أن برادشو لم يكن يمزح. «تأكد فقط من أن السهم في البوصلة يشير دوماً إلى الجنوب الغربي ولن تخطئ كثيراً». قال ذلك بلكنة أميركية أكثر وضوحاً.

أمسك هاري بالدفة بين يديه، وحدق إلى السهم الأسود الصغير ملياً، فيما حاول إبقاء السفينة مبحرة عبر الأمواج في خط مستقيم. وعندما نظر إلى الخلف، لاحظ أن الخط المستقيم الذي تركه برادشو وراءه بسهولة فائقة قد تحوّل إلى تموجات ناعمة. صحيح أن برادشو لم يرغب إلا لدقائق قليلة، غير أن هاري فرح كثيراً بعودته.

استلم برادشو الدفة مجدداً، فعاد الخط المستقيم للظهور؛ على الرغم من إمساكه بها بيد واحدة فقط.

قال برادشو: «تذكّر أنك تتعامل مع سيدة. لا داعي للتشبث بها، وإنما عليك مداعبتها بلطف. إذا نجحت في ذلك، فستبقى مستقيمة الخط. والآن، جرّب مجدداً فيما أضبط الجرس على الرنات السبع».

عندما رن الجرس بعد خمس وعشرين دقيقة وظهر القبطان على المنصة لاستلام المهمة عن برادشو، كان الخط الذي خلفه هاري في المحيط غير مستقيم تماماً، وإنما غير متعرج كثيراً حيث تبدو السفينة وكأن قبطانها غير متزن.

خلال الفطور، تم تعريف هاري على رجل لا يمكن أن يكون إلا المهندس الرئيس.

فالبشرة الشاحبة لجيم باترسون جعلته يبدو وكأنه أمضى معظم حياته تحت سطح السفينة، وأوحى بطنه الكبير أنه أمضى بقية وقته في تناول الطعام. وعلى عكس برادشو، لم يكن يتوقف عن الكلام إطلاقاً، واتضح لهاري جلياً أنه صديق قديم للقبطان.

ظهر الرجل الصيني حاملاً ثلاثة أطباق غير نظيفة جداً. تفادى هاري اللحم الدهني المقدد والبندورة المقلية واختار بدلاً من ذلك قطعة خبز محترقة وتفاحة.

قال القبطان بعد رفع أطباق الطعام: «فلتُمضِ بقية الصباح وأنت تستكشف السفينة يا سيد كليفتون. يمكنك الانضمام إلى السيد باترسون في غرفة المحركات ومعرفة عدد الدقائق التي يمكنك الصمود فيها هناك». عندها، انفجر باترسون في الضحك، وأمسك بآخر قطعتين من

الخبز المحمص وقال: «إذا كنت تجد هذا الخبز محروقاً، فانتظر حتى تمضي بضع دقائق معي».

مثل الهرة التي تركت وحدها في منزل جديد، بدأ هاري يتجول في السفينة محاولاً الاعتياد على مملكته الجديدة.

عرف أن طول السفينة 475 قدماً وعرضها 56 قدماً، وأن سرعتها القصوى هي خمس عشرة عقدة. ولكنه لم يعرف أن هناك العديد من التفاصيل التي تخدم غرضاً معيناً سيعرفه مع الوقت. لاحظ هاري أيضاً أنه ما من جزء في منصة السفينة لا يستطيع القبطان مراقبته من مكانه؛ مما يبطل احتمال هروب أي بحار.

نزل هاري على السلام المؤدية إلى الطابق الوسطي في السفينة. اشتمل القسم الخلفي على غرف الملاحين المسؤولين، بالإضافة إلى المطبخ. وإلى الأمام، كانت هناك مساحة كبيرة مفتوحة ومليئة بالأراجيح الشبكية. لا يمكنه أن يتخيل كيف يستطيع أي شخص النوم على مثل هذه الأشياء. ثم لاحظ نصف دزينة من البحارة الذين أنهموا دوامهم الليلي على الأرجح، وكانوا يتمايلون من جانب إلى آخر وفق إيقاع السفينة، وهم نائمون بسلام.

ثمة سلام فولاذية ضيقة تؤدي إلى الطابق السفلي، حيث الأقفاس الخشبية المشتملة على 144 دراجة هوائية، وألف فستان قطني، وطنين من البطاطا، والتي لن يتم فتحها إلا عند وصول السفينة إلى كوبا.

وأخيراً، نزل سلماً ضيقاً يؤدي إلى غرفة المحركات وقسم السيد باترسون. ضغط على المقبض المعدني الثقيل ودخل بجرأة إلى الأتون



الحارق. وقف وراقب نصف دزينة من الرجال مربوعي القامات، ومفتولي العضلات، الذين يرتدون سترات متسخة بالغبار الأسود، والعرق يتصبب من ظهورهم، فيما يسكبون الفحم في فوهتين كبيرتين تحتاجان إلى أكثر من أربع وجبات يومياً.

ومثلما توقع القبطان هيفنز، مرت دقائق قليلة فقط قبل أن يضطر هاري إلى التراجع إلى الرواق متصبباً عرقاً ولاهثاً بشدة. مرّ بعض الوقت قبل أن يتعافى كفاية ليعود أدراجه إلى المنصة، حيث ركع على ركبتيه وتنشق الهواء المنعش. تساءل عن كيفية تمكن أولئك الرجال من الصمود في تلك الظروف، والعمل ثلاث مناوبات يومياً؛ كل منها لساعتين، ولمدة سبعة أيام في الأسبوع.

بعد أن استعاد هاري عافيته، شق طريقه مجدداً إلى المنصة، متسلحاً بمئات الأسئلة؛ بدءاً من مواقع النجوم في السماء، إلى عدد الأميال البحرية التي يمكن أن تجتازها السفينة في اليوم الواحد، إلى أطنان الفحم التي تحتاج إليها... أجاب القبطان بسعادة عن كل الأسئلة، من دون أن يبدو إطلاقاً مستاء من تعطش الربان الشاب للمعلومات. في الواقع، تحدث القبطان هيفنز أمام السيد برادشو أثناء استراحة هاري قائلاً له إن أكثر ما يلفتته في الشاب هو عدم طرحه السؤال نفسه مرتين.

خلال الأيام القليلة التالية، تعلم هاري كيفية التحقق من البوصلة ومقارنتها مع الخط المنقط على الجدول، وكيفية معرفة اتجاه الرياح من خلال مراقبة طيور النورس في البحر، وكيفية جعل السفينة تعبر الموج وتحافظ على خطها المستقيم. وفي نهاية الأسبوع الأول، سُمح له باستلام دفعة السفينة عند ذهاب أي ربان إلى استراحة الطعام. وفي المساء، علّمه

القبطان أسماء النجوم، وقال له إنها موثوقة بقدر البوصلة، ولكنه اعترف له بأن معلوماته محصورة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية لأن سفينة ديفونيان لم تعبر قط خط الاستواء طوال سنوات عملها الست والعشرين.

بعد عشرة أيام في البحر، تمنى القبطان وصول عاصفة، ليس فقط لإيقاف الأسئلة اللامتناهية، وإنما أيضاً لمعرفة ما إذا كان يمكن لأي شيء أن يثبط عزيمة ذلك الشاب. حذره جيم باترسون من أن السيد كليفتون صمد لأكثر من ساعة في غرفة المحركات هذا الصباح، وأنه مصمم على إتمام دوام كامل قبل وصولهم إلى كوبا.

قال القبطان: «وفرت على نفسك سماع أسئلته اللامتناهية على الأقل».

فأجاب المهندس الرئيس: «هذا الأسبوع».

تساءل القبطان هيفنز عما إذا كان سيأتي وقت يتعلم فيه من ربانه الرابع. وقد حصل ذلك في اليوم الثاني عشر من الرحلة، بعد أن أنجز هاري أول دوام كامل له من ساعتين في غرفة المحركات.

سأله هاري: «هل تعرف أن السيد باترسون يجمع الطوابع يا سيدي؟». مكتبة الرمحي أحمد

فأجاب القبطان بثقة: «نعم، أعرف».

«وهل تعرف أن مجموعته تضم الآن أكثر من أربعة آلاف طابع، من بينها طابع «بيني بلاك» غير مثقوب ومثلث الرجاء الصالح الخاص بجنوب أفريقيا؟».

كرر القبطان: «نعم، أعرف».

«وهل تعرف أن مجموعته الآن تساوي أكثر مما يساويه منزله في مابلثورب؟».

قال القبطان: «اللعنة، إنه مجرد كوخ». وحاول السيطرة نفسه، وقبل أن يطرح عليه هاري سؤاله التالي قال: «أهتم أكثر إذا استطعت معرفة هذا الكم من المعلومات عن توم برادشو، إذ يبدو أنك حصلت على كل المعلومات المرتبطة بالمهندس الرئيس. بصراحة يا هاري، أصبحت خلال اثني عشر يوماً، أعرف عنك أكثر مما أعرفه عن رباني الثالث الذي أمضيت معه ثلاثة أعوام من العمل. ولغاية اليوم، لم أصادف قط أميركياً متحفظاً هكذا».

كلما فكر هاري أكثر في ملاحظة القبطان، أدرك أكثر فأكثر أنه يعرف القليل فقط عن توم، رغم أنه أمضى ساعات عدة معه على المنصة. فهو لا يعرف أبداً إذا كان للرجل إخوة وأخوات، وماذا يعمل والده، وأين يعيش أهله، وما إذا كان يملك صديقة. وحدها لکنته كشفت عن أنه أميركي؛ إلا أن هاري لا يعرف من أية مدينة، أو حتى ولاية أتى.

رن الجرس سبع مرات، فقال القبطان: «هلا تستلم الدفة يا سيد كليفتون فيما أنضم إلى السيد باترسون والسيد برادشو لتناول العشاء. لا تتردد في إبلاغي إذا ملحت أي شيء، خصوصاً إذا كان أكبر منا حجماً».

قال هاري: «طبعاً طبعاً سيدي». وفرح لأنه استلم المهمة؛ وإن كان سيفعل ذلك فقط لأربعين دقيقة، علماً أن تلك الدقائق الأربعين تمّ تمديدها كل يوم.

عندما سأله هاري عن عدد الأيام التي تفصلهم عن الوصول إلى كوبا، أدرك القبطان هيفنز أن الشاب مبكر النضوج بدأ يشعر بالضجر. شعر بشيء من التعاطف مع قبطان سفينة ريزوليوشن الذي لا يعرف أبداً ما ينتظره.

استلم هاري الدفة بعد العشاء، حيث يتمكن المسؤولون الآخرون من شرب بعض الكؤوس من الشراب قبل العودة إلى المنصة. وكلما أحضر الرجل الصيني الشاي لهاري، وجدته ساخناً جداً مع الكمية المطلوبة من السكر.

سُمع السيد باترسون وهو يقول للقبطان ذات ليلة إنه إذا قرر السيد كليفتون استلام السفينة قبل عودتهم إلى بريستول، فهو ليس أكيداً من أنه سيركب في الباخرة.

سأل هيفنز: «هل تفكر في إثارة تمرد يا جيم؟». فيما سكب كأساً أخرى للمهندس المسؤول.

«لا. لكن عليّ أن أحذرك يا حضرة القبطان من أن الشاب قد أعاد تنظيم دوامات العمال في غرفة المحركات. وبالتالي، أعرف من يؤيد عمالي».

قال هيفنز فيما سكب لنفسه كأساً أخرى: «أقل ما يمكننا فعله هو الطلب من مرسل الإشارات بالراية أن يبلغ سفينة ريزوليوشن بما ينتظرها».

فقال باترسون: «لكننا لا نملك مرسل إشارات بالراية».

قال القبطان: «إذاً، علينا تكبير الشاب بالأغلال الحديدية».

«فكرة جيدة يا حضرة القبطان. لكن من المؤسف أنه لم تعد لدينا  
أغلال حديدية».

«هذا مؤسف حقاً. ذكرني بأن نحضر بعضاً منها ما إن نعود إلى  
بريستول».

قال باترسون: «لكن يبدو أنك نسيت أن كليفتون سيغادرنا  
للانضمام إلى سفينة ريزوليوشن لحظة وصولنا إلى المرفأ».

ارتشف القبطان القليل من كأسه قبل أن يكرر: «هذا مؤسف  
حقاً».

وصل هاري إلى المنصة قبل دقائق قليلة من سماعه أجراس الساعة السابعة ليستلم الدفة عن السيد برادشو، حيث يتمكن هذا الأخير من النزول والانضمام إلى القبطان لتناول العشاء.

بات الوقت الذي يسمح له فيه توم باستلام دفة المنصة أطول وأطول مع مرور الوقت، لكن هاري لم يتذمر قط؛ لأنه استمتع بفكرة أن تكون السفينة تحت إمرته لمدة ساعة كل يوم.

تحقق من السهم في البوصلة، وحدد إلى المسار الذي حدده له القبطان. أوكلت إليه مهمة إدخال موقع السفينة على الخريطة، وتدوين السجل اليومي قبل إنهاء دوامه.

وفيما وقف هاري وحده على المنصة، مع بدر كامل وبحر هادئ وآلاف الأميال من المحيط أمامه، عادت أفكاره إلى لندن، وتساءل عما تفعله إيما في هذه اللحظة.

كانت إيما جالسة في غرفتها في كلية سومرفيل في أوكسفورد، تضبط المذياع على الإذاعة الوطنية كي تتمكن من سماع السيد نيفيل تشامبرلاين وهو يتوجه إلى الأمة.

«هنا إذاعة بي بي سي في لندن. سوف تسمعون الآن بياناً من رئيس مجلس الوزراء.»

«أتحدث إليكم من مجلس الوزراء، شارع داوونينغ 10. هذا الصباح، سلم السفير البريطاني في برلين الحكومة الألمانية رسالة أخيرة مفادها أنه

إذا لم نسمع أي خبر منهم بحلول الساعة الحادية عشرة، فذلك يعني أن بريطانيا مستعدة للانسحاب من بولندا، وبالتالي ستبدأ الحرب بيننا. عليّ إخباركم الآن بأنه لم يتم استلام أي خبر، وهكذا أصبحت بلادنا في حرب مع ألمانيا».

لكن بما أن المذيع في سفينة ديفونيان عجز عن التقاط محطة بي بي سي، تابع جميع من على متنها أعمالهم كما لو أنه يوم عادي.

كان هاري لا يزال يفكر في إيها عندما وقعت أول قبلة قربهم. لم يعرف ما الذي يجدر به فعله، وخاف أن يزعج القبطان خلال العشاء خشية أن يوبخه لأنه يبدد له وقته. لكن هاري كان واعياً تماماً عندما رأى القبلة الثانية، ولم يعد يساوره الشك هذه المرة. راقب هاري الشيء الطويل والنحيل واللامع ينساب تحت سطح الماء في اتجاه السفينة، فقام فوراً بإدارة دفة القيادة إلى اليمين، لكن السفينة اتجهت إلى اليسار. لم يكن هذا ما أراده بالضبط، لكن هذا الخطأ منحه الوقت الكافي لدق جرس الإنذار؛ لأن القبلة الجديدة أخطأت السفينة بعدة ياردات فقط. هذه المرة لم يتردد، وضغط براحة يده على البوق الذي أصدر فوراً صوتاً عالياً. وبعد لحظات قليلة، ظهر السيد برادشو على المنصة وبدأ يركض بسرعة، فيما لحق به القبطان الذي ارتدى سترته.

وشيئاً فشيئاً، خرج العمال الباقون من أحشاء السفينة الواحد تلو الآخر، وتوجهوا فوراً إلى مراكز عملهم؛ على افتراض أن البوق الذي سمعوه يندرهم من حريق غير متوقع في السفينة.

سأل القبطان هيفنز بهدوء فيما وصل إلى المنصة: «ما المشكلة يا سيد كليفتون؟».

«أعتقد أنني رأيت طرييداً يا سيدي. لكن، بما أنني لم أرَ واحداً من قبل، فأنا لست واثقاً تماماً».

قال القبطان: «هل يمكن أن يكون دلفيناً يستمتع ببقايا طعامنا؟».  
«لا يا سيدي، ليس دلفيناً».

اعترف هيفنز فيما استلم دفة القيادة: «لم أرَ طرييداً من قبل أنا أيضاً. من أي اتجاه انطلق؟».  
«الشمال الشرقي».

فقال القبطان: «سيد برادشو، أعلن عن حالة الطوارئ في كل المراكز، واستعد لإنزال قوارب الإنقاذ حسب أوامري».

قال برادشو: «حاضر سيدي». وانزلق على الدرابزين بسرعة، وباشر في تنظيم العمال.

«سيد كليفتون، أبقِ عينيك يقظتين، وأخبرني ما إن تلمح أي شيء».

أمسك هاري بالمنظار وبدأ يجوب المحيط بناظريه. وفي الوقت نفسه، نادى القبطان عبر مكبر الصوت: «فلترتد كل المحركات، سيد باترسون، فلترتد كل المحركات، وانتظروا المزيد من الأوامر مني».

قال المهندس المسؤول مذعوراً: «حاضر سيدي». لاسيما وأنه لم يسمع مثل هذا الأمر منذ العام 1918.

قال هاري: «هناك طرييد آخر من الشمال الشرقي متوجه مباشرة صوبنا».



فقال القبطان: «أراه». وأدار دفة القيادة إلى اليسار، فلم يصبهم الطريد، وأخطأهم بمسافة بضع أقدام فقط. عرف القبطان أنه قد لا يتمكن من إنجاز هذه الحيلة مجدداً.

قال هيفنز: «كنت محقاً يا سيد كليفتون. لم يكن دلفيناً. لا بد أننا في حرب. فالعدو يملك طرديدات، وكل ما لديّ هو مئة وأربعون دراجة هوائية، وبضعة أكياس من البطاطا، وبعض الفساتين القطنية». أبقى هاري عينيه مسمرتين على المحيط.

بقي القبطان هادئاً جداً، حيث لم يشعر هاري بأي خطر، ثم قال: «الرقم أربعة متوجه مباشرة صوبنا يا سيدي. من الشمال الشرقي مجدداً».

حاول هيفنز تحريك السفينة العجوز مجدداً، ولكنها لم تستجب لمناوراتها المفاجئة بسرعة كافية، وأصاب الطريد مقدمتها. بعد دقائق قليلة، قال السيد باترسون إن حريقاً اندلع تحت أنابيب الماء، وإن رجاله يجدون استحالة في إطفاء اللهب بواسطة الخراطيم البدائية الموجودة في السفينة. فلم يحتج القبطان إلى أحد لإخباره أنه يواجه مهمة ميؤوساً منها.

«سيد برادشو، استعدوا لإخلاء السفينة. فليقف كل العمال قرب قوارب الإنقاذ، ولينتظروا المزيد من الأوامر».

صرخ برادشو: «حاضر سيدي».

صرخ هيفنز عبر المذياع: «سيد باترسون، اخرج أنت ورجالك من هناك على الفور، وأقول على الفور، وتوجهوا إلى قوارب الإنقاذ».

«نحن في طريقنا يا حضرة القبطان».

قال هاري: «هناك طربيد آخر يا سيدي. شمالي غربي، متوجه صوب اليمين».

أدار القبطان دفة القيادة مجدداً، ولكنه عرف أنه لن يتمكن من تفادي الطربيد هذه المرة. وبعد ثوانٍ قليلة، أصاب الطربيد السفينة، فبدأت تميل إلى جهة واحدة.

صرخ هيفنز: «أخلوا السفينة، أخلوا السفينة». كرر ذلك مرات عدة، قبل أن يستدير صوب هاري الذي كان لا يزال يمسخ المحيط بناظريه مستخدماً المنظار.

«توجّه إلى أقرب قارب إنقاذ يا سيد كليفتون. لا جدوى أبداً من البقاء على متن السفينة».

قال هاري: «حاضر يا سيدي».

صدح صوت من غرفة المحركات: «حضرة القبطان، تعطل المحرك الرابع. أنا عالق في الأسفل مع خمسة من رجالي».

«نحن في طريقنا إليك يا سيد باترسون. سوف نخرجك من هناك بأسرع ما يمكن. تبديل للخطة سيد كليفتون. الحق بي». نزل القبطان السلام بسرعة، وبالكاد لامست قدماه الأرض، فيما لحق به هاري مباشرة.

صرخ القبطان، فيما شق طريقه عبر أسنة اللهب المشتعلة التي وصلت إلى الطابق العلوي: «سيد برادشو، اطلب من الرجال النزول إلى قوارب الإنقاذ وترك السفينة على الفور».

فقال برادشو: «حاضر سيدي». فيما كان متشبثاً بدرابزين السفينة.

«أحتاج إلى مجذاف. وتأكد من وجود قارب إنقاذ جاهز لنقل السيد باترسون ورجاله من غرفة المحركات».

أمسك برادشو بمجذاف من أحد قوارب الإنقاذ، وبمساعدة بحار آخر، نجح في نقله إلى القبطان. أمسك هاري والقبطان بطرفي المجذاف ومشيا على متن السفينة في اتجاه المحرك الرابع. تساءل هاري عن الجدوى من استعمال المجذاف في مواجهة الطرديدات، لكن الوقت لم يكن مناسباً لطرح الأسئلة.

مشى القبطان في المقدمة، ومرّ أمام الرجل الصيني الذي كان راكعاً على ركبتيه، محني الرأس، يتضرّع إلى الله.

صرخ هيفنز: «اركب الآن في قارب إنقاذ أيها الغبي!». فوقف السيد لو على قدميه باضطراب، ولكنه لم يتحرك. وعندما مرّ هاري أمامه، دفع الرجل في اتجاه الربان الثالث؛ مما جعل السيد لو يقع إلى الأمام ويكاد يسقط بين ذراعي السيد برادشو.

عندما وصل القبطان إلى غرفة المحرك الرابع، أقحم الطرف الرفيع للمجذاف في كلاب مقوس، ثم قفز إلى الأعلى ووضع كل ثقله على راحة المجذاف. انضم إليه هاري بسرعة، ونجحا معاً في رفع الصفيحة الحديدية الكبيرة إلى أن أصبحت هناك فجوة بمقدار قدم تقريباً.

قال هيفنز: «سوف تخرج الرجال يا سيد كليفتون، فيما سأحاول إبقاء الفجوة مفتوحة». وظهرت يدان عبر الفجوة.

أفلت هاري المجذاف، وركع على ركبتيه وزحف صوب الفجوة المفتوحة. وفيما أمسك بكتفي الرجل، غمرته موجة من الماء ودخلت عبر الفجوة. أخرج البحار من سجنه، ثم صرخ طالباً منه التوجه مباشرة

إلى قوارب الإنقاذ. أما الرجل الثاني فكان أكثر رشاقة، ونجح في إخراج نفسه من دون مساعدة هاري، فيما أصيب الثالث بذعر شديد؛ لدرجة أنه قفز عبر الفجوة وارتطم رأسه بالغطاء قبل أن ينضم إلى رفاقه الذين تم إنقاذهم. بعد ذلك لحق بهم رجلان آخران، وزحفا في اتجاه قارب الإنقاذ الأخير. انتظر هاري خروج المهندس المسؤول، لكن لم يكن هناك أي أثر له. غاصت السفينة في الماء أكثر فأكثر، وتوجب على هاري التثبيت بالدرابزين لمنع نفسه من السقوط على رأسه.

حدّق في العتمة فلمح يداً ممتدة. عندها، مدّ رأسه عبر الفجوة، وانحنى إلى الأسفل قدر الإمكان من دون أن يقع، ولكنه لم يستطع لمس أصابع الربان الثاني. حاول السيد باترسون القفز مرات عدة، لكن جهوده باءت بالفشل في كل مرة؛ نظراً لتدفق المزيد من الماء فوقه. أدرك القبطان هيفنز حقيقة المشكلة، ولكنه لم يستطع مساعدتهما؛ لأنه إذا أفلت المجذاف فسيقع غطاء الفتحة ويحطم هاري.

صرخ باترسون الذي بات الآن مغموراً بالماء حتى ركبتيه: «أذهباً أرجوكم إلى أي قارب إنقاذ قبل فوات الأوان».

فقال القبطان: «هذا مستحيل. سيد كليفتون، ثبتت نفسك هناك، وارفع ذلك اللعين إلى الأعلى، ثم يمكنك اللحاق بالآخرين».

لم يتردد هاري في تنفيذ ما طلب منه، فأخفض جسده ووضعاً قدميه أولاً في الفجوة، وممسكاً بالإفريز بأطراف أصابعه، ثم أفلت نفسه أخيراً ووقع في العتمة. خفت المياه الباردة الممزوجة بالزيت من وطأة سقوطه، وبعد أن استعاد توازنه، أمسك بالجانبين، وأنزل نفسه في الماء وقال: «اركب على كتفي يا سيدي، ويفترض أن تتمكن من الوصول».

أطاع المهندس المسؤول أوامر الربان الرابع، ولكن رغم أنه تمدد نحو الأعلى، بقي بعيداً عن الحافة بضعة إنشات. عندها، استخدم هاري كل قوة جسمه لدفع باترسون إلى الأعلى أكثر، إلى أن تمكن من بلوغ حافة الإفريز والتشبث به بأطراف أصابعه. في تلك الأثناء، بات الماء يتدفق عبر الفجوة، فيما غاصت السفينة في الماء أكثر فأكثر. وضع هاري يديه تحت مؤخرة السيد باترسون، وبدأ يضغط مثل رافعة الأثقال؛ إلى أن ظهر رأس المهندس المسؤول فوق الحافة.

قال القبطان: «سررت برؤيتك يا جيم». فيما استمر بالضغط بكل وزنه على المجذاف.

أجاب المهندس المسؤول: «وأنا أيضاً أرنولد». فيما سحب نفسه من الفجوة ببطء.

في تلك اللحظة، أصاب الطريد السفينة الغارقة، فانشطر المجذاف إلى نصفين، وتحطم الغطاء المعدني على رأس المهندس المسؤول. وتماماً مثل فأس الإعدام في القرون الوسطى، قطع المجذاف رأسه وقتله. وقعت جثة باترسون في الماء قرب هاري.

حمد هاري الله لأنه لا يستطيع رؤية السيد باترسون في العتمة التي باتت الآن محيطة به. توقف الماء أخيراً عن التدفق، وإن كان ذلك يعني انعدام وسائل الفرار.

وفيما بدأت سفينة ديفونيان تغرق، افترض هاري أن القبطان قد قتل أيضاً، أو أنه متشبث بالفجوة محاولاً إيجاد طريقة لإخراجه. وفيما نزل في الماء، فكر هاري في سخرية القدر؛ في أن تكون نهايته مثل نهاية والده، مدفوناً في قعر سفينة. تشبث بجانب الإفريز محاولاً للمرة الأخيرة

الفرار من الموت. وفيما انتظر ارتفاع الماء أكثر فأكثر فوق كتفيه وعنقه ورأسه، رأى أمامه وجوهاً كثيرة. تسيطر عليك أفكار غريبة حين تدرك أن لحظات قليلة فقط قد بقيت لك في هذه الحياة.

على الأقل، سيحلّ موته المشاكل بالنسبة إلى العديد من الأشخاص الذين أحبهم. فسوف تتحرر إياها من وعدّها بالتخلي عن كل الآخرين في ما تبقى من أيامها. ولن يضطر السير والتر إلى القلق بشأن مضاعفات وصية والده. ومع الوقت، سوف يرث جيل لقب العائلة وكل ممتلكات والده المادية. حتى إن هوغو بارينغتون قد ينجو الآن بعدما لم يعد مضطراً إلى إثبات أنه والد هاري. وحدها أمه الحبيبة...

فجأة، سمع دويّاً هائلاً، أعقبه انشطار سفينة ديفونيان إلى نصفين. وبعد ثوانٍ قليلة، تحرك القسمان المشطوران مثل حصان هائج قبل أن تغرق السفينة المحطمة في قعر المحيط.

راقب قبطان الغواصة الألمانية عبر منظاره اختفاء سفينة ديفونيان تحت الأمواج، تاركة وراءها ألف فستان قطني ملون، وعدداً كبيراً من الجثث المتحركة صعوداً ونزولاً في الماء، محاطة بالبباطا.

«ما اسمك؟». نظر هاري إلى الممرضة ولكنه لم يستطع تحريك شفثيه. سألته: «هل يمكنك سماعي؟». لكنت أميركية أخرى.

نجح هاري في الإيماء برأسه قليلاً فابتسمت. سمع باباً يُفْتَح، رغم أنه لم يستطع رؤية من دخل الغرفة، وعلى الفور تركته الممرضة. إذًا، لا بد أن من دخل شخص مسؤول. صحيح أنه لم يستطع رؤيتهما، ولكنه سمع ما كانا يقولانه. جعله ذلك يشعر وكأنه يسترق السمع.

قال صوت رجل كبير في السن: «مساء الخير أيتها الممرضة كرافن». أجابت: «مساء الخير دكتور والاس».

«كيف حال مريضينا؟».

«الأول يظهر علامات تحسن ملحوظة. أما الثاني فلا يزال فاقد الوعي».

قال هاري لنفسه: إذًا، لقد نجا اثنان منا على الأقل. أراد أن يصرخ ابتهاجاً، ولكن لم تصدر من فمه أي كلمات بالرغم من تحرك شفثيه. «أما زلنا نجهل هويتيهما؟».

«أجل. لكن القبطان باركر جاء باكراً اليوم للاطلاع على حالتيهما، وعندما أريته ما بقي من بذلتيهما، أدرك سريعاً أنهما مسؤولان».

خفق قلب هاري بقوة لمجرد التفكير في أن القبطان هيفنز ربما يكون قد نجا. سمع الطبيب يتوجه إلى السرير الآخر، ولكنه لم يستطع

أن يدير رأسه لمعرفة من يستلقي هناك. وبعد لحظات سمع: «المسكين، سأتفاجأ إذا بقي حياً هذه الليلة».

أراد هاري أن يقول له: إذاً، أنت لا تعرف القبطان هيفنز، لأنه لا يمكن قتله بهذه السهولة. ولكنه لم يتمكن من الكلام.

عاد الطبيب إلى سرير هاري وبدأ يفحصه، فاستطاع هاري رؤية رجل في خريف العمر، ذي ملامح جدية جداً. وبعد أن أنهى الدكتور والاس فحصه، استدار وهمس للمرضة: «أشعر بالكثير من التفاؤل حيال هذا الشخص؛ رغم أن احتمالات تعافيه لا تتعدى الخمسين في المئة بعد كل ما عاناه». ثم استدار لمواجهة هاري قائلاً له من دون أن يكثرث إذا كان المريض قد سمعه أم لا: «تابع الصمود أيها الشاب، وسنفعل كل ما بوسعنا لإبقائك على قيد الحياة». أراد هاري شكره، ولكن كل ما نجح في فعله هو الإيماء برأسه قليلاً قبل أن يبتعد الطبيب. وسمعه يهمس للمرضة: «إذا مات أي منهما خلال الليل، فأنت تعرفين الإجراءات الصحيحة، أليس كذلك؟».

«نعم، حضرة الطبيب. سيتم إبلاغ القبطان على الفور، وستنقل الجثة إلى موضع الجثث». أراد هاري السؤال عن عدد البحارة الموجودين هناك.

قال والاس: «وأود أيضاً أن يتم إبلاغي؛ حتى لو لم أكن هنا ليلاً». «طبعاً حضرة الطبيب. هل يمكنني أن أعرف ما الذي قرر القبطان فعله بأولئك المساكين الذين كانوا أصلاً أمواتاً عند إخراجهم من الماء؟». «أعطى الأمر بدفنهم في البحر جميعاً مع أول بزوغ لفجر الغد لأنهم بحارة».



«ولمَ سيتم الدفن في ذلك الوقت المبكر؟».

قال الطبيب فيما ابتعد قليلاً: «إنه لا يريد أن يدرك الركاب عدد الأشخاص الذين ماتوا في الليلة الماضية. طاب مساؤك حضرة الممرضة». فأجابت الممرضة: «طاب مساؤك حضرة الطبيب». ثم أغلق الباب. عادت الممرضة كرافن وجلست قرب سرير هاري، ثم قالت: «لا أكثرث للاحتتمالات، سوف تعيش».

نظر هاري إلى الممرضة المختبئة خلف بذلتها البيضاء وقبعتها البيضاء، وانتبه جيداً إلى العزم الكبير البادي في عينيها.

عندما استيقظ هاري لاحقاً، كانت الغرفة غارقة في ظلام حالك؛ باستثناء ضوء خفيف آتٍ من الزاوية البعيدة، من غرفة أخرى ربما. ففكر فوراً في القبطان هيفنز الذي يكافح للعيش في السرير المجاور. وتضرع إلى الله كي يعيش ويتمكنا من العودة إلى إنكلترا معاً؛ وحينها سيتقاعد القبطان، وسيسجل هاري اسمه في أية سفينة حربية ينصحه بها السير والتر.

عادت أفكاره إلى إيما مجدداً، وكيف أن موته يمكنه أن يحلّ العديد من مشاكل عائلة بارينغتون.

سمع هاري الباب يفتح مجدداً، وسمع صوت خطوات غير مألوفة تدخل الغرفة. صحيح أنه لم يستطع رؤية الشخص، ولكن صوت الخطوات أوحى بأمرين: إنه رجل، وهو يعرف تماماً إلى أين يتوجّه. ففتح باب آخر في الجهة البعيدة من الغرفة، فأصبح النور أكثر سطوعاً.

قال صوت رجل: «مرحباً كريستين».

فأجابت الممرضة ممازحة من دون أي غضب: «مرحباً ريتشارد. لقد تأخرت».

«عذراً حبيبتي. توجب على المسؤولين البقاء على منصة السفينة إلى حين التوقف أخيراً عن البحث عن ناجين».

أغلق الباب، فأصبح الضوء خافتاً مجدداً. لم يعرف هاري كم من الوقت قد مرّ قبل أن يُفتح الباب مجدداً- نصف ساعة أو ساعة كاملة ربما- ويسمع صوتيهما.

قالت الممرضة: «ربطة عنقك غير سوية».

فأجاب الرجل: «هذا ليس جيداً. فقد يكتشف أحدهم ما كنا نفعله». ضحكت فيما بدأ يمشي صوب الباب، ثم توقف فجأة: «من هذان الشخصان؟».

«السيد أ والسيد ب. إنهما الناجيان الوحيدان من عملية الإنقاذ التي تمت في الليلة الماضية».

أنا السيد هـ. أراد هاري أن يقول لها ذلك فيما مشيا متجهين إلى سريره. غير أنه أغمض عينيه لأنه لم يشأ أن يظن أنه كان يسترق السمع إلى حديثهما. تحسّست نبضه.

«أعتقد أن السيد ب يتحسن شيئاً فشيئاً. هل تعلم؟ لا أتحمل فكرة عدم إنقاذ واحد منهما على الأقل». ثم تركت هاري وتوجهت إلى السرير الآخر.

فتح هاري عينيه وأدار رأسه قليلاً، فرأى شاباً طويلاً يرتدي بذلة بيضاء أنيقة ذات كتفين ذهبيتين. ومن دون إنذار، بدأت الممرضة كرافن

تبكي بشدة، فوضع الرجل ذراعه برفق حول كتفها وحاول مواساتها. لا، لا، أراد هاري أن يصرخ. لا يمكن أن يموت القبطان هيفنز. سوف نعود إلى إنكلترا معاً.

سأل الشاب بصوت رسمي نوعاً ما: «ما هي الإجراءات المتبعة في مثل هذه الظروف؟».

«عليّ إبلاغ القبطان على الفور، ومن ثم إيقاظ الدكتور والاس. وبعد توقيع كل الأوراق والحصول على كل التراخيص، سيتم أخذ الجثة إلى قاعة الجثث وتحضيرها للدفن غداً».

لا، لا، لا، أراد هاري الصراخ، ولكن لم يسمعه أي منهما.

تابعت الممرضة كلامها: «أطلب من الله ألا تدخل أميركا في هذه الحرب».

فقال الشاب: «لن يحصل ذلك أبداً يا حبيبتي. فروزفلت جبان جداً، وسيمتنع عن الانضمام إلى حرب أوروبية أخرى».

ذكرته كريستين: «هذا ما قاله السياسيون في المرة الماضية أيضاً».

فجأة قال لها: «هاي، ما الذي يفعله هذا هنا؟». وبدا قلقاً.

فأجابت: «السيد أ في مثل عمرك تقريباً، وربما لديه خطيبة في

بلاد».

عندها، أدرك هاري أن الشخص الموجود على السرير المجاور ليس القبطان هيفنز وإنما توم برادشو. وعندئذ، حسم قراره.

عندما استيقظ هاري مجدداً، استطاع سماع أصوات صادرة من الغرفة المجاورة. وبعد لحظات، دخل الدكتور والاس والممرضة كرافن الغرفة.

قالت الممرضة: «لا بدّ أن الأمر كان محزناً جداً».

فاعترف الطبيب: «لم يكن الأمر ممتعاً قط. والأسوأ من ذلك أنهم دُفِنوا جميعاً مجهولِي الهوية؛ رغم أنني وافقت القبطان على أنها أفضل طريقة لدفن البحارة».

سألت الممرضة: «هل من أخبار عن السفينة الأخرى؟».

«نعم، الطاقم فيها أفضل حالاً منا بقليل. أحد عشر ميتاً، وإنما هناك ثلاثة ناجين: رجل صيني وإنكليزيان».

عندها، تساءل هاري عما إذا كان القبطان هيفنز أحد الرجلين الإنكليزيين الناجيين.

انحنى الطبيب وفك أزرار قميص هاري، ثم وضع سماعة طبية باردة على أنحاء متفرقة من صدره وأصغى السمع بدقة. بعد ذلك، وضعت الممرضة ميزان حرارة في فم هاري.

قالت الممرضة بعد أن تحققت من الزئبق: «لقد انخفضت حرارته يا حضرة الطبيب».

«ممتاز. يمكنك محاولة إعطائه بعض الحساء الخفيف».

«نعم طبعاً. هل تحتاج إلى مساعدتي مع أي من الركاب؟».

«لا، شكراً لك حضرة الممرضة. أهم شيء يمكنك فعله الآن هو التأكد من إنقاذ هذا الرجل. أراك بعد ساعات قليلة».

وبعد أن أغلق الباب، عادت الممرضة إلى سرير هاري، وجلست  
قربه مبتسمة، ثم سألته: «هل يمكنك رؤيتي؟». فأوماً هاري برأسه.  
«هل بإمكانك أن تخبرني عن اسمك؟».  
فأجاب: «توم برادشو».

قال الدكتور والاس بعد أن انتهى من فحص هاري: «توم، أتساءل عما إذا كان بوسعك إخباري عن اسم رفيقك الذي مات في الليلة الماضية. فأنا أودّ كتابة رسالة إلى أمه أو زوجته إذا كان متزوجاً».

عندها، قال هاري بصوت بالكاد مسموع: «اسمه هاري كليفتون. لم يكن متزوجاً، لكنني أعرف أمه جيداً، وأنوي الكتابة لها بنفسي».

فقال والاس: «هذا لطف منك، ولكنني أودّ إرسال رسالة إليها. هل تعرف عنوانها؟».

فأجاب هاري: «نعم، لكن من الأفضل أن تسمع الخبر مني أولاً، وليس من شخص غريب تماماً».

عندها، قال والاس بنبرة غير واثقة: «حسناً؛ إذا كان هذا رأيك».

فقال هاري بحزم أكبر هذه المرة: «نعم. يمكنك دوماً إرسال رسالتي عندما تصل السفينة كنساس إلى بريستول. هذا على افتراض أن القبطان لا يزال راجباً في العودة إلى إنكلترا بعد أن أصبحنا الآن في حرب مع ألمانيا».

قال والاس: «لسنا في حرب مع ألمانيا».

عندها، قال هاري مصححاً ومستدركاً خطأه على الفور: «لا، طبعاً لا. ولنأمل ألا يحصل ذلك أبداً».

قال والاس: «موافق. لكن هذا لن يمنع سفينة كنساس ستار من إتمام رحلة العودة. لا يزال مئات الأميركيين عالقين في إنكلترا، وما من طريقة أخرى ليعودوا إلى وطنهم».

فسأل هاري: «أليس في الأمر بعض المجازفة، وخصوصاً بعد ما شهدناه؟».

قال والاس: «لا، لا أعتقد ذلك. فأخر ما يريده الألمان هو إغراق سفينة ركاب أميركية؛ لأن ذلك سيجرّ البلاد إلى حرب أكبر حتماً. أقترح عليك النوم قليلاً يا توم؛ لأنني آمل أن تتمكن الممرضة من مرافقتك غداً في نزهة صغيرة على متن السفينة. جولة واحدة تكفي في البداية».

أغمض هاري عينيه، ولكنه لم يحاول النوم قط؛ إذ بدأ يفكر في القرار الذي اتخذه، وفي عدد الأشخاص الذين سيتأثرون به. فبانتحاله هوية توم برادشو، سيكون لديه مجال للتفكير في مستقبله. وحين يعلم السير والتر أن هاري كليفتون قد قتل في البحر، سيتحرر مع كل عائلة بارينغتون من أي واجبات كانت مترتبة عليهم، وستكون إهما حرة ببدء حياة جديدة. شعر أن العجوز جاك كان سيوافق على هذا القرار لو كان على قيد الحياة؛ بالرغم من المضاعفات الكاملة التي لم يستوعبها بعد.

إلا أن عودة توم برادشو إلى الحياة ستولد من دون شك مشاكلها الخاصة، لذا يجب عليه توخي الحذر باستمرار. والأسوأ من ذلك أنه لا يعرف أي شيء عن برادشو. ولذلك كلما سألته الممرضة كرافن عن ماضيه كان عليه اختلاق شيء ما أو تبديل الموضوع.

لقد أثبت برادشو قدرته على التهرب من كل الأسئلة التي لا يريد الإجابة عنها، كما كان منطوياً على نفسه بشكل جلي. لم تكن قدماه قد

وطئنا بلاده منذ ثلاثة أعوام، وربما أكثر. وبالتالي، لا يمكن أن تعلم عائلته بعودته الوشيكة. لذا، قرّر هاري أنه ما إن تصل سفينة كنساس ستار إلى نيويورك، حتى يبحر مجدداً إلى إنكلترا على متن أول سفينة متوافرة.

أما معضلته الكبرى فتمثلت في كيفية الحؤول دون خوض أمه معاناة غير ضرورية بسبب ظنها أنها فقدت ابنها الوحيد. وقد نجح الدكتور والاس نوعاً ما في حل هذه المشكلة تحديداً عندما وعد بإرسال رسالة إلى مايزي لحظة عودته مجدداً إلى إنكلترا. لكن، يجدر بهاري أن يكتب لها تلك الرسالة.

أمضى هاري ساعات عدة وهو يراجع النص في عقله، حيث يكون قد حفظ الكلمات عن ظهر قلب حين يأتي الوقت الذي يضطر فيه إلى تدوين أفكاره على الورق.

نيويورك

8 سبتمبر، 1939

أمي العزيزة،

لقد فعلت كل ما بوسعي للتأكد من أن تصلك هذه الرسالة قبل أن يخبرك أحد بأنني قتلت في البحر.

مثلما يظهر التاريخ في هذه الرسالة، أنا لم أمت قطّ عندما غرقت سفينة ديفونيان في البحر في الرابع من سبتمبر. إذ تم انتشالي من البحر بواسطة سفينة أميركية، ولا أزال على قيد الحياة. لكن أتيت لي فرصة انتحال هوية رجل آخر، وقد فعلت ذلك على أن أأمل أن يحركم ذلك- أنت وعائلة بارينغتون- من العديد من المشاكل التي سببتها عن غير قصد على مرّ الأعوام.



من المهم أن تدركي أن حبي لإيما لم يتضاءل قط، بل على العكس.  
لكنني لا أشعر بأنني أملك الحق بأن أتوقع منها أن تمضي بقية حياتها  
متشبهة بأمل أن أتمكن في مرحلة ما من المستقبل من الإثبات لها أن آرثر  
كليفتون وليس هوغو بارينغتون كان والدي. وبهذه الطريقة، إنها  
تستطيع على الأقل التفكير في مستقبلها مع شخص آخر. وأنا أحسد ذلك  
الرجل.

أنوي العودة إلى إنكلترا في القريب العاجل. إذا وصلتك أية رسالة  
من توم برادشو، فستكون تلك الرسالة مني.  
سأتصل بك لحظة تطأ قدمي إنكلترا. ولكن في غضون ذلك، أطلب  
منك إبقاء سري دفيناً مثلما أبقيت سرك دفيناً لأعوام طويلة.  
ابنك الحبيب

هاري

قرأ هاري الرسالة مرات عديدة قبل أن يضعها في مغلف كتب عليه  
«خاص وسري». ثم كتب على العنوان: السيد آرثر كليفتون، 27 شارع  
ستيل هاوس لاين، بريستول.

وفي صباح اليوم التالي، سلّم الرسالة إلى الدكتور والاس.  
سألته كريستين: «هل تعتقد أنك مستعد للقيام بنزهة صغيرة في  
أرجاء السفينة؟».

فأجاب هاري: «طبعاً». مستعملاً إحدى الكلمات التي سمع صديقها يستخدمها، ولكنه رأى أنه من غير الملائم إضافة كلمة «حبيبتى».

خلال تلك الساعات الطويلة التي أمضاها في السرير، أصغى هاري ملياً إلى الدكتور والاس. وكلما كان وحيداً، حاول تقليد لكنته التي سمع كريستين تقول لريتشارد إنها من الساحل الشرقي. شعر هاري بالامتنان للساعات الطويلة التي أمضاها مع الدكتور باجيه في تعلم المهارات الصوتية التي افترض أنه لن يستخدمها إلا في التمثيل. فها هو الآن يمثل. لكن، ما زال عليه التخلص من فضول كريستين البريء لمعرفة طفولته وتاريخ عائلته.

ساعدته رواية للكاتب هوراسيو ألجير وأخرى للكاتب ثورنتون وايلدر- وهما الكتابان الوحيدان اللذان بقيا في الغرفة- على تخيل عائلة وهمية متحدرة من بريدجورت، كونيكتيكوت. العائلة مؤلفة من والد يعمل مديراً لمصرف «كونيكتيكوت تراست أند سايفينغس» في بلدة صغيرة، وأم اكتفت بأن تكون سيدة منزل مخلصه وحلت ذات مرة في المرتبة الثانية في مسابقة الجمال السنوية التي تنظمها البلدة، وأخت أكبر منه، سالي، متزوجة من جاك الذي يدير متجر الخردوات المحلي. ابتسم لنفسه حين تذكر ملاحظة الدكتور باجيه وقوله له إنه قد يصبح كاتباً وليس ممثلاً بفضل مخيلته الخصبة.

وضع هاري قدميه على الأرض بتردد، وبمساعدة من كريستين وقف ببطء. وبعد أن وضع على نفسه رداء، أمسك بذراعها، وشق طريقه باضطراب صوب الباب؛ صعوداً على مجموعة من الدرجات ووصولاً إلى منصة السفينة.

سألت كريستين فيما بدأ يتنزهان ببطء في أرجاء السفينة: «كم مضى على غيابك عن المنزل؟».

حاول هاري دوماً الالتزام بالمعلومات القليلة التي يعرفها عن برادشو، مع إضافة بعض التفاصيل من حياة عائلته الوهمية، فقال: «ثلاثة أعوام تقريباً. لا تتذمر عائلتي أبداً؛ لأن الجميع يعرفون أنني أردت الذهاب إلى البحر منذ أن كنت صغيراً في السن».

«لكن، لماذا كنت تخدم على سفينة بريطانية؟».

يا لهذا السؤال اللعين! قال هاري لنفسه. وتمنى فقط لو أنه كان يعرف الجواب. اضطرب في مشيئه لمنح نفسه المزيد من الوقت للتوصل إلى جواب مقنع، فانحنت كريستين لمساعدته.

قال بعد أن أمسك بذراع كريستين مجدداً: «أنا بخير». ثم بدأ يعطس بشكل متكرر.

فاقترحت كريستين: «حان الوقت ربما لإعادتك إلى الغرفة. إذ لا يمكننا تحمّل تعرضك للزكام. يمكننا المحاولة غداً».

قال هاري: «مثلما تريدان». وشعر بالامتنان لأنها لم تطرح المزيد من الأسئلة.

وبعد أن وضعتة في السرير مثل الأم التي تضع طفلها في مهده، خلد بسرعة إلى نوم عميق.

نجح هاري في القيام بإحدى عشرة نزهة حول منصة السفينة قبل يوم من وصول سفينة كنساس ستار إلى مرفأ نيويورك. صحيح أنه لا

يستطيع الاعتراف بالأمر أمام أي كان، ولكنه شعر بالحماسة لرؤية أميركا للمرة الأولى.

سألته كريستين خلال نزهته الأخيرة: «هل ستذهب إلى بريدج بورت مباشرة بعد وصولنا؟ أم تنوي البقاء في نيويورك؟».

فأجاب هاري: «لم أفكر في الأمر كثيراً. أفترض أن كل شيء مرتبط بموعد وصولنا». فيما حاول استباق سؤالها التالي.

«أريد أن أقول لك إنك إذا كنت تحب قضاء الليلة في شقة ريتشارد في إيست سايد فسيكون ذلك رائعاً».

«أوه، لا أريد أن أسبب له أي مشاكل».

عندها، ضحكت كريستين قائلة: «هل تعرف يا توم؟ تبدو أحياناً إنكليزياً أكثر من كونك أميركياً».

«أعتقد أنه بعد كل تلك الأعوام التي أمضيتها في الخدمة على السفن البريطانية، يصبح المرء معتاداً على أسلوبهم».

«ألهذا السبب أيضاً عجزت عن مشاركتنا مشاكلك؟». توقف هاري فجأة؛ إذ لن يجدي الوقوع أو العطاس نفعاً في إنقاذه هذه المرة، فيما تابعت: «لو كنت أكثر صراحة معنا منذ البداية لفرحنا في حل المشكلة. لكن نظراً للظروف، لا نملك أي خيار سوى إبلاغ القبطان باركر ليقرر بنفسه ما يجب فعله».

انهار هاري على أقرب كرسي، لكن كريستين لم تحاول إنقاذه قط، وعرف أنه انهزم هذه المرة.

قال لها: «الأمر أكثر تعقيداً مما تتصورين. لكنني أستطيع أن أشرح لك سبب عدم رغبتني في إخبار الآخرين».

قالت كريستين: «لا داعي لذلك، لقد أنقذنا القبطان أصلاً. لكنه يريد سؤالك عن تصوّر لك حل المشكلة الكبرى».

عندها، أخفض هاري رأسه وقال: «أنا مستعد للإجابة عن كل الأسئلة التي يريد القبطان طرحها». وشعر بالقليل من الارتياح نوعاً ما لأنه تم فضح أمره.

«تماماً مثلنا جميعاً؛ أراد أن يعرف كيف ستنزل عن السفينة فيما أنت لا تملك أي ملابس أو أي فلس معك؟».

فابتسم هاري قائلاً: «اعتقدت أن أهل نيويورك قد يعتبرون الزي الخاص بسفينة كنساس ستار أنيقاً جداً».

قالت كريستين: «بصراحة، لن يلاحظ العديد من النيويوركيين إذا مشيت في جادة فيفث أفنيو وأنت ترتدي هذا الزي. وأولئك الذين سيلاحظون ذلك قد يعتقدون أنك تتبع أحدث «موضة». لكن، في حال لم يحصل ذلك، أحضر لك ريتشارد قميصين أبيضين وسترة رياضية. المؤسف أنه أطول منك بكثير، وإلا كان سيعطيك سروالاً أيضاً. يستطيع الدكتور والاس منحك حذاء بنياً وزوجاً من الجوارب وربطة عنق. وهكذا، ستبقى لدينا مشكلة السروال، لكن القبطان يملك سروال برمودا قصيراً لم يعد يناسبه». انفجر هاري ضاحكاً فيما تابعت: «نأمل ألا تشعر بالإهانة يا توم، لكننا جمعنا لك أيضاً بعض المال من أفراد الطاقم». وأعطته مغلفاً سميكاً. «أعتقد أنك ستجد هنا مالاً كافياً يسمح لك بالوصول إلى كونيكتيكوت».

قال هاري: «كيف أبدأ بشكركم؟».

«لا داعي للشكر يا توم. نحن مسرورون جداً لأنك نجوت. أتمنى فقط لو أننا استطعنا إنقاذ صديقك هاري كليفتون أيضاً. ستفرح حين تعرف أن القبطان باركر طلب من الدكتور والاس تسليم الرسالة إلى أمه شخصياً».

كان هاري من أوائل الأشخاص الذين صعدوا إلى أعلى السفينة في ذلك الصباح؛ قبل ساعتين من الموعد المفترض لوصول كنساس ستار إلى مرفأ نيويورك. مرّت أربعون دقيقة إضافية قبل أن تشرق الشمس، وكان هذا الوقت كافياً ليعرف بالضبط كيف سيمضي أول يوم له في أميركا. ودّع الدكتور والاس بعد أن حاول شكره على كل ما فعله. فطمأنه والاس إلى أنه سيوصل الرسالة إلى السيدة كليفتون ما إن يصل إلى بريستول، وقبل على مضمض ألا يزورها شخصياً بعدما ألمح له هاري بأنها تعاني من انهيار عصبي.

تأثر هاري عندما جاء القبطان باركر إلى غرفته لإعطائه سروال البرمودا القصير وليتمنى له التوفيق. وعندما عاد إلى منصة السفينة، قالت له كريستين بصرامة: «حان الوقت لتخلد إلى السرير يا توم. ستحتاج إلى الكثير من القوة إذا كنت تريد السفر إلى كونيكتيكوت غداً». كان توم برادشو سيحب حتماً قضاء يوم أو يومين مع ريتشارد وكريستين في مانهاتن، لكن هاري كليفتون لا يستطيع تبديد الوقت بعد أن أعلنت بريطانيا الآن الحرب على ألمانيا.

تابعت كريستين كلامها قائلة: «عندما تستيقظ في الصباح، حاول الصعود إلى منصة الركاب قبل شروق الشمس حيث تتمكن من رؤية الشروق أثناء دخولنا نيويورك. أعرف أنك رأيت ذلك مرات عديدة يا توم، لكن الأمر يبعث في الحماسة على الدوام».

فقال هاري: «وأنا أيضاً».

تابعت كريستين كلامها: «حين نصل، لم لا تنتظرنا أنا وريتشارد كي نذهب معاً؟».

ارتدى هاري سترة ريتشارد الرياضية وقميصه الكبيرين عليه نوعاً ما، وسروال البرمودا القصير الخاص بالقبطان الطويل نوعاً ما، وانتعل حذاء الطبيب، وارتدى جوربيه الضيقين نوعاً ما. كان يتحرق شوقاً للنزول إلى أرض اليابسة.

أبرق ضابط في السفينة إلى قسم الهجرة في نيويورك لإبلاغهم بأن معهم راكباً إضافياً على متن السفينة، وأنه مواطن أميركي يدعى توم برادشو. فأبرق قسم الهجرة للسفينة مجدداً قائلاً إنه يجدر بالسيد برادشو التعريف عن نفسه أمام مسؤولي الهجرة الذين سيتولون أمره من هناك.

وبعد أن أوصله ريتشارد إلى محطة غراند سنترال، أراد هاري التجول في المحطة لبعض الوقت قبل أن يعود مجدداً إلى الأحواض، حيث ينوي التوجه إلى مكتب العمال لمعرفة السفن المتوجهة إلى إنكلترا. لا يهم المرفأ الذي ستتوجه إليه السفن؛ شرط ألا يكون بريستول.

وبعد اختياره السفينة الملائمة، سيتقدم لأي وظيفة متوافرة. لا يهمه إذا عمل على المنصة، أو في غرفة المحركات، أو نظف أرض السفينة، أو قشر البطاطا طالما أنه عائد إلى إنكلترا. وإذا تبين عدم توافر أي وظائف، فسيحجز في أرخص حجرة ممكنة. لقد تحقق مسبقاً من محتويات المغلف الأبيض السميك الذي أعطته إياه كريستين، ووجد أن فيه مالاً



يكفي لاستئجار حجرة لا يمكن أن تكون أصغر من تلك التي نام فيها على متن سفينة ديفونيان.

حزن هاري عندما فكر أنه حين يعود إلى إنكلترا، لن يتمكن من الاتصال بأي من أصدقائه القدامى، وعليه توخي الحذر أثناء تواصله مع أمه. لكن لحظة يصل إلى اليايسة، فإن هدفه الوحيد سيكون الانضمام إلى إحدى السفن الحربية، والتطوع في الحرب ضد أعداء الملك؛ رغم علمه بأنه حين تعود تلك السفينة إلى المرفأ، فعليه البقاء على متنها مثل مجرم فارّ من وجه العدالة.

جاءت سيدة لتقاطع أفكار هاري. حدّق بإعجاب إلى تمثال الحرية الذي يلوح أمامه وسط الضباب الصباحي. سبق له أن رأى صوراً لذلك المعلم الرمزي، ولكنه لم يدرك قط ضخامة حجمه وهو شامخ فوق سفينة كنساس ستار، مرحباً بالزوار والمهاجرين ومواطني الولايات المتحدة.

وفيما تابعت السفينة طريقها إلى المرفأ، انحنى هاري فوق الدرابزين، ونظر صوب مانهاتن، وخاب أمله لأن ناطحات السحاب لم تكن تبدو أطول من بعض المباني التي يذكرها في بريستول. لكن مع مرور كل دقيقة، كبرت تلك الناطحات أكثر فأكثر، إلى أن بدت وكأنها تعانق السماء، حيث توجب عليه حماية عينيه من الشمس أثناء تحديقه إليها.

جاء قارب سحب تابع لمرفأ نيويورك للانضمام إلى سفينة كنساس ستار ومرافقتها إلى مكانها في الحوض السابع. وعندما رأى هاري الحشود الهاتفة، بدأ يشعر بالقلق للمرة الأولى؛ رغم أن الرجل الشاب الواصل إلى

نيويورك هذا الصباح بات حتماً أكثر نضوجاً من الربان الرابع الذي ترك بريستول قبل ثلاثة أسابيع فقط.

«ابتسم يا توم».

استدار هاري فرأى ريتشارد ينظر من خلف كاميرا كوداك بنية اللون. ثم حدق إلى صورة لتوم مقلوبة رأساً على عقب، تظهر سماء مانهاتن في خلفيتها.

قالت كريستين: «ستكون راكباً لن أنساه بسرعة حتماً». فيما انضمت إليه كي يلتقط ريتشارد صورة فوتوغرافية لهما معاً. كانت قد استبدلت بذلة الممرضة البيضاء بفستان منقط مع حزام أبيض وحذاء أبيض.

قال هاري على أمل ألا يلاحظ أي منهما مدى توتره: «ولا أنا أيضاً».

قال ريتشارد: «حان الوقت لننزل إلى اليابسة». ثم أغلق غطاء الكاميرا.

نزل الثلاثة على السلم العريض المؤدي إلى الطابق السفلي من السفينة، حيث بدأ عدد من الركاب بالخروج من السفينة لملاقاة أقربائهم وأصدقائهم القلقين. وفيما شقوا طريقهم على السلم الخشبي، ارتفعت معنويات هاري عند ملاحظته العدد الكبير لركاب السفينة وطاقمها الذين رغبوا في مصافحته وتمني التوفيق له.

عند وصولهم إلى أرض الرصيف، توجه هاري وريتشارد وكريستين صوب مكتب الهجرة، حيث وقفوا في أحد الأرتال الأربعة الطويلة. نظرت عينا هاري إلى كل اتجاه، وأراد طرح العديد من الأسئلة، لكن طرحة أياً منها سيكشف عن حقيقة وصوله إلى أميركا للمرة الأولى.

أول ما لفته هو الخليط الكبير من الألوان المختلفة التي يتألف منها الشعب الأمريكي. رأى رجلاً أسود واحداً فقط في بريستول، وتذكر أنه توقف للتحديق إليه. كان العجوز جاك قد أخبره سابقاً أن هذا التصرف فظ وغير مهذب، وقال له: «كيف ستشعر لو توقف الجميع للتحديق إليك لأنك أبيض البشرة؟». لكن الضجيج والجلبة والسرعة الكبيرة لكل شيء محيط به سيطرت على مخيلة هاري، وجعلت بريستول تبدو وكأنها من عصر حجري قديم.

بدأ يتمنى لو أنه قبل دعوة ريتشارد للبقاء معه هذه الليلة، وربما لقضاء بضعة أيام في مدينة يجدها الآن مثيرة جداً، وذلك قبل أن يغادر إلى حوض السفن فيها.

قال ريتشارد حين وصلوا إلى مقدمة الرتل: «لماذا لا أعبّر أنا أولاً؟ وحينها أستطيع إحضار سيارتي وانتظاركما في الخارج».

فقالت كريستين: «فكرة جيدة».

صرخ موظف الهجرة: «التالي».

تقدم ريتشارد صوب المكتب، وسلّم جواز سفره إلى الموظف الذي نظر بسرعة إلى الصورة الفوتوغرافية قبل أن يدمغ جواز السفر قائلاً له: «أهلاً بك في وطنك حضرة الملازم تيب».

«التالي!».

تقدم هاري إلى الأمام، مدركاً تماماً أنه لا يملك جواز سفر ولا هوية، وإنما اسم شخص آخر.

قال بثقة لم يشعر بها: «اسمي توم برادشو. أعتقد أن ضابط المراسلة على متن سفينة كنساس ستار قد أبرق مسبقاً لإنذاركم بأنني سأكون على متن السفينة».

عندها، نظر الموظف إلى هاري عن كثب، ثم رفع ورقة وبدأ يتأمل لائحة طويلة من الأسماء. وأخيراً، وضع خطأ صغيراً قرب أحد الأسماء، قبل أن يستدير ويومئ برأسه. وللمرة الأولى، لاحظ هاري رجلين واقفين في الجانب الآخر. كانا يرتديان سترتين رماديتين متماثلتين ويعتمران قبعتين رماديتين. ووجه إليه أحدهما ابتسامة.

ختم موظف دائرة الهجرة ورقة وأعطها إلى هاري قائلاً له: «أهلاً بك يا سيد برادشو. مضى وقت طويل جداً».

فقال هاري: «نعم».

«التالي!».

عندها، قال هاري مخاطباً كريستين التي جاء دورها: «سأنتظرك».  
فوعده: «لن أتأخر أبداً».

اجتاز هاري الحاجز، ودخل الولايات المتحدة الأميركية للمرة الأولى. عندها، تقدّم منه الرجلان صاحباً البذلتين الرماديتين، وقال أحدهما: «صباح الخير يا سيدي. هل أنت السيد توماس برادشو؟».

فأجاب هاري: «نعم، صحيح».

وما كادت هاتان الكلمتان تخرجان من فمه حتى قام الرجل الآخر بالإمساك به وتثبيت ذراعيه خلف ظهره، فيما كبّله الرجل الأول

بالأغلال. حصل كل شيء بسرعة كبيرة لدرجة أن هاري لم يملك حتى الوقت للاحتجاج.

بقي هادئاً في الخارج، فيما فكر في احتمال أن يكون أحدهم قد اكتشف أنه ليس توم برادشو، وإنما هو رجل إنكليزي يدعى هاري كليفتون. وفي هذه الحالة، افترض أن أسوأ ما يمكنهم فعله هو أمره بالعودة، وترحيله إلى بريطانيا مجدداً. وهذا ما ينوي بالضبط القيام به على أية حال، ولذلك لم يعترض البتة.

لمح هاري سيارتين تنتظران قرب الرصيف. كانت السيارة الأولى سيارة شرطة سوداء اللون، وبابها الخلفي مفتوح من قبل رجل آخر عابس يرتدي بذلة رمادية. أما السيارة الثانية فكانت سيارة رياضية حمراء اللون، يجلس ريتشارد وراء مقودها مبتسماً.

ما إن رأى ريتشارد أن توم مكبل بالأغلال ويتم سوقه بعيداً حتى خرج من السيارة وبدأ يركض صوبه. وفي الوقت نفسه، بدأ أحد رجال الشرطة يقرأ على السيد برادشو حقوقه، فيما استمر الشرطي الآخر بالإمساك بهاري بقوة من المرفق. «لديك الحق في البقاء صامتاً. وأي شيء تقوله يمكن استعماله ضدك في المحكمة. لديك الحق في اللجوء إلى محامٍ».

بعد قليل، كان ريتشارد واقفاً قريبهما، ونظر إلى الشرطيين بغضب وقال: «ماذا تفعلان؟!».

غير أن الشرطي الأول تابع كلامه قائلاً: «إذا كنت عاجزاً عن توكيل محامٍ، فسيتم تعيين واحد من أجلك». فيما تجاهله الشرطي الآخر.

ذهل ريتشارد من الهدوء الشديد الذي تحلى به توم، كما لو أنه غير متفاجئ بأنه تم اعتقاله. ولكنه بقي مصمماً على فعل كل ما بوسعه لمساعدة صديقه؛ فقفز إلى الأمام، وعرقل طريق الشرطين قائلاً: «ما هي تهمة السيد برادشو أيها الشرطي؟».

عندها، توقف الشرطي فجأة، ونظر إلى ريتشارد مباشرة وقال: «قتل من الدرجة الأولى».

# مكتبة الكندل العربية

## مكتبة الرمحي أحمد